

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

INTERNATIONAL
AFFAIRS
LIBRARY

هذا
الوطن العربي

دراسات في المجتمع العربي

رصيدك وتجليك

انور العفّاق

الاستاذ المحاضر في كليتي الزراعة والعيادة
بجامعة حلب

بشر وسويح
مكتبة الشرق بحلب
عند الاستاذ عفيف

هذا الوطن العربي

دراسات في المجتمع العربي

رصيدك وتحليلك وتعليقك

أفور العقّار

الأستاذ المحاضر في كليتي الزراعة والحجارة

بجامعة حلب

مكتبة الشرق

عبد السميع عفش

حلب - بناية القديس

ص.ب ٤١٥ . هاتف ١٣٧٧٣

Int. Aff.

HN

766

.Abb

المُتَمِّمَاتُ

هذا الكتاب وضع اصلاً بالاشتراك مع الزميل الاستاذ سهيل عثمان على عجلة من الزمن باسم الطاقة العربية، الا انه احتاج بعد مرور اكثر من ثلاث سنوات الى تعديلات جوهرية دخلت في اغلب فصوله كما احتاج الى الغاء بعضها الآخر والاستعاضة عنها بالجديد من المواضيع .

وقد اطلقنا على هذا المؤلف الجديد الذي انفردنا بتعديله بمد موافقة الزميل ، اسم « هذا الوطن العربي » ، الذي نؤمن بوحدته وحرية ونزوعه الى الخير والعدل ورسالته الانسانية .

والكتاب يعرض بعض مشاكل الوطن العربي ويحاول ان يتلمس لها الحلول بعد معرفة اسبابها وتعليلها ، وموقف العرب من الوحدة والحرية والاشتراكية وغيرها من المواضيع المطروحة على البحث في جيلنا المعاصر .

واننا اذ نعترف بأننا استقيننا من النبايع المختلفة قبل ان نشكل جدولنا هذا ، لا بد من ان نشكر كل من اسهم في اخراج هذا الكتاب بقليل او كثير .

المؤلف

١٩٦٣/٢/١١

11532 H

12-14-72

H3

تذکرہ

ایک مرتبہ ایک کاتب نے ایک خط لکھا جس میں مذکورہ الفاظ
میں سے کچھ لکھا گیا تھا اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں

میں سے کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں

ایک مرتبہ ایک کاتب نے ایک خط لکھا جس میں مذکورہ الفاظ
میں سے کچھ لکھا گیا تھا اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں

میں سے کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں
کچھ لکھا گیا ہے اور اس کا جواب دیا گیا کہ اس خط میں

البيد للذوق

مقدمة عامة

- أولاً - معنى المجتمع العربي وماهيته .
- ثانياً - عناصر المجتمع العربي .
- ثالثاً - خصائص المجتمع العربي .

أولاً - معنى المجتمع العربي وماهيته

نعرف المجتمع العربي بأنه منظومة متفاعلة من القوى الطبيعية والبشرية ربطت أجزاءها علاقات عائلية وسياسية واقتصادية وانتشرت فيها مفاهيم عقلية واخلاقية وفنية معينة ، وتقوم هذه المنظومة على أرض محدودة معلومة تدعى الوطن العربي وينتسب سكانها اجتماعياً الى الأمة العربية .

ولنوضح ماهية المجتمع العربي نلاحظ النقاط الآتية من التعريف :

أولاً - إننا دعونا المجتمع العربي بالمنظومة المتفاعلة لأننا ندرك تماماً تعلق العناصر جميعاً بعضها ببعض الآخر ، واعتماد كل منها على الأخرى ، فلا يمكن أن تتطور السياسة العربية بمنزل عن الاخلاق والاقتصاد العربيين ، كما أن القوى الطبيعية تؤثر على القوى البشرية وتتأثر بها . فالمجتمع الواحد كائن عضوي متآخذ مترابط .

ثانياً - ان المجتمع يضم علاقات تنشأ بين أفراده أو بين مؤسساته ، وهذه العلاقات قد تتخذ شكل أنظمة كأصاليب الانتاج والسلوك العائلي ، وربما سجلت الانظمة من قبل المشرعين ، فأصبحت قوانين ، وربما بقيت تقاليد غير مكتوبة والأمران لا يغيران من طبيعتها الجوهرية .

ثالثاً - لقد حددنا المجتمع العربي وفرقناه عما يجاوره من المجتمعات الأخرى بالأرض والسكان ، فنحن لا نستطيع أن نكتفي بالأرض وحدها

فقد يحمل المغتربون معهم الى بلاد الهجرة تقاليد مجتمعاتهم وقيمته وانظامته
ويظلون منطلعين الى بلادهم وان بعدوا عنها .

فالسكان أو البشر أو الشعب عنصر أساسي في تعريف المجتمعات
المشابهة للمجتمع العربي .

رابعاً - لقد نمطنا أفراد المجتمع العربي بأنهم منتسبون اجتماعياً الى
الأمة العربية ، ونحن نلح على الانتساب الاجتماعي لأن الأمة العربية لا تقوم
على أساس عرقي عنصري بل على أساس اجتماعية كاللغة والتاريخ والتفاعل مع
الأرض العربية مما سنراه في موضعه .

ثانياً - عناصر المجتمع العربي

يضم المجتمع العربي الكبير أفراداً عديدين يسكنون على أرض معينة تربطهم أنظمة وعلاقات مشتركة وتسودهم مفاهيم فكرية وفنية واخلاقية تنشأ عنها مظاهر حضارية خاصة .

واليسم تفصيل هذه العناصر :

أولاً : العنصر الاول من عناصر المجتمع العربي هم الناس الذين يقيمون على أرضه ويتمايشون فيه ، وهم ذوو عدد محدود يختلف حسب الأزمنة ويتوالدون ويتوفون بنسب تمكن معرفتها ، كما أنهم قد يتكاثفون في بعض الأجزاء أكثر من الأجزاء الأخرى ، وربما هاجر قسم منهم أو وفد عليهم مهاجرون من المجتمعات الأجنبية .

فمعرفة السكان من سائر النواحي الديموغرافية أساسية في فهم المجتمع العربي .

ثانياً - والعنصر الثاني هو الأرض العربية - إذ أن مساحتها وأنهاها وأمطارها وما تطل عليه من بحار وما يرتفع فوقها من جبال وما ينخفض من وديان وما تضم من صحارى وسهول وسهوب ، وما تحبىء في جوفها من معادن وكنوز ، كل هذه الامور تؤثر تأثيراً بالغ

الاهمية على المجتمع العربي وتطبعه بميزات خاصة ، تجعل وحدته امرأ ضرورياً .

ثالثاً - أما العنصر الثالث فهو الانظمة التي تتخذها العلاقات الناشئة بين اجزاء المجتمع ، فلا أسرة العربية انظمتها ، كذلك الاقتصاد والسياسة ، فانها يسيران في بلادنا العربية وفق قواعد رسمت خلال التاريخ العربي الطويل .

وإذا اضطررنا الآن الى سرد اهم الانظمة سردياً سريعاً كأن نقول نظام الاسرة ونظام السياسة ونظام الاقتصاد فلا شك أن القارئ يدرك سلفاً سعة هذه العبارات وما تنطوي عليه من نواح متعددة وما ينشأ عنها من مناقشات تستهدف انتقاء الأفضل للمجتمع العربي في سائر الميادين .

رابعاً - والعنصر الرابع هو المفاهيم العقلية والاخلاقية والفنية التي تشكل جزءاً حيوياً من المجتمع العربي ، فمستواه الثقافي وأهم العلوم التي تمكن منها في الماضي وآماله العلمية للمستقبل وما يحتاج اليه من اوجه المعرفة البشرية ثم القيم الاخلاقية التي يعتمد عليها اكثر من سواها في العلاقات بين الناس ونظراته الى الفضائل والذائل والخير والشر ، واديانه التي تعالج مصير الوجود الانساني كله ، ثم ذوقه المتجلي في الفنون الشعرية والنثرية والاغاني الشعبية والتطورة ، والاثياب وطرز البناء ، اي رأيه في الجمال والقبح والمستساغ وغير المستساغ ، كلها أمور تساهم بنصيب وافٍ في تحديد معالم المجتمع العربي .

ثالثاً - خصائص المجتمع العربي

يتصف المجتمع العربي بخصائص جوهرية تتجلى في سائر بقاعه وعلى مدى تاريخه .

وإذا كانت الدراسات حول هذه الخصائص ما زالت محدودة ، لقرب عهدنا بالوعي القومي الحديث ، فإننا سنساهم فيها ، عسى أن نضيف الى الجهود الفكرية المبذولة في هذا السبيل جهداً متواضعاً يستهدف الحث على دراسة هذه المسألة وبجتها بحثاً وافياً .

وخصائص المجتمع العربي كما نراها هي :

اولاً - إنه مجتمع قومي - فنحن لم نطلق على العرب اسم مجتمع لانهم طبقة اقتصادية محدودة ، إذ أن المجتمع العربي شامل للطبقات ، فهو أوسع منها ، وإن تستطيع طبقة واحدة منه كالأغنياء مثلاً أن تزعم أنها تمثل المجتمع العربي ، فالمجتمع العربي أرحب منها بكثير ، وكذلك الأمر مع المتعلمين وغير المتعلمين . ثم إنه ليس مجتمع قارة أو منطقة جغرافية أخذت بحض الصدف كاللجتماع الاوروي او الاسبوي أو الافريقي أو مجتمع البحر الابيض المتوسط ، أو وادي النيل أو العاصي ، وإنما هو مجتمع تحددت معالمه بوجود الأمة العربية ، وقد يضم وادي النيل والعاصي وقسماً من سواحل المتوسط ، ولكنه لا ينحل إلى واحد منها ، وهو ليس مجتمعاً اقليمياً محلياً كالمجتمع العراقي أو السوري أو المصري بل هو منظومة كبيرة مترابطة لا يستطيع أي قطر من أقطاره أن يدعي التفرد

بجمل خصائصه وتمثيل صفاته ، فمن أراد المجتمع العربي فليطلبه في سائر بقاع الارض العربية الواسعة وعند جميع سكانها من بدو وحضر ومعلمين وأمين وعمال وطلاب وفلاحين وعراقين ولبنانيين ونجديين . . .

وهذه الصفة الجوهرية للمجتمع العربي بدت بشكل عفوي منذ أقدم العصور ، فقد كان العربي في العهود القديمة وقبل أن يتبلور مفهوم القوميات ، يشعر بعروته ويفتخر بها ، كان العربي البدوي يتحسس عروته المشابهة لعروبة سكان المدن العربية وابن قبيلة تميم يجتمع مع سليل ذبيان في سوق عكاظ وحول الحرم ، والوثني يدرك أنه عربي كالأقبائل التي دخلت المسيحية ، وهذا ما جرى أيضاً بعد الثورة العربية الاسلامية .

ثانياً - إنه مجتمع تاريخي :

فهو ليس وليد سنوات قليلة ولم يكتسب مفاهيمه وتقاليده وذوقه بمحض الصدفة او بشكل مرتجل ، وإنما هو قديم ، قديم حتى ما يكاد المؤرخون يتبينون الزمن الدقيق لنشوئه ، ولذلك يعتبر من المجتمعات العريقة الضاربة في القدم ، بل يُذكر اسمه كلما ذكر اسم الفراعنة واليونان والحثيين والآشوريين وما يزال يذكر اسمه الى جانب الفرنسيين والانكليز والالمان والصينيين واليابانيين . . .

إنه تمتد على احقاب طويلة وهذا الامتداد البعيد في الزمان يُكسبه ميزات خاصة ، إذ يجعله صاحب تراث في سائر النواحي ، ويجعل تطوره ملازماً بالاعتماد على قواعد تاريخية ، فما دام شعره قديماً لا تستطيع الحركات المجددة في الشعر أن تكتسب الذوق العربي ما لم تعرف كيف تتطور ابتداءً من التراث الشعري الغني للعرب وما دامت انظمة الأسرة فيه عريقة لا تقدر الانظمة الحديثة ان تتجاهل أبداً القوة التي تتمتع بها

الاسرة العربية كما تمحض عنها التاريخ . وهكذا في سائر الميادين .

ثالثاً - هو مجتمع أصيل :

أي أنه لا يقبل التقليد الاعمى اسواه ، وهذه خاصة بديهية للمجتمعات التاريخية العريقة ، فهو قد اعتاد أن ينشئ انظمته ومفاهيمه وقيمه انشاء ، ويفضل أن يقدم لسواه انظمة وحضارة من عنده على أن يأخذ عنها بشكل حرفي ، وحين تملي عليه ضرورات التفاعل الانساني أن يستمد من سواه فهو يتمثل ما يأخذ ويصغح الاجنبي بصفتة الخاصة المميزة . لقد نبغ المجتمع العربي فنشر الدين الاسلامي وأفاد به شعوباً عديدة على مر السنين ، ونبغ فأنتج شعره المميز وعلومه التي ساعدت البشرية كافة على التقدم وحين استمد من الحضارة اليونانية جوانب من ثقافتها أضفى على هذه الجوانب طابعه ومزجها بقيمه وتفكيره الاخلاقي والديني والعقلي ، وحين جاهته الحضارة الاوروبية المعاصرة بملها الغزير وصناعتها المتفوقة لم يرض على فقره وقرب عهده بالهوض أن يكون ناسخاً عنها مصعوقاً أمامها ، وما زال يطمح في أن ينبع من ذاته وما زال يتمثل كل ما يأتيه .

رابعاً - هو مجتمع حي :

والمجتمع العربي يصمد امام عوادي الدهر ويحافظ على وجوده ضد النكبات والكوارث ولولا صفة الحياة هذه لما بقي حتى الآن ، إن مجتمعات عديدة ظهرت وعاشت مدة من الزمن ثم مضت كما تنطفئ النجوم ، أما مجتمع العرب فقد صمد أمام غزوات الاحباش والفرس والتتار والمغول ، ومرت عليه أيام كافية للقضاء على أمم كثيرة فلم تقض عليه ، فقد عرف المحاعات والزلازل والحروب ، واضطهده أنواع شتى من الاستعمار ، فبقي

حقيقة حية لا يستطيع أحد في العالم أن ينكرها ، وهذه الخاصة تقوى الأمل في المجتمع ، وتجعلنا نؤمن بأنه سيحقق أهدافه .

والايات التالية إنما تعبر عن جوهر أمة ومادة شعب أبي :

ورثنا المجد قد علمت معدة نطاعن دونه حتى بيننا
اذا ما الملك سام الناس خسفاً أيدنا ان نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أضحي عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

خامساً - هو مجتمع خصب :

فهو غني بالامكانيات ، ارضه غنية بمساحتها وزراعتها ومعادنها وحتي الصحراء فيه اصبحت اليوم من مراكز الثروة الاساسية وما تختصم الدول على امتلاكه ، فهو خصب بالامكانيات سكانه الذين استطاعوا وهم يقاسون شظف العيش البدوي ان ينظموا احسن الشعر ، ويقدموا اروع الحكم ، وحين نستعرض تاريخهم نرى قدرتهم الفائقة على الخروج بسرعة من وضع الشعب المستضعف الى حال الامة الظافرة المنتصرة المنتشرة في بقاع واسعة من الارض .

وهو خصب بلغته التي اثبتت قدرتها على استيعاب المفاهيم الحضارية المتجددة بسيرها جنباً الى جنب مع لغات نشأت حديثاً بينما نشأت اللغة العربية منذ ازمة موعلة في القدم .

سادساً - هو مجتمع قيم :

والمجتمع العربي مجتمع قيم ، فهو لا يرضى ابدأ ان تقوم التصرفات على مجرد الأنانية والاهواء ، سواء أكانت فردية او جماعية ، إنه يبحث على المسوغ الاخلاقي لكل عمل ، وهو يفضل أن تتأثر مصلحته على أن تبدو منه أعمال لا ترضى عنها القيم الرفيعة التي يؤمن بها ، لقد افتتح العرب بلاد غيرهم يوم أن كانت الفتوحات امراً مقبولاً فماملوا

المغلوبين معاملة ينحني أمامها العصر الحديث فاهيك بالعصور القديمة ، حتى قال احد المستشرقين « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » . واستخدموا الرقيق يوم أن كان الرقيق امرأ لا بدء منه ولكنهم اعطوه حقوق البشر وصانوا حياته وسمعوا شكواه ، على حين كان الرقيق عند الآخرين ، لا يستحق الحد الأدنى من المعاملة الانسانية . لقد دخل أبو لؤلؤة على عمر بن الخطاب شاكياً على المغيرة بن شعبة وهو من اركان الدولة آنذاك فلو أن أبا لؤلؤة كان عبداً عند قومه الفرس هل كان يستطيع ان يشتكي على سيده عند مختار قرية بسيطة ، وهل كان يحق له أن يري في الحلم أنه قابل كسرى انوشروان . . ، ولقد عامل العرب الاعاجم معاملة رحيمة مخالفة في حلمها ورحابة صدرها لاتجاه عصرهم كله ، حتى طمع بهم الشعوب وتآمروا عليهم في عقر دارهم ، فلم يتنازل العرب عن قيمهم وظلوا ينجشون أن يأتوا من الاعمال ما لا توافق عليه ضمائرهم الحساسة .

وان اهتمام العرب بالقيم هو الذي يجعل قوميتهم انسانية إذ لا يريدون الخير على حساب الآخرين كالمستعمرين وانما يفقونه لأنفسهم وللناس اجمعين ويدلون الجهد في سبيل تحقيق كرامة الآخرين .

سابعاً - مجتمع ذو دور حضاري :

إذ ما دام المجتمع العربي قائماً على القيم والمثل العليا ، فهو لا يستطيع أن ينعزل ويُسفل بأموره الخاصة به وحدها ، بل يحس دائماً بأنه مكلف بمهام جليلة في المجموعة الانسانية ، وهذا ما يتجلى خلال تاريخه المديد . انه اعطى للناس ديناً وشرحه لهم وضحي في سبيله ، وهو اليوم رغم وقوعه تحت عبء ثقيل من الضغط الاستعماري وال فقر والجهل والمرض ، يتطلع الى بني الانسان جميعاً ، ويكره الظلم أنى وقع ، ويتحمس ويساعد الشعوب الساعية الى التحرر والتقدم ، فهو يحس بأن

وجوده على هذه الأرض ليس عبثاً وإنما خلقت الامم لكي تكون اعضاء في جسم الانسانية يعمل كل منها للخيرالجميع كما تفعل اعضاء الجسد الواحد.

وفي ختام بحثنا هذا لا بد من ان نعرض الى نقطتين اساسيتين :

اولاهما - أن الأمور الاجتماعية ليست من الدقة كحوادث الطبيعة ، وهذا ما يجعل قوانين علم الاجتماع احتمالية تنطبق على الاغلبية ولا تحيط بالجموع كله ، واذا طبقنا هذه القاعدة على خصائص المجتمع العربي نجد افراداً من العرب ينتكرون للقيم ، وآخرين جفت اصالتهم ، وبعضاً ابتعدوا عن الاتجاه الانساني . ولكن هذه الاستثناءات لا تنفي أبداً أن الاعم الاغلب عند العرب هو احترامهم للقيم ونبمهم بأصالة وتقديرهم لمهمة مجتمعهم الانسانية . ويزداد تصديقنا لهذه الخصائص اذا قارنا نسبة وجودها بين افراد مجتمعاتنا الذين ما يزال بعضهم جاهلاً غير واعين بنسبة وجودها في بعض المجتمعات الاخرى ولدى المتعلمين من ابنائها .

وثانيتهما - أننا لا ندعي ابداً تفرد المجتمع العربي بهذه الخصائص ، إذ لا يضيره أن تتصف مجتمعات اخرى بفضائل يقوم هو على تقديرها ، وإننا نشجب الآراء والنظريات المتمصبة التي تضع أمة من الامم في منزلة أعلى من سواها ، بل نعتقد أن هذه الخصائص ما دامت قد وجدت في أحد المجتمعات على الاقل فهي ممكنة التحقق بالتوجيه والوعي الحقيقي لاكثر بني الانسان ، وعلى كل حال فان دراسة خصائص المجتمعات الاخرى ليس محلها في هذا الكتاب .

الباب الثاني

عوامل الوحدة في الوطن العربي

مقدمة

التعريف بالوطن العربي

الوطن العربي هو الارض الممتدة من المحيط الاطلسي غرباً الى الخليج العربي شرقاً ، ومن جبال طوروس وكرديستان في الشمال والشرق حتى البحر العربي في الجنوب. وتبلغ مساحته ١١٥٥ مليون كم^٢ ، اي انها تزيد عن مساحة القارة الاوروية وكذلك على مساحة القارة الاوسترالية .

ويتوزع الوطن العربي على قارتين : افريقيا و آسيا ، وليست القارات حدوداً للاوطان فمدد كبير من الامم يسكن على ارض موزعة بين قارتين كالاتحاد السوفياتي وتركيا ؛ ويضم قسمه الافريقي ابتداء من المغرب ، المغرب العربي وموريتانيا ، ثم الجزائر ، فتونس ، فليبيا ، فمصر والسودان ثم الاريتريا والصومال . بينما يضم الشطر الاسيوي كلاً من سورية ولبنان والعراق وفلسطين وشرقي الاردن والمملكة العربية السعودية ، واليمن كما يضم هذا القسم امارات عديدة موزعة على ساحلي الخليج والبحر العربيين ، وهي الكويت ، فالبحرين فقطر فعمان ، والامارات السبع على الساحل الاخضر ، ثم عدن والحميات التي تحتلها بريطانيا .

وقد سكن العرب هذا الوطن منذ أقدم الازمنة ، فانتشرت قبائلهم في الازمنة الغابرة قبل ميلاد المسيح بألاف السنين في سوريا وفلسطين والعراق ورحل عدد منها الى مصر والجزء العربي من افريقيا فاستوطنوه .

واقدم كان هذا الوطن في تاريخنا القريب ، قبل الاسلام وبعده
يشكل وطناً واحداً للعرب والامة العربية ، وكان دولة واحدة يشعر
العربي في كل صقع من اصقاعها وكأنه في بيته إذ أنه بين اخوانه
حيثما حل ورحل ، على الرغم من وجود بعض الامارات المستقلة فيها
أحياناً . ولم تنفصم عرا هذه الوحدة العربية ، الا عندما تدخل
الاعاجم في سير التاريخ العربي ، فأستأثروا بمالك وامارات واقاموا دولاً
ودويلات ، كان سببها ضعف العرب وتمزق كلمتهم ، فأستأسد الاعاجم
واضحى الوطن العربي مزقة بين أنبياهم . وحل بعد هؤلاء العثمانيون
الاتراك الذين حكموا هذا الوطن باسم الدين ، وتخلوا عن أجزاء منه
أمام اطماع الاجانب الغربيين ضعفاً منهم حيناً وارضاءً لهم في كثير من
الاحايين . ثم تدخل الغرب المستعمر فأحتل ما كان الاتراك قد تركوه وعشنا
لنرى اليوم ، هذا الوطن العربي ، مجزأ بين دول ودويلات وممالك
وجمهوريات وامارات .

الفصل الأول

عوامل الوحدة الطبيعية في الوطن العربي

مقدمة : البيئة الطبيعية :

يعتبر الوطن العربي اطاراً للبحر الابيض المتوسط لا تظهر بميزات هذا البحر كطريق مائي ذي اهمية كبرى دونه . وهو يمتد على (٢٧°) درجة عرضية من درجة (١٠°) شمال خط الاستواء وحتى (٣٧°) درجة شمالاً في المنطقة المعتدلة الحارة . ويقع أكبر قسم منه في افريقيا العربية (٨ ملايين كم^٢) وأصغره في جنوب غرب آسيا ، ومساحته (٣٥٥ مليون كم^٢) .

وتخترق هذه المنطقة منذ أقدم العصور ، الطرق والمعابر التي سلكتها البشرية منذ القديم ، وإن أهم هذه الطرق ، هي الطريق البحري الذي يمتد من خليج البصرة الى شواطئ سورية ماراً بشمالها ، ثم طريق وادي النيل . وأخيراً الطرق التي تمتد من السودان الى ليبيا عبر الواحات وكذلك طريق النيجر الى بلاد الجزائر .

وعلى الرغم من تغير وسائل المواصلات في الوقت الحاضر إلا أن هذه الطرق لم تفقد قيمتها ، فهي تعتبر دوماً الوسيلة الاساسية للوصول الى افريقيا والبلاد العربية .

وبما لا شك فيه أن معرفة التطور الجؤولوجي والتضاريس وكذلك

المناخ والمياه والوضع البشري ليؤكد على اتصال هذه المنطقة الطبيعية ، وعلى توثق الروابط البشرية في هذه البيئة .

أما هذه التجزئة التي تعترى مناطق الوطن العربي فهي غير اصيلة ولا تدعمها الحقائق الجغرافية او القومية .

لذلك سنعرض الى التطورات التي مر بها الوطن العربي ، لنذكر هذه الصلة الوثيقة التي تربط بين مختلف اجزائه .

اولاً - **التكوين الجئولوجي** : - ان الانسجام والتشابه العظيمين في تطور الحوادث التي مرت على الارض العربية تجعلها منطقة فريدة متميزة في العالم .

ففي الأزمنة الجئولوجية الموعلة في القدم ، كانت الارض العربية قطعة من قارة الغندوانا الصلدة الفاسية ، وكانت تتألف من صخور (اركية والجونكية^(١)) قديمة تعرضت لغمر بحري على اطرافها سواء في غرب الصحراء الكبرى او على سواحل افريقيا الشمالية والشمالية الشرقية ، كما غمرت منطقة ما بين النهرين وشمال الجزيرة العربية والاجزاء الشرقية والجنوبية للجزيرة المذكورة ، وقد خلف الغمر البحري نتيجة لذلك رسوبات ذات سمك كبير .

آ - **الحقب الجئولوجي الاول** : في الحقب الاول اصيبت المنطقة بحركات ادت الى ارتفاع الرسوبات القديمة مرتين وظهرت جبال اولى اندثرت اليوم ، الا أن اثارها ما تزال تظهر في الصحراء الكبرى على شكل جذور جبال التوائية قديمة تكاد تمحي اليوم ، وكانت ارتفاعات الجبال الاولية هذه تمتد باتجاه شمالي جنوبي وبامتداد شرقي وغربي ، تمثلها جبال تبسي والصحارارا في الصحراء الكبرى ، وتظهر بقايا هذه الارتفاعات

(١) من اقدم الصخور المعروفة على سطح الارض .

على هيئة شبه سهل تظهر فيه البروزات الصخرية واضحة تدل على اتجاه
الاتواء الاصلي .

ب - الحقب الثاني : لقد غمر البحر الارض العربية مجدداً ولكن
الغمر في هذا الدور كان كبيراً جداً ووصل الى اقصى ما يمكن ان
يصل اليه أي غمر بحري . وكان بحر تيتس هذا يغطي حيناً وينحسر
احياناً اخرى ، وكانت الارض العربية وافريقيا في هذا الدور اشبه
بجزيرة عائمة تغطي عليها المياه حيناً وتنحسر احياناً اخرى ، الا ان الاجزاء
الوسطى من افريقيا والجزيرة العربية كانت على شكل هضاب مرتفعة
فوق مستوى الغمر البحري ولذلك فقد كانت معرضة للانتكاس خلال
الدورين الاول والثاني من ادوار هذا الحقب .

وخلال الحقب الثاني اندفعت الصخور النارية من باطن الارض نتيجة
لحركة جبال البرنه في اسبانيا فظهرت المواد النارية على شكل طبقات بركانية
بازلية مندسة بين الطبقات الرسوبية في جبال لبنان الغربية ، او على شكل صخور
خضراء غمرت جبال الامانوس والكرد والاقرع .

ج - الحقب الثالث : وفي الحقب الثالث حدثت حركات اخرى
شديدة اعطت الارض العربية فيما بعد صفاتها النهائية ، اذ ارتفعت في
شمال الارض العربية كتلة الجبال الالبية الهملائية ، كجبال طوروس
وزاغروس ، وادت كذلك الى ارتفاع جبال الاطلس في شمال المغرب العربي
والامانوس والاكراد والاقرع في القطر السوري الا ان القاعدة الغرائبية التي
تؤلف الاساس الجيولوجي للارض العربية بسبب قساوتها الكبيرة قاومت الاتواء
الجديد مقاومة هائلة ، الا انها تكسرت نتيجة للضغط الهائل الذي احدث الاتواء ،
فتمهدت بعض اقسام من هذه الارض وارتفع بعضها الاخر ، كما حصل الانهدام

السوري الافريقي الكبير الذي امتد من بحيرة نياسا في قلب افريقيا عند منابع النيل الى حفرة مرعش في سفوح الجبال الطوروسية بطول ٥٠٠٠ كم. وقد خلف الانهدام، الحفرة الانهدامية التي شطرت الهضبة العربية الى شطرين وفصلت الجزيرة الاصلية عن وادي النيل فظهر خليج عدن والبحر الاحمر، كما سبب في بلاد الشام تهديم السلسلة الجبلية السورية التي ارتفعت مع جبال الالب فأصبحت عبارة عن سلسلتين تشرقان بشكل جداري شديد الانحدار على الاخدود الكبير، والتي تمتد من خليج العقبة حتى حفرة مرعش شمالاً. ويؤكد اكثر الجيولوجيون ان القسم الاعلى من وادي النيل قد تسبب عن هذه الحركة ودليلهم على ذلك هو كثرة الشلالات بين الخرطوم واسوان. وكرده فعل على الانهدام الكبير وانخفاض بعض الاجزاء من الارض العربية، ارتفعت بعض الهضاب المجاورة للاخدود كهضبة اليمن والحبشة.

ونشأ عن الانهدامات والتصدعات والتكسرات التي اصابت الارض العربية ضعف الاجزاء المجاورة لها مما ادى بصورة مباشرة الى اندفاع الحمم والالابات البركانية من باطن الارض، وانتشرت هذه الحمم والالابات^(١) على الارض الرسوبية التي خلفتها البحار في الدور الثاني، وكانت على شكل حرات ووعرات بركانية، كحرة خيبر في الجزيرة العربية ووعرتي زاكية وحمص في سورية.

وزادت الالابات احياناً من ارتفاع الهضاب كما حدث في اليمن والحبشة، اذ ارتفعت الارض الى اكثر من ثلاثة الاف متر، وحيث كان التصدع كبيراً نشأت الفوهات البركانية كالبراكين الموجودة في جبل الدرروز في سورية وفي الاطلس الاعلى في المغرب الاقصى.

وكتيجة عامة لانتواءات الحقب الثالث والانهدامات التي اصابت الارض العربية ظهرت ميول باتجاهات مختلفة، ففي شمال بلاد الشام

(١) الحمم - مقنوفات البراكين - والالابات - الصخور المنصهرة.

ارتفعت الارض من الشمال مع الحركة الالبية الهيملائية ، وبعد ارتفاع الحافات الجبلية للبحر الاحمر بسبب الانهدام الكبير ، ارتفعت الارض العربية من الجنوب الغربي نحو الشهل الشرقي والتقى هذا الميل عند الفرات بليل الشبلي ، كما مات الهضبة الصحراوية في الغرب باتجاه المحيط .

ثانياً_السطح والتضاريس : لقد خضع السطح والتضاريس في الارض العربية لتطور واحد ، اذ يتراوح الارتفاع الوسطي للارض العربية بين ١٠٠-٥٠٠ م فوق سطح البحر ، وهذا السطح يتألف من احواض يفصل بعضها عن البعض الاخر بمرتفعات بسيطة ، وتمتد هذه المنخفضات من الغرب الى الشرق ، وهي منخفضات الجوف في جنوب غرب المغرب العربي ومنخفضات الشطوط والبحيرات المالحة كشط الجريد في جنوب تونس وشط الحضنة في الجزائر ومنخفضات ليبيا كواحة فزان والكفرة وكذلك المنخفضات الممتدة بين ليبيا ومصر واشهرها منخفض قطارة وواحة سيوه والمجلة .

وفي شرقي الارض العربية تظهر المنخفضات على شكل احواض كبرى مليئة بالرمال كمنخفض الجوف في صحراء النفوذ الكبرى ومنخفض الربع الخالي وكذلك منخفض ما بين النهرين .

وبعض هذه المنخفضات يقع فوق سطح البحر وبعضها تحته ، كشط الجريد - ٢٦ م تحت سطح الارض مثلاً ومنخفض القطارة ٨٠ م تحت سطح البحر والبحر الميت - ٣٩٤ م .

اما الصفة الثانية والشاملة للارض العربية فهي وجود اطار جبلي يقع على اطراف المنخفضات المذكورة سابقاً وكذلك على اطراف المناطق الساحلية ، ولذلك يشبه البعض الارض العربية بفتاء محاط بآطار مرتفع .

اما شواطئ الارض العربية فهي بصورة عامة من الشواطئ الانكسارية ، اذ تظهر الاعماق الكبيرة مباشرة قرب السواحل ، ولهذا السبب بالذات تنعدم الخللجان الكبيرة .

ومما سبق نستطيع ان نستنتج ان الارض العربية يمكن ان تقسم من حيث بنيتها وتركيبها الى اقسام ثلاثة :

١ - قسم الي رسوبي من الحقب الثالث يحدها من الشمال ، ويتألف على الغالب من صخور كلسية وكلسية غضارية نتجت عن الغمر البحري في الحقبين الثاني والثالث ، يضاف اليها صخور بركانية نتجت عن تكسر القاعدة فغطت بعض اجزاء القاعدة القديمة كالجزر المعروفة في الجزيرة الاصلية ، وشكل بعضها الآخر جبلاً مرتفعة كجبل الدروز وهضاب اليمن ، وكذلك حصل في جزيرة المغرب العربي ، مما أعطاها قابلية كبرى للزراعة .

٢ - اما القسم الثاني فيؤلف الجزيرة الاصلية والمغرب الاوسط ، حيث تظهر الصخور النارية القديمة التي يغلب عليها الغرانيت (١) والغنايس والبورفير والميكروغرانيت ، يضاف اليها في جبال الاطلس الاعلى بعض الصخور من الحقب الاول كالصخور الفحمية (الكاربونيفير والصخور البرمية) والتي تظهر ايضاً في شبه جزيرة سيناء ، كما تظهر الصخور القديمة القاعدية في هضبة طدة (او الميزيتا المراكشية) بين نهري ام الربية وحوض السوس في المغرب الاقصى . وفي بعض الاماكن تنتشر صخور السربنتين الخضراء والديوريت الحمراء مع بعض الرسوبات الاولية كالشست في جبال الامانوس ، بسبب ارتفاع جبال الاب .

واقدم اصيبت هذه الصخور القاعدية (المستحصية) على الاتسواء

(١) الغرانيت - نوع من الصخور النارية اما البقية فصخور منحولة واندفاعية .

بانكسارات عدة ، متعددة الاتجاه بسبب مقاومتها لارتفاع جبال الالب ، وتظهر هذه المقاومة بوضوح في اطراف البحر الاحمر ، الذي نتج عن الانكسار الذي فصل الجزء الغربي من الارض العربية عن الجزء الشرقي منها ، وكذلك فقد ارتفعت بعض الاجزاء القديمة مجدداً كما حصل في جبال الاطلس الاعلى والاوسط في المغرب العربي وكذلك الاجزاء الملتصقة بالارض العربية في شهل المشرق العربي .

٣- اما القسم الثالث : فهو القسم المؤلف من الصخور الكلسية الرسوبية الثلاثية التي ظلت رغم ارتفاع الجبال منبسطة في اكثرها ولم تلتو الا قليلا ، فلم ترتفع الى اكثر من ١٥٠٠ م في جبال الاطلس الصحراوي في المغرب وكذلك في سلسلة تدمر (٩٠٠ م). وبسبب جفاف المناخ تحولت بعض هذه الاجزاء بالتدريج ، من مرتفعات الى مغازات وبواد على اطراف المنخفضات التي تبدأ من اقصى مغرب الارض العربية الى اقصى مشارقها .

اما الصخور الثنائية فلا تظهر بوضوح الا في سلاسل لبنان الغربية والشرقية في المشرق العربي وكذلك في الاطلس الاوسط وجبال الريف في المغرب العربي . ولهذا نستطيع ان نقسم الارض العربية الى مناطق ثلاثة :

الاولى : مطقة السلاسل الجبلية التي يتبها لبنان وجبال الاردن ودمسطين ويليها الى الجنوب المرتفعات الانكسارية التي تشرف على البحر الاحمر والتي تشاهد اقسامها الاخرى على الشاطئ الاخر من البحر ، أي جبال السراة التي يزيد ارتفاعها في الشهل على (٣٠٠٠ م) ، وكذلك السلاسل الثلاثة الشمالية في المغرب العربي والتي تندمج كلها في

سلسلة واحدة في تونس . أي جبال الريف والاطلس الاوسط والاعلى ، حيث ايزيد الارتفاع في الاطلس الاعلى في جبل (طوبقال) اكثر من ٤٠٠٠ م . اما الاقسام الجنوبية من الجزيرتين الاصلية والمغربية ، فتتخفف فيها هذه المرتفعات لتبدو على شكل هضاب بسيطة الارتفاع كجبال الاطلس الصحراوي في المغرب (جبال اولادناثل ١٤٠٠-١٣٠٠م) كما تبدو ايضاً في هضاب حضرموت (اعلاها جبل القمر ١٣٠٠ م) ثم جبال عُمان الاتوائية التي انفصلت عن الالتواءات الايرانية . وهذه المرتفعات تشكل سواراً يحيط بالهضاب القديمة ويحصرها بينها والمؤلفة من الصخور الاولية التي يتراوح ارتفاعها بين (٥٠٠ م - ١٠٠٠ م) وهي تنحدر اما الى الشرق كما في هضبة نجد في الجزيرة الاصلية أو تنحدر باتجاه المحيط الاطلسي كما هو حال الهضاب القديمة المشرفة على الاطلسي في المغرب العربي ، كوادي الدراعة .

أما الثانية : فهي المناطق المنخفضة التي تسيل فيها الانهار باتجاه البحار والتي امتلأت بالرسوبات الحقيقية والطمى كالمنخفض الذي يبدأ من خليج البصرة (ما بين النهرين) الى سورية فالاسكندرون ، وكذلك منخفض (تازة) الذي يصل بين الجزائر ومراكش في المغرب العربي ، وكحوض النيل الذي امتلأ بالطمى ، ونهر المولوية في المغرب ايضاً .

أما الثالثة : فهي السهول الساحلية وكلها مؤلفة من صخور كلسية ممزوجة مع الرمال والطمى الرباعين . وتسمى باسماء مختلفة اثناء امتدادها فهي تمتد في الجزء الاسيوي من الارض العربية من اسكندرون حتى اليمن ومن اليمن حتى عُمان ومنها الى مصب الرافدين في خليج البصرة وهي تضيق حيناً وتعرض احياناً حتى انها لتندم كما هو الحال في (رأس الشقعة) في لبنان ، اذ تقترب الجبال من البحر حتى تلامسه

وكذلك نجد السهول المشرفة على المحيط الاطلسي فهي عريضة احياناً وضيقة اخرى ، لاقتراب اجزاء القاعدة القديمة من شاطئ المحيط وابتعادها احياناً لتسهل وجود منطقة سهلية خصبة ، وكذلك الساحل الشمالي المشرف على المتوسط ، فالسهول قد تنعدم احياناً لبروز الجبال على شكل رؤوس كراس (بون) في الجزائر ، وتعرض اخرى باتجاه تونس كما هو الحال عند صفاقص والمينستير .

وتنتشر الجزر امام السواحل ، كجزيرة ارواد في القطر السوري والجزر المنتشرة امام ميناء طرابلس في القطر اللبناني وكذلك جزر فرسان وقران في جنوب البحر الاحمر وجزر قوريا موريا على ساحل حضرموت وجزر البحرين على ساحل الاحساء في شرق الجزيرة الاصلية ، كما تظهر الجزر على الساحل التونسي كجزيرة جربا وكركنه وكذلك الجزر الصغيرة المنتشرة على ساحل الجزائر .

وهذه الجزر اما ان تكون مرجانية كجزر البحر الاحمر أو أنها جزء من البر فصله الانهدام او الحت كجزيرة ارواد في الساحل السوري وجزيرة جربا في الساحل التونسي .

ثالثاً - المناخ :

يتميز الوطن العربي بصفات مناخية بارزة ، ناتجة عن وجوده في منطقة متوسطة تقريباً من نصف الكرة الشمالي . فهو يقع بين خطي العرض / ٣٧-١٠ / درجة شمال خط الاستواء حيث يسود نطاق الضغط الجوي العالي الذي يحيط بالكرة الارضية في هذه العروض .

وقد نتج عن وقوع هذا الوطن ضمن منطقة الضغط العالي ، ان اصبحت الرياح في هذه المنطقة في حالة هبوط ، وهذا الهبوط يؤدي الى

تراص الكتل الهوائية وارتفاع حرارتها مما يزيد من قدرتها على التسبب
ببخار الماء ، ومما يؤدي الى جفافها ، لذا كانت الرياح التي تهب عليها غالباً رياحاً
جافة لا تحمل مطراً .

ولكون الكمية الهائلة من الامطار على هذه المنطقة لا تساوي الا
القليل جداً مما يتبخر منها ، بسبب تعرضها الى فصل جفاف طويل قد
يزيد على الثمانية أشهر ، لذلك فقد انقلبت هذه المنطقة بالتدرج الى
صحراء حقيقية ، حيث تسود هذه الصحراء هنا منذ زمن سحيق جداً
يرجع الى الدور الاول الجيولوجي . ولقد لعبت التربة الريحية ، دوراً كبيراً
جداً بسبب انعدام المياه ، فأصبحت الارض بعد أن تفتت الصخور
وانتشر هذا الفتات على مساحات واسعة ، إما على شكل كفتان رملية يصعب
اجتيازها ، ويتعذر احياناً ، او على شكل صحارى واسعة من الرمال تمتد
امتداد البصر ، كالعرق الشرقي والغربي في صحراء المغرب العربي ، وكصحراء
النفوذ الكبرى والدهناء والربع الخالي في الجزيرة الاصلية .

الا ان الاجزاء الشمالية والجنوبية من الوطن العربي لم تحرم من
مؤثرات خارجية شمالية متوسطة ذات امطار شتوية وجنوبية موسمية ذات
امطار صيفية كما هو الحال في اليمن .

اما ميكانيكية المناخ في الوطن العربي فتتعلق بحركة الشمس الظاهرية ،
فالمنطقة شديدة الحرارة صيفاً ، يطوقها خط الحرارة ٣٠ درجة ، بسبب تركيز
الاشعة الشمسية بصورة عمودية عليها في فصل الصيف .

أما في الشتاء فعلى الرغم من انتقال الشمس الى مدار الجدي في
نصف الكرة الجنوبي ، تظل درجة الحرارة مرتفعة اجمالاً وتظل الجزيرة العربية
ذات حرارة تقرب من ال ٢٠ درجة مئوية .

لذلك كان الوطن العربي حاراً أو شديد الحرارة عموماً في الصيف ، بينما يظل نصفه الجنوبي دافئاً ونصفه الشمالي معتدلاً في الشتاء .

ويتأثر النظام المطري ايضاً بحركة الشمس الظاهرية ، ففي الصيف يسيطر الضغط المنخفض على السودان وعلى أجزاء محدودة من الجزيرة العربية كمدن والخليج العربي مما يسبب اجتذاب الرياح الرطبة الآتية من المحيط الاطلسي والهندي ، فتسقط على كل من السودان واليمن وحضرموت وعمان في أجزائها الغربية .

وتبلغ كمية الامطار الهائلة على هضبة اليمن بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ مم وتصل في انتشارها شمالاً حتى خط العرض ١٨° او الـ ٢٠° ، ثم تقل تدريجياً حتى تصل الى الصحراء .

أما فيما وراء هذا النطاق الجوي الخفيف فيطر النطاق الجوي العالي الذي يمنع وصول الاعاصير والرياح المحملة بالامطار الى مناطق شمال افريقيا وسورية والعراق .

الا ان انتقال الضغط المنخفض الاستوائي في الشتاء الى جنوب خط الاستواء ينقل معه الضغط العالي الذي كان مسيطراً في الصيف على البحر الابيض المتوسط ، فتمر عند ذلك الاعاصير والرياح المحملة بالامطار من المحيط الاطلسي عبر المتوسط الى المناطق الشمالية الواقعة الى شمالي خط العرض /٣٠/ في الوطن العربي ، وتقل هذه الامطار ايضاً كلما تقدمنا نحو الجنوب والشرق حتى نصل الى الصحراء الحقيقية .

أما المنطقة الصحراوية فأمطارها شتوية في نصفها الشمالي أي في نجد وشمال الصحراء الافريقية ، وصيفية في نصفها الجنوبي ، مع العلم ان الامطار قد لا تهطل طوال سنين عديدة .

وهكذا نجد بعد أن القينا نظرة سريعة على البيئة الطبيعية التي يقع فيها الوطن العربي ، أن هذه البيئة تقسيم الدلائل الاكيد على وحدة المظاهر الجغرافية وتشابها ، كما ان التشابه الحاصل في المياه والنبات والحيوان نتيجة لوحدة هذه البيئة الطبيعية يدعهم وحدة « هذا الوطن ويقويها .

رابعاً - المياه والنبات والحيوان :

تتجلى وحدة الوطن العربي في مياهه ونباته وحيوانه . تجليها في تضاريسه وتركيب ارضه ومناخه ، فنحن اذا نظرنا اليه وجدنا السهول الساحلية الكثيرة الامطار التي تقطعها انهار قصيرة سريعة متجهة نحو البحر ، منها الدائم كنهـر ام الرابية وابو رقـرق في المغرب العربي ، والكـلب وابو علي في لبنان والكبير الشمالي في سورية ، ومنها ما هو موسمي تزداد المياه فيه ايام الامطار وتتناقص كثيراً في فصل الجفاف حتى تصل درجة الشح ، كوادى الرمل والشليف في الجزائر ، والمجردة في تونس وبعض الانهار الساحلية في سوريا ووادى بانه في لحج ووادى مسيلة في حضرموت ووادى عـدام في عُـمان .

وإذا انتقلنا الى الجبال التي تلي السهول الساحلية العربية ازدادت كمية الامطار بسبب الارتفاع مما يغذي الانهار والسيول والمياه الجوفية ، وتساعد الثلوج التي تراكم على قمم هذه الجبال على ديمومة تلك التغذية .

ثم نهبط الى السهول الداخلية حيث تجري انهار قصيرة منحدره اليها من السلاسل الجبلية ، منها ما يصب في البحر كنهـر العاصي في سورية والبيطاني في لبنان ، ومنها ما يصب في بحيرات داخلية او انهار

اخرى ، كنهـر بردى والاعوج في سورية ونهر الشريعة او الاردن الذي يصب في البحر الميت ، وروافد دجلة في العراق وجميع الروافد التي تصب في الانهار الداخلية .

وإذا اوغلنا في الداخل بعيداً عن البحر نصل الى الصحراء حيث تظهر المياه في الوديان السيلية الموسمية والآبار والواحات ، كأودية نجد والحجاز ، كذى الرمة وبيشه وصهباء والغار والادوية التي تصب في نهر الفرات كوادى الشام وغيره .

ويستقبل الوطن العربي انهاراً كبرى ثلاثة غزيرة المياه ، طويلة الجرى تنبع من خارجه وتصب على سواحله هي النيل والدجلة والفرات .

إن هذا التوزع المائي بين منطقة واخرى يتكرر في سائر جهات الوطن العربي ويقوم دليلاً على وحدة بيئته الطبيعية .

ونستنتج من هذه المملومات عن الامطار ومجري المياه العربية أن الماء في وطننا ليس كثيراً الى درجة تسمح لنا بالاسراف فيه واهداره دون فائدة ، وإذا كان اسلافنا قد غرسوا الجنات ونشروا الزراعة في سائر بقاعه ووصلوا في ذلك الى مناطق هي اليوم جرداء ، فلم يتأت لهم هذا النعيم الا بتقديرهم لقيمة الماء في وطنهم وحسن تدبيرهم لأمره ، فقد انشأوا السدود والقنوات منذ اقدم الازمنة ، كسد مأرب والسواقي التي كانت تسقي مكة وغيرها من المدن العربية ، ناهيك بالسدود المقامة على النيل ودجلة والترع الممتدة منها وتوزيع مياه نهر بردى وتوسيع بحيرة قطينة والمشاريع المقامة على انهار المغرب العربي اليوم .

ولقد نتج عن الوضع المائي للوطن العربي انواع خاصة من النبات والحيوان
في جميع بقاعه .

ففي السهول الساحلية حيث يتوفر ماء المطر وفي السهول الداخلية
حيث يتوفر الماء الجاري ، نجد انواعاً خاصاً من النبات اكثرها نباتات
الفاكهة بالاضافة الى القمح والشعير والذرة التي هي نباتات طبيعية اصيلة في
هذه المنطقة الى جانب شجرة الزيتون والكرمة .

اما في الجبال المرتفعة القريبة من البحر ، فتنتشر الكرمة
واشجار الصنوبر المختلفة الانواع والسنديان والبلوط وشجر الفلين كما هو
الحال في جبال القبائل في الجزائر ، بينما تنتشر الغابة على شكل
صنوبريات ، كالارز في لبنان والسنديان والبلوط في سوريا في جبال الملوين ،
وكذلك الغابات الموجودة في الجبل الاخضر في عُمان وفي الاطلس الاوسط
والاعلى في المغرب العربي .

اما في اعالي هذه الجبال فنجد اما الثلوج التي لا تسمح بنمو النبات
بسبب مكوئها فترة طويلة من الزمن على الارض ، او نجد جروداً تنمو عليها بعض
الاعشاب القصيرة التي يرعاها ماعز سكان الجبال .

وفي المناطق الصحراوية حيث تنعدم الامطار أو تكاد ، تنمو بعض
الاعشاب الشوكية والقصيرة في المناطق ذات التربة الرطبة والتي
يفتقر البداء الاعراب بمحماً عنها طوال ايام السنة لتغذية مواشهم من خيل
وابل واغنام . أما في المناطق الرطبة فنجد الاغنام الى جانب الماعز والابقار
والجاموس في كثير من الاحايين .

وهكذا تجد أن البيئة الطبيعية للوطن العربي قد شجعت تكاثر

انواع خاصة من النباتات والحيوانات فيه ، وُحِدَتْ بِالتالي انماطاً للحياة مشتركة بين بقاعه فساهمت في وحدته .

خامساً - انماط الحياة والنحل في الوطن العربي :

يؤلف الوطن العربي منطقة مترامية الاطراف تسودها الصحراء ، لذلك سادت فيه حرفة الرعي التي تمتد على النظام الابوي Patrical ، والى جانبها تقوم الزراعة . الا ان اختلاف انماط حياة السكان في هذه المنطقة يعود الى درجة العرض الجغرافي الذي تقع فيه والى توفر الماء الباطني او انعدامه ، ومع هذا نجد ان الانتقال هو اساس النظام الاجتماعي والاقتصادي .

وتقوم حياة الزراعة في الواحات ، وتؤلف هذه الواحات نواة الحياة الاجتماعية والزراعية في منطقة البحر الابيض المتوسط . ولقد أعطى الحيوان والواحة منذ القديم لهذه المنطقة صفات خاصة بها ، اذ قام تنظيم الدولة اول ما قام في الواحة ذات البيئة الصحراوية ثم انتشر منها الى المناطق المجاورة .

وكذلك فقد ترعرعت الحياة الاجتماعية والدينية زمن الاسلام في الواحات ، كتلك الحركات التي قامت في افريقيا العربية وفي قلب واحاتها، كحركة المرابطين والموحدين والسنوسيين ، التي قامت في واحات جنوب والكفرة وفزان .

ويمكن ان نقسم الصحراء الى مناطق اربع من حيث نوع الحيوان السائد فيها ، لأن الحيوان هنا هو مدار النظام الاجتماعي . وهذه المناطق هي من الشمال الى الجنوب ، منطقة رعاة الخيل ، ثم رعاة الابل ، فرعاة الماعز ، واخيراً رعاة الابقار .

غير ان هذه المناطق لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر بل ان هناك تمازجاً احياناً بين نوعين او اكثر من هذه الحيوانات .

وتشمل منطقة وعاة الخليل صحراء سورية وشرقي الاردن ومصر وليبيا الشمالية وجنوبي تونس والجزائر والمغرب العربي ، أي في المناطق القريبة من الارض الرطبة التي تسقط فيها بعض الامطار وتتوفر في اوديتها بعض المياه .

وان وجود السهوب المنبسطة في هذه المناطق جعلها من أهم مناطق تربية الخليل ، كخيول بادية الشام وخيول البربر . وتعود أهمية الخليل هنا الى انها تستخدم في حراسة الماشية ، وفي الحصول على موارد رزق اخرى عن طريق الغزو .

أما منطقة وعاة الابل فهي تمتد الى شمال خط العرض ٣٥ درجة شمال الاستواء ، وتميز هذه المنطقة بشدة جفافها ، وتندم هنا الاشجار ، الا ان فيها بعض الهضاب ، كهضبة نجد والحجاز وبادية الشام ومنطقة العبايدة (جنوب شرق مصر) والطوارق (في قلب الصحراء الكبرى) حيث تنمو بعض الاعشاب. والجمل في منطقة العطش هذه هو الوسيلة الاساسية والمثلث للحياة والانتقال، وتربيته هي الحرفة الوحيدة للسكان هنا ، وبواسطة رعاة الابل هؤلاء اتصلت السنغال قديماً وحديثاً مع المغرب الاقصى عبر الصحراء ، كما اتصلت مدينة تمبكتو في افريقيا الغربية مع واحة فزان في ليبيا، وبنفس الشكل اتصلت القاهرة مع السودان ووالي النيل ودمشق مع نجد وبنداد .

وتتبع هذه القوافل الآبار الموجودة في الصحراء ، لحاجتها الشديدة للماء ، أما سكان هذه المناطق فيجدون سوقاً تجارية جيدة لهم في هذه

الواحات المنتشرة في هذه الانحاء ، حيث يُتمنونون بالحبوب والبلح والحاجات والاذوات .

ولقد اوجدت القافلة والرحلة هنا تنظيمًا اجتماعيًا بحكم الضرورة ، اذ تتكون الوحدات الاجتماعية مثلاً في الشمال الافريقي من عدد صغير من الخيام يطلق عليها اسم (الدوار) والسبب في صغر هذه الوحدات الاجتماعية هو عدم كفاية الماء في الآبار ، اذ ان بمضها لا يكاد يكفي اكثر من / ٢٠٠ / رأساً من الجمال ، كما ان فقر البيئة الشديد يدعو السكان الى التفرق لا التجمع .

ولقد اكتسب الكثير من هؤلاء السكان صفات الرثاسة لمعرفةهم بالطرق الصحراوية ومواقع الآبار . وبسبب غياب الرجل عن مسكنه بصورة دائمة تقريباً للرحلة والتنقل ، لذلك نجد ان النظام الذي يعتمد على سيطرة الأم (المرأة) هو السائد هنا ، وعلى هذا تساوي المرأة الرجل في حقوقه ان لم تفقه بحقوقها ، كما ان الفتاة لها نفس حقوق الفتى .

وفي هذه المجتمعات توزع ثروة الام على اولادها وتسمى بالثروة المشروعة ، اما ثروة الاب فتبقى ملكاً للجماعة كلها . والحكم في هذه البيئة هو لابن الاكبر او البنت الكبرى ، وهنا تتميز الطبقات الاجتماعية ، حيث نجد طبقة الاشراف وطبقة العبيد ، ولا يختلط الاشراف مع المستعبدين ، لذلك كان اكثر السكان هنا يتمتمون بصفاء جنسي لا بأس به . ولقد كانت بعض هذه المجتمعات تحتل بعض الواحات الكبرى وتؤلف الممالك (كملكة الحوص والغولية في السودان) .

أما منطقة رعاية الماعز فهي تشبه منطقة رعاة الخيل ، وهي تقع في المنطقة

الشبه مدارية حيث تهطل الامطار وحيث لا يمكن الحصول بسهولة على الماء الباطني .

وتنتشر هذه المنطقة في اسيا العربية كصنماء ، وفي افريقيا العربية كالسودان الغربي في منطقة الابيض ، الا ان الماعز لا يكفي السكان ولا يُقيم أودهم لذلك فهم يعملون بجمع الصمغ العربي ، الذي يعتبر بمثابة نقود يقايض رعاة الماعز عليها .

ويلاحظ في هذه المناطق ظهور حرفة الجمع ، أما العمل فيتم ضمن وحدة يقوم بها الاطفال والنساء والشيوخ .

وان جمع الصمغ يتم في وقت معين من أيام الصيف الجافة ، حيث يترك السكان هنا ما لديهم من ماعز وحيوانات اخرى حول الآبار الهامة للقيام بعملية الجمع ، ولكنهم ينتشرون في المنطقة جميعها زمن الامطار والاعشاب .

أما رعاة الابقار فتقع منطقتهم في مناخ شبه صحراوي قريب من البحر أو من المناخ المداري المطر ، لذلك نجد أن الرطوبة هي اكبر من تلك التي في الصحراء ، ولهذا كانت الاعشاب أغزر وأكثر رطوبة تماها الجمال ، لذلك يختفي الجمل في هذه المناطق ليحل محله البقر الذي يستخدم في كافة الاعمال للحمل والنقل والركوب ...

والبقر هنا من النوع الهندي القليل اللبن ، لذلك يعتمد السكان اضافة اليه على صيد الاسماك واللؤلؤ للتعويض ، كما يلاحظ هذا واضحا على شواطئ الخليج العربي وعمان وحضرموت وقبل وجود البترول .

وهنا قامت مرافئ ومدن هامة تعمل في هذه الحرفة كالسكلا ومسقط والتطيف ...

وحيث يقبل العشب او ينـدر يقدم السمك المجفف غذاءً
للحيوانات .

أما الزراعة فتقوم على السواحل ، خاصة في اليمن وحضرموت التي
كانت تعتمد على الرقيق الآتي من افريقيا الشرقية او الهند والملايو .

ومن هذه المنطقة انتقلت اقوام البقارة الفحطانيين العرب منذ أزمنة
الدولة المصرية القديمة الى افريقيا وانتشرت بين خطي العرض ١٠ - ٣٠ شمالي
خط الاستواء .

واليوم تنتشر قبائل البقارة العرب في السودان وحول بحيرة تشاد قرب
الصحراء الكبرى وشبالي منطقة فادي الخ ..

واقـد خضع الزوج المستقرون في هذه المناطق والذين يمتدون على
الزراعة لهؤلاء البقارة فأصبحوا أحياناً عبيداً وتابحين ، في حكم اقطاعي ، مما
ادى الى تمازج جنسي كبير .

أما منطقة الصحراء فنسود فيها مناطق مائية عاش عليها الرحل
واشباههم وزرعوها ، ولقد اختلف العلماء في منشأ هذه النقاط المائية أو الواحات ،
فبعضهم يقول انها نشأت عن الحت الريحي في طبقة صخرية لينة وآخرون يرجعونها
الى نوع من الحت الكارستي (١) .

والحت في طبقات الصخور هذه - مها كان منشؤه - يؤدي
بالنتيجة الى تسهيل ظهور المياه من الطبقات الدفينة التي تمتلئ بالماء

(١) نسبة الى جبال كارست في يوغوسلافيا حيث تسقط مياه الامطار وتتسرب
عبر الصخور الكلسية وتحللها وتؤدي الى حصول حفر وآبار واحواض
مغلقة تسمى (Aven) .

بسبب سقوط الامطار في المناطق البعيدة في الشمال أو الجنوب ، ومن ثم تتسرب المياه ضمن الصخور المنفذة لتظهر في هذه الاحواض . ويقول بعض العلماء ان مياه صحراء ليبيا تعود في أصلها الى الامطار التي تسقط على منطقة السودان المدارية .

أما الواحة من حيث قيمتها الاقتصادية فتعتبر مركزاً أساسياً للانتقال ، دونها لا يمكن عبور الصحراء والوادي الشاسعة ، وفيها قامت الزراعة منذ القديم .
وللزراعة هنا دعامتان أساسيتان : اولاهما شجر النخيل وثانيها الحبوب .

وتعتبر هذه المنتجات الاساس في تغذية السكان ، كما انها وسيلة المبادلات التجارية بين سكان الواحة والبداءة الرحل ، الا أن الواحات قد تأثرت اضافة الى عداء الطبيعة المحيطة بها ، ببدء الرحل من مستوطني الصحاري ، لذلك قامت فيها تنظيمات اجتماعية خاصة لدرء هذا الخطر البشري وكذلك تنظيمات سياسية كفلت للواحة البقاء والحفاظ على كيانها من طغيان البداءة ، ولهذا قامت في الواحات فكرة الجماعات الدينية وقلبت الواحات الى نوع من القلاع .
ومن هذا نتبين ان الواحة كانت اساس التنظيم الحضاري القديم في اسيا العربية وافريقيا .

ولسنا ندعي القول هنا أن الحضارة العربية هي حضارة صحراوية بل ان وجود مناطق اخرى انتشر فيها العرب منذ القديم قد ادى الى تنوع في الحضارة العربية ، وهذا التنوع ضمن الوحدة ، هو أولى صفات ومقومات الحضارة العربية ، وقد اعطى هذا حضارة العرب صفة الاصاله التي جعلتها تدوم ، والى جانب هذه الصفة نجد صفة ثالثة للحضارة العربية الا

وهي بساطة الامس التي قامت عليها في بيئة صحراوية لم تمنع في يوم من الايام العرب الساميون من القيام برسالات حضارية متنوعة انبثقت عن هذه الصحراء .

ومع هذا نجد ان النحل الاخرى تنتشر هنا وهناك في جميع اطراف الوطن العربي في المدن الكبرى حيث تقوم الصناعة والتجارة ، وفي القرى حيث تنتشر الزراعة ، وقد وصلت في بعض المناطق الى وضع يجعلها مشابهة لما هو عليه في المناطق المتطورة في العالم .

وسنعمد الى تفصيل لهذه النحل واشكال الحياة في أبحاث مقبلة .



الفصل الثاني

عوامل الوحدة البشرية في الوطن العربي

اولاً - أصل السكان

أقرت شعوب الارض تعذر الصفاء العرقي في الامم جميعاً^(١) ورضيت بهذا القدر ولم تتأثر قوميتها . فالامة الفرنسية مكونة من عروق تفوق الخمسين عدداً واصول الانكليز تتوزع بين عشرات الجذود المختلفين دمويًا ، ولا يقل الالمان عنهم في هذا الشأن ، بل لقد تأكد العلماء من استحالة توفر الصفاء العرقي في العشائر البدائية نفسها ، ولذا لا يشكل العرق والنسب لدنيا اية مشكلة هامة ، وسنبحث في أصل سكان الوطن العربي هنا مع الخصائص البشرية لئلا نعود الى ذكرها بين عناصر القومية العربية ، وقد تفيدنا دراستها في التعرف على اغراض المستعمرين ونواياهم ومحاولاتهم العديدة لتفارقة بيننا بواسطة القضية العرقية التي لا يؤمنون هم بها .

فاذا افترضنا ان اصول السكان اللدموية تكون عرية اذا ما ردت الى جزيرة العرب والى اقوام مشابهة لنا في اللغة والتكوين العضوي وجدنا عدة نظريات تتنافس في تلميل أصل الشعب الذي يقطن هذه البلاد ومنها النظريات التالية :

(١) انظر بحثنا في النظريات الكبرى في فهم القومية - الباب الرابع -

١ - النظرية الضيقة :

وهي التي تقصر النسب العربي على سكان الجزيرة العربية القديمة من يمينين وشمالين ولا ترى لهم امتداداً قبل الاسلام في بقية انحاء وطننا العربي الا المناذرة والفساسنة والانباط وبعض القبائل الاخرى التي تشترط ان تكون مشابهة في لهجتها للهجة القرآن الكريم وترد بين خيامها صوت شاعر او خطيب كحسان ابن ثابت ينطق العربية كما يفهمها المواطن العادي اليوم . أما بقية ارجاء الارض العربية كأعلي سورية والعراق ولبنان ومصر والشمال الافريقي فهي حتى ظهور الاسلام مأهولة في رأي هذه النظرية بشعوب غير عربية كالآراميين والآشوريين والفينيقيين والكنعانيين والفراعنة والبربر ، ولما أن تم فتح تلك المناطق الشاسعة التي لم تكن عربية اصلاً نفذ العرب بدينهم ولغتهم وسيفهم وحسن معاملتهم الى قلوب السكان وعقولهم وبيوتهم وحياتهم اليومية فكان الاندماج وساد الطابع العربي الارجاء التي نسميها اليوم بالوطن العربي .

ونحن لا نجد في هذه النظرية ولا في أضيق منها خطراً على العروبة ، فسواء اوقع الاندماج في القرن الاول الهجري أو في القرن العاشر قبل الهجرة ، فهو قد وقع على كل حال . والوعي العربي لن يتأثر بدعاوى المستعمرين والاقليميين الرامية الى التشكيك بالقومية العربية عن طريق انكار الاصل العربي لسكان هذه البقعة أو تلك من بقاع وطننا الكبير . فنحن ندرك جميعاً أن ارتباط العرب ببعضهم ارتباط اجتماعي قائم على اللغة والتاريخ والذوق والطابع الحضاري والقيم المشتركة ووحدة المصير .

وخدمة للحقيقة فقط نذكر بمد هذه النظرية عن المعقولة فمن
المستحيل على شعب قليل المدد خرج قسم منه في جيوش الفتح ان
يفرض لقمته وطابعه وذوقه على اراضي تكاد تكون قارة لسمتها اذا لم
تكن الشعوب التي تقطنها تمت اليه بصلة القرابة المادية والمعنوية . وتزداد
هذه الاستحالة يقيناً اذا ما تذكرنا أن العشائر المنضوية بجيوش الفتح
كانت في تلك الايام أقل حضارة من أبناء البلاد المفتوحة ، فلم يتكبر
السوريون والرافقيون والمصريون عليهم ، ولم يساعدوا الرومان أو الفرس
على الاحتفاظ ببلادهم ، ولم ينظروا الى دينهم على أنه دين بدادة وسداجة
تأباه العقول المتطورة بل دخلوا فيه أفواجاً وكأنهم قضوا مدة طويلة
ينتظرون أن يبدأ الاصلاح في احدى جهات وطنهم الكبير وأن يشع النور على
أحد جباله ليتهافتوا عليه .

ونحن ندرك تماماً أن أكثر المفاخر والامجاد العربية التي يذكرها
شعبنا اليوم ، مستمدة من القبائل المشابهة لنا في لهجاتها كالفساسنة
والمناذرة وبعض اليمانيين وعرب نجد والحجاز وهي على كل حال مفاخر مجيدة
وان كانت لا تشكل الا جزءاً يسيراً مما قدمه العرب .

٢ - النظرية المتوسطة :

وهي التي تعتقد بأن سكان الجزيرة العربية وسورية الطبيعية والمراق
كانوا منذ أقدم الازمنة عرباً لا فرق في ذلك بين كلداني وآرامي ، فينيقي
وغساني ، بابلي وتدمري ، ما داموا جميعاً قد انطلقوا من الجزيرة العربية
على شكل هجرات بشرية متتابعة في عصور مختلفة ، وترجع هذه النظرية
اختلاف لهجات بمض الاقوام العربية الى الازمنة الفاصلة بين هجرة

بل منها وهجرة الآخر مما يجعلها تكسب خلال تطورها صفات جديدة الى حد ما .

ومعنى هذا أن السامى والعربي إنسان واحد وان اختلفت الفروع في مظاهر جزئية .

وليس من عملنا اليوم أن ندخل في بحث تاريخي لتحليل الوثائق الكتابية وغير الكتابية ، الحجرية والفخارية ، والنش على عظام الموتى قبل آلاف السنين وان كان هذا العمل جيداً بالتقدير وواجباً محتوماً علينا تلميه الروح العلمية والرغبة في معرفة كل شيء عن ماضي وطننا وتطوره ، ونحن اذا لم يقم من بيننا رجال لخدمة هذا العبد ، استغل المستعمرون الفراغ ، وارسلوا مختصيهم ليدرسوا أصلنا وفصلنا وحسبنا ونسبنا ويصورها كما تريد وزارات خارجياتهم ، وفي انتظار أبحاث علمية عربية جدية حول هذا الموضوع نجد أن الحاكمة العقلية لا تعارض النظرية المتوسطة بل ترى فيها تعليلاً جيداً للتقارب الجوهرى بين لهجات الاقوام السامية وصفاتها الحضارية ، والاندماج السريع الذي تم بين سكان هذه المناطق وبين الوافدين الجدد من الجزيرة العربية .

ومما هو جدير بالذكر أن النظرية المتوسطة تبعده عن الاصل العربي سكان مصر القديمة عدا المكسوس وانباء شهاب افريقيا العربي والسودانيين القدماء .

٣ - النظرية الواسعة :

وهي تطابق تماماً بين العرب كأمة والعرب كعرق ، وتجد أن العرب قد سكنوا في الجزيرة العربية وسورية الطبيعية داخلاً وساحلاً والعراق ومصر والسودان وبقية نواحي افريقية العربية .

وهي تعتمد على بعض الوثائق التاريخية لاثبات وجهة نظرها . فقد ورد عند ابن الاثير (١) مثلاً ، ما يؤكد انتساب البربر الى اجداد عرب كعمليق وسبأ ، وانتساب سكان مصر القدماء الى اجداد مشاهيرين . وهو يضع جرهم والانباط وطسم وجديس وعاد وثمود الى جانب البربر كصنهاجة وكثامة وسواهما ، بالاضافة الى سكان مصر القديمة وبقية القبائل العربية المعروفة في قائمة أصل واحد .

وإذا كان ابن الاثير يتحدث كالمؤرخين القدماء الذين تحتاج اقوالهم الى التمهيص والتدقيق فلا شك أن إغفال المستعربين والشعوبيين لآراء مؤرخي العرب القدماء واهتمامهم بآراء أخرى ليدل على أن قضية أصلنا لم تجد شهوداً عدولاً بعد . ولا شك أن تصفح كتبنا التاريخية القديمة سيقدّم ذخيرة كبيرة من أمثال هذه الآراء تفرض نفسها على الباحث بحيث لا يجد بداً من التعرض لها باحترام .

ويذكر أنصار النظرية الواسعة أن مصر وشمالى افريقيا لا بد وان يكون الذين قد عمروها قديماً قد وفدوا عليها من الجزيرة العربية عن طريق باب المنذب وسيناء ، إذ أن القارة الافريقية لم يعرف عنها أنها نقطة انطلاق للهجرات بل هي محل استقبال رحب لها . والهجرات عادة تتبع الطرق البرية التي لا تعترضها ممرات مائية واسعة كطريق باب المنذب . وتدل بعض اللوحات المصرية القديمة على أن مصر كانت تتعرض كثيراً لغزوات تفد إليها من الشرق ، فاذا استطاع سكان الوادي ان يتغلبوا عليهم ، لم يردوهم على اعقابهم الى سيناء فالشام خوفاً من

(١) الكامل في التاريخ - الجزء الاول ص ٤٩ وما يليها .

عودتهم الى الهجوم ، بل كانوا يفتحون لهم معابر النيل وجسوره لينطلقوا الى الشمال الافريقي الحصب الفسيح .

ويروى أن قوماً صدوا الى الشام من جوف الجزيرة العربية فتغلب عليهم ملك (اذرعات) ولعلها درعا أو ازرع اليوم ، فأثر الا يعيدهم الى جزيرتهم خوفاً منهم وجمعهم تحت رئاسة رجل اسمه افريقش ليذهب بهم الى المغرب ، فلما ان وقف فيهم افريقش خطيباً ازعجته ضوضاء احاديثهم واثاره انصرفهم عن سماع اقواله فقال لهم زاجراً (الا اصمتوا ما اكثر بربرتكم) . فدعوا بالبربر من يومهم ذاك .

ويروى ابن الاثير في كامله (١) ما يلي :

« وأما من بقي من الجبارين (٢) فإن افريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، مر بهم متوجهاً الى افريقية فاحتملهم من سواحل الشام فقدم بهم افريقية ، فافتتحها وقتل ملكها جرجير ، واسكنهم اياها فهزم البرابرة ، واقام من حمير في البربر صناجة وكثامة فهم فيهم الى اليوم »

واصحاب هذه النظرية يستخدمون حسن الاستقبال الذي لقيه العرب في مصر عند الفتح برهاناً على القرابة بين الوافدين والقاطنين اذ لم يقاوم جيش الفتح الا الرومان وحدهم وسارت الامور في مصر بمد جلاءهم بكل هدوء وود وانسجام ، ويرون أن ثورة البربر لم تقم نتيجة الخلافات البشرية بينهم وبين العرب بل بتأثير ظروف سياسية ودينية معينة .

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ص ١٢٤

(٢) الجبارون : قبيلة من قبائل العرب

ونمود الى القول بأننا لا نعلق مصير عروبة أي قطر عربي بأصل
سكانه ولكننا نؤكد ايضاً أن الثقافة الاستعمارية بذات جهدها لكي لا
تطلعنا الا على بعض الفرضيات حوله دون فرضيات أخرى ، وسعت الى
اظهار ما يخالف مصالحها بظهر السخف الذي لا يستحق مناقشة مع أن
الروح العلمية امتدت بعالمين من علماء فرنسا ، ارسلتها حكومتها ليثبتا
اختلاف البربر والعرب ، وبعد الشقة بين الاشقاء ، وبعد أن اجريا بحوثها لم
يستطيعا ان يتبينوا الا التشابه والتوافق العرقي والحضاري بين العرب ومن تسميهم
فرنسا بالبربر (١) .

والخلاصة إن الوطن العربي يلاؤه العرب الذين جمعهم روابط اللغة
والتاريخ والمفاهيم الاخلاقية والذوق المشترك والمصير المشترك ، ولم تعد دعوة
القومية العربية جديناً نخاف عليها من هذا الرأي أو ذاك .

واننا اذ نستحث جهود المختصين ليصلوا بنا ولو من أجل العلم
فقط الى رأي حاسم البراهين في قضية الاصل ، فاننا نلفت انظار بعض
الشباب المتحمس الى أن المفرضين كثيراً ما يستغلون حماسهم فيعمنون
الاعتزاز بآثار الفراعنة والآشوريين والفينيقيين مثلاً على انها مصرية أو
سورية ، وحين يخرجون يدعون انهم من انصار النظرية الواسمة فهم لا
يعتزون الا بأجاد عربية أما نواياهم فهي اقليمية بحتة . ونفرق هنا بين
المفرض والمتحمس عندما نرى الاسم الذي يطلقه ويلاح عليه لهذه الآثار
والاجاد ، فمن يكتب مقالاً عن اهرام الفراعنة يقضي معظمه مفتخراً بمصر
وحدها ولا يذكر العروبة الا نادراً تلبية للضرورات السياسية ، ندرك أنه
اقليمي ادعى القومية العربية ادعاءً ، ومن يلقي خطاباً عن الفينيقين أو

(١) شانتر وبرتلون - دراسة الاقوام في افريقيا الشمالية .

البابليين أو الآراميين يملؤه بالعصبية لسورية أو العراق ويساير السامعين
فيفرحهم بذكر العروبة أحياناً ، نفهم أيضاً أنه اقليمى متفكر بشباب الدعوة
العربية دون ان تصلح له ويصلح لها . ومن كان جدياً في اتباعه النظرية الواسعة
أو المتوسطة زاه يلح على العروبة عند روايته للاجماد السابقة ويحاول دائماً
ان يتبين وجوه التشابه الجوهرية بين الاقوام العربية العديدة التي يعرفها وطننا
منذ أقدم العصور .

ومنجد عند دراسة ديموغرافية سكان الوطن العربي ما يبرهن
على وحدتهم .

ثانيا - ديموغرافية الوطن العربي

تمهيد

لدراسة السكان أهمية عظمى ، فعلى الصعيد العالمي تجد معظم الاحداث التاريخية الهامة من غزو وحروب وفتوحات تفسيراً لها في اعتبارات عدد السكان ، ويرجع معظم الفضل في قوة امتنا وفتحوحاتها في عهد الخلفاء الراشدين وما بعده الى حيوية السكان في تلك الحقبة والى الميدان الرحب الذي كان يفتح امام المواهب الفذة المدعومة بالعمدة بالعقيدة . وفي يومنا هذا نرى ان التقدم الذي احرزته الدول الكبرى ، ما كان ليبلغ المستوى اللائق لولا وثبة سكانها .

وعلى العموم لا يخفى ما لاحصاء الثروة البشرية من اهمية في الدراسة الاجتماعية ، لا سيما في المجال التخطيطي ، ولطالما كان العدد هنا ، اوضح تعبيراً واكثر دقة من سفر وصفني ضخم .

فنحن بحاجة الى دراسات كهذه في مجال القوات المسلحة حيث يمكن معرفة تركيب السكان وطبيعة هذا التركيب ، وحيث تطرح اسئلة كهذه : ما نسبة الشبان الذين يمكن تجنيدهم ؟ وما نسبة من يستفاد منهم في الاحتياطي ؟ وما نسبة من يؤمل تسليحه في المستقبل ليسهم في الدفاع عن الوطن وفي تحريره ؟

وفي مجال الاقتصاد ، تيسر لنا الدراسة السكانية معرفة ماهية السكان ومستوى فهومهم ، وهل معظمهم من الفتيان أم من الشيوخ ، وهل يمكن فتح مشاريع انمائية وصناعية جديدة يمكن ايجاد الايدي العاملة اللازمة لها ؟

وفي مجال الخدمات ، تطرح مشكلة تأمين المعلمين والاماكن والاثاث للزمين ، اي لمن بلغ من الاطفال سن الدخول الى المدرسة الابتدائية ، كما تطرح مشكلة توجيه الطاقة البشرية الى مختلف فروع الدراسة بحيث تؤمن حاجات المستقبل لأمد قريب أو لأمد بعيد .

وفي مجال الصحة يقتضي التعرف على الامراض المنتشرة لمعرفة ما اذا كان السكان في حالة صحية ملائمة أو غير ملائمة والمدي الذي يمكن تأمينه في سبيل الوقاية من الامراض ومكافحتها لرفع المستوى الصحي في البلاد ، بحيث يكون الافراد فعالين منتجين .

هذا وتتطلب الدراسة العلمية للسكان معرفة الاحصاءات الحيوية التي تبحث في تعداد السكان وتوزيعهم حسب السن والجنس وتبين الاجل المتوسط وتنوع تغير السكان بالولادات والوفيات ، وتغيرهم الاصطناعي بسبب الهجرة والحروب . ولا مناص من الاستعانة باحدث الاحصاءات عن السكان الصادرة عن الدوائر الاحصائية ، أو مديريات الأحوال المدنية ، لمقارنة التطورات الحاصلة بالسكان أثناء القيام بدراسة السكان .

مصادر البيانات السكانية :

ان مجموع السكان في أي مجتمع من المجتمعات يتغير دائماً ، فحجم هذه المجتمعات يتغير وأفرادها كذلك ، وقد تكون هذه المجموعة قصيرة الأجل

وقد تعمر طويلاً ، وقد تكون كثيرة الخصبية كما قد تكون قليلة الولادات ، وقد تبدل بالهجرة من المجتمع الى سواه أو من المجتمعات الأخرى الى المجتمع المدروس .

وهناك ثلاث طرق مختلفة للوصول الى بيانات سكانية :

١ - طريقة سجل الاحوا المدنية :

وهو سجل تدون فيه الأحداث الحيوية وأحداث أخرى هامة ، مثل : الوفيات والمواليد والهجرة والزواج والطلاق وما شابه . . . وهذا السجل هو المورد الرئيسي للمعلومات المتعلقة بالأحداث السكانية في الكثير من المجتمعات .

٢ - طريقة التعداد :

وبواطئها نحصل على عدد السكان في زمن محدد . وقد قامت سورية بتعداد سكانها عام ١٩٦٠ لآخر مرة ، وكذلك الامر بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة .

وتعطينا هذه الطريقة الكثير من المعلومات عن الأحوال البشرية في المجتمع كعدد السكان الاجمالي ، وتوزيع السكان حسب الجنس ، أو حسب السن أو حسب المهنة أو حسب المنشأ وهكذا ...

٣ - طريقة المسح :

والمسح طريقة في تسجيل البيانات السكانية في مجتمع من المجتمعات بواسطة أسئلة معينة ، وعقب انتقاء فئة من السكان ليحيبوا على الامثلة المذكورة .

وأهم طرائق تحديد العينات المدروسة الطرائق التالية :

أ - العينة العشوائية : وفيها تمنح جميع وحدات المجتمع التي ينبغي تطبيق البحث عنها فرصة متكافئة للاختيار ، كأن يعطى الأفراد أرقاماً متسلسلة توضع في اناء ونمزج مزجاً كافياً ، ثم يلجأ الى سحب عدد البطاقات المطلوب على الا تنقص نسبة البطاقات المسحوبة عن ١٠٪ من مجموع الافراد .

ب - العينة الطبقيّة : هنا تحدد أولاً النسب المطلوب توافرها في العينة من الجنسين أو من فئات الاعمار أو من المستويات الثقافية أو الاقتصادية ، ثم يترك الباحث ليتبع الطريقة العشوائية في حدود النسب المحددة .

ج - العينة المنتظمة : وتتميز بانتظام الفترات بين وحدات الاختيار فبعد اعداد الكشوف باسماء الافراد وأرقامهم يختار الاول من بين التسعة الاوائل وليكن السابع ، ويضاف عشرة الى هذا الرقم ، بحيث تتكون العينة من الأفراد ذوي الارقام ٧ - ١٧ - ٢٧ - ٣٧ ...

١ - فوائد الدراسة الديموغرافية :

لا شك أن السكان يكونون أهم عنصر في البناء الاجتماعي الى جانب النواحي الجغرافية وموارد الثروة الطبيعية ودرجة التقدم الاقتصادي والتقني Technique وطبيعة البنية السياسية والقومية ، وتتجلى هذه الاهمية في المظاهر التالية :

١ - فن الناحية العسكرية ، تحتاج الجيوش الحديثة الى الاعداد الغفيرة من القوى البشرية ، رغم التقدم التقني الذي ظهر مؤخراً في هذا المجال . فالصواريخ الموجهة مثلاً تحتاج - رغم آليتها - الى رجال يخدمونها وينقلونها ويصلحونها .

هذا بالنسبة للناحية الهجومية، أما بالنسبة للناحية الدفاعية فإن ضخامة عدد السكان تعتبر اذعألكل عدوان، لأنه مع زيادة العدد تزداد اعداد القوات المرابطة بالقاهرة.

٢ - ومن الناحية الاقتصادية ، يعتبر السكان قوة تكفل المزيد من الانتاج لتوفيرها اليد العاملة اللازمة ، فكل انطلاقة في هذا المجال يجب أن ترفق بطاقة بشرية كفيلة بتسيير عجلة الصناعة والزراعة والخدمات بصورة مناسبة .

ومن الناحية الاستهلاكية ، يعتبر السكان مصدراً للقوة لما تتيحه ضخامتهم من تطوير في الانتاج ومن انتقال من انتاج صغير الى انتاج كبير ، وفي فرض سيطرة المجتمع على السوق الدولية من حيث فرض شروطه الاقتصادية الخاصة .

كما يساعد العدد الكبير من السكان على ظهور المزيد من تقسيم العمل ، مما يتيح توفر الاختصاصيين في كل مجال من المجالات الاقتصادية .

٣ - ومن الناحية النفسية فإن العدد الضخم من السكان يولد الثقة والاطمئنان والزم والكرامة لدى افراد المجتمع ويشبع لدى اعدائه الفرع والمهلع، كذلك فان له عظيم الاثر في المواقف الدولية .

٤ - ومن الناحية العملية والتطبيقية ، فان كل عملية تخطيط اجتماعي في المجال الاقتصادي أو الثقافي أو الصحي اما تحتاج كما رأينا الى حصر للقوى البشرية بواسطة دراسة ديموغرافية واعية .

٢ - توزيع السكان في الوطن العربي :

حينما نستعرض الجداول الاحصائية لعدد السكان وكثافتهم في الاقطار العربية وبقاع تلك الاقطار ، نلاحظ ان العرب وهم قوم يزيد عددهم عن ٨٦ مليوناً من الناس اليوم ، ينتشرون على ارض تزيد مساحتها على ١١ مليون كم^٢ ، فيتكاثفون ويتخلخلون حسب عوامل متشابهة في سائر اقطارهم ، وأهم هذه العوامل هي :

آ- البيئة الطبيعية : وينعكس هنا التقسيم الرئيسي لأرض الوطن العربي بين ساحل مطر وجبل وسهل داخلي وصحراء ، إذ تجتذب السواحل بمناخها المعتدل وامطارها الكثيرة وترتبتها الجيدة وتجارتها الواسعة اعداداً أكبر من السكان ، فنرى مثلاً ان الكثافة في لبنان وهو منطقة ساحلية تبلغ ١٣٣ نسمة بالكم^٢ وفي اللاذقية /١٠٤/ ، وفي القطر الواحد يتجمع السكان في المدن الساحلية بشكل واضح كالاسكندرية والجزائر والدار البيضاء .

أما الجبال فهي ذخيرة لغيرها اكثر منها ذات نفع لمن يسكنونها ، فسكانها قلائل نسبياً لوعورتها وضيق مساحة الارض القابلة للزراعة فيها . ولا تشذ عن هذه القاعدة الا جبال تدخلت في كثافة سكانها عوامل اخرى ، كالمازهاب الدينية والاصطياف .

أما السهول الداخلية فتضم اعداداً من السكان أكبر من المفاطق الساحلية لا لأن كثافتهم فيها اعظم بل لانها واسعة بالنسبة للسهول الساحلية .

وأما الصحارى فمناخها وفقرها بالزراعة يجعلانها قليلة الاغراء للسكان ، وتكون نسبة الكثافة فيها منخفضة جداً ، وحين نجد ان قطراً عربياً كالجزائر ، قد انخفضت فيه الكثافة بشكل ملحوظ حتى بلغت ٤ بالكم^٢ فما ذلك الا لانطباق هذه القاعدة العربية عليه .

ب - العوامل البحرية :

ولا يتوزع السكان في الوطن العربي حسب البيئة الطبيعية وحدها ، بل ان للعوامل البشرية اثرأ قد يبلغ احياناً مدى يفوق ما لتطبيعة من تأثير ، إذ أن كثيراً من الماذهب الدينية قد اضطرت في فترات تاريخية معينة دفاعاً عن نفسها الى تجميع كتل من السكان كبيرة في ارض ضيقة

قليلة الموارد . ومن الامثلة على ذلك ارتفاع الكثافة في جبال العلويين وجبل لبنان واليمن وبعض مناطق العراق ..

وان شعور فئة من السكان بأنها تنسب الى عشيرة واحدة كان يدفعها الى الانطواء على نفسها والتكتل في ارض واحدة سواء اكانت مدينة او جبلاً ، كالاشوريين في سورية على اطراف الخابور ، والاكرادو الجبل المعروف باسمهم والبربر في بعض ارجاء المغرب العربي والارمن في احياء خاصة من المدن واليهود فيما يسمى باحياء الملاحات في المغرب .

ونحن هنا لا نناقش ضرر هذا الشعور أو فائدته وحقيقته أو بطلانه ، وانما نقر واقماً املته الظروف التاريخية التي لو مرت على سوانا لجمعت كل اسرة امة قائمة بذاتها .

ومن العوامل البشرية ايضاً ما يأتي عن السياسة وما ينتج عنها من غزو واستعمار يقذف بالاغانب الى ارض وطننا حيث ينطوون على انفسهم ويتجمعون في مفاطق متقاربة ، كالمستعمرين في الجزائر الذين يتجاوز عددهم المليون ، والذين يتكدسون في الاراضي الزراعية الغنية ، والصهونيين الذين تراكموا في فلسطين نتيجة المؤامرات الدولية .

ج - العوامل الاقتصادية :

يجلب الازدهار الاقتصادي اعداداً من السكان متزايدة ، كما أن التأخر ينفّر الناس ويمنهم من الهجرة الى المنطقة المتخلفة . واذا كانت البيئة الطبيعية تندخل في جوانب هامة من الحياة الاقتصادية وتندمج معها ، فمن الاقتصاد مع ذلك نواح لا تخضع مباشرة للطبيعة كمنشوء الصناعة في المدن التي تجتذب الوافدين من الارياف والجبال، حتى اصبحت القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد والجزائر من اكبر اماكن التحشيدات البشرية على الارض العربية .

ونهرع السكان الى مناطق جرداء أحياناً اذا ما اكتشفت فيها
الثروات الطبيعية ، كأن يستخرج البترول في منطقة ما أو الفوسفات أو
الحديد أو سواه ، دون النظر بعين الاعتبار الى قسوة المناخ أو
عدم توفر اسباب الحياة الرغيدة ، ولهذا تكاثف السكان في الكويت
والبحرين والظهران ، والصحراء الجزائرية والمناطق التعدينية في مصر
والمغرب العربي .

وإن النتائج التي نستخلصها من دراسة توزيع السكان في الوطن
العربي هي الآتية :

(١) تتجلى وحدة الامة العربية في توزيع ابناءها وخضوعهم لعوامل
متشابهة خلال تكاثفهم أو تخلخلهم في هذه المنطقة وتلك . ويبدو واضحاً
ان الحدود السياسية لا أثر لها على انتقال العرب وتجمعهم في اجزاء وطنهم
المترامي الاطراف ، فحين يستخرج البترول في الكويت يخترق العرب
الحدود اليه ، وحين تتعاضم الصناعة في القاهرة يقصدها العرب من سائر
الانحاء . . . ويندفع ابناء الصحراء او الاراضي التي اصابها القحط في بعض
السنين الى السواحل أو السهول الخصبة وينتقل البدو باغنمهم باحثين عن الكلاء
والماء دون ان يحترموا ما أقام الاستعمار من حدود .

(٢) الوطن العربي قليل السكان عموماً فكثافته العامة لا تتجاوز
٨ أشخاص بالكم ٣ الواحد ، كما أن اعلى كثافة فيه لا تتجاوز /٣٠٠/
في حوض النيل .

وإذا كانت الصحراء تلعب دوراً كبيراً في خفض الكثافة ، فلا
شك ان السكان العرب ما يزالون اقل بكثير مما تحتاجه البقاع العربية

الخصبة وتزداد هذه الحاجة بعد اكتشاف الثروات الطبيعية المعدنية الخبوة في اعماق الارض العربية حتى الصحراوية منها .

(٣) والوطن العربي مستعرض لغزو ديموغرافي أجنبي ، فوجود الفرنسيين الى جانب الايطاليين والاسبان واليونان في القسم العربي الافريقي، ووجود اليهود في فلسطين والاقليات الهندية والفارسية المنتشرة في ارجاء جزيرة العرب ، ادلة على أن قلة سكان هذا الوطن أغرت الاغراب فيه ، ولو أن اسباب ضعف الكثافة اقتصادية او طبيعية بحتة ، لما ترك الاوروبي ترف بلاده وقصد الارتزاق واللصوصية في أرضنا .

جدول بتوزع السكان في الوطن العربي (١)

الدولة	عدد السكان	المساحة بالكم ^٢	الكثافة السكانية بالكم ^٢
الجمهورية العربية المتحدة	٢٦٩٤١٦٠٠٠	١٠٠٠٦٠٠٠	٢٦٠٤
الجمهورية العربية السورية	٣١٧٥٥٠٠٠٠	١٨٤٦٧٤٩	٢٠
الجمهورية اللبنانية	١١٣٢٠٦٠٠٠	١٠٦٤٠٠	١٢٧
الجمهورية العراقية	٥١١٠٠٦٠٠٠	٤٤٤٦٤٤٢	١١٦٥
المملكة العربية السعودية	٧٠٠٠٠٠٠٠	١٦٦٠٠٦٠٠٠	٤٦٤
الأردن	١١٢٣٠٦٠٠٠	٩٦٥١٢	١٣٦٨
الجمهورية السودانية	٨٦٧٦٦٠٠٠	٢١٥٠٥٧٠٠	٣٦٥
الجمهورية اليمنية	٤١٥٠٠٦٠٠٠	١٩٥٠٠٠٠	٢٣
الجمهورية الجزائرية	٩١١٥١٦٠٠٠	٢٠١٩١٢٦٤	٤٦٢
المملكة الليبية	١١١٥٠٦٠٠٠	١١٧٥٩٦٥٤٠	أقل من ١
الجمهورية التونسية	٢١٦٠٠٠٠٠	١٥٥٠٨٣٠	٢٠٦٣
المملكة المغربية	٩٠٠٠٠٦٠٠٠	٣٩٠٠٨٠٠	٢٣
مراكش المحتلة من إسبانيا	١١١٦٨٦٠٠٠	٤٥٠٨٦٩	٢٩
طنجة	١٧٠٠٠٠٠	٠٠٣٤٩	
عمان	٥٥٠٠٠٠٠	٢١٣٦٤٠٠	٢٤٦
قطر	٢٠٠٠٠٩	٢٢٦٠١٤	أقل من ١
دولة الكويت	٢٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٧١٩	١٢
فلسطين المحتلة	١٦٧٠٠٠٠٠	٢١٦٠٠٠	٨٠
الساحل المعاهد	٨٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٥٠٣
قطاع غزة	٢٩١٠٠٠٠	٠٠٦٠٠	٤٨٥
بحرية عدن	٨٠٠٠٠٠٠	٣١٥٠٩٦٨	٢٦٨
مستعمرة عدن	١٣٠٠٠٠٠	٠٠٢٠٧	
البحرين	١١٢٠٠٠٠	٠٠٥٩٨	١٨٧
المجموع	٨٧٠١٧١٠٠٠	١١١٨٨٠٨٩٢	—

ملحوظة: يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين والأردن ٢١٧٠٠٠ لاجئاً.

٣ - زيادة السكان في الوطن العربي :

يتزايد العرب في هذه الايام بمعدل كبير يصل الى ٢٥ في الالف سنوياً ، اي انهم يزيدون حوالي مليونين نسمة كل عام ، علماً بأننا نحصل على معدل الزيادة الطبيعية للسكان بإيجاد الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات في منتصف سنة الدراسة .

ويحسب معدل الخصوبة في أي مجتمع من المجتمعات كما يلي :

$$\text{معدل الخصوبة} = \frac{\text{عدد المواليد الاحياء خلال السنة}}{\text{عدد النساء الواتي في سن الحمل (١٥-٥٠)}} \times 1000$$

ويمكن تصنيف المجتمعات من حيث درجة خصوبتها كما يلي :

١ - مجتمعات شديدة الخصوبة : وهي التي يزيد فيها عدد المواليد عن ١٠٠ مولود سنوياً لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الحمل . والبلاد العربية داخلة في هذه الفئة ، وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة اكثر مجتمعات العالم خصوبة ، فقد بلغ معدل الخصوبة فيها ١٧٨٦٤ عام ١٩٤٦ .

٢ - مجتمعات ممتدة الخصوبة : وهي التي يتراوح عدد المواليد فيها بين ٧٠ و ١٠٠ مولود سنوياً لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الحمل ومن أمثلة هذه المجتمعات يوغسلافيا (٩٤٦٣) والولايات المتحدة (٨٠٦٣) عام ١٩٥٠ .

٣ - مجتمعات ضعيفة الخصوبة : وهي التي يصل فيها عدد المواليد عن ٧٠ مولود سنوياً لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الحمل . ومن امثلة هذه المجتمعات : سويسرا (٦٠) والمانيا الغربية (٤٩٦٨) عام ١٩٥١ .

أما دراسة تزايدهم فتنقسم الى قسمين :

اولهما معرفة العوامل التي تؤثر على الزيادة سلباً وإيجاباً ، وثانيهما
تتبع حركة الزيادة ونسبتها وماذا يتوقع ان يبلغ عدد العرب في
السنوات المقبلة .

العوامل المؤثرة على زيادة السكان او تناقصهم:

فان بدأنا بالعوامل وجدنا تصنيفات عديدة لها ، وقد تختلف في
العناوين وتتنفق في المضمون ، ونحن سنرجع العوامل المؤثرة على عدد سكان
الوطن العربي الى اربعة :

آ - العامل الفكري :

إن لمعتقدات الشعوب اثرأ كبيراً على تكاثرها ، وتعتبر الاديان في
طليعة المعتقدات التي أوحت الى الناس بالاقبال على الزواج والانجاب ، أو
زهدتهم فيها ، والدين الاسلامي يحض على التكاثر ، فقد كان الرسول (ص)
يطلب المؤمنين بالزواج والتكاثر ويلح عليهم في ذلك الحاحاً .

وبما أن غالبية السكان في الوطن العربي تتبع الدين الاسلامي نجد
ان الاسرة العربية عموماً كثيرة الاولاد ، مما رفع نسبة المواليد وجعلها
تتغلب على نسبة الوفيات حتى في احلك عهود الفقر وتدني المستوى
الصحي والمعاشي .

وتحرم ادياننا موانع الحمل والاجهاض المتعمد اذ تراهما قتلاً للنفس
البشرية وازهاقاً لروح زكية خلقها الله وتمحدياً للارادة الالهية ، مما يزيد في
نسبة مواليدنا لدى غالبية السكان .

وان الفلسفات التي يعتنقها الناس واصدائها الاجتماعية ذات اثر

على عدد السكان ، فأصحاب التثاؤم كالمعري مثلاً ، لا يربدون للناس زواجاً ولا اولاداً ، واصحاب التفاؤل يرون في الطفل بسمة الأمل . ويقوى أثر الافكار في مجتمعنا يوماً بعد يوم ولا يتجلى في حركة المواليد وحدها بل في الهجرة ايضاً ، فاذا كانت الظروف المدينية قد دفعت بعض المهاجرين من الوطن العربي أو غيرت اماكن سكناتهم فيه ، فالنظريات الاجتماعية اليوم تقوم بدور فعال ، إذ قد تبعد أصحاب نظرية من النظريات عن أحد الاقطار يأساً أو تحفزاً وقد يصيهم اليأس فلا يتزوجون وربما استبشروا بالنصر فأقبلوا على الحياة .

ب - العامل الاقتصادي ومستوى المعيشة :

تقضي سنن الاشياء أن تتزايد نسبة المواليد والمهاجرين الى البلد ، تناسباً طردياً مع الازدهار الاقتصادي ، والادلة الواقعية على هذه القاعدة متوفرة ، فقد عملت الثورة الصناعية على مضاعفة عدد سكان اوروبا ، كما ان الازدهار الاقتصادي في امريكا بعد اكتشافها ، اكثر من مواليدها وزاد في عدد قاصديها .

ونلاحظ ذلك في وطننا العربي ، فنحن نزداد وفي نفس الوقت يرتفع دخلنا القومي ، وتعمر اراضينا قطعة بعد قطعة ، أما ما نلاحظه من الاثر المكسي للعوامل الاقتصادية ، إذ يقبل الفقراء على التكاثر بينما يؤثر الاغنياء قلة الاولاد فرده الى عوامل نفسية واجتماعية لا ترتبط مباشرة بالمستوى الاقتصادي وحده وسندرسها بعد قليل .

ويدفع العامل الاقتصادي الفلاحين الى الاكثار من الاولاد لمساعدتهم على زراعة الارض وجني خيراتها وربما رغب الفقير في الاولاد على كثرتهم تزيد من الدخل المشترك للعائلة . ونجد اثر العوامل الاقتصادية

على تزايد السكان في المناطق التي صُنعت أو اكتشفت فيها الثروات الدفينة .
وقد دفع افقار الاستعمار الفرنسي لمرب الجزائر اعداداً كبيرة منهم تبلغ
مئات الالوف الى الهجرة من موطنهم بحثاً عن الرزق في فرنسا وغيرها من
البلدان الاوروبية .

ج - العامل الاجتماعي :

ان للتقاليد دوراً هاماً في حض الناس على الزواج أو ابعادهم عنه ،
فمن نشأ في مجتمع قامت مفاخر الأسر فيه على كثرتها يرغب في ان لا
تقل اسرته عن سواها عدداً . ولعل عامل التقاليد هذا من اكبر
الدوافع التي تجعل الفقير والجاهل مكثرين من الاولاد ، فأغلب الفقراء
وكل الجهال تقريباً يسرون في حياتهم وفق التقاليد التي توارثتها اجيال مجتمعهم
ولا يخرجون عنها .

ومن العوامل الاجتماعية عدا التقاليد نلاحظ أن الاستقرار والامن
هامان في اقدام الناس على الزواج أو الانصراف عنه وفي الاكثار من
الاولاد أو الرغبة في قتلهم ، وفي الهجرة من الوطن أحياناً . فالمجتمعات غير
المستقرة قد يتركها بعض ابنائها ، وبما أن الاستقرار والامن يرتبطان بالسياسة
فانها ذات أثر كبير على حركة الزواج والمواليد والهجرة .

ونحن جميعاً نعرف أن إقبال مسكان منطمة القلمون في سورية على
الهجرة خارج الوطن راجعة عموماً الى فقدان الاستقرار بتأثير الظروف
السياسية زمن الحكم العثماني .

ولا يهاجر الريفيون الى المدن طلباً للرزق فقط بل كثيراً ما تكون
هجرتهم راجعة الى انعدام الامن في مناطقهم النائية .

وتتواضع الطبقات الاجتماعية عادة بشكل عفوي على تقاليد واعراف خاصة في مسألة كبر الاسرة أو صغرهما . فالوسرون والمتعلمون عموماً يمتادون قلة الاولاد لأسباب عدة منها ما اوردناه في العامل الاقتصادي ومنها ما سنورده في العامل النفسي .

وتؤثر روح الطبقة على المتسبين الجدد اليها ، فتجعلهم يميلون الى رأيها وخاصة اذا سكنوا احياءها ، فيتركون ما اعتادوا عليه من الرغبة في الاسرة الكبيرة الى ما تعودهم هي عليه من إيشار الاسرة الصغيرة أو العكس .

وكذلك تحرك الاهداف القومية السكان فيقدمون على التوالد اثناء الحروب والنكبات أو بعدها ليعوضوا الطالكين منهم ، ويكون للحكومات هنا ، وللاطلاع السياسية دور هام في التحريض على التناسل لسد الفراغ والتشجيع عليه بشتى أنواع المغريات ، وقد كان للجهاس القومي في المانيا النازية أثر فعال في نقل هذه الامة من مصاف الشعوب ذات الولادات القليلة الى مستوى الشعوب ذات الولادات المتوسطة ، واذا طبقنا هذه القاعدة على الوطن العربي نجد ان اللاجئين الفلسطينيين يتوالدون بنسبة مرتفعة جداً بعد نكبتهم على الرغم من الظروف المعاشية السيئة التي يحيون فيها ويصدق الامر نفسه على بقية الاجزاء العربية المتبتلة بالاستعمار .

د - العامل النفسي :

وندرس هنا أثر العوامل الفردية البحتة في تزايد السكان وتناقصهم . توالداً وهجرة . فالامزجة والطبايع الشخصية تختلف في نظرتها الى عدد أفراد الاسرة ، إذ لا يتحمل العصبى ضواء الاولاد ويؤثر الانطوائيون

البعد عن البيت الكبير ، أما أصحاب الامزجة الهادئة والانبساطية فيتهجون بوجودهم بين العدد الكبير من الاطفال ويفرحون إذ يحاطون بهم دائماً ، واناية الفرد قد تدفعه الى طلب العدد الكبير من الابناء تقوية لجانبه ورفعة لشأنه وقد تحمله على الانصراف عن طلبهم لثلا يصبح مجهداً تبعاً في سبيلهم . وان وعي الفرد لمطالبه وحاجاته يدفعه عادة الى الاقلال من الاولاد ، ولهذا أثر المتعلمون ولو كانوا فقراء ان يختصروا من عدد الاولاد لأنهم ادركوا ان الحاجات الاساسية للحياة السعيدة ليست هي الخبز وحده بل هي الغذاء الجيد والملبس الحسن والمسكن الصحي والتعليم الملائم والترويح عن النفس ، وشعروا أنهم عاجزون عن تأمين هذا المستوى الجيد لاولادهم اذا أصبحوا وافرين ، ويشبه الفني المثقف من هذه الناحية وان زاد عليه الرغبة في عدم توزيع ثروته وهو أمر اقتصادي .

وإذا كان المثقفون العرب ما يزالون قلة بالنسبة الى جمهور الاميين وبالتالي لم يظهر أثر هذا العامل النفسي بصورة حادة ولم يؤثر بعد تأثيراً بالغاً على نسبة المواليد ولم يدفع الى الاكثار من العزاب دفعاً فاحشاً ، فعلياً نغفل دور هذا العامل في المستقبل ما دام الأمل في زيادة المتعلمين من أفراد شعبنا قوياً ، وبدراً الخطر على نسبة الولادات بالسعي الى رفع المستوى المعاشي لجمهير الشعب عامة التي سيتمتخرج المثقفون من صفوفها دون شك .

اما الانطوائيون ومحبو العزلة وعدم التكاثر ، فالتطرفون منهم في شعبنا قلة واكثرنا متوسط بين الانطواء والانبساط مع ميل الى أحد الطرفين دون ان يبلغ نهايته القصوى .

ونحنم دراستنا لعوامل زيادة السكان وتناقصهم بالتنبيه الى أن هذه العوامل متشابكة متداخلة فيما بينها ، وقد تكون لها اثار متضاربة أحياناً ، فربما دفع الوعي الفردي المثقف الى الاقلال من ولده ، وشجعه تقواه على الاكثار منهم ، وقد يطمع الغني في المدد الوفير من الابناء لنصرته وادارة اعماله ، وفي الوقت نفسه يخشى أن تتوزع ثورته وتضيع بعد موته أو خلال حياته اذا ازداد عدد اولاده .

ولسنا في مجال الدراسة النظرية لهذه العوامل وتصنيفها وارجاعها الى واحد منها أو اكثر ، ولكن هدفنا عملي موجه نحو استجلاء حركة السكان في الوطن العربي .

ونلاحظ ان العامل الديني وعامل التقاليد ما يزالان في طليعة المؤثرات على حجم الاسرة وعدد الاولاد في أسرنا العربية ، فلا نجد اذا رأينا ان الزيادة هي الاتجاه الواضح لسكان هذا الوطن .

حركة السكان في الوطن العربي :

بعد أن عرفنا العوامل التي تؤثر على حركة السكان ، لنستقرىء الآن الاحصاءات ولنعرف كيف تتم هذه الحركة في بلادنا وهل يتزايدون بكثرة أم ببطء ، ومن المعلوم أن معدل زيادة السكان أو نقصهم يستنتج من اضافة عدد المواليد اليهم في كل سنة من السنوات وطرح عدد الوفيات كما يضم اليهم عدد المهاجرين الى الوطن وي طرح منه عدد المهاجرين منه ، كما يلي :

$$P = M + M - M$$

حيث تمثل P نمو السكان و M (معدل المواليد و M) معدل

الوفيات و (م م) معدل الهجرة . وتكون (م م) عموماً صغيرة في أكثر المجتمعات بالنسبة لـ (م م) و (م و) . فبحثنا هنا منقسم الى شقين طبيعيين ، أولهما معدل الولادات والوفيات والفرق بينهما وثانيهما الهجرة وماذا قدمت للوطن العربي وما جرته عليه .

آ - المواليد والوفيات :

تحتسب نسبة المواليد باحصاء عدد المواليد في سنة معينة لكل ألف من السكان وتستخرج هذه النسبة بقسمة عدد المواليد في سنة معينة على عدد السكان مضروباً بألف .

وهذه معادلة حساب معدل المواليد :

$$م م = \frac{م}{ق} \times 1000$$

حيث (م م) هو معدل المواليد العام لسنة ما . (م) تمثل مجموع عدد المواليد لتلك السنة ، (ق) تمثل مجموع السكان في اول تموز من تلك السنة .

اما نسبة الوفيات فتحتسب باحصاء عدد الوفيات في سنة معينة في مجتمع ما لكل الف من السكان ، وهذه معادلة حساب معدل الوفيات :

$$م و = \frac{و}{ق} \times 1000$$

حيث (م و) هو المعدل العام للوفيات لسنة ما ، (و) تمثل المجموع

العام للوفيات خلال تلك السنة ، (ق) تمثل مجموع السكان .

اما وفيات الاطفال فيحسب معدلها لكل الف من الوفيات العامة ،
لا من مجموع السكان ، كما هو الحال بالنسبة للوفيات العامة ، فيحسب ع - د
وفيات الاطفال الذين هم دون الستين على عدد الوفيات العامة بالالف .

والشعب العربي شعب فتى خصب ، إذ أن معدداً الولادات في سائر
اجزائه يفوق معدل الوفيات ، بنسبة وسطية تتراوح بين ١٥ بالالف و ٣٤
بالالف . ولو توفرت الخدمات الصحية للعرب لبلغ الفرق بين مواليدهم
وفياتهم ما ينوف على الاربعين بالالف في كل عام ولكنهم يزدادون رغم
انخفاض المستوى الصحي والمعاشي ، ويزداد اقتناعنا بقوة شعبنا ما تسدل
عليه الاحصاءات من كثرة الاطفال بالنسبة الى الشيوخ ، فالشباب منهم
يتجاوزون ٤٠٪ وسطياً من سكان الوطن العربي اذا اعتبرنا سن الخامسة
عشرة نهاية لطفولة ، هذا على الرغم من كثرة الوفيات بين اطفالنا ، إذ
انها تتراوح بين ١٢٠ الى ٢٥٠ بالالف في حين انها لا تزيد عن ١٨ بالالف في
السويد وعن ٣٧١٨ في فرنسا .

وتؤثر فتوة الشعب العربي على اقتصادياته وتوزيع الاعمال فيه إذ
تحمّل عدداً محدوداً من الشباب والرجال اعباء إعالة أكثر من ثلثي السكان
اذا اضعفنا الشيوخ والنساء الى الاطفال ، إذ يجب ألا ننسى ان أكثر
نساءنا لا يشغلن خارج البيت .

وإليك الجدول التالي الذي يبين معدل الولادات والوفيات بالالف في عدد
من أقطار الوطن العربي والفرق بينها :

الفرق بالالف	الوفيات بالالف	الولادات بالالف	الفطر
١٩	٣٤	٥٣	سوريا
١٧	٢٨	٤٥	لبنان
١٨	٣٠	٤٨ (مسلمون)	فلسطين (قبل الهجرة)
١٧	٢٠	٣٧ (مسيحيون)	
١٧٥٥	٦٥	٢٤ (يهود)	
٢٤	١٩	٤٣	الاردن
١٧	٣٨	٥٥	العراق
١٢	٥٠	٦٢	السعودية
١٨	٤٢	٦٠	الساحل المعاهد واليمن
٢٠	٤٠	٦٠	عدن
١٥	٢٧	٤٢	مصر
٢٠	٢٥	٤٥	ليبيا (برقة)
٢٠	٢٢ (وسطياً)	٤٢	تونس
١١	٢٥	٣٦	الجزائر
١٣٦٨	٢٧٥٢	٤١	المغرب العربي

ب - الهجرة :

الهجرة تعريفاً هي انتقال الانسان من بيئة اجتماعية الى بيئة اجتماعية جديدة دون أن يكون هناك تصميم واضح على العودة الى البيئة الاولى .

ويتغير عدد السكان بسبب الهجرة اذ تزيد الهجرة الى البلد من عدد السكان ، كما ينقص عدد السكان بسبب الهجرة منه ، ونستطيع بالطبع ان نتوصل لحساب معدل الهجرة بالمعادلة التالية :

$$1000 \times \frac{ه}{ق} = م$$

حيث (م) تمثل المعدل العام لموضوع البحث اسنة ما ، (ه) تبين الفرق بين المهاجرين الى البلاد ومنها ، (ق) تمثل مجموع السكان .

وللهجرة اسباب مختلفة يمكن اجمالها بما يلي :

أ - الاسباب الجغرافية : قد يهاجر الافراد لاسباب متعلقة بالمناخ أو بطبيعة الارض ، فالعرب يهاجرون كما هو معلوم طلباً للمرعى وانتجاعاً للماء ، كما يهاجر مسكان البادية الفقيرة الى المناطق الخصبة الغنية حيث توجد الطبيعة بالخير .

ب - الاسباب الديموغرافية : عندما تزداد الكثافة في منطقة ما ، فان الناس يميلون الى الهجرة الى المناطق التي تكون كثافتها منخفضة والتي تحتاج بالتالي الى السكان في سبيل استقلال مواردها .

ج - الاسباب الاقتصادية : عندما تتحكم الازمات الاقتصادية في مجتمع ما وتعم البطالة ، فان السكان يميلون الى الهجرة الى المناطق التي تحتاج الى اليد العاملة ، وهذا ما حدا بالسكان الى الهجرة الى الكويت للعمل في حقول النفط أو الى العالم الجديد رغبة في جمع المال ورفع مستوى حياة المهاجرين من الناحية المادية .

د- الاسباب السياسية : قد تم الهجرات بسبب الاضطهاد الفكري أو المذهبي ، وقد تمت الهجرة في مستهل هذا القرن من المغرب العربي الى المشرق العربي بسبب الاضطهاد السياسي الذي استخدمه المستعمرون ضد الاحرار .

هـ- الاسباب النفسية : لا غروى بأن ما لدى الشباب من اندفاع لقشع المجهول ومن حب للمغامرة ومن نشاط وفعالية ، ومن احلام لبناء مستقبل سعيد، هو الذي يدفعهم ويحفزهم الى الهجرة ، لا سيما اذا كان لبعضهم اقارب في المهجر ، وقد سافر الكثير من الشباب السوريين واللبنانيين الى العالم الجديد وكلهم امل في الربح والمستقبل الافضل .

ولا نود أن نقف طويلاً عند بحث هجرة العرب بين اقطارهم المختلفة أو في القطر الواحد من منطقة لأخرى ، فهذه هجرة داخلية لا تزيد ولا تنقص في عدد سكان الوطن كمجموع عام وهي اذا وجهت أحيت الارض الموت ومكنت من استغلال الثروات وساعدت على تعرف أبناء الارض العربية على بعضهم ، وزيادة تفاعلهم وتنمية العلاقات المختلفة فيما بينهم كالصداقات والمصاهرة والاشترك في الاعمال الاقتصادية .

ولكننا سنقف عند الهجرة من الوطن العربي الى خارج الهجرة من البلاد الاجنبية اليه .

أما عن الهجرة الى خارج الوطن العربي ، فقد تعرضت لها بلادنا منذ أواخر القرن التاسع عشر لاسباب منها المذهبي ومنها السياسي ومنها الفكري والاقتصادي . وقد خسرت سورية ولبنان أكثر من مليون

شخص هاجروا الى أمريكا الشمالية والجنوبية أو الشرق الاقصى أو افريقيا ، كما انطلق مئات الالوف من الجزائر الى البلاد الاوروبية بحثاً عن الرزق بعد أن تعمد الاستعمار الفرنسي افقار عرب الجزائر وأعطى أرضهم للمستعمرين الوافدين .

وهذه الهجرة لها محاسنها ومساؤها ، فمن فوائدها ان بعض المهاجرين يثرون في بلاد الغربية حيث تساعد الظلم السياسية والاقتصادية على تقدم ذوي المواهب ، الذين يبيدون ثروتهم كلها أو بعضها الى الوطن ، ومنها أن المهاجر يطلع على ثقافة الامم الاخرى ، ويشاهد عن كثب اساليبها في العلم والعمل ، فينقل المفيد الى بلاده ويساهم في تطويرها اجتماعياً .

أما السيئات فمنها ان الهجرة الخارجية تفقد وطننا كفاءات جيدة كان من الافضل ان تنصرف الى الانتاج والابداع في بلادها وإن سكان الوطن العربي قلة بالنسبة الى مساحته وامكانياته ، فتزيد الهجرة من قلة السكان وتجرمه من ايد عاملة وجهود في البناء تذهب فتعمر البلاد الاجنبية ، وبما ان المهاجرين يكونون غالباً من الشباب والرجال خاصة ، فالتخسارة تكون كبيرة جداً من الناحية العسكرية أيضاً ، لان الجيوش تقوم على الشباب ، ولا ننسى أن الشباب يكونون في سن الزواج عادة فيتركون زوجاتهم أو ينطلقون عزاباً ليتزوجوا في بلاد الغربية وتصبح اعداد كبيرة من الفتيات عوانس مما يؤثر على عدد السكان تأثيراً مضاعفاً إذ لا يحرم المهاجر وطنه من جهوده فحسب بل ومن اولاده الذين كان يمكن ان ينجبهم .

وإذا كان بعض المهاجرين يثرون في أرض هجرتهم ، فان أغلبهم

يظنون عاديين ولا يستطيعون مد وطنهم الام بالمساعدات الاقتصادية ، بل كثيراً ما يعجزون عن تأمين تكاليف العودة . ولا يلجأ كل اغنياء المهاجرين الى تشغيل أموالهم في بلادهم الاصلية ، بل إن قسماً كبيراً منهم يندمجون في ديار الغربية ويصبحون من مواطنيها ولا يفكرون إلا لماماً بمسقط رأسهم ، وربما يلجأ المهاجر العائد الى وطنه من بلاد غربته أحسن ما فيها من علم وصناعة ونظام فقد يستورد لها اخلاقاً وعادات لا تتلائم مع طبيعتها ولا تنسجم مع أهدافها .

ولسنا هنا في صدد سن تشريع يحرم الهجرة الى خارج الوطن العربي ولكننا نؤمن بضرورة التطوير الاقتصادي الذي يفسح مجالات واسعة لآبناء هذا الوطن على اختلاف كفاءاتهم وقابلياتهم ونؤمن بعدم افساح المجال للاستعمار ووكلائه في اثاره الضعيفة بين المواطنين مما يحمل بعضهم على الاغتراب .

اما الهجرة الى الوطن العربي من خارجه ، فقد ظهرت بشكلها الجديد في القرن التاسع عشر أيضاً ولم تزل مستمرة الى اليوم ، إذ أخذ الفرنسيون يتحركون نحو الجزائر إثر احتلالها عام ١٨٣٠ ، وامتدت هجرتهم الى تونس والمغرب وشرق الايطاليون بالهجرة الى ليبيا بعد ان سلم العثمانيون هذه البقعة العربية لهم في أوائل القرن العشرين ، وشارك الاسبانيون وابناء بعض الشعوب الاوروبية الاخرى في هذه الهجرة حيث كانت الدول المستعمرة تعطيهم الامتيازات الممنوحة لرعاياها في البلاد المستعمرة ، وتعرضت مصر لهجرة اليونانيين والاطاليين اليها بعد احتلالها عام ١٨٨٨ من قبل بريطانيا وبدأ اليهود ينظمون هجرتهم الى فلسطين منذ

عهد السلطان عبد الحميد ، ويذكر أحد زعمائهم في مذكراته ان السلطنة العثمانية رفضت ان تسمح لهم رسمياً بإنشاء المستعمرات الصهيونية ويمضي متهمياً أن يكون كل المعارضين للصهيونية شبيهين بهذه السلطنة ، إذ ما لم تقبل به عن طريق المفاوضات قبلته عن طريق الرشاوى والاتفاقيات السرية (١) .

وهكذا انشأ الصهيونيون مستعمراتهم الاولى منذ القرن التاسع عشر، (٢) وبت هجرتهم ومستعمراتهم بعد الحرب العالمية الاولى بتأييد من بريطانيا الدولة المتدبة على فلسطين يومذاك وبموافقة بقية دول الحلفاء كفرنسا وامريكا ، إذ لم يجد ولسون في القضاء على عروبة فلسطين وفي تدعيم الاستقلال الصهيوني لها ما يتعارض مع مبادئه الاربعة عشر (٣) وتوسعت الهجرة الصهيونية اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها حيث ازداد تأييد الامريكيين للصهيونية الى جانب دعم بقية الدول الاستعمارية لها .

تطور عدد اليهود الاجمالي في فلسطين

السنة	العدد الاجمالي
١٩٤٥	٥٩٣٦٠٠٠
١٩٠٧	٦٤١٦٠٠٠
١٩٤٩	١٦٠١٤٦٠٠٠
١٩٥١	١٦٤٠٥٦٠٠٠
١٩٥٢	١٠٤٣٠٦٠٠٠

- (١) حاييم وايزمن في مذكراته ..
- (٢) مستعمرات (ملبس) بتاح تكفا - عيون قاره (ريشون ليزيون) كهوش (مشيار هياردن) انشئت كلها اواخر القرن (١٩) بأموال اليهودي روتشيلد .
- (٣) نبيه امين فارس - في كتابه هذا العالم العربي .

وتعرض البحرين والكويت لهجرة الايرانيين ، أما عدن فيسمى الاستعمار البريطاني ان يحشد فيها أشتاتاً من الناس ليفقدها وجهها العربي ، وتجذب مكة والمدينة اعداداً كبيرة من ابناء الشعوب الاسلامية نظراً لقيمتها الدينية .

ومن الملاحظ أن امستيطان الاجانب في الوطن العربي مضر به أفدح الاضرار ، إذ أن المهاجرين الغرباء يصبحون ركيزة للدول الاستعمارية التي ينتسبون اليها أو يدخلون البلاد بتشجيع منها ، فهم من ناحية اعداء للقومية العربية إذ يرون فيها القضاء المبرم على امتيازاتهم الخاصة ، ويشكلون طبقة مستغلة لا تعنى بمصالح الوطن العربي بل بأنايتهم وبمصلحة وطنها الام ، وتنال أخصب الاراضي واكثر المساعدات الجبركية والمالية لتحافظ على قدراتها الاستغلالية وتتنقي الاعمال المربحة وتسعى دائماً الى إبقاء النفوذ الاجنبي خدمة لارستقراطيتها ، ونحن نعاني من المستوطنين الاوروبيين في الشمال الافريقي الأمرين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، كما أن الاجنبي يفضل دائماً حكم دولة اجنبية للقطر الذي هاجر اليه ، ولو لم تكن هي دولته الاصلية ، لان الحكام الغرباء يؤثرن التعاون مع الغريب مثلهم لضرب الشعب صاحب البلاد .

وقد أدت الهجرة الصهيونية الى فلسطين الى قيام دولة العصابات (اسرائيل) في قلب الوطن العربي على أرض عربية شرد أهلها ، وتعتبر هذه الدولة من أهم أهدافها محاربة وحدة العرب وتمحرمهم وتقدمهم وقوتهم ، إذ لا يعقل ان تبقى روحها القذرة لحظات بعد وصول العرب الى القوة والمنعة ، وهي الى جانب ذلك ركن استعماري ركين في

السياسة والاقتصاد . واننا نتسامع جميعاً بأحلام حكام إيران في ضم جزر البحرين اليهم واعتبارها منطقة فارسية كما سبق ان حاول الفرنسيون إقامة دولة خاصة لهم في الجزائر قبل استقلالها .

ونحن نرى أن وفود الاجانب الى بلادنا مضر ولو تمّ بشكل هادئ وبدون ضجة ولم يلبس الثوب الاستعماري الصريح ، إذ أن وطننا في مرحلة يقظة لم تبدأ الا منذ عهد قريب ، وتكثر الاغراب فيه فيدخل بسيره نحو اهدافه ويؤخر من تملكه السياسي والاقتصادي ويفتح ثمرات في كيانه الاجتماعي نحن في غنى عنها .

والنتيجة التي نصل اليها من دراسة هجرة الغرباء الى وطننا هي أنها وسيلة لخسارة هذا الوطن وإعاقة تحقيق اهدافه وليست غنماً يجنيه العرب .

٤ - تركيب السكان في المجتمع العربي :

سندرس هنا توزيع سكان الوطن العربي على الجنسين وعلى فئات الاعمار وعلى الفعاليات الاقتصادية وسائر هذه النواحي ذات أثر بالغ على ثروة الامة ومستقبلها ، ويجب ان تبدأ العمليات التخطيطية الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والسياسية بمعرفتها .

أ - توزيع السكان على الجنسين :

يتساوى عموماً عدد المواليد من الذكور مع عدد المواليد من الاناث بزيادة طفيفة جداً من مواليد الاناث على مواليد الذكور ، ويتبع التوزيع حسب الجنس المعادلة التالية :

١٠١ الى ١٠٣ اناث
١٠٠ ذكر

وتدل الاحصاءات العربية على أن عدد الجنسين متقارب في الوطن العربي مع زيادة طفيفة في عدد الذكور عند الولادة ، ومن المعلوم أن وفيات الاطفال الذكور اكثر من وفيات الاناث مما يقرب العدد من التساوي حوالي السنة الخامسة من العمر . واذا كان الذكور اكثر في مجتمعنا عموماً من الاناث فقد يرجع ذلك الى خطأ في الاحصاء او الى اهمال في تسجيل المواليد من الاناث ، أو الى قلة العناية نسبياً بالبت في طفولتها عند عدد غفير من ارباب الاسر مما يجعل وفياتهن اكثر من المعدل الطبيعي لجنسهن .

وربما ربت الاناث على الذكور بتأثير الحروب والثورات التي تستهدف الرجال قبل غيرهم (١) أو بتأثير الهجرة التي يعمد اليها الشباب عادة ، وهذا ما نراه في الجزائر التي تعرضت الى القتل الجماعي من جهة وإلى هجرة اعداد كبيرة من شبابها للعمل في البلاد الاجنبية ، مما أدى الى زيادة الاناث في هذا القطر العربي .

وما دمتنا قد تأكدنا من تقارب الجنسين عدداً ، فلننعملم أن رب الاسرة العربي يتحمل اعباء اقتصادية كبيرة إذ يُعيل سائر نساء عائلته الى جانب اطفالها وشيوخها ، وهكذا يتحمل أحد الجنسين اعباء الجنس الاخر المعاشية في البلاد التي لم ينتشر فيها على نطاق واسع عمل المرأة خارج البيت ، ونحن من هذه البلاد .

(١) في علم السكان - الدكتور عبدالكريم اليافي

وإذا كان عدد الجنسين متقارباً مع زيادة طفيفة لمصلحة الذكور فلا شك أن عدد النساء والرجال الذين هم في سن الزواج متقارب أيضاً ، او متساو اذا أخذنا مجموعهم العام في الوطن العربي كله ، نكتشف ان تعدد الزوجات الذي ما يزال منتشرأ في الارياف العربية خاصة ليس مرده الى قلة عدد الذكور بالنسبة للاناث بل الى اسباب اجتماعية واقتصادية وشخصية اخرى .

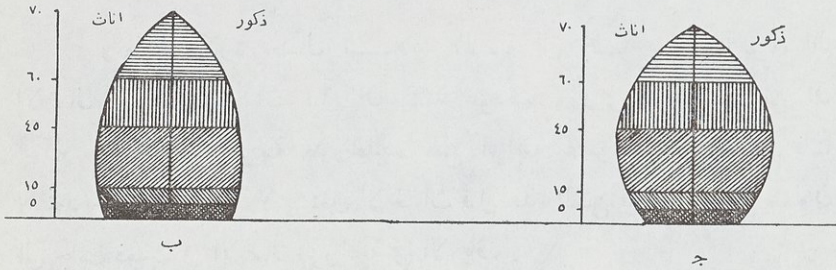
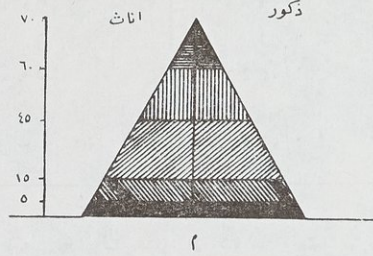
ب - توزيع السكان بحسب فئات الاعمار :

تبين الابحاث الديموغرافية ان الشعور إما أن تكون فتية أو هرمة أو متوسطة بين هاتين الفئتين ، فالفتية هي التي يزيد عدد الاطفال فيها عن الشيوخ كثيراً كأن تكون النسبة شيخين الى كل ١٠ اطفال ، وأما الهرمة فهي التي يزيد مجموع شيوخها عن اطفالها وأما المتوسطة فهي تلك التي يتساوى فيها عدد الشيوخ مع عدد الاطفال ، فمضلع الاعمار للشعب القتي تزيد قاعدته كثيراً عن الاقسام قبل الاخيرة من قتمه ، أما مضلع الاعمار للشعب المتوسط فتكاد القاعدة فيه تتعادل مع تلك الاقسام ، أما مضلع الشعب الهرم فان الاجزاء التي تقع قبيل القمة تكون اعرض من القاعدة كما يظهر في الشكل ص (٧٧) .

وتبلغ نسبة الاطفال في الشعب العربي كله حوالي ٤٠٪ من مجموع السكان اذا اعتبرنا سن الخامسة عشرة نهاية لطفولة ولا تزيد هذه النسبة في فرنسا على ٢٣٪ .

وإذا كانت كثرة الاطفال تبشر بزيادة سكان الوطن العربي فانها من ناحية ثانية تحمل القادرين على العمل من الرجال اعباء اعالة ثلثي

السكان اذ علمنا أنهم يسمعون في رزق اطفالهم المديدين الى جانب النساء والشيوخ كما ذكرنا .



ومعرفة توزيع السكان على فئات الاعمار مفيدة جداً لعمليات التخطيط والتطوير ، فمن يعلم عدد الاطفال ونسبة وفياتهم يستطيع ان يتوقع العدد التقريبي لمن سيصل منهم الى سن الدراسة الابتدائية أو الجندية أو العمل ، فيعد لهم المدارس ويدرك طاقة الوطن من العمال والجنود في أية سنة من السنوات .

وقد قدر السيد الكسندر جيب فئات السن في سورية عام ١٩٤٤ كما يلي :

أقل من ٤ سنوات	/٠.١٢٦٤
من ٥ - ١١	٠/٠.١٨٦٦
من ١٦ - ٢٠	٠/٠.١٨٦٦
من ٢١ - ٥٠	٠/٠.٣٤٦٦
٥٠ فما فوق	٠/٠.١٢٠٨

من هذا الجدول يتضح ان من هم دون العشرين يبلغون ٠.٥٥,٦٪ من مجموع السكان .

ونظراً لكثرة اطفال بلادنا بالنسبة الى مجموع شعبنا نرى أن الاعمال تجتذب الاحداث قبل ان يشتد عودهم ، وعلى الرغم من ان اكثر الحكومات العربية قد حددت سن الرابعة عشرة مبدأً للعمل ، فاننا لا نجد حائناً أو معملاً لا يشتغل الاحداث قبل هذه السن فيه ، كما أنهم يعملون الى جانب ذويهم في الاعمال الزراعية في الارياف .

وجدير بالذكر ان الاجل المتوسط او المرتقب لافراد الشعب العربي منخفض جداً فهو لا يتجاوز (٣١) سنة عموماً^(١) ، واذا كنا نرى بعض المعمرين بين ظهرائنا فن ارتفاع وفيات الاطفال تساهم في خفض نسبة العمر المرتقب لمجموع الشعب العربي ، في حين أن هذا العمر يتجاوز الـ ٦٠ عاماً في البلدان الاوروبية المتقدمة ، وانخفاض الاجل المتوسط يسبب خسارة فادحة لمجتمعنا ، إذ يفهم منه أن عدداً كبيراً من الاطفال والفتيان يموتون بعد ان يكون المجتمع قد أنفق عليهم الجهود في سبيلهم قبل ان يستطيعوا رد الجميل لامتهم وتمويص ما قدمته في سبيلهم والمساهمة في مضاعفة انتاجها وإذكاء نهضتها .

(١) العمر المرتقب في سورية هو ٤٢ سنة .

واسباب انخفاض الاجل المتوسط تعود الى سوء التغذية وقلة الخدمات الصحية أو انعدامها احياناً .

ج - توزيع السكان من حيث الفعاليات الاقتصادية :

إن معرفة توزيع السكان على مختلف الفعاليات الاقتصادية مقدمة لا بد منها لدراسة الحياة الاقتصادية عامة لدى الشعوب وعن طريقها نستجلي الصورة الاولية لمستوى المجتمع المالي والمعاشي . ولا ننسى أن تغير السكان لهمهم لا يتم بسرعة كبيرة ودفعة واحدة ، بل يحتاج الى وقت طويل لا نستغني عن المشجعات والمغريات اذا اردنا تقصير امده ، الامر الذي يجب أن يضعه المخططون الاقتصاديون في حساباتهم .

ومن الاحصاءات القليلة المتوفرة عن بعض البلدان العربية نستطيع ان تبين الملامح التالية لتوزيع شعبنا على الفعاليات الاقتصادية :

اولاً - قلة عدد العاملين بالنسبة لمجموع السكان ، وهذا مرده كما بينا سابقاً فتوة الشعب العربي الذي يزيد فيه عدد الاطفال عن عدد متوسطي العمر والكهول فيه كما يرجع ايضاً الى سوء الحالة الصحية التي ترفع عدد المرضى والعاجزين عن العمل .

ثانياً - قلة عدد النساء العاملات بالنسبة لمجموع السكان ، والسبب في ذلك يعود الى عدم إقرار اكثر البلاد العربية واقعياً لعمل النساء ، ولو ان العاملات منهن يكثرن في القرى والمهن الزراعية ويندرن في المعامل والمكاتب .

ثالثاً - ان اكثرية السكان تعمل في الزراعة ، لان بلادنا مازالت

تعتمد عليها كحرفة اساسية ، مما يؤدي الى انخفاض المستوى المعاشي والدخل القومي ، إذ لا مجال للمقارنة بين أرباح الزراعة وبين مكاسب الصناعة وخاصة اذا علمنا ان الكثير من اراضيها ما زالت تستثمر وفق الاساليب القديمة .

وقد قسم مؤتمر السكان العالمي المجتمعات الى ثلاثة فئات على اساس مدى اشتغال سكانها العاملين في الزراعة ، وكان التصنيف كما يلي :

١ - مجتمعات مختلفة اقتصادياً : وفيها يعمل ٦٠٪ من السكان فأكثر في الزراعة .

٢ - مجتمعات شبه متقدمة اقتصادياً : وفيها يشتغل ما بين ٣٥ و ٥٩٪ من السكان في الزراعة .

٣ - مجتمعات متقدمة : وفيها يعمل اقل من ٣٥٪ من السكان في الزراعة .

والمجتمع العربي تدخل معظم اقطاره في الفئة الاولى .

اما الذين يعملون في الصناعة فلا يتجاوزون الـ ١٠٪ من مجموع سكان الوطن العربي ، والذين يعملون في التجارة والمهن الحرة واعمال السمسة والصيرفة وغيرها . . فنسبتهم لا تتجاوز الـ ١٢٪ من مجموع العرب واصحاب البلاد . ويدرك الاجانب ما تدره هذه الاعمال الاخيرة من أرباح فتراهم يقبلون عليها ، ويحاولون ان يسيطروا برساميلهم على النشاط الاقتصادي في الاقطار العربية التي يسكنونها ، وقد بدأ نفوذهم بالاضمحلال في الاقطار المستقلة اليوم .

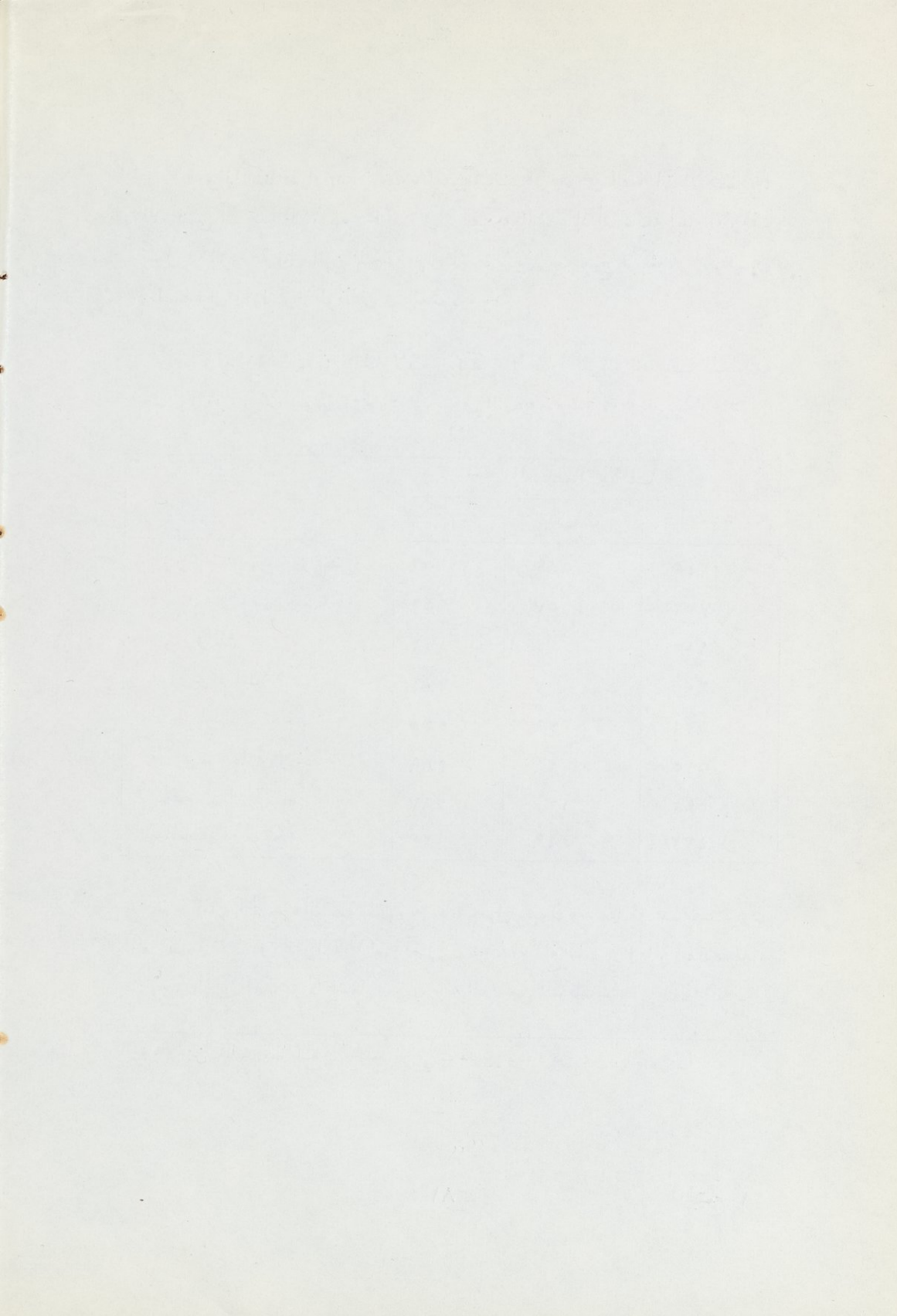
وإذا كنا قد اوردنا توزيع السكان بشكل عام على الفعاليات الاقتصادية، فلا ننسى أن هذا التوزيع يختلف في الريف والمدن، إذ أن غالبية أبناء الارياف تعمل في الزراعة وفي المهن الملحقة بها مباشرة، بينما تتجمع اكثرية الحرفيين والصناعيين والتجار والموظفين في المدن.

وقد جرت بمض المحاولات في بعض الاقطار العربية لتصنيف السكان حسب المهن التي يزاولونها، ونورد على سبيل المثال وضع الجمهورية العربية المتحدة:

العدد بالالف			المهنة
المجموع	اناث	ذكور	
٤١٢٤٥	٥٨٩	٢١٦٥٦	الزراعة والصيد والقنص
٧٢٢	٥٧	٦٥٦	الصناعة واستثمار المناجم
١١٣	١	١١٢	البناء والتشييد
٢٠٣	٢	٢٠١	النقل والمراسلات
٦٢١	٧٦	٥٤٥	التجارة
٥١٥	٢٦	٤٨٩	الادارة العامة والخدمات
٣٩٢	١٢٥	٢٦٧	الخدمات الشخصية
١٦٤٧٢	٤٤٩	١٢٣	صناعات غير منتجة

اما في الجمهورية العربية السورية، فإنه يعمل مليون وسبعمائة وخمسة وعشرون الف نسمة تقريباً في الزراعة (١) من أصل قوة عاملة تبلغ مليونين ومائة الف نسمة، على حين ان الصناعة لا تشغل سوى مائة الف من السكان.

(١) عن كتاب مطالعات في المجتمع الريفي - منير بل وعقاد ص ١٤.



الجزء الثالث

المجتمع العربي المعاصر

ويتضمن :

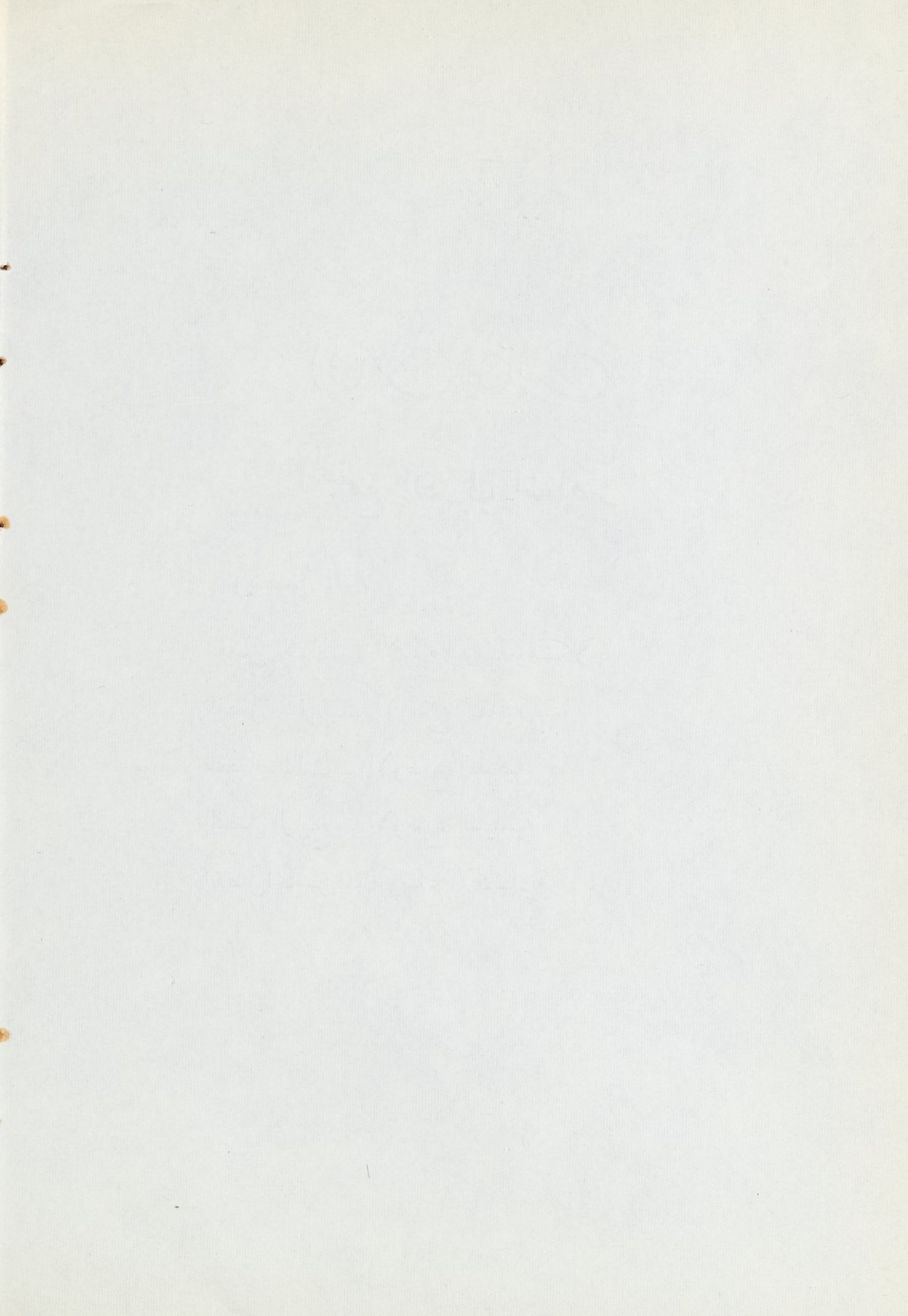
الفصل الاول - الاسرة العربية ومشكلاتها

الفصل الثاني - الاوضاع الثقافية

الفصل الثالث - الاوضاع الصحية

الفصل الرابع - الاوضاع السياسية

الفصل الخامس - الاوضاع الاقتصادية



الفصل الأول

الأسرة العربية ومشكلاتها

لئن درسنا في الفصول السابقة عوامل الوحدة الطبيعية والبشرية في المجتمع العربي ، فإن صورة هذا المجتمع لا تكتمل إلا إذا استعرضنا الأوضاع الباقية كالأسرة العربية والطبقات السائدة في مجتمعنا العربي . إلا أنه قبل أن نغفل في بحث الموضوع لا بد لنا من أن نعرض بإيجاز لنشأة النظام الاجتماعي وتطور الأسرة عموماً لكي نتلمس عبرها الأصول الأساسية التي استقت منها أسرتنا العربية أوضاعها .

نشأة النظام الاجتماعي :

ينشأ النظام الاجتماعي عادة عن ادراك افراد المجتمع قيمته مجتمعهم واعتقادهم بهذه القيم ومن ثم ارتباطهم بهذا النظام (١) .

واننا لنجد دوماً صفة مشتركة لجميع النظم الاجتماعية سواء منها تلك التي نشأت سابقاً أو التي يمكن ان تنشأ في المستقبل ، الا وهي

(١) عن كتاب الدكتور امام سليم . المجتمع الريفي ص ٤٩ .

وجود دوافع أو رغبات انسانية يحاول هذا النظام ارضاءها ، ومن ثم لا بد وان يكون لكل نظام اعراف وقوانين تنظم المعاملة وفقه ، فالأسرة تكونت مثلاً رغبة في ارضاء الجنس وتنظيمه في المجتمع ، الا أن هذا التنظيم يختلف مع ذلك من مجتمع لآخر ، وكذلك النظام الاقتصادي ، رغم ان اساسه كان محاولة دفع الجوع والحفاظ على البقاء .

وان كل تنظيم اجتماعي لا يلقي قبولاً من مجموع المشتركين به يتعرض للتغير السريع أو البطيء ، والتغير شيء طبيعي أما الجود فهو غير الطبيعي الا ان ما يميز المجتمع العربي هو مقاومته لكل تغيير قد ينشأ عنه تغير سريع في المفاهيم والمعتقدات والاعراف .

هذا ولما كان لا بد لكل نظام اجتماعي من أداة أو وسيلة يتوسل بها لتحقيق اغراضه أو الهدف منه ، فالأسرة اداتها ومكان ارتباطها هو المنزل أو الخيمة والنظام التعليمي وسيلته المدرسة والمصد .

وسنبحث فيما يلي في الاسرة العربية وأنواعها كالاسرة البدوية ثم الريفية ثم الاسرة المدنية ووظائف كل منها ثم نتعرض لاهم المشكلات التي تواجه الاسرة العربية والحلول الممكنة لها .

تطور الاسرة :

مرت الاسرة منذ نشوئها في مراحل متعددة يمكن اجمالها بما يلي :

١ - الاسرة الطوطمية : تضم الاسرة هنا كافة أفراد العشيرة . نظراً لانهم ينحدرون من أصل واحد هو الطوطم ، وهو بمثابة رمز

مقدس ، ولذا فقد اعتبر كافة الافراد المنتسبين للطوطم أخوة . فالقراية هنا هي الاخوة التي تربط الفرد بأبويه وبجميع من في المشيرة على السواء . لذا كان الزواج من أفراد هذا النوع من الاسر محرماً ضمن المشيرة ومحلاً خارج نطاقها Ezogamie .

وعلى العموم كان الرجل يبقى في قبيلته ولا يزور زوجته الا خلسة في الظلام لما قد يحيق بالمشيرة من عار اذا وجد في ربوعها نهاراً، وكان الاطفال يتبعون طوطم الام (الاسرة الامية Matriarcat) وكانت صلة القرابة هي رابطة الرحم وكان صاحب السلطة على الاولاد الخمال أو من ينوب عنه .

٢ - الاسرة الابوية Patriarcat : تقوم القرابة في هذا النوع من الاسرة على صلة الدم ، حيث يجتمع في البيت كل من انحدر من اب اما الام فكان الاولاد ينظرون إليها نظرتهم الى ابد فرد من اقرابهم .

وعلى الرغم مما ذكر فان الاب الحقيقي ليس له اي حق على اولاده وعلى تربيتهم اذ يرجع هذا الى المشيرة كلها . لذا فان الاب يؤاخي ولده متى تجاوز مرحلة المراهقة ، علماً بان الملكية هنا هي ملكية جماعية للارض وللسلم .

وخير مثال لهذه الاسرة ، الاسرة الرومانية التي تتألف من الاب الاكبر وزوجته واولاده الذكور وزوجاتهم وبناته المازبات واحفاده ومن مواليه وارقاته . والاب هنا هو عميد العائلة Pater Familias ويديه جميع السلطات . فهو المالك الوحيد للارض يورث من يشاء ويحرم من يشاء ويعترف بابوته لابنائهم أو يحرمهم ذلك ليتبني سواهم . وهو

صاحب السلطة القضائية في الاسرة يسوي الخلاف ، وله الصلاحية المطلقة في التصرف بحياة زوجته واولاده نظراً لانه صاحب السلطة القضائية . وكان على المرأة واجبات وليس لها أي حق ، فهي محرومة من حق التملك ومن طلب الطلاق ومن الوصاية على اولادها .

٣- الاسرة الاثينية الحديثة: وهي الاسرة التي تقوم على الاب والام على السواء وتكون الصلة صلة دم ورحم معاً ، فالولد يمتاز باعمامه الذين يحملون اسمه وباخواله أيضاً . وله أن ينفصل عن الاسرة ليكون لنفسه اسرة خاصة عندما يشب ، وللأم فيها أهمية تختلف حسب التوازن المتبنى فيها . فاذا كانت من النوع الديكتاتوري كان الحكم فيها للاب أو للام ، واذا كانت ديموقراطية كانت الامور تتم على اساس التشاور والتعاون والمشاركة في تحمل اعباء الاسرة وفي تصريف شؤونها .

وهكذا نرى أن تطور الاسرة قادها من الواسع الى الضيق ، وان الاصل فيها رابطة الاخوة فرابطة الرحم فرابطة الدم . وبعد ان كانت الام محور الاسرة نازعها الاب في ذلك ثم تم الالتقاء بين الجانبين في الاسرة الاثينية الحديثة .

٤- الاسرة العربية : كانت الاسرة قبل الاسلام اسرة كبيرة ، تضم الوالدين والاخوة والاعمام . وكان مجموع العائلات يسمى فصيلة (آل العباس) ، ومجموع الفصائل يسمى الفخذ (أمية) ، ومجموع الافخاذ يسمى البطن (كبنو مناف) ، ومجموع البطون يسمى القبيلة (مضر وقريش) ، ومجموع القبائل يشكل الشعب .

وتشبه الاسرة العربية الاسرة الرومانية من حيث اتساع حقوق وسلطات الاب . ومن حيث قيام القرابة على رضاه بالحق المواليه الجدد بالاسرة وتبني من يشاء ورفض من يشاء .

وقد احدث الاسلام تطوراً كبيراً في الاسرة العربية ، فأبطل العصبية وقصر القرابة على الدم وزاد من ضيق نطاق الاسرة وقادها نحو الاسرة الاثنية الحديثة .

أولاً - أنواع الاسرة العربية :

تلى الرغم من أن النظام العائلي واحد في أساسه عند العرب ، مستقى من تجاربهم العديدة خلال تاريخهم الطويل ، فان الاسرة العربية تتنوع بمض وجوهها ويختلف مدى تطورها بين البداء والريفيين وسكان المدن .

أ- الاسرة البدوية :

يتمش البداة على أطراف المدن والقرى العربية وتجدهم في شتى اقطارنا ، وان دراستهم تلقي ضوءاً كبيراً على تطورنا الاجتماعي فهم أصل أكثر سكان الريف مباشرة ، وحتى سكان المدن كانوا في الازمنة الغابرة بدواً في غالب الاحيان ثم تحضروا وانشأوا القرى التي نمت واتسعت وتطورت فأصبحت مدناً ، وان نخوض هنا في المناقشات الدائرة حول اولية الحياة البدوية أو الحضرية وإنما نتكلم عن صفة واقعية لمجتمعنا ، فانا شرعنا في الحديث عن الاسرة البدوية المعاصرة عند العرب ، وبدأنا الكلام عن سماتها وعدد أفرادها وجدناها كبيرة تشمل مجموعة لا بأس بها من الافراد

فلا أسرة البدوية قبيلة أو عشيرة تضم بيوتاً في كل منها يعيش أب مع أولاده وزوجته أو زوجاته أحياناً، والأسرة والقبيلة بالنسبة إلى البدوي هي مجتمعه ، فعلى الرغم من أن البداية يعرفون أنهم عرب ويفتخرون بذلك بل لقد أتى على الناس حين من الدهر قصروا فيه اسم العربي على البدوي إلا أن البدوي مع ذلك قلما يكون وعيه القومي مكتملاً فهو ينظر إلى كل الأمور السياسية والاقتصادية من وجهة نظر عشيرته ولا يرى حرجاً في أن يكون هو عربياً وأبناء القبائل الأخرى عرباً ثم يخاصمهم وينازعهم ويحاول أن يمد سلطان عشيرته عليهم .

وإذا تناولنا الأسرة البدوية من ناحية وظائفها ، نجدها مكلفة بمهام عديدة ، فالمشيرة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها يشتغل الأفراد جميعاً في سبيلها ، وإذا شاهدنا بعض التخصص في الممتلكات بين أعضاء العشيرة فهذا التخصص ما زال ضعيفاً وغامضاً إذ تسود العشيرة الفكرة القائلة بأن أرضها ومواشيها ملك لها جميعاً ومشاع بين أفرادها ، ومن الناحية التربوية نلاحظ أن العشيرة هي التي تقوم بتربية أطفالها وتنمي فيهم تقاليدها وتورثهم قيمها ، والوظيفة السياسية وافية أيضاً عند العشيرة البدوية ، فالبدوي لا يفكر في القضايا السياسية بمنزلة عن عشيرته إذ تقرر هذه العشيرة عن طريق عمدها موقفها من العتائر الأخرى ومن الدولة وتعاون بعض السياسيين وتحارب آخرين كوحدة تامة .

والعشيرة هي التي تتكفل في غالب الأحيان بأمور القضاء وحل المنازعات بين أعضائها وإذا ما قام صراع بين أفراد ينتمون إلى عشيرتين يحل هذا الخلاف عن طريق العشيرتين بالذات وفقاً للاعراف السائدة عند

البدو، ويسمى القاضي الملم بقوانين البادية العفوية واعرافها « بالعارفة » وإليه
يحيج المتنازعون من ابناء القبائل .

فاذا تركنا وظائف الاسرة البدوية وانتقلنا الى العلاقات القائمة
بين أفرادها من حكم وزواج وقرابة ، نلاحظ ان الحكم في العشيرة
يكون لبعض البيوت الفرعية منها ، فكل عشيرة تقريباً على الرغم من
كونها وحدة شبه تامة ، تنقسم الى شعب أو بيوت فرعية ، ومن بين
هذه الشعب أو الافخاذ يتفرد أحدها بالسيطرة على العشيرة وتوجيهه
مقدراتها ضمن حدود الاعراف البدوية وبعد استشارة الشيوخ المحنكين،
وقد اخذت بعض هذه البيوت الحاكمة تستبد بأمر العشائر احياناً فتسجل
أرض عشيرتها باسمها وتنزل عنها من حيث اسلوب الحياة ، بل انها راحت
تنتقل الى المدينة وتعيش فيها وتحكم عشائرها عن بعد ، هذا عن حكم
العشيرة كلها ، أما عن حكم كل بيت منها على حدة فنلاحظ ان الاب
هو المتصرف في شؤون النساء والاولاد ما دام قوياً وقادراً على ذلك ،
فاذا عجز او شاخ تخلى عن هيمنته الى اكبر ابنائه واقدريهم ، والرأي
النهائي في زواج البداة يعود الى الاب ، فهو الذي يقبل الخاطب أو يرده
ويحدد المهر ويقبضه ، واكثر المهر يعتبر مالاً خاصاً به لا يقدم منه لابنته
إلا ثمن قليل من المتاع ، هذا بالنسبة الى البنات ، أما الشباب فيظن الرأي
الاخير لوادهم وان كان يأخذ مشورتهم في أمر زواجهم وكثيراً ما يحترم رغباتهم
وهو الذي يدفع لهم المهور ، وقد يبادل بين احدى بناته فيزوجها الى شاب من
بيت آخر مقابل فتاة يتزوجها احد ابنائه الذكور .

واما عن القرابة فالطفل ينتسب الى عشيرة والده مع وجود بعض
الاهمية للقرابة من ناحية الام ، فالأخوال والاعمام معترف بهم عند البدو

كأقرباء مع غلبة الإعمام ، والمرأة عند البدو تتبع زوجها وتعيش مع أسرته وان كانت لا تقطع صلة القرابة بينها وبين أهلها الأصليين ، وهي مكافئة بمهام عديدة منها خدمة زوجها والعناية بأطفالها ومنها أيضاً أعمال ذات طابع اقتصادي كالمساهمة في الرعي والعناية بالماشية والحلب ومشتقاته وغزل الصوف وصنع الثياب وحتى الخيام ، وأما الرجل فيدبر الأمور ويقوم بالأعمال التي تتطلب المخاطرة والمغامرة وبذل الجهود الكبير .

وتعدد الزوجات أكثر انتشاراً عند البدو من غيرهم فهم قوم يرغبون في العدد الوفير من الأولاد ، اذا رزقوا بالشباب فقد وهبهم الله فرساناً ومساعدين ، واذا رزقوا بالبنات فقد كثرت بين أيديهم المهور ، ولا يكلف الطفل البدوي اهله جهداً كبيراً ولا مالاً وفيراً فهو طفل قنوع يلبس الخروق البالية ويأكل ما يقدم له من نتاج الماشية ولحمها ومن التمر والخبز ان وجد واذا صعبت الحياة عليه مات بهدوء .

ويسود العشيرة جو العصبية اذ ينتصر افرادها لبعضهم ظالمين أو مظلومين ويأخذون ثأر قتلهم ولو كلفهم ذلك غالباً .

ب - الاسرة الريفية :

ما تزال الاسرة الريفية عندنا تحمل آثار البادية ، إذ يستطيع المدقق في اصل سكان القرى العربية ان يرجع انساب اكثرهم الى العشائر البدوية ، فأسرتنا الريفية إذاً شكل متطور من اشكال اسرتنا البدوية .

اذا نظرنا الى الاسرة الريفية العربية من حيث نطاقها وسعتها نلاحظ انها ما زالت كبيرة ، أو هي على الأقل تعتبر كثرة العدد مفخرة لها ، وتوجد بعض القرى التي ينتمي افرادها جميعاً الى عشيرة واحدة ولكن

هذا الامر ليس دائم الوقوع ، إذ عرف الريف العربي قري تتألف من عدة أسر وهذا تطور بالغ الاهمية ، إذ بعد ان كانت الاسرة البدوية تعتبر نفسها وحدة اجتماعية قائمة بذاتها بل هي المجتمع كله ، أصبحت الاسرة الريفية تعترف بوجود جماعات اخرى تعيش معها في قرية واحدة وتتفق واياها على المصلحة العامة لهذه القرية ، وهذا التطور تقتضيه طبيعة التحضر .

وظائف الاسرة الريفية واسعة ايضاً ، فكل أسرة في الريف تعتبر نفسها كياناً اقتصادياً له ارضه المشتركة وغلاته الخاصة ، والافراد يعملون في سبيل هذا الكيان ، إلا أن الامر يختلف هنا قليلاً عن حال الاقتصاد البدوي إذ أصبح التخصص في الممتلكات بين افراد الاسرة اكثر وضوحاً وتزايد عدد الافراد الذين يتمسكون بقطعة من الارض وقطيع من الماشية ويعتبرونه ملكاً لهم ولاولادهم من بعدهم لا للمشيرة أو الاسرة الكبيرة كلها ، والوظيفة السياسية للاسرة الريفية نامية ايضاً ، فما زال شيوخها يقررون معاداة الاسر الاخرى او الاتفاق معهم متى قرروا التزم افراد أسرهم بتعليمهم ، وشيوخ الاسر الريفية هم الذين يعلنون انضمام أسرهم الى هذا الجانب او ذاك في المعارك الانتخابية والمنازعات السياسية وفي امر اختيار المختار وان يكن امرهم في هذا الميدان اهون من امر شيوخ الاسرة البدوية بقليل .

ومن الناحية التربوية نلاحظ أن الاسرة الريفية ما زالت مكلفة الى حد كبير بتلقين ابنائها عاداتها وتقاليدها والقواعد الاخلاقية المؤمنة بها وتعليمهم الى جانب محبة أسرهم الاعتراف بقريتهم ايضاً . وقد بدأت المدارس تنافس الاسر الريفية على الوظيفة التربوية في الريف منافسة واضحة لا نجد لها شهاً عند البدو .

وأما السلطة في الاسرة الريفية فتتوزع بين ثلاث قوى ، أولاهما شيوخ الاسرة أو أعضاء البيت البارز فيها ، وثانيها سلطة وجهاء القرية ككل ، واهمهم المختار وهيئته الاستشارية ، وثالثها سلطة الدولة التي تتمثل في موظفي الدولة العديدين من رجال ادارة وأمن وقضاء ، وهكذا نلاحظ ان الاسرة الريفية قد تخلت عن جانب كبير من سلطانها الى جماعة القرية والدولة واصبح الريفيون اكثر اطلاعاً على شؤون وطنهم وامتهم من البدو ، وشعروا بأن ما يطرأ على مجموع الامة من ظفر بعض التيارات السياسية ومن نصر أو هزيمة يصيبهم بالنفع أو الضرر ، ولذلك ازدادت مساهمتهم في القضايا العامة ، واذا كانت العصبية باقية في الاسرة الريفية فلا شك أنها اخف منها عند البدو إذ تعود الريفيون أن يشكوا من يعتدون عليهم ومن يقتلون اقاربهم الى الجهات الحكومية في كثير من الاحيان .

ولا يزال الاب في الاسرة الريفية صاحب سلطان كبير على النساء والاولاد ، فهو الذي يشرف على شؤون حياتهم ويكلفهم بأعمالهم وهو الذي يقرر زواج بناته ويأخذ المهر مالاً حلالاً له ، ويدفع قسماً محدوداً منه لابنته ، وهو الذي يفصل ايضاً في امر زواج ابنته مع احترام رغبتهم الى حد ما كالأب البدوي ، والقراية في الاسرة الريفية تتبع الطرفين ايضاً والابن قريب لاهل ابيه وامه مع غلبة الجانب الابوي ، والاب يرغب في كثرة الابناء ، وقد يتزوج عدة نساء ابتغاء معوتهم واستكثاراً من الذرية ، والمرأة الريفية مكلفة الى جانب الامور البيئية بأعمال ذات صبغة اقتصادية ايضاً كالعناية بالدواجن والحلب وصنع مشتقات

الحليب واعداد الثياب ، كما تساهم في بعض اعمال الحقل وبناء البيوت ، وهي تابعة لزوجها ملزمة بطاعته ، والطلاق عند الريفين قليل الحدوث كما هو الحال عند البداءة .

والطفل الريفي بدأ في الاختلاف عن الظفل البدوي إذ شرع الآباء ويدركون اهمية العناية الصحية بأبنائهم ويهتمون بتعليمهم في بعض الآحايين .

ج - الاسرة المدنية :

سنقوم بدراسة الاسرة المدنية في وطننا بعد تقسيمها الى فرعين ، يشتمل الفرع الاول منها على الاسر الموجودة في الاحياء القديمة او الشعبية من المدن ويضم الفرع الثاني الاسر الموجودة في الاحياء الجديدة .

فأما الاسر المدنية التي تعيش في الاحياء الشعبية فهي نسخة متطورة عن الاسرة الريفية ، إذ ما تزال كثيرة الافراد ، ينتمي اليها عدد كبير منهم ويتفاخرون بضخامة عائلتهم ، غير أنها تتمتع بأن المجتمع أوسع منها وبأنه يضم عائلات اخرى ضمن المدينة والدولة والوطن ، واذا نظرنا اليها من ناحية الوظائف نجد أن ثروتها لم تعد مشاعاً وظهر التخصص واضحاً قوياً في الممتلكات والمكاسب ، فكل بيت من بيوتها يضم فرعاً صغيراً مؤلفاً من أب وام واولادهما ، ويعتبر نفسه مالكا لثروة خاصة لا تستطيع اسرته الكبيرة ان تنزعها منه وان كان التعاون والتكافل مطلوبين من سائر الاسرة الواحدة الكبيرة .

ومن الناحية السياسية حافظ عمداء الاسرة على بقايا من هيمنة وسلطان ،

فهم ما ينفكون يعقدون الاتفاقات في الانتخابات ويعلمون باسم أسرهم معارضتهم او موافقتهم لبعض الحكومات والمشروعات ، ولكن هذه الهيمنة اخذت في الضعف لاسباب عديدة منها تزايد عدد المثقفين في الاسرة ، ومن عادة المثقف الا يسير الا حسب قناعته ، مما يضطر عمداء امرته الى تدليله أو اعلان نقيضهم عليه ، ومنها أن تعقد الحياة المدنية وتشابك المصالح فيها جعل الافراد اكثر اهتماما بمصالحهم الخاصة من مصلحة أسرهم ، بل ظهر عدد من غير المتعلمين استناروا بثقافة اقتصادية وسياسية واجتماعية عامة دعتهم الى مناقشة الامور والى اعتبار المصلحة العامة فوق مصلحة أسرهم ؛ أو الى عدم الاقتناع بقرارات العمداء .

ومن الناحية التربوية لم تعد الاسرة الكبيرة هي التي تقوم بمهام التربية ، بل اصبح الابوان وهم فرع صغير منها يقومان بتربية الاطفال الى حين دخولهم المدرسة التي اصبحت منافساً خطيراً للاسرة في شؤون التربية .

ومن ناحية السلطة خفت الى حد كبير هيمنة شيوخ الاسرة على مختلف الافراد وتوزع سلطانهم بين ارباب البيوت الفرعية من العائلة واصبحت الخصومات والمنازعات تحل اكثرها على يد موظفي الدولة ، وبما شعور الافراد بالمصلحة العامة وبارتباط اجزاء الوطن ببعضها البعض وضرورة المساهمة بالامور العامة .

والاب في الاحياء الشعبية هو الذي يقرر تزويج بناته أو رد الخاطبين ، ولكنه يستشير زوجته ويعتني برأي ابنته ذاتها اكثر من زميله الريفي ويعتبر المهر ملكاً لابنته ، يشتري لها به ثياباً وحلياً واثاثاً ، ورغبة ابنائه الذكور محترمة فيما يتعلق بزواجهم وفي غالب الاحيان يقف

منهم موقف الحاكم الدستوري فينصحهم بالزواج من ابنة هذه العائلة أو تلك ولكن لا يفرض رأيه عليهم دائماً وخاصة إذا لم يخالفوا التقاليد في زواجهم .
والمرأة في الاحياء الشعبية لا تشغل عادة الا داخل بيتها ، فهي على عكس زميلتها البدوية والريفية ليست مكلفة باعمال ذات صبغة اقتصادية الا عند الضرورة القصوى ، وتفضل العائلات في هذه الاحياء ان تنصرف الام الى العناية بشؤون زوجها وبيتها واطفالها . وربما وضعت المرأة في الاحياء الشعبية الحجاب الذي لا نجد في الريف او في المناطق البدوية ، وقد كان لانتشار العلم اخيراً بين الفتيات أن اقبل بعضهن على التوظيف في دوائر التعليم والتمريض خاصة ، ويقبل الاهل احياناً هذه الوظائف بحماس محدود .

والقراة في هذه الاسرة تقوم على الطرفين معاً ، أي أن الابن قريب لاسرة ابيه وامه في وقت واحد ، وهو مكلف بزيارتهم وخاصة في المناسبات الاجتماعية والاعياد واثناء مرضهم أو وقوع مصيبة بهم ، بل انه مدعو حينذاك الى ميد المعونة لهم ، ولكن الارجحية في العادة تظل للقراة الابوية ، فالابن يحمل رسمياً اسم عائلة ابيه والوراثة من ناحية الاب اكثر من الوراثة من ناحية الام في الامور المالية .

وقد اصبح النطف في المدينة يكلف اهله غالباً ، فأغلب الآباء يرغبون في تعليم اولادهم والمدارس متوفرة في المدينة اكثر من الريف ولذلك يتأخر سن العمل عند ابناء المدينة كما ان المدن تتطلب نفقات أكثر على الثياب والترويح لانجد لها مثيلاً في القرية .

وأما الاسرة المدنية في الاحياء الحديثة ، فنلاحظ انها تستمد

عادتها وانظمتها من منبعين ، اولهما النظام العائلي السائد في الاحياء الشمبية والتي ليست هي الا صورة متطورة عنه وثانيها العادات الاوربية التي بدأ يتأثر بها عندنا بعض المتعلمين والاثرياء ، ولا شك ان الأحياء الحديثة في المدن إما ان تضم المترفين او المتعلمين ، ونلاحظ ان نطاق الاسرة قد ضاق هنا الى درجة كبيرة فأصبح كل بيت يعتبر نفسه وحدة عائلية قائمة بذاتها، لا يرتبط بأسرته الكبيرة وأقاربه الأبعدين الا ارتباطاً رسمياً او مصلحياً احياناً . وهكذا نجد ان الاسرة في احيائنا الحديثة بدأت تقترب من الاسرة الزوجية السائدة اليوم في اوربا والتي تتألف من الزوجين واولادها فقط ، ولم يعد يهتم ابن هذه الاحياء بذكر ضخامة اسرته والافتخار بكبرها بل بدأنا نشاهد المفترخين بصغر اسرهم وبقلة اولادهم .

والوظيفة السياسية لهذا النوع من الاسرة ضمرت الي حد كبير فأصبح كل فرد واعٍ راشد سواء أكان اباً او ابناً يتصرف بموقفه السياسي كما يريد ، واذا بقي للآباء شيء من التأثير على اولادهم فان عمداء الاسرة الكبيرة ينتهون هنا أو يقضائل اثرهم حتى يكاد ينعدم .

والوظيفة الاقتصادية سحبت هنا تماماً من الاسرة الكبيرة واستقل البيت بثروته بل ان كثيراً من البيوت لم تعد ترى نفسها مكلفة بمعونة اقاربها وتدعي ان كل انسان مسؤول عن نفسه فحسب ، ونشاهد في العدد الحجوم من بيوت الاحياء الحديثة ان الزوج له ثروته التي يتمسك بها وتنافسها الزوجة على هذا الاستقلال في الثروة فتمسك بملكاتها او براتبها وحين يكبر الاولاد يستقل كل منهم بثروته الخاصة .

والوظيفة التربوية تركت للمدرسة منذ ان يبلغ الطفل سن التعليم بل قد تلجأ هذه الاسر الى وضع اطفالها الصغار في رياض الاطفال التي اخذت في الانتشار ، وقد اندفعت بعض العائلات في هذه الطريق الى آخرها فراحت ترسل اولادها الرضع الى رياض للاطفال اختصت بالعناية بهم وتغذيتهم وتنظيفهم على حين يتفرغ الوالدان لعملهما او لمشاغلهما الاخرى ، ومن لا يرسل طفله الى احدى الروضات يسمى الى تأمين مربية له تساهم في اعمال البيت وتعتني بالصغار في آن واحد .

واما السلطة وحل النزاعات بين الافراد فلم يعودا هنا مناطين بالاسرة ، بل تركا للدولة واصبحت علاقة الفرد مع امته ووطنه مباشرة الى حد كبير لا تحتاج الى توسط العائلة بينها ، ولكن يبقى مع ذلك للتوجيه القومي والاخلاقي الذي يتلقاه الولد في طفولته اثر كبير على آرائه في المستقبل .

ولم يعد الاب منفرداً في حكم اسرته بل ان الزوجة تشاركه سلطانه وكثيراً ما تتساوى آراؤها في القيمة ، وحين يرشد الطفل يفندو حراً في تفكيره لا سلطان عليه لوالديه الا عن طريق النصيحة التي قد يقبلها او يرفضها .

وطبعي ان يصبح امر اختيار شريكة الحياة عائداً الى الابن نفسه وان كان مكلفاً باستشارة والديه ، اما القرار فيتخذه هو بنفسه ، والفتاة غدا لها رأي مسموع في امر زواجها ولكن بدرجة اقل مما هو عند الشاب ، فقد نجد بعض البيوت تعطيها الحرية التامة في امر زواجها وبعضها الآخر تحتفظ للوالدين بحق التقرير النهائي مع الاهتمام باقناع الفتاة وسماع رأيها وقبول المناقشة منها .

والقراية في هذه الاسرة تعتمد على الوالدين معاً ويكاد الاعمال والاحوال يتساوون وان ظلت الموائح الرسمية توحى باعتبار القراية من جهة الاب أهم من القراية من جهة الام .

والمرأة في هذه الاحياء مسافرة في أغلب الاحيان ، ولا تقوم باعمال البيت فقط بل يسمح لها بالعمل خارج المنزل ولا تقتصر اعمالها على دوائر التعليم والتمريض بل تمتد حتى تشمل اكثر الاعمال التي كان يختص بها الرجل ، فابنة هذه الاحياء ، قد تكون محامية أو طبيبة او مهندسة أو كاتبة . . . وربما هجرت أعمال المنزل وانصرفت الى المشاغل ذات الصبغة الاقتصادية .

وما دام الاطفال في الاحياء المحدثنة يرسلون الى المدارس ويرغب أهلهم في اكمال تحصيلهم ويعرفون رياض الاطفال وتبذل الجهود لجعلهم في أحسن مستوى صحي ، فهم يكلفون الآباء كثيراً من النفقات لافرق في ذلك بين ذكور وأناث .

ثانياً - مشاكل الاسرة العربية :

تعرض الاسرة العربية المعاصرة الى مشكلات عديدة بسبب تطورها من ناحية وتأثير العوامل الاقتصادية والوضع الثقافي عليها من ناحية ثانية ، والصفة التي تغلب على اسرتنا اليوم هي القلق والصراع بين المحافظة على الاحوال السائدة وبين الدعوة الى التجديد ، وكل من انصار هذين الطرفين يخشى على الاسرة اذا هي ركنت لآراء الطرف الآخر ، فالمحافظون يخافون ان تضيق الاسرة العربية - وهي خلية المجتمع الاولى - اصالتها

وطبيعتها المتميزة وندوب في تيار العادات الغربية اذا هي أخذت بنصيحة المجددين ،
ويخشى المجددون ان تفقد اسرتنا حيويتها وتظل جامدة عن التلاؤم مع متطلبات
الحياة الحديثة اذا هي ركنت لنصائح المحافظين .

وسنهتم نحن بالمشكلات ذات الطبيعة الاجتماعية البحتة ، تاركين المسائل
المتعلقة بالاقتصاد والثقافة الى الميادين الخاصة بها ، وسنعرض لثلاث مشكلات هامة
هي مشكلة المرأة العربية ومشكلة الطلاق ومشكلة تعدد الزوجات .

أ- مشكلة المرأة العربية :

يجابه المهتمون باوضاع المجتمع العربي مسألة خطيرة يسعون الى علاجها
على تباين الآراء فيما بينهم ، فالمرأة العربية حالياً وان تطورت حلها عما كانت
عليه في القرن التاسع عشر ما تزال دون الرجل في المقام الاجتماعي ، ومهما قيل
من ان الرجل عندنا يعتبر المرأة مساوية له لا يقنع المتعمقون باقواله كثيراً اذا
نظروا الى الامور من الناحية العملية ، ففي التعليم ينقص عدد الطالبات عن
الطلاب نقصاً فاحشاً حتى لا تصل نسبتهن الى النصف في اكثر البلاد العربية
تطوراً (١٢ / ٣٠) ، وثمة اقطار عربية لم تعرف فيها البنات المدارس بعد ، ومن
الناحية السياسية نشاهد ان اكثر الاقطار العربية لم تعط المرأة حق الانتخاب
والترشيح ولم تسمح لها بالمساهمة في ادارة الامور الوطنية ، كما سمحت بعضها
للمرأة بأن تنتخب وترشح نفسها ضمن شروط لا تطالب من الرجل ، ومن
الناحية الاقتصادية نلاحظ ان المرأة العربية في بعض اقطارنا لا يسمح لها
بالعمل خارج المنزل ولا تستطيع تحصيل ثروة لنفسها بل لا يطلب لها ان تكسب
المال لعائلتها فهي موقوفة على الامور البيئية الداخلية ، وفي اقطار اخرى
بدأت المرأة تعرف الاعمال خارج المنزل ولكنها اعمال محدودة ، اذ لم

تتمد يدها الى سائر مهن الرجل كما لم تستهلك الاعمال نسبة من النساء تقارب الرجال بعد .

ومن حيث السلطة يمارس الرجل في اغلب مناطقنا حكم بيته ، وقد يكون رفيقاً بزوجه أو قاسياً عليها ، وهو الذي يبحث عن الخطيئة التي تنتظره عادة في بيت اهلها ، وقد تساوي المرأة بعلمها من ناحية الهيمنة على البيت في الاحياء الحديثة من المدن ولكن هذه المساواة ما تزال محدودة الانتشار وما تزال اعداد غفيرة من نساءنا تحت الحجاب ويعتبرن تبعاً لازواجهن المكلفين باعتنائهم والمسؤولين عن اخلاقهم وتسيير شؤونهم .

وينقسم المفكرون الاجتماعيون عندنا حول هذا الموضوع الى قسمين : اولهما يرى الخير في لزوم المرأة بيتها وطاعتها زوجها وابتعادها جهد الامكان عن الاختلاط والتدخل في القضايا العامة ، وثانيها يطالب بانطلاق المرأة وعدم قصر نشاطها على البيت وحده ويدعو الى اشتراكها مع الرجل في تحمل كافة المسؤوليات واعطائها حق التصرف التام بمصيرها والمساهمة على قدم المساواة مع الرجل في تهيئة مصير ابنائها ووطنها .

ويعتمد انصار الرأي الاول على حجج عديدة ، منها ان المرأة بحكم تكوينها الجسمي والعقلي مؤهلة للحمل والولادة والرضاعة ورعاية الاطفال فقط ولم تمدها الطبيعة لتحمل الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية وما فيها من مفاسد ومزاحمات لا يقدر عليها إلا الرجل .

ومن براهينهم ايضاً ان المرأة اذا خاضت غمار الحياة العملية فانها لا تنظر الى بذل مجهودات جسمية ونفسية تفوق طاقتها او تختلف عما اعدت له فقط ، وانما قد تضيق اخلاقها ، فالمجتمع مليء بالذئاب

والمرأوغين الذين يسهل عليهم خداع المرأة وتضليلها واخضاعها لرغائهم .
وإذا اردنا المحافظة على قيمنا الاخلاقية المتعلقة بالشرف فلنطبق المرأة في
بيتها وتحت انظار ابيها او زوجها ولنبتعد عن القائها في الخضم الاجتماعي
المتلاطم بامواج المطاعم والشهوات ...

ومن ادلتهم ايضاً ان مسائر الشرائع السهاوية التي احترمت المرأة
وأظهرت انسانيتهما تعتبر الرجل قواماً عليها ولم تكلفها باعالة ذويها بل القت
التكليف على الرجل وحده .

ثم ينهنا اصحاب هذا الاتجاه الى ان المرأة نفسها راغبة في البقاء
تحت كنف الرجل وتفضل ان يكون لها زوج قادر على الانفاق وادارة
اسرته ولو كانت متعلمة ، بل انها كثيراً ما تهجر العلم والوظيفة اذا
دعاها داعي الزواج ووثقت من امكانيات بلها ، وهم يضيفون الى ذلك
ما يروونه من ان اول الدعاة لحرية المرأة وانطلاقها الى المجال العملي كانوا
رجالاً كقاسم امين ، وقد استقبلت النساء انفسهن دعوتهم بالاستنكار في
اول الامر على الاقل .

ويضيف المعتدلون ممن يذهبون هذا المذهب ألا خوف على المساواة
بين الجنسين اذا اقتصر عمل المرأة على بيتها اذ تعتبر حينئذٍ مختصة بجانب
من الحياة ويختص الرجل بجانب آخر وهو مكلف باحترامها وأخذ رأيها
واعتبار مهمتها مسامية وجميلة لا تقل من الناحية الاجتماعية والانسانية
عن مهامه هو .

واما انصار الرأي الثاني ، دعاة المساواة التامة وتحرر المرأة من
قيادة الرجل وانطلاقها الى الميدان العملي فلهم ادلتهم ايضاً ، ومنها ان
العلم الحديث اثبت قدرة المرأة على العلم والتعلم فهي ليست دون الرجل في

مقاييس الذكاء ، واذا أخذنا الطلاب كمجموع عام والطالبات كمجموع عام ايضاً نلاحظ ان الطالبات لا ينخفض مستوى نجاحهن عن مستوى نجاح الطلاب اذا لم يفقه بتأثير بعض الظروف ، وليس صحيحاً في نظر هؤلاء ان جسم المرأة عاجز عن بذل الجهود الذي تتطلبه الاعمال السياسية والاقتصادية ، بل ان عجزها الظاهري راجع الى تعودها الاقامة في البيت وتردها في النزول الى الحياة الاجتماعية الواسعة بتأثير التقاليد ، وقد اصبحت الاعمال اليوم امهل مما كانت عليه سابقاً نتيجة للمخترعات الآلية الحديثة فما يشق على امرأة تفسل الثياب والاولاي في بيتها اثناء البرد القارس ان تقف امام آلة حاسبة لا تحتاج إلا الى حركات بسيطة من الاصابع ، وهم يروون ان المرأة البدوية والريفية تمارس اعمالاً متعبة وتقوم بها خير قيام ، والنساء البدويات والريفيات في بلادنا هن غالبية النساء ، فلماذا لا ننظر اليهن ونقصر ملاحظتنا على عدد محدود من نساء المدن اللواتي شلتهن التقاليد ؟

وهم يردون على مخاوف المحافظين حول الاخلاق بقولهم ، إن الاخلاق التي لا تأتي نتيجة التجربة الشخصية والحرية الفردية انما هي اخلاق سطحية ناقصة وان الفضائل التي يكتسبها الانسان عن طريق التلقين والاورام الصارمة فقط ، انما هي فضائل مزعزعة الاركان ، إذ لا يلمس صاحبها بنفسه مدى اهميتها وقيمتها ويمكن ان يخرج عنها لأقل تقرير او عند انشغال مراقبيه ، ثم ما هي ثقتنا بأنفسنا وتربيتنا وامهاتنا واخواننا اذا كنا نحاف على اخلاقهن عند لقاءهن بأول رجل في الطريق أو في محل العمل ، ولماذا لا نجعل المرأة تستنير وتكتسب خبرة اجتماعية واسعة حتى تعرف بنفسها من اين تأتيها الاخطار وكيف تجابهها ؟

الا يعلم الرجل ان الظروف لا تتيح له دوماً ان يكون على مقربة من زوجته أو ابنته او اخته ، فقد يذهب الى الحروب وقد تذهب به الحرب وقد تبعه اعماله عن بيته مدة من الزمن وربما مرض .. فاذا لم تكن المرأة خبيرة عملياً بأمور الحياة الاجتماعية انهارت وضاعت ، فالمرأة المهتدة بان تخضع لمطامع الوحوش المفترسة هي التي لم تكشف العالم الواسع خارج بيتها ، ثم لماذا نفترض ان الشر في نفوس الرجال والنساء اكثر من الخير ؟ ولماذا نزع ان البائع بمجرد ان تشتري منه امرأة يفكر في صيدها ، وان المريض كلما اقتربت منه ممرضة او طبيبة نسي مرضه وحلم في التفرير بها وان المشتري متى شاهد في الحانوت او الصيدلية امرأة سعى الى الايقاع بها ، ان الناس لديهم مشاغلهم فالبايع والمريض ومشتري الحاجة او الدواء ليسوا طاقة جنسية فقط تمشي على الارض ، وانما هم بشر لهم آمالهم واسرهم ، منهم من يفكر في الزبح ومنهم من يسعى وراء صحته ومنهم من ينتظره اولاده ليحضر لهم الطعام ومنهم المتلهف لآخذ الدواء الي صديقه أو قريبه ، ولعمري ان العمل وجوه الجدي ابعده عن افساد الاخلاق من الفراغ . وقد اشتغلت بعض نساءنا فلم ينزلن الى مهاوي الفساد الاخلاقي ، وان من يتعمق في امور المجتمعات يدرك ان هذا الفساد موجود بين النساء اللواتي اذاتهن من امور بيوتهن لا يعرفن الا تبادل الاحاديث عن الناس وترقب المفاجئات لتخرجن من حياتهن الرتيبة اكثر من وجوده بين النساء العاملات المعتادات تحمل المسؤولية .

والشرائع السهاوية لم تمنع المرأة من العمل والتعلم بل جعل الاسلام مثلاً طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، واحترم رأي المرأة في الشؤون الدينية والسياسية ، وعرف صدر الاسلام نساء محاربات وفقهات ، مجادلات ، وعاملات وتاجرات .

ونحن مع تأييدنا لانطلاق المرأة وتحررها الا اننا نؤيد رأي السيدة سهير القلماوي في احاديثها عن عمل المرأة ، فالبيت يحتاج الى رعاية كما يحتاج العمل خارجه الى جهد وجد ، وان العناية بالأسرة تفوق في اهميتها كل عمل خارج

البيت ، ولو انه ليس من مانع ان تعمل المرأة اذا اضطرت للعمل ، كأن تعمل اذا فقدت المعيل او اضطرت لاعالة غيرها ونضيف الى ذلك ان الاعمال المروضة للرجال في وطننا العربي ما تزال حتى اليوم اقل بكثير من الايدي العاملة المتوفرة وان عمل المرأة في شتى الميادين يخلق منافسة لا ضرورة لها حالياً بين الجنسين ، لذلك نرى انه في حالة اضطرار المرأة الى العمل ان يتاح لها مجاله في الاعمال الاكثر لصوقاً بطبيعتها كأم .

ومن الطبيعي ان نجد بين الرجال من يطالب بحقوق المرأة فكلمة الحق يجب ان يهتف بها كل واعٍ من الجنسين ، وليس غريباً ان تتردد جمهرة النساء في اول الامر وان تخشى المجتمع الواسع فهكذا عودتهن التقاليد خلال عدة قرون من الجبل اثر ذهاب العصور العربية الذهبية الاولى ، وان ما تبديه بعض النساء من تخوف سببه قلة الوعي الناتج عن ضالة التعليم وانتور ، وهكذا تجر العبودية الى العبودية ...

ب - قيود الزواج :

لم تعد المجتمعات بعد تطورها تبيح العلاقات الجنسية الحرة الناجمة عن الفريضة لذا فقد بادرت الى وضع القيود والنظم التي يجب التقيد بها عندما يقدم الافراد على التزاوج ، ويمكن اجمال هذه القيود بما يلي :

١ - قيود القرابة :

وهي قيود معروفة منذ الجاهلية لدى الاسرة العربية ، وعندما جاء الاسلام اباح للرجل الزواج من جميع قريباته عدا :

آ - اصوله معها علواً : فالزواج من الام والجدة الاب والام محرم .

ب - فروعه معها نزولاً : فالزواج من البنات وبنات الاولاد محرم .

ج - فروع ابويه - ما نزلوا : فالزواج من الاخت وبناتها وبنات

الاخ محرم .

د - الفروع المباشرة لاجداده : فالزواج من العممة والخالة وعممة الاب

وعممة الجد والجدة محرم .

اما الفروع غير المباشرة للاجداد ، كبنات العم والعمة والخال والخالة وفروعها ، فالزواج منها غير محرم ، وقد درجت الاعراب في الجاهلية على تفضيل بنات العم على غيرهن رغم ما ينتج عن ذلك من نتائج صحية كشف عنها علم الوراثة الحديث .

٢ - قيود المصاهرة :

ان الاسرة التي يتزوج منها الفرد تصبح كاسرته . لذلك فقد حرمت الشريعة الاسلامية على الصهر ما يلي :

أ - اصول الزوجة مهما علو : امها فجدتها فجدتها ...

ب- فروع الزوجة مهما نزلوا : ابنة الزوج وبنات اولادها .

ج- زوجات الاب والاجداد مهما علوا .

د - زوجات الابناء وابناء الاولاد مهما نزلوا الا اذا كان ابناً بالتبني .

هـ - الجتمع بين الاختين الا في حال وفاة الزوجة الاخت أو في حال طلاقها .

٣ - قيود الرضاع :

بين المرضع واسرتها وبين الطفل الذي قامت بارضاعه او اصغر قربي كقرابة النسب . ولذا فقد قررت الشريعة الاسلامية ان يحرم من الرضاع ما يحرم بالقرابة والمصاهرة ما عدا مرضعة الاخ ، والاخت .

٤ - قيود الدين :

في المجتمع العربي يحرم الاسلام زواج المسلمة من غير المسلم ويبيح زواج الكتابية من المسلم . كما تحرم المسيحية زواج اتباعها من ابناء او بنات المذاهب

الآخري ، غير ان الزواج المدني المطبق في بعض الامم الغربية أباح مثل هذا الزواج .

٥ - القيود القومية :

لم يكن يسمح للعربية في الجاهلية ان تتزوج بأعجمي ، وقد بقيت في بعض المذاهب الاسلامية آثار لهذا التحريم . وهكذا فقد ذهب ابو حنيفة في مذهبه انه لا يصح زواج عربية من اعجمي أو قرشية بغير قرشي الا اذا تنازل اولياء امرها عن حقهم في هذا الامتياز .

٦ - القيود الطبقية :

في الجاهلية ، كان من العار تزوج رقيقة النسب من اسرة اقل نسباً وشرفاً وفي مجتمعنا العربي الحالي ، ترفض الطبقات العليا تزويج بناتها او ابنائها من ابناء وبنات الطبقات الدنيا وان كانت هذه العادات والمفاهيم في طريقها الى الضعف والانقراض .

٧ - مشكلة الطلاق :

عرف مجتمعنا الطلاق الواسع نسبياً منذ عهود بعيدة وذلك لان الدين الاسلامي جعله ميسراً للرجل حين يشاء ، على شرط ان يدفع لمطلقة مخرج صداقها ومؤجله ، اذا لم يستطع اثبات سوء معاملتها له ، كما ان المرأة المسلمة تستطيع ان تطالب الطلاق او ان يطالب اهلها باسمها الطلاق على شرط ان تثبت عدم صلاحية زوجها للمعيشة العائلية الحسنة ، واذا لم تستطع ذلك تتنازل له عن حقوقها المادية وتنصرف ، ومن الصحيح ان الاسلام لم يشجع على الطلاق فجعله ابغض الحلال الى الله ، (١) واوصى باستنفاد الوسائل لحل الزوجين على الاتفاق قبل اللجوء اليه ، (٢)

(١) جاء في الحديث الشريف « ان ابغض الحلال الى الله الطلاق »

(٢) سورة النساء « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من أهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما ... »

ولكنه على كل حال سمح به وأبقى أمره في يد الافراد ، ان شاؤوا قبلوا التحكيم وبدلوا الجهود لاعادة المياه الى مجاريها ، ويفضل الاسلام ان تقوم العلاقة الزوجية على التفاهم والرضى بدلاً من الجبر والاكراه ، (١) ولذلك تعتبر نسبة حوادث الطلاق في اقطارنا مرتفعة بالقياس الى المجتمعات التي تقارب اوضاعنا من النواحي الاقتصادية والتطورية ولكن تتبع شرائع تحد من الطلاق ، فاذا بلغت هذه النسبة في مصر عام ١٩٥١ (٣٠٦) بالنسبة لكل الف من السكان ، وفي سورية (٠٠٧٧١) ولبنان (٠٠٣٨٠) والاردن (١٠١٧) والجزائر (١٠٧١) اضطررنا الى اعتبارها مرتفعة نسبياً على قلتها لان مجتمعنا من هذه الناحية يجب الا يقارن بالامم المتطورة كثيراً كالولايات المتحدة وفرنسا والسويد وانما يجب ان نقارنه بتلك البلاد التي ما زالت تدرج في الخطوات الاولى من التطور كأمریکا الجنوبية والمجتمعات الاسيوية الافريقية ، حيث نجد ان الطلاق لدينا اكثر منها اذا كانت تتبع شرائع معادية للطلاق ، وبسبب هذه الناحية نلاحظ ان الطلاق عند العرب المسلمين اكثر من الطلاق عند العرب المسيحيين ، لأن المسيحية لا تنظر الى الطلاق نظرة تساهل ، ولا تسمح به الا ضمن حدود ضيقة جداً ، ولعل الطلاق في بلادنا مقبل على ازدياد بسبب تعقد الحياة الاجتماعية وبروز الشخصية الفردية للرجل والمرأة في الوطن العربي ، اذ يؤدي الوعي الفردي الى بلبلة اجتماعية في اول الامر ولكنه ما يلبث ان يصبح عامل استقرار من نوع جديد بعد ان يتفهمه الناس .

وينقسم المفكرون الاجتماعيون في بلادنا الى ثلاث فئات حول أمر السماح بالطلاق أو منعه ، اولها ترى ان الطلاق يجب ان يُسمح به متى اراده احد الزوجين ، وثانيها تعتقد ان الطلاق يجب ان يُحسد منه وتوضع له شروط قاسية وثالثها تقف متوسطة بين هاتين الفئتين فتدعو الى سحب حق الطلاق

(١) سورة البقرة «الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ..»

من يد الافراد ووضعه في يد القضاء أو هيئات الخدمة الاجتماعية التي تبذل جهودها لمنعه وتسمح به عند الضرورة .

اما الفئة الاولى فهي ترى ان من الصعب على الانسان البقاء طول حياته مع شخص آخر لا يفهمه ولا يتفق معه في المزاج والطباع ، ولا تستطيع الهيئات القضائية ان تفهم ما في نفس الانسان كما يفهم هو آلامه ومتاعبه ، وان تحرر الزوجين من بعضها وانطلاقها الى تكوين اسرتين جديدتين افضل من بقائها تحت سقف واحد يسودها الشقاق والخصام والتجهم وعدم الانسجام ، ويهمس انصار هذا الرأي في آذاننا قائلين ان الطلاق اذا لم نسمح به رسمياً فلسوف يقع عملياً بين الزوجين غير المتفاهمين فكثيراً ما نرى بيوتاً قائمة بالاسم مهدمة بالفعل ، هجر فيها الرجل زوجته وتماشاها او وضعت هي بينها وبينه حاجزاً لا يقتحم ، وما اسوأ وضع الاطفال في امثال هذه البيوت .

ثم ألا يكفي الحكومات والقضاء ان تتدخل في الامور السياسية والاقتصادية للمواطنين حتى تتقدم ايضاً الى اخص الخصوصيات وتحاول ان تتدخل فيها ؟ واذا لم يبق الانسان حراً في أمر من يماشر فماذا يبقى من حريته ؟

واذا اردنا ان نخفف من الطلاق في زعم المتحررين من اصحاب هذا الرأي فملينا الا نأتي الى الذين تزوجوا وفشلت زيجاتهم ونحاول ان نصل ما انقطع ونجبر ما انكسر بل الافضل لنا ان ننصح الناس بألا يتزوجوا الا بعد ان يدرس الخطيبان اخلاق بعضها وأن يتأكد كل منهما من تلاؤمه مع صاحبه في سائر النواحي ، ومن الغريب ان

يتفق حول موضوع حرية الطلاق اناسٌ من المحافظين أشد المحافظة وأناس من دعاة التجديد .

وهم يبرهنون على ان الانسان يحتل انتاجه الفكري والاقتصادي والسياسي وتفسد علاقاته الاجتماعية اذا بقي في بيت الزوجية مليء بالمشاحنات ، وخير للفرد والمجتمع ان يتم الطلاق .

أما الفئة الثانية فترى في الطلاق خطراً جسيماً يصاب به الناس إذ يبعد الاطفال عن ابيهم او احدها ويحملهم ينشؤون في جو شاذ يشعرهم بالنقص وتبدني مستواهم عن رفاقهم الذين يعيشون الى جانب والديهم ، كما ان الانسان اذا احس بإمكانية الطلاق كلما اراد لم يهتم بالتدقيق في أمر خطوبته بل قد لا يفكر كثيراً فيمن تصلح له او يصلح لها ، وينطبق هذا الامر على الرجال والنساء معاً .

والحياة التي يقطعها الطلاق تفقد استقرارها وتشغل بال صاحبها وتعرضه لتجارب الزواج من جديد مما يضيع وقته ويقلل من انتاجه .

والزواج يجب الا يكون مجرد صك يكتب ويمزق عند الحاجة ، بل هو في جوهره امتزاج عميق بين شخصيتين ورباط مقدس يتيح لكل من طرفيه ان يشارك صاحبه في أخص الخصوصيات . ويؤدي الى اقامة الاسرة التي يجب ان نربأ بها عن الهزات والانعكاسات ، وماذا يبقى من مقدس في المجتمع اذا غدت الاسرة وهي قاعدة القيم والمقدسات عرضة لتفسيخ والانحلال وفق الاهواء ؟ بل ماذا يبذل الزوجان من مجهود لتفاهم وابقاء حياتها المشتركة اذا شعرا ان الطلاق في متناول ايديهما ؟ .

ولذلك ترى هذه الفئة منع الطلاق وعدم السماح به إلا عند الضرورة القصوى كالعقم والمرض المزمن والفساد الاخلاقي . (١)

واما الفئة الثالثة (٢) التي تدعو الى الاعتدال فتأخذ بمحجج كل من الطرفين وترى في الطلاق بلاء ، ولكنه بلاء لا بد منه في بعض الاحيان ، وتعتقد ان الفرد لا يستطيع وحده تقدير امكانية استمرار زواجه ، فقد تجرّفه العاطفة ويسلبه الغضب تفكيره الموضوعي ، ولذلك ترى ان يرفع الأزواج المتخاصمون امرهم الى قضاء مستنير واع اجتماعي ترتبط به جماعات الارشاد الاجتماعي تقوم بدراسة اوضاع البيت المهدد بالانهيار وتحاول رأب الصدوع واعادة المياه الى مجاريها ، كما تحدد مسؤولية كل من الطرفين وتعتمد في كل ذلك على اسس علمية هدفها قبل كل شيء المحافظة على الاسرة ، فان ادركت ان الامر لا يمكن تلافيه سمحت حينئذ بالطلاق ..

وهذه بيانات تبين نسب الطلاق وتطوره في القطر السوري مع توضيح للاسباب الموجبة :

الزواج والطلاق في سورية خلال خمس سنوات

وفايق الطلاق	عقود الزواج	السنة
٢٠٢٢٢	٢٦٠٦٠٠	١٩٥٦
٢٠٤٤٨	٣٠٠٥٢٤	١٩٥٧
٣٠٢٤٩	٤٩٠٤١٠	١٩٥٨
٣٠٠٤٣	٤٧٠٣٦٨	١٩٥٩
٣٠٥٨٠	٤٢٠٩٦٣	١٩٦٠

(١) وهذا ما تأخذ به بعض الطوائف المسيحية من العرب كالطوائف الشرقية مثلاً.
(٢) ونحن من مؤيدي هذا الرأي

قضايا الطلاق الصادرة عن المحاكم الشرعية في سورية
خلال عام ١٩٦٠ (١)

المحافظة	المجموع	اسباب مالية	اسباب اخلاقية	عدم امتزاج	اسباب اخرى
دمشق	١٣٣٣	٤	٩	٩٧٧	٩٤٥
حمص	٢٠٨	-	-	٢٠٣	٥
حماه	١٥٨	-	١	١٥٤	٣
اللاذقية	٢٠٩	١	٥	١٤٠	٦٣
حلب	٨١٢	٤	٤	٧٧٠	٣٤
الحسكة	٨	-	-	٧	١
دير الزور	٨٠	٦	-	٦٢	١٢
السويداء	١٦٦	٢	-	١١٩	٤٥
درعا	٨٣	٣	١	٦٣	١٦

د - مشكلة تعدد الزوجات :

تسمح الشريعة الاسلامية بأن يكون للرجل اكثر من زوجة واحدة ،
وقد انتشر تعدد الزوجات في بلادنا خلال مدة طويلة من الزمن .

وفي هذه الايام تقل نسبة الذين يجمعون بين عدة زوجات ، ويتسهم
نطاق البيوت القائمة على زوجة واحدة وخاصة في المدن ، فأكثر ما نلقى

تعدد الزوجات اليوم في الريف او عند البدو وذلك لأن المرأة البدوية والريفية تعملان ، فكما ازدادت زوجات الرجل وجد عدداً أكبر من العلامات في حقله ورعيه . وتبلغ نسبة الزواج المتعدد ٤ ٪ من مجموع حوادث الزواج .

وتوجد اسباب لتعدد الزوجات غير ما ذكرناه من طلب النفع الاقتصادي في الريف والبادية ، منها عدم انسجام الفرد مع زوجته الاولى التي انجبت له اطفالاً يمنعونه من طلاقها ، فيؤثر ان يتزوج عليها ، ومنها مرض الزوجة الاولى أو عقمها أو تقصيرها في رعاية امور زوجها وبيتها ، ومنها زيادة التمتع الشخصية ، فقد أثر عن بعض الرجال تزوجهم باثنتين وثلاث وأربع ولو كانت زيجاتهم الاولى ناجحة . ومن المعلوم ان الاسلام أوقف التعدد عند أربع زوجات واشترط العدل (١) بين الضرائر ، والفرد هو الذي يقرر قدرته على اعالة زوجاته ، وقد اتجهت تونس اليوم نحو منع تعدد الزوجات كما اتجهت بعض الاقطار الاخرى وهي قليلة على كل حال الى نقل حق تقدير امكانية الرجل على اعالة زوجتين أو أكثر من صاحب العلاقة نفسه الى المحاكم المختصة وذلك تمهيداً للحد من الافراط في استعمال هذا الحق .

والناس على آراء ثلاثة في أمر تعدد الزوجات ، أولها ينادي بابقاء هذا الحق مطلقاً ضمن حدود الامكانيات المادية الرجل ، وثانيها يدعو الى الغاء هذا الحق واقتصار الرجل على زوجة واحدة مهما كانت الظروف ، وثالثها الابقاء على نظام تعدد الزوجات ولكن يقيد استعماله ولا يلجأ اليه إلا عند الضرورات التي تقدرها المحاكم .

أما جماعة الرأي الاول فلا يرضون بالتنازل عن حق اخذوه بحكم الله ورسوله وهم يدافعون عن تعدد الزوجات إذ يرون في زواج الرجل بأكثر

(١) جاء في الآية الكريمة «مثنى وثلاث ورباع ، وان ختمت الا تعدلوا فواحدة ، ولن تعدلوا» ..

من واحدة ، انقاذاً له من الانجراف مع الضلالات والفوايات والعلاقات غير المشروعة ، وهم يحاولون ان يملوا نظامهم بحجج يرونها عامية ، فيقولون ان الرجل يحافظ على شبابه حتى سن متأخرة بالنسبة الى المرأة وهو بحكم اختلافه في المجتمع الواسع يظل متفتحاً للحياة وراعياً في المزيد من المتعة خلافاً لزوجته التي تتبعها الولادات والرضاعات ويبعدها انزالها في البيت عن التفكير في طلب المزيد من المتعة ، ولذلك يعتبر نظام تعدد الزوجات حصناً منيعاً للاخلاق ، وهم يجزمون بان المجتمعات التي لا تسمح بتعدد الزوجات تكثر فيها العلاقات المشبوهة ، ومن يتصفح تاريخ أوروبا يجد للموكها في العصور الوسطى قائمتين من الاولاد الاولى منها صغيرة وتضم الابناء الشرعيين والآخرى كبيرة وتضم الابناء غير الشرعيين ، ولم تأخذ الملوك هنا إلا كنهانج للمواطنين ، ويعتقد انصار التعدد ان الحروب تستهلك الرجال الذين هم في سن الزواج فاذا لم نسمح بالتعدد تضخم عدد العوانس والارامل وقل النسل الذي يكون المجتمع في أمس الحاجة اليه لتعويض قتلاه .

والحد الذي يقبل انصار هذا الرأي بوضعه امام التعدد هو الامكانيات المادية فقط ومتى توفر للرجل المال الذي يكفيه لاعالة زوجتين أو ثلاثة أو اربعة فعلياً ان نسمح له بالاقدام على زيجات جديدة من غير سؤاله عن الاسباب أو احراجه بفرض آرائنا عليه ، ومتى عدل بين زوجاته جاز استمرار احتفاظه بهن .

واما انصار الرأي الثاني الداعون الي منع تعدد الزوجات منعاً باتاً فيرون في الجمع بين الضرائر ضرراً بالغاً ولا يجدون فيه تلك المنافع الجليلة التي يراها الفريق الاول ، وهم يبرهنون على صحة دعواهم بحجج عديدة منها ان الزواج يجب ان يقوم على الحب العميق والاندماج الدائم بين الرجل

والمرأة ولا يمكن ان تبقى العلاقة عميقة وذات غور انساني بعيد ، اذا هي تشتت بين عدة زوجات ، وهل تبقى للمرأة كرامة اذا هي لم تحصل في حياتها على شريك لها يمشي دائماً الى جانبها وتحس بانه وجد من أجلها كما وجدت من اجله ؟ هل تبقى للمرأة كرامة اذا هي ظلت مع منافسات لها تدور حول رجل واحد يتخاطفنه ويتجاذبونه ويتبدلان في امـترضائه وتسمى كل واحدة منهن الى الاستئثار به ، والانقاص من مودته للاخريات وهو منتفخ بينهم ، شاعر بأنه سيد المجتمع وكأنه الملك الصغير ، لا شك ان هذا الوضع قد يرضى انانية بعض الرجال ولكن على حساب كرامة نساءنا ومستواهن العاطفي والعقلي ، وان الضررة لا تستطيع ان تهبس حياة طبيعية بل هي مشغولة البال دائماً بأمر منافستها مع ضررتها التي تبادلها الحقد والكراهية وتثقل حقدھا الى انمائھا فينشأ أولاد الرجل الواحد على كراهية بعضهم ، والضررة تعظم في عينها أنفه الامور وتمضي يومها كله في تفسير بعض تصرفات الرجل وارجاعها الى تأثير ضررتها ، ثم ان تعدد الزوجات من اسباب الطلاق وهكذا يأخذ التعدد باليسار ما يعطيه باليمين ، إذ يستهلك بعض العوانس من ناحية ولكنه يكثر المطلقات من ناحية اخرى ، ثم من يصدق ان نظام التعدد يقلل من عدد العوانس ؟ وهل يدفع الرجل المال ليا تي بزوجة كبيرة في السن نسبياً تصغرها زوجته الاولى وتفوقها نضارة ام يسمى الى الحصول على فتاة صغيرة في ريعان الصبا تبرز زوجته الاولى نضارة وشباباً ؟

ويحاول ان يحصل انصار هذا الرأي على فتوى تؤيد دعوتهم الى منع تعدد الزوجات فيقولون بأن الله اشترط العدل بين الزوائر ثم قال « ولن تعدلوا » مما يدل على صعوبة معاملة الزوائر بالتساوي بل استحالتها ولذلك يعتبرون رأيهم غير مخالف للنصوص الاسلامية ومتلائماً مع روح الشريعة .

واما انصار الرأي الثالث الذين يحاولون التوسط بين الطرفين السابقين ، فيعتقدون اني تمدد الزوجات ذو عواقب وخيمة في الغالب على العلاقات الاجتماعية وعلى تربية الابناء بشكل خاص ، ولكن قد تجابهنا حالات نُخبر فيها بين الطلاق أو السماح للرجل بالزواج من اخرى ، كمرض زوجته مرضاً مزمناً أو عقمها أو جنونها ، فمن الافضل ان ننصحه بابقائها عنده وخاصة اذا كانت ذات اولاد ، ويبنى زوجة ثانية الى جانبها ، وهم يضعون أمر السماح بالتمدد في يد المحاكم والهيئات الاجتماعية التي تدرس المسألة من سائر وجوهها .

٢ - الطبقات في المجتمع العربي :

لا تنص قوانيننا صراحة على وجود الطبقات في مجتمعنا ولكنها موجودة عملياً وان الباحثين الذين يحاولون ان يبرهنوا منذ الآن على ان مجتمعنا العربي طبقة واحدة لهم قوم مسرفون في التفاؤل وقد توجههم اغراض لا نرضى عنها ، والطبقة الاجتماعية هي فئة من الناس تبقى منتسبة الى مجتمع اكبر منها ولكنها تتميز عن سائر فئاته ببعض الملامح الخاصة من الناحية الاقتصادية والثقافية والتقاليد ، فاذا طبقنا هذا التعريف على مجتمعنا نلاحظ ان كبار الاعداء مثلاً يشكلون طبقة فهم قوم ينتسبون الى المجتمع العربي ولكنهم يتميزون عن بقية فئاته ببعض العادات الخاصة التي اكتسبوها على مر السنين ، فأساليهم في الحديث وآدابهم في الحفلات تختلف ولو بعض الاختلاف عن اساليب الفقراء البسطاء ، وهم كثيراً ما يرسلون ابناهم الى مدارس خاصة بهم فينشأ الابناء على تقاليد خاصة معزولة عن تقاليد شعبهم العامة ، وانك ترى فرقاً بين الغني والفقير في كيفية الخطبة والزواج

والملاقة بين الآباء والابناء ، وقد تعي بعض الطبقات العربية مصالحها الخاصة
فتشبت بها .

وموضوع الطبقات في بلادنا يحتاج الى دراسة مستفيضة وعميقة ،
إذ ان احوالنا الطبقيّة تنعكس آثارها على سياستنا وثقافتنا وعلاقاتنا
الاجتماعية ، وانا نتبين منذ الآن ان مجتمعنا العربي ، يضم طبقة اقطاعية
تتألف من الملاكين الكبار للاراضي ، انهم اقطاعيون رغم ان القوانين
لم تطلق عليهم هذا الاسم ولم تنص صراحة على امتيازاتهم التي كانوا
يتمتعون بها قانونياً في المصور الوسطى إذ انهم ينالون فعلياً هذه الامتيازات
ولو بدون نص قانوني ، فهم الحكومة في قراهم وهم الحاكم والقضاء ،
لهم اتباعهم المسلحون المندفعون وراءهم كالجنود ، بل كثيراً ما يكون
رجال الامن في الدولة رجالهم يأخذون من المحاصيل اكثر مما اتفق
عليه ويرحلون من شأؤوا بل انهم في بعض الاقطار التي لم تعرف قوانين
الاصلاح الزراعي مازالوا يقتلون من شأؤوا ويخطفون من يريدون ،
وحيثما وجدت عائلة مالكة عربية فاعلم انها اقطاعية ، بل هي كبيرة
الاسر الاقطاعية في قطرها ، هذا والاقطاعيين في بلادنا قصورهم واساليبهم
في الكلام حسب منزلة المخاطب كما ان لهم عاداتهم في الزواج والتربية ولما يطلع
الشعب على ما يجري في بيوتهم .

وتقابلهم طبقة الفلاحين الذين لا يملكون قطعة من الارض بل
يستأجرون ارض الملاك الكبير او يشتغلون تحت ادارته وهم اوسع عدداً
من بقية الطبقات في مجتمعنا ، ويعيشون في ضنك شديد ولهم أيضاً
تقاليدهم وعاداتهم التي يتميزون بها ولهم آلامهم ومتاعبهم التي يسمعون الى
التخلص منها ، وقد بذلت بعض الحكومات العربية مجهودات واضحة في

سبيل رفع مستواهم وتخليصهم ارضاً تكفيهم مؤونة الحاجة وتقدمهم من حكم
الاقطاعيين ، وذلك عن طريق توزيع املاك الدولة عليهم او شراء اراضي
كبار الملاك وبيعها لهم بالتقسيم ، ولكنهم ما يزالون في حاجة الى
اصلاحات اكثر .

وقد نشأت في الميدان خلال هذا القرن طبقة من الرأسماليين ،
تمتلك ثروة نقدية وصناعية كبيرة ، وأغلب أصحاب الرساميل اليوم كانوا في الاصل
تجاراً متوسطين واصحاب مهن حرة ثم تقدموا واستفادوا من الحرب
المالية الثانية ومن قوانين الحماية الجمركية للبضائع الوطنية ومن رخص اليد
العاملة في بلادنا فأصابوا غنىً فاحشاً وتجمعت في ايديهم غالبية الثروة القومية
في بعض الاقطار ، وقد اصبح لهم نفوذ واسع في دوائر الحكومات ، كما انهم
يتعاونون عندما تهدد مصالحهم في سبيل المحافظة على امتيازاتهم ، وهم غالباً متحالفون
مع الطبقة الاقطاعية وحياناً يختلفون معها اذا عرقلت حصولهم على الارباح الضخمة
ونافستهم على الجاه والسلطان .

والى جانب هؤلاء الرأسماليين نشأت طبقة العمال الآيين الذين يشتغلون
في المعامل الحديثة ، وتبرز هذه الطبقة في المدن الكبرى من الوطن العربي بشكل
خاص كالقاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد . . .

والى جانب طبقة العمال الآيين تعرف بلادنا منذ زمن طويل الاجراء
الحرفيين والصناع الذين يشتغلون عند معلمي المهن الحرة كصناع النجارة والحدادة
والصباغة والصياغة ودباغة الجلود . . . وهم جميعاً من طبقة العمال ، وعددهم
وفير في المدن .

ولدينا طبقة وسطى مؤلفة من التجار الصغار والبائعين العاديين ومعلمي
المهن الحرة الذين يمتلكون الحوانيت دون المعامل ، والمثقفين الذين يعيشون على

ثقافتهم ولا يمتلكون ثروة اخرى سواها كالمعلمين والمحامين والمهندسين والاطباء وملاك الارض الصغيرة التي تكفي شؤون العيش ولا تجمل صاحبها اقطاعياً وقد اضحى أغلب هؤلاء يشكلون طبقة برجوازية أو طبقة وسطى .

وهذه الطبقة الوسطى ليست وفيرة المدد في بلادنا ، إذ ان مجتمعنا يكاد ينقسم انقساماً حاداً الى اغنياء وفقراء . أما المتوسطون بين الفئتين فهم قلة ، وحين يوجدون فاما ان يكونوا أقرب الى الغنى أو الى الفقر .

هذا تخطيط أولي لوضعنا الطبقي نأمل ان تتبعه دراسات واسعة نظراً لأهمية الطبقات ولانعكاس علاقاتها ونظرتها الى بعضها على سائر امورنا القومية والاقتصادية والسياسية والثقافية .



الفصل الثاني

الاضاع الثقافية

الثقافة أوضا ما تعبر به الأمة عن طبيعتها ، تظهر فيها نظرتها الى الوجود وتحمل طابعها وذوقها ، وتسجل افكارها ومذاهبها ، وعن طريقها تعي ذاتها وتدرك حاجتها وتحافظ على وحدتها إذا اقيمت بين اقطارها الحدود المصطنعة وترفع بها رأسها نحو الآمال المشرقة حين لا يساعدها وضعها المادي على تحقيق أهدافها ، ولربما استطاع المستعمر أن يفتت اقتصاد الأمة ويسرح جيشها ويجزئها ويحد من نشاطها ، ولكن الثقافة تبقى فاراً تتوهج من تحت الرماد ، ونوراً يتلمس عن طريقة الحرية والخلص للشعب .

وسنبعث الاوضاع الثقافية العربية من نقاط أربع : هي وحدة الاساس الثقافي العربي والوضع الادبي ثم العلمي عند العرب وأخيراً الوضع التعليمي في الوطن العربي .

١ - وحدة الاساس الثقافي للعربي :

مهما اختلفت النظم المعارضة وتمددت نسب الاميين والمتعلمين بين

العرب ، فإن الثقافة العربية واحدة في جوهرها ، تنطلق من قاعدية مشتركة بينهم جميعاً وتتطور دفعة واحدة لأن التراث العربي يشكل رصيداً ضخماً لأبناء العروبة كلهم فيحفظ عليهم طابعهم الثقافي المميز .

وتتجلى وحدة الجوهر الثقافي العربي في النواحي التالية :

آ- إن لغة العرب واحدة - ومتى تكلم الناس لساناً واحداً فقد انتظم تفكيرهم وفق منهج معين لأنهم باللغة يفكرون ، واللغة تحمل ذوق المجتمع الذي ولدت فيه ونشأت وتطورت ، وتعبّر عن هذا الذوق في كيفية اشتقاق كلماتها وتركيب جملها وإلباسها المعاني اللافظاظ ، إنها كزجاجة العطر تركزت فيها خلاصة روائح زهور البستان جميعاً ، وقلمنا نجد أمة في مثل وضعنا سادتها لغة واحدة سيادة اللغة العربية في وطننا . وعن طريق هذه اللغة الواحدة يتفاهم العربي مع أخيه ، ويمتص الطابع العربي منذ نعومة أظفاره في الذوق والتفكير والقيم ، وينال من تراث قومه ثروة ضخمة تحميه من أن تتلاعب بنفسيته رياح الثقافات الاجنبية .

ومن نعم اللغة العربية على قومنا أنها لم تتغير كثيراً منذ قبيل الاسلام حتى اليوم ، وهي بذلك تسمح للعربي المعاصر أن يفهم ما قاله العرب أيام العباسيين والامويين والراشدين ومن سبقوهم . . . فتجعل الاجيال العربية المتلاحقة على مر القرون شخصية واحدة متمازجة متفاعلة يتصل آخرها بأولها ، ويستفيد كل جيل منها من تجارب الذين سبقوه بسهولة ويسر عظيمين .

ب- والتراث الادبي - واحد للعرب جميعاً ، ما من مثقف عربي إلا وطرب لأشعار امرئ القيس والنابغة الذبياتي وعنترة ، واستشهد بحكم اكنم بن صيفي وخطب قس بن ساعدة واستعان بالامثال العربية العريقة في

حديثه وكتابه ، وما من متعلم إلا وروى قصص العرب واهتز لمعارضات
جرير والفرزدق والاخلط ، وابتسم لهجاء الحطيئة وطرب لشعر البحري
وأعجب بقصائد أبي تمام وتمثل بتشبيهات ابن الرومي وتحمس لعبقريه المتنبي
وسار مع تأملات المعري ، وشفق بكتابات الجاحظ وتفكر في
صنعة الهمداني . . .

وثمة أثر خالد شغف به العرب متعلمهم وجاهلهم فساهم الى حد كبير
في حفظ وحدتهم الثقافية وهو القرآن الكريم ، الذي عمد فائدته فشملت
كبار العرب وصغارهم ، مسلميهم ومسيحيهم ، واذا فات كثير من أبناء
شعبنا أن يتعلموا لغتهم الفصحى في المدارس فهم من غير ادنى شك اكتسبوا
ذوقها وتدرّبوا على فهمها وأجوها عن طريق سماعهم للقرآن الكريم .

ج - والثقافة الشعبية واحدة في المجتمع العربي ، فلطالما استمع الناس
في البساتح الواسعة لدور المدن ، وتحت قباب الريف وبين خيام
البادية الى قصص عنتره بن شداد ، وسيف بن ذي يزن ، والمهلل ، وأبي
زيد الهلالي . . .

وتحمسوا لهذا البطل أو ذاك ، وثاروا للحرب وصفقوا للبهجة وتشربوا
طباع الفروسية العربية الاصيله .

ويتفق العرب في رقصاتهم الشعبية واغانيمهم ومواويلهم والاباب الفروسية
وحفلات الاعراس والمولد والمواسم .

ومما يفيد العرب أن أقاصيصهم الشعبية الهامة كتبت باللغة الفصحى
نثراً وشعراً فجعلت عاميهم على صلة وثيقة بالترات الفكرية الفصيحة ، وتمد هذه
الاقاصيص من أكبر عوامل الوحدة النفسية والانسجام البديهي والوجداني
لدى كل امة .

وإذا حوى بعضها أفكاراً غير علمية وجمالاً يميزها حسن الصياغة ، فإنها تبقى أساساً راسخاً للاخلاق ومستودعاً للقيم ونقطة انطلاق للخيال والفكر . وتسمى آداب الامم الحديثة الى التطور ابتداءً من ملاحظتها وقصصها الشعبية ، وتعطينا ملاحظتنا وأساطيرنا ذخيرة لا تنفذ من الموضوعات الروائية والشعرية ..

د- ونحن جميعاً ورثة تراث فكري واحد ، ومن سائر النواحي علمية كانت أو اخلاقية ، أو تربوية ، إذ أن أفكار العرب القدماء أضيف اليها رصيد حضاري كبير خلال النهضة العربية التي ابتدأت في القرون الاولى من الهجرة وتوزع هذا الرصيد على الاقطار العربية كلها ، فلا تخلو من المكاتب التي تضم اكادماً من المجلات تتناول علوم اللغة العربية والفقهاء والتشريع ، والصناعات المتعددة والعلوم الكثيرة ، فقد قرأ مثقفوا العرب على مر العصور كتب سيبويه والكسائي والآمدي والجرجاني وتناقشوا في آراء ابي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل وتمسوا لآراء الأشاعرة وتعمقوا مع المعتزلة وتباحثوا في أمر المرجئة وناقشوا مسائل التصوف وكانوا فيها بين مؤيد ومعارض ، وتدارسوا أقوال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل وسمعوا برد الغزالي على الفلاسفة ورد ابن رشد عليه وقرأوا تاريخ الطبري وابن الاثير وابن خلدون (١) كلها أو جزءاً منها على الاقل ، واعجبوا بان خلدون وتوقفوا عنده واهتموا بمجدة افكاره ودفنوا الدراسات الانسانية الى الامام .

(١) لسنا هنا في معرض ذكر جميع تفاصيل تراث الفكر العربي ولكننا في مجال الاستشهاد ببعض منها على اشتراك العرب جميعاً في هذا التراث .

ولا نحسب أن الاطلاع على التراث الفكري العربي اقتصر على المثقفين وحدهم ، بل كان ينتقل الى الجماهير غير المتعلمة عن طريق دروس الوعظ والارشاد وحضور مجالس المتعلمين ، فقلما تجد عربياً مهماً اشتد جهله لا يناقشك في أمر المذاهب الاربعة أو يبدي رأيه في التصوف أو يسرد لك نبذاً من التاريخ القديم أو يروي مقطوعات من الشعر الفصيح بأسلوبه الخالص دعماً لحجته وتأييداً لكلامه .

ولم تقتصر الاستفادة من التراث العربي الفكري على اتباع دين دون آخر ، فقد اهتم العرب المسيحيون ، كالعرب المسلمين بامور التشريع مثلاً وساروا على نهج واحد في شأن الارث والحضانة في كثير من الاحيان ، كما أنهم اهتموا باحياء تراثنا الفكري ونشر مكنوناته والتجاوب معه .

٢ - الوضع الادبي في المجتمع العربي المعاصر :

للادب العربي في أيامنا خصائص عديدة أهمها :

أ - انه أدب يميل الى النهوض :

منذ حوالي القرنين أخذ أدبنا العربي يستيقظ وينفض عنه بطيء في أول الأمر غبار التقليد والتكرار ، ويسعى الى اغناء مضمونه بالافكار ورفع مستواه اللفظي بالتجديد ، ويخلق مع الخيال المبدع المنطلق من الواقع .

فبعد النكسة الاديبة التي اصابنا العرب في أواخر أيام العباسيين وبلغت أسفل دركاتها خلال الحكم العثماني حتى اصبحنا لانجد كاتباً مجيداً ولا شاعراً مبدعاً عظيماً ، وحتى صارت أهم الكتب الرسمية تصاغ أسوأ صياغة وغدت الالفاظ متحجرة والكلمات في كثير من الاحيان

جوفاء لا تقدم زاداً جديداً للفكر والعاطفة ، بعد هذه النكسة ،
أخذت الامة تستفيق في أواخر عهد العثمانيين واستفاق معها أو في
طليعتها شعرها ونثرها ، وقد عرف القرن التاسع عشر لغويين سعوا لأحياء
التراث وكتبوا نماذج حاولوا أن يبرزوا من خلالها الطابع العربي
العريق مثل ناصيف اليازجي وبطرس البستاني . وأهم جهابذة ذلك القرن
بتمجيد اللغة العربية والدعوة الى تجديد شبابها واستخراج كنوزها مثل
الشيخ محمد عبده ورشيد رضا ، وسارت هذه الحركة على حد سواء
في المشرق والمغرب العربيين ، ونشأ شعراء حاولوا صياغة القصيدة الجذلة
الفخمة مثل محمد سامي البارودي ، واشتهرت كتابات أحمد فارس الشدياق
الرحالة الواسع الاطلاع ، وكان في شعره ونثره خفيف الظل
واقعياً .

وعاد العرب بترجمون التراث الفكري للامم الاخرى ويجهدون
للاستفادة منه ، وفي أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين
سجل الشعر العربي أسماء عظيمة لا تقل كثيراً عن شعراء العصور
الذهبية كأحمد شوقي وحافظ ابراهيم ، كما عني الباحثون بكتابة
تاريخ الادب العربي فألف جرجي زيدان كتابه في هذا الموضوع ،
وعمل حفني ناصيف في نفس الميدان ، وعادت المرأة العربية الى المساهمة
في الكتابة فبرزت ابنة حفني ناصيف بحائمة البادية وبرزت ماري زيادة التي
لقبت بممي .

وأخذت موضوعات الشعر تتنوع وتغني ، فقد فاض شعراء المهجر حينئذ (١)
الى وطنهم وصارت الموضوعات الوطنية تتقدم لتحمل مكان الطبيعة من الموضوعات،
هي والشعر الذي يتناول الامور الاجتماعية .

(١) كنسب عريضة والاخلط الصغير وغيرهم ...

وهكذا انشد الشعراء قصائدهم في حادثة دنشواي وفي ظلم العثمانيين وفي التنديد بالاحتلال الانكليزي والفرنسي والايطالي لبعض الاقطار العربية ، كما انشدوا قصائدهم عن تحرير العرب ووحدتهم وتمجيد أيامهم الماضية والمناداة بمستقبل كريم لامة العرب ، كما غنوا في تحرير المرأة ونددوا بالظالم التي تقع على الفقراء وحثوا على التعليم ، وطالبوا بمستوى كريم للفرد العربي ، وقد ازداد اهتمام شعرائنا بالموضوعات القومية والاجتماعية في الربع الثاني من القرن العشرين وخلال هذه السنوات التي انقضت من الربع الثالث ، فقد قيل الشعر في ثورات العرب على الاستعمار على ارض سورية والعراق ولبنان ومصر وتونس والجزائر ... وندد الشعراء بالوثورات الاستعمارية والاحلاف وهبوا في وجه المعاهدات الجائرة وشجبوا العدوان الثلاثي على مصر وحيوا كل محاولة رأوا فيها الخير للعرب .

وإذا ظلت القصيدة الغنائية التي يتحدث فيها الفرد عن نفسه واحبائه وقومه هي الشائعة بين فنوننا الشعرية فقد بذلت المحاولات لادخال انواع جديدة من الشعر الى لغتنا أو انماء انواع شعرية كانت ضامرة في القديم . واخذت هذه المحاولات شكل الترجمة احياناً كما فعل حليم مطران عندما ترجم بعض مسرحيات شكسبير وكما فعل البستاني الذي ترجم إلياذة هو ميروس وهي ملحمة شعراً الى اللغة العربية ، كما اخذت شكل الابداع احياناً اخرى فنظم شوقي مسرحياته الشهيرة وتابعه عزيز ابازة وعمر أبو ريشة وسواهم . واصبح النقاد يستطيعون ان يسموا بعض شعرائنا كلامسكيين وبعضهم رومانتيكيين وبعضهم رمزيين .

ونشطت حركة الكتابة منذ اواخر القرن التاسع عشر ايضاً وأوائل

هذا القرن وتمّ التحرر من السجع والتكلف والصنعة الى حد كبير ،
وكانت الجرائد والمجلات العربية مسرحاً للآراء السياسية وللكتابات الادبية
في آن واحد ومن أعرقها المقتطف والمقطم والاهرام والهلل والمؤيد ...
ونشأ امثال محمود نديم وعلى يوسف ، والمنفلوطي والألوسي وقاسم امين
والكواكي وفارس نمر ويعقوب صروف ...

ثمّ نشأ جيل من الكتاب المهاجرين مثل جبران خليل جبران
وميخائيل نعيمة ، وازدادت حركة الطباعة واقيمت دور النشر وعرف
القارئ العربي سلاسل متتابعة من الكتب كسلسلة كتب المقتطف
والهلل ، وتنوعت موضوعات الكتابة ومستوياتها فأصبحت تجد المسرحيات
والتقصص . ونشطت هذه الحركة ايضاً بمد الحرب العالمية الاولى والثانية ،
فنشأ كتاب عديدون للمقالة والقصة الطويلة والقصة القصيرة والمسرحية وتمددت
مستويات الكتب فمنها السهل الذي يصلح للثقافة العامة ومنها العميق المحص
الذي يرضي المختصين . واشتد ساعد النقد الادبي في الكتب والمجلات ،
وغدا كل فرد من الشعب يجد ما يلائم مستواه من الجرائد والمجلات في
كثير من الاحايين . ولم يترك موضوع اجتماعي إلا وتناوله الكتاب
على اختلاف حظوظهم في فهمه وتفسيره ، ونشطت حركة الترجمة في
سائر الميادين ومن مختلف الثقافات ، كما ازدادت حركة تحقيق ونشر
الكتب المخطوطة .

ب - انه أدب يسوده الصراع :

إذا اصاخ المرء باذنه الى الندوات الادبية وتفحص ما يكتبه
الادباء شعراً ونثراً لا يجد استقراراً واتفاقاً وانما يشاهد قلقاً متزايداً
وهرجاً ومرجاً وصراعاً محتدماً بين فئات عديدة ، ولن نهم هنا بألوان

الصراع الفكري بين المذاهب الاجتماعية والسياسية والتي تأخذ طابعاً
ادبياً في هذه الايام، وانما سنوجه اهتمامنا الى ظاهرة الصراع الادبية البحتة
التي نرى أهم ملاحظتها فيما يلي :

فهي تبتدىء أولاً في المناقشات الدائرة حول القديم والجديد ،
إذ ينادي شعراء بالمحافظة على الاوزان الشعرية القديمة والنسج على منوالها
واتباع النهج العربي الموروث في القصيدة وقوافيها ، وقد يتدمرون من
أساليب النقد الجديدة ومن تقسيم الشعر الى مدارس ، رمزية وابداعية ،
ويضيقون ذرعاً بكل دعوة الى سن طرق جديدة للشعر ، ويمارضهم
شعراء ونقاد آخرون ، منهم من يؤيد بحوراً جديدة للشعر ، ومنهم من يجذ
ان تمخر القصيدة الواحدة عدة بحور ، ومنهم من يرضى بالشعر من غير
وزن ، ومن يرضاه بلا قافية او يطالب بحرية واسمة في باب القوافي ، وقد
يخدم الصراع حول الموضوعات الشعرية فيرى الوقورون الا يتبدل الشعر
فيتناول الحياة اليومية وشؤونها العادية بينما يسمى المجددون الى افساح مجال
رحب لقصائدهم ، فيتغننون لكل ظاهرة ويتغننون مع كل خفقة . وقد
شغل هذا الصراع بين القديم والجديد جزءاً كبيراً من مجهودات الشعراء
والنقاد ، وبحثوا امره في الكتب والمجلات والجرائد والاذاعات على اختلاف
في وجهات النظر بين انصار القديم فيما بينهم ، وانصار التجديد فيما
بينهم ايضاً .

ولم يقتصر هذا الصراع على الشعر وحده بل تعداه الى النثر وان
كان شأنه هنا اقل من شأنه هناك وعلى كل حال فقد وجد كتاب يدعون
الى المحافظة على اسلوب معين في الانشاء وآخرون يبذلون جهدهم للتجديد ، (١)
وظهر انصار المقالة يحطون من قدر الرواية ومعبون بالقصة الطويلة
او القصيرة ...

(١) جبران خليل جبران - مخائيل نعيمة - توفيق الحكيم وغيرهم

وهي تظهر ثانياً في الجدل على مقدار ما نستفيد من الآداب الأجنبية ، ولم يكن الاتجاه الى المسرحية والملحمة والرواية الطويلة الا استفادة من تلك الآداب في أغلب وجوهه ، كما أن حركة التجديد في الشعر اقترنت عند اكثر ممثلها بالأخذ عن الآداب الغربية .

ويعتقد انصار اتباع الغربيين في آدابهم ، أننا إذا لبينا دعوتهم نتلائم مع التطور الذي تابعه الاوروبيون في أيام غموتنا قبل نهضتنا الحديثة ، كما يرون في الآداب الغربية عمقاً في التفكير وسعة في الخيال وحقاً في صوغ العبارة وتفناً حراً في تركيب الشعر ، نظلم انفسنا اذا لم نستفد منها ، ويندفع بعضهم فيعتقدون ان كل ادب خلا الآداب العربي المعاصر ، لغو وثرثرة فارغة .

اما الذين يقفون في وجه هذا التيار ويطالبون ببعث كموزنا الادبية العربية بدلاً من التوجه نحو الاوروبيين ويرغبون في المحافظة على اساليب القول والكتابة العربية عندنا ، فيخشون ان تذوب شخصيتنا في الشخصية الاوروبية . لان الادب من اكبر ما يميز الحضارات والامم عن بعضها ، ويؤمنون أن الذوق العربي لا ينسجم الا مع تراثه الذي نشأ عليه . وربما ربطوا الاسراف في تقليد الاوروبيين بالاستعمار وقالوا إن الدعوة الى الاخذ عن الاوروبيين دليل على الضعف والتهافت بل هي تقليد محض لا يقل عن تقليد القدماء .

وإذا استفتيت الشعب في بلادنا ألقىته يخشى الاخذ عن الاوروبيين كل الخشية ، فهو يعتبر شعرهم وقصصهم كسائر بضائهم وقوام التي يحاولون ان يفزونا بواسطتها . ومن الافضل الا نسرف في الدعوة الى الاخذ بالناهج الغربية الحديثة الا بعد ان يكتمل بعث تراثنا الادبي لئلا تخسر

الانسانية طابعا ذوقياً مميزاً موجوداً لدينا ، ونحن على كل حال لا نرى في الاستفادة من الغير عاراً فقد استفاد منا غيرنا مراراً ، ولكننا نرى العار في التقليد الاعمى ، والاتباع المبتذل كما نرى العار في الجمود ايضاً .

وهي تبدو ثالثاً في الصراع القائم بين العربية الفصحى وبين اللهجات العامية المحلية ، ففي كل لغة تنشأ لهجات متعددة خاصة بالمدن والقرى والاقاليم ، لا تبعد كثيراً عن أصلها الفصحى وإن اتصفت باختصار بعض الكلمات وقبول مفردات غريبة احياناً وتفردت باصطلاحات اختص بها ابناء المنطقة . وتختلف اللهجات العامية عن بعضها في إمالة بعض حروف المد وفي لفظ حرف الجيم مثلاً وفي استعمال احدى ادوات النفي اكثر من سواها كالشين التي توجد في آخر الكلمات المنفية في اللهجة المصرية وهي متطورة عن كلمة شيء . وتبقى اللغة الفصحى عاملاً مشتركاً للتفاهم والوحدة النفسية والثقافية بين الناطقين باللغة الواحدة ، وليس من الخطر على الفصحى ولا على وحدة الامة أن يستعمل الناس لهجاتهم العامية في احاديثهم اليومية البسيطة وأن يعنونوا بها بعضاً من اغانيهم ، ولكن الفصحى تشعر بالخطر حين تبعد اللهجات العامية عنها بدءاً يكاد يفصلها عنها ، وحين تنطلق دعوات الى الكتابة نثراً باللهجات العامية ، وبين يتحمس انصار العامية في هذا القطر او ذاك فينادون باستقلال قطرهم ثقافياً لان لغته تختلف عن لغات بقية الاقطار وهم بهذا القول يخلطون بين اللغة واللهجة . وقد تدنت اللهجات المحلية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر واسفت حتى كادت الكلمات المستعارة من التركية تفقدها اصلتها ، كما أن الجهل انحط بألفاظ هذه اللهجات ومخارج حروفها ، فأصبحت مسوخاً مشوهة تستحي منها لغة العرب ، ولكن اليقظة العربية ابتداء من القرن

التاسع عشر وما رافقها من نشر الكتب القديمة والجديدة في سائر الاقطار
ومانجم عنها من التقاء المثقفين العرب في الجمعيات والمؤتمرات واصدارهم
المنشورات ساهمت إلى جانب ذبوع التعليم برفع مستوى اللهجات المحلية
واقترابها من اصلها الفصحى .

وليت الامر اقتصر على تدني اللهجات المحلية ، بل لقد ظهرت
فئات من المتأدين تدعو الى ان يتكلم أبناء كل قطر بلهجتهم ويكتبوا
وينظموا بأسلوبها وكلماتها ، وحدثت ضجة (١) حين نشر بعض المنتسبين الى
الشعر دواوين بالعامية اللبنانية وبالعامية المصرية وبالعامية العراقية والمغربية .

وتدخلت الاذاعات في القضية فأفادت الفصحى إذ نقلت الاخبار
والاحاديث الادبية والعلمية بها ، ولكنها شجعت العامية بكثرة الاغاني التي
اسمعتها للناس حسب لهجة هذا القطر أو ذاك ، كما حسب بعض المشرفين
على الاذاعات أن القول المفهوم يجب ان يكون عامياً ، فسمع الناس في
بيوتهم ومقاهيهم ومنتدياتهم أحداث سياسية واجتماعية مصوغة بلهجات العامة ،
وزعم قوم من المهتمين بالشؤون الاذاعية ان الغناء والكلام اذا صدر
عن الاذاعة بلهجة أحد الاقطار ساهما في إفهام هذه اللهجة لابناء بقية
الاقطار العربية ، وهكذا بفهم السوري والعراقي واللبناني لهجة أخوانه
في مصر ويتقارب معها ، وتؤدي الرسالة عينها محطات الاذاعة في بغداد
ودمشق وبيروت ..

واشدت مساعد انصار العامية فتعصب كل منهم للهجة قطره وحسبها
لغة قائمة بذاتها بل فضلها على السنة الارض جميعاً ، واقترن حماسهم
بالدعوات الاقليمية السياسية ، فسمعت شاعراً يدعي استقلال لبنان ارضاً
وبشراً ولغة ويسأل عن المبرر الذي جعل الله يخلق لبنان على هذا الحسن

(١) محمود تيمور بتهليله وقصصه العامية (وميشال طراد في شعره)

والجمال (١) ويحيب نفسه بأن الله لا شك قد خلق لبنان لغاية هي أوسع وأهم من وحدته مع أجزاء الوطن العربي وانه شيء فريد نادر الوجود وكيان لا يجوز أن يذوب في امة العرب ولا في مصالح العرب ، وسر دعاة الاقليمية اللبنانية لهذه الاقوال وشجعوا كتاباً وشعراء على الانتاج بلهجة لبنان ، كما حاول القوميون الاجتماعيون ان يجدوا لسورية الكبرى أدباً متميزاً مستقلاً عن أدب بقية الاقطار العربية .

وعرفت مصر امثال هذه الدعوات التي ربطت بين الحماس للعامة المصرية والناداة بقومية مصرية متميزة ، ولا يكاد قطر عربي يخلو من نداء للعصبية الاقليمية والاعتماد على اللهجة العامية ، وقد وقف الاستعمار من المنادين بهذه الدعاوي موقف الاب الذي يعرف كيف ربي ابناءه ونحو أي هدف وجههم ، فسارت اذاعاته على نفس الطريق بحماس طليعي واضح ، وشجع الابحاث والمناقشات المصطنعة التي كانت تصل الى النتائج المرسومة لها سلفاً ، فهو يدرك تماماً ان الوحدة العربية عدوته التي لا ترحم ، ولذلك فهو لا يرحمها ولا يفتأ يجارحها ويعلم أن من عوامل تأخيرها تفرد ابناء القطر بلهجتهم واعتبارها لغة قائمة بذاتها لا جدولاً فرعياً بسيطاً من لغة الضاد .

وكثيراً ما استهتر المسؤولون العرب بأمر هذه الدعوات وظنوا ألا خطر منها ، حتى استبدت العامية بالاذاعات والافلام وأحياناً بالخطب والانشيد القومية .

ونحن نسائل من يضعون البرامج الاذاعية عن اللهجة العامية التي ينسبونها الى كل قطر :

أليس في القطر الواحد عدد كبير من اللهجات ؟

ألا تختلف لهجة حلب مثلاً عن لهجة دير الزور ؟

بل ألا نلاحظ ان لهجة الديرين أقرب الى لهجة ابناء عانه وراوه في العراق منها الى لهجة الدمشقيين والمحصيلين .

وهل يتكلم الشعب العربي في مصر كله بالعامية التي تخصها اذاعة القاهرة بمعانيها ؟

لا شك ان لاءاء الاسكندرية لهجتهم ولأبناء الصعيد لهجتهم وكذلك الواحات الداخلة والءارءة .

إن العامية التي تهتم بها كل اذاعة هي عامية العاصمة أو بعض المناطق المحدودة ، ولم تتوزع اللهجات على العرب حسب الحدود المصطنعة ، فالبدوي الذي يعيش في الاردن أو سورية أو مصر يتحدث بلهجة واحدة تقريباً ، وأبناء خان يونس وءزة ورفء يتكلمون لهجة هي أقرب الى العامية المصرية منها الى العامية الفلسطينية .

وأما القول بأن نشر اللهجات العامية عن طريق الاذاعات والكتب مفيد في تعرف أبناء كل منطقة على لهجات المناطق الاخرى مما يزيد التفاهم والوحدة فهو قول إن قصده اصحابه حقاً دل على عقلية عجيبة تفضل السير على الطريق المعوج لتصل الى هدفها ، وهي تعلم ان الطريق المستقيمة أقصر وأضمن ، إذ ما دام العرب مشتركون سلفاً في الفصحى ، فلماذا لا تقوي الروابط والتفاهم فيما بينهم على أساسها بدلاً من إثارة حرب اللهجات ومنافساتها .

وأما دعوى التسهيل على الناس وتبسيط الافكار وشرحها عن طريق العامية فلا مبرر لها في وطننا الذي يفهم الفصحى فيه جهاله وعلماؤه ،

صفاره وكباره ، عن طريق سماعهم للقرآن الكريم وتجمعهم للاصغاء الى قصة شعبية مكتوبة بلغة العرب الواحدة .

ولا ننسى أننا نسمى الى الشرح والايضاح ورفع مستوى شعبنا سياسياً واجتماعياً في سبيل تحقيق القومية العربية أهدافها ، تلك القومية التي تعتمد على اللغة العربية الفصحى كقاعده أساسية من قواعد وجودها ، فكيف نصل الى أهداف القومية العربية بوسائل تخلل بأحد أسسها الهامة ؟

ولسنا من المنادين بالتقعر والتشدد ، وادعاء الثقافة عن طريق استعمال الجمل الصعبة والكلمات غير المفهومة ، ولكننا نؤمن ببساطة اللغة العربية وسهولتها ونرى ان المتكلم والكاتب والشاعر يستطيعون المحاطة على الفصاحة والسهولة معاً اذا رغبوا في ذلك وثابروا عليه .

وتتبدى ظاهرة المراع رابماً في الخلاف بين انصار الادب الملتزم وانصار الفن للفن أو عدم الالتزام ، اذ ترى جماعة من الادباء أن الادب نثراً كان أو شعراً يطلب للجمل والتمعة ولتنمية الاذواق ، وليس من واجبه ان يدعو الى مذهب اجتماعي أو يخوض المناقشات السياسية ، وهم يعتقدون ان الادب يستطيع الكتابة في الموضوعات التي يريدونها وبصف الوقائع التي تستلفت نظره ويبقى أديباً ولو عرض اليوم فكرة وغداً فكرة اخرى ، لأن الافكار وحلول المشكلات وايضاح السبل للامة ليست من واجبات الاديب وانما هي منوطة بالعالم الاجتماعي والنفسي وبالسياسي ورجل الاقتصاد ، وهؤلاء لا يشترط فيهم ان يكونوا من حملة الاقلام أو ناظمي القصيد وبالتالي لا يشترط في الاديب ان يكون واحداً منهم

ويرى بعض انصار هذا الرأي ان مهمة الاديب تسمو على الاوطان
وازماتها والطبقات وحاجتها والجوش ومعنوياتها والثورات واندفاعاتها ،
وتتعلق بصياغة العمارة الجميلة التي تلامس شغاف القلوب وتتسلل اصدائها
لهيئة مؤثرة الى آذان الناس في كل زمان ومكان ، وهم يعتقدون بأن
السعي الى خير الناس مطلوب من المصلحين الاجتماعيين ورجال السياسة ،
والسعي الى الحق منوط بالعلماء والمختصين بشؤون المعرفة ، وأما الأديب
فيختص بأمر الجمال ويقدم للناس نماذجه البديعة الرائعة التي لا يطلب منها
ان تدعو الى فضيلة وتنهى عن رذيلة وتشجع على ثورة وتتادي
بتطوير اجتماعي .

أما اصحاب الالتزام فيعتقدون بأن الاديب مواطن ويجب ان
يهتم بمشكلات وطنه ، وهو لا بد صاحب رأي في هذه المشكلات وليس
من المعقول ان ينزل الاديب في برج عادي ، فيغمض عينيه عن مناظر
الفقر في بلاده ويصم اذنيه عن صرخات الثوار على الظلم والاستعمار ،
وانه مكلف ومسؤول لا كمواطن وحسب ، بل كإنسان ايضاً ،
إذ ما اقل انسانية الذين يديرون ظهورهم لآلام الناس ولا يساهمون في رفع
مستواهم . واذا كان كلام الاديب جميلاً فليكن هذا الجمال من عوامل
الاقناع واثاره الحماسة .

وما يعتقد اصحاب الالتزام ايضاً ان الاديب لا يكثر جمهوره
ولا ينتشر صيته إلا اذا ارتفع مستوى الشعب الاقتصادي والسياسي
والفكري ، فاستطاع ان يتفرغ لقراءة القصص وانشاد الاشعار ، فكأن
عمل الاديب في سبيل شعبه عمل في سبيل فنه ايضاً ، ولا يأمل
الكتاب والشعراء ان ينسى الناس ما هم فيه من مشكلات ومتاعب وآلام

وينصرفوا الى أثر ادبي لا يمت الى اهتمامتهم الملحة بصلاة ، وقد ألفنا ان نرى ترحيب الناس بالشعر أو النثر اللذين يعبران عن آلامهم وآمالهم ويساهمان في هديهم الى طرق التقدم والرفعة .

ثم يهمس انصار الالتزام في آذاننا قائلين : أتجسبون ان هنالك ادبياً لا يلتزم أي مذهب ولا يدعو الى فكرة معينة أو نظام معين ؟ لنأخذ اصحاب الفن للفن انفسهم ، إنهم نشأوا في احد المجتمعات وتأثروا بأبطال التاريخ وعاشوا في طبقة اجتماعية خاصة ، فهم قد كونوا بلا ريب وجهة نظر في الكون والاخلاق والسياسة والاقتصاد ويستطيع المتعمق ان يستخلص وجهة نظرم من آثارهم الادبية ولو لم يعترفوا بها، كل قصة توجه قارئها الى تبني احد الانظمة الاجتماعية والى تقدير دين من الاديان او مذهب من المذاهب او فئة من الناس ، ويكون هذا التوجيه عن طريق اختيارها لبعض الاحداث دون سواها ووصفها لأبطالها بصفات خاصة واثارتها العطف على نموذج من الرجال دون النماذج الاخرى وتصويرها لاجاد احدى المراحل التاريخية ومنافى ضرب من ضروب السلوك والتفكير .

وقد قويت حركة الالتزام في ادبنا المعاصر ، فنشأ كتاب وشعراء منهم من نذر قلبه ولسانه للقضايا القومية حسب تصوره لها ومنهم من عني بمسائل الفقر والجهل بل إنك ترى اليوم لكل معركة عربية كتابها وشعراءها ولكل مذهب اجتماعي او سياسي ادباء يظهرونه في احسن صوره ويدافعون عنه باقوالهم الجميلة المحكمة الصياغة .

ونحن لا نرى أن يسف الاديب إلى مقام الدعاوة الرخيصة ولا أن يهمل سبك عبارته باسم عمق فكرته او صوابها ولكننا نعتقد في نفس الوقت

أن بلادنا فيها اراض تحتاج لمن يزرعها وفيها حدود مصطنعة يجب ان تزال
ولها ثغور تطالب بأن تتحمى وعليها اكواخ يجب ان يسكن الناس خيراً منها
وليس فيها ابراج عاجية يحرم سكانها الوطن من جهودهم ويستنكفون عن
العمل من أجل أمتهم ، وخير الأدب ما ارتجت فيه الفكرة العميقة الحقة
الجديّة بالعبارة الجميلة المنجحة .

ج - انه أدب لم تكتمل نهضته بعد :

لا يستطيع المرء ان ينكر حركة الادب العربي الصاعدة التي
اوردنا البراهين عليها منذ قليل ولكننا نلاحظ في الوقت نفسه ان
الامكانيات العربية اغنى من ادبنا المعاصر ، فهذا الادب ما يزال دون
المستوى الذي نصبو إليه ونقدر عليه من نواحي عديدة أهمها :

اولاً - من ناحية الاعتماد على القدماء اكثر مما يجب عند بعض
شعرائنا ولا نندد هنا بالداعين إلى احياء الشعر العربي القديم والاعجاب
به بل نحن نندد بمن لا يستطيعون أن يأتيوا بتشبهات جديدة تدل على سعة
الخيال وتطوره ، ويمجزون عن التمييز الا بعبارات الاقدمين ذاتها أو بعد
تحوير بسيط فيها ، ولئن اعتبر تشبيه امرئ القيس لليل بالبحر (١) قمة من قمم
الخيال فعلى اسلاف امرئ القيس من شعرائنا الا يكرروا هذا التشبيه نفسه
والا داروا في حلقة مفرغة ودلوا على العقم وجفاف الخيال ، إن الابداع
من أهم خصائص الفن وس لا يأتي بالاخيلة الجديدة ولا يكتشف اراض
القرباة المتمدة بين الموجودات لا يعد شاعراً مبدعاً مجيداً ، ولئن كان
زهير بن ابي سلمى قد تحدث عن الحرب فشيها بالرحى التي تسحق
المشركين فيها ، فلا شك أن زهيراً نفسه لا يرضى عنا إذا لم نجد بعده
بخمسة عشر قرناً تشبيهاً ملائماً للحرب غير تشبيه لها ، وقد شبه شعراؤنا

(١) وليل كموج البحر ارنى سدوله علي

الاولون الجميلة بالظي وكانوا في ذلك فالحين في ميادين الخيال ولكن الكون
واسع ويستطيع الشاعر الفحل أن يأتي بأوصاف جديدة لجميلته ، ومن
الغريب حقاً ان نتصفح كثيراً من دواوين شعرنا فنجد عبارات القدماء
واسمعاراتهم وتشبيهاتهم ذاتها تتكرر في كل صفحة ، وأن نسمع حتى اليوم
بحديث الكرماء الذين هم كالبحور والشجمان الذين يفوقون الاسود والوجوه
التي تبرز الدور ، والقود التي تقيده على الاغصان واغصان البان يشكل خاص ،
فلماذا يضيق عدد جم من شعرائنا الكون على انفسهم ويقلون الابواب
امام خيالهم فلا يستطيعون أن يأتيوا الا بما هو مكرر ومعاد ؟

وثانياً - من ناحية الاقتباس عن الاجانب بشكل قهسفي عند بعض
شعرائنا الاخرين وقصاصينا ، فمن لا يفوته الاقتباس عن الشعر القديم من
نظامين يعتمد على الشعر الاوروبي فيأخذ عنه متسعاً وبدون تمثيل ،
ولربما استغل احد الشعراء جهل جمهور القراء باللغات الاجنبية ففاجئهم
بقصيدة تضم افكاراً وخيالات جديدة ، وزعم أنها من ابداعه وبعد
حين يكتشف احد النقاد نقل الشاعر لها عن قصيدة اجنبية معروفة او
مغمورة ، ولا نذيع سراً اذا اكدنا أن كثيراً من عبارات اليوت (١)
ورامبو ولامارتين وفاليري وبارون وشالي وغيرهم من الغربيين قد تسربت
إلى شعرنا من غير أن يصرح مقتبسوها في غالب الاحيان عن الأصل
الذي نقلوها عنه .

وليت الامر اقتصر على استيراد العبارة او التشبيه بل أخذ بعض
شعرائنا المثقفين ثقافة اجنبية يستوردون المشكلات الاوروبية ويساخونها عن
مجتمعها ليفرضوها على مجتمعنا ، وهكذا كثر الحديث عن فراغ الحياة

(١) من أهم شعراء الغرب

وعبثها وعدم وجود ما يهتم به الانسان تقليدا لشعراء اوربوا التي بدأ الملل يتسرب الى شبابها بعد أن جربت وعرفت اشياء كثيرة وخاضت غمار الحروب العالمية وحققت اكثر ما تريد مع أن شباب مجتمعا العربي لا يجدون فراغاً بل يرون ان الوقت أقصر من أن يستوعب أمالهم ولا ينكرون القيم بل يشيرون لأن الواقع لا يجسمها تماماً .

وينطبق الامر نفسه على القصة ، وأنت اذا تابعت المجلات الادبية قرأت في أحد اعدادها أقصوصة ينسبها كاتب عربي لنفسه ، ثم تقرأ هذه القصة بعد عدة أعداد على انها مترجمة عن أحد الكتاب الاوروبيين، ولربما كان العدد الغفير من قصص الافلام العربية مقتبساً عن الافلام الاجنبية وقد يأخذ أحد القاصين رواية عربية فيغير في اسماء أشخاصها وفي امكنة وقائمه ويضيف إليها فقرة خطائية هنا واخرى غزلية هناك فتصبح من ابداعه وتقدم الى القراء على انها من انتاجه ، نقول هذا القول ولا ننكر وجود قصص عربية خالصة وقصص عرب مجيدين كنجيب محفوظ وعبد الحليم عبد الله .:

ثالثاً - ويتجلى ضعف المستوى الادبي عندنا في اكثر شعرائنا وكتابنا من التقرير ، اذ تختلف العبارة الادبية شعرا كانت او قصة عن الكلام العادي في كونها لا تصف الوقائع مباشرة وبجمل خالية من الخيال بل تصل إلى مرادها عن طريق التصوير والتمثيل وتترك الحادثة نفسها توحى بفكرتها الى القارئ ، فلسنا شعراء اذ تحدثنا عن شجاع فوصفناه بأنه صمد في المعركة حتى نهايتها ولم يخش الاقطار ، لسنا شعراء اذا وصفناه بهذا الاسلوب ولو نظمنا كلامنا على البحر الطويل أو الكامل

أو الوافر ، ولكننا نكون شعراء حين نقنع سامعينا بشجاعة من نصفه بصورة
خيالية رائعة كأن نقول مع المتنبي :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

أو مع أبي تمام :

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك القبر

ولا نكون شعراء اذا تحدثنا عن معركة حربية فوصفناها بأنها
شديدة وقتل فيها خلق كثير وعلا الغبار وسالت الدماء على أرضها ، اننا
لا نكون شعراء ولو نظمنا هذا الكلام ووضعنا له قافية بل إن وصف المعركة
شعر في قول بشّار :

كأن مُمّار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومن يقرأ لشعرائنا يلاحظ أن الكثيرين منهم يعتمدون على التقرير
والحديث العادي المنظوم حسب احد الجور ويظنون ما يقولونه شعراً ، مع أن
حلبة الشعر العربي لا تخلو خلواً مطلقاً من الشعراء المجيدين . (١)

وتماي القصة العربية من التقرير ايضاً فأنت كثيراً ما ترى البطل
يقف ويندفع في خطبة أو موعظة تجعل القصة أشبه بالمقالة أو كتب
الابحاث العلمية وقد يتدخل القاص نفسه في سياق القصة لينهنا الى
ما غفل عنه اشخاصها مع ان المفروض ترك الوقائع تجري وتوجهنا
من تلقاء ذاتها .

رابعاً - ويتضح ضعفنا الادبي حين نتذكر قلة النقاد الادبيين
الموضوعيين العميقين عندنا ، فقدنا الادبي المعاصر ظمراً متأخراً ولم يزل

(١) كالشاي وسواه

بعد ينجو في خطواته الاولى وقد تتصفح مجلة ادبية وتسرع الى زاويتها النقدية فتصدمك غالباً سطحية النقد واهتمامه بناحية واحدة ، فربما عمد الناقد الى تلخيص القصة التي ينقدها أو سرد افكار القصيدة التي يتعرض اليها من غير أن يلم بسائر الجوانب المطلوبة وقد تسمع ان فلاناً من الكتاب ينادي بثورة في عالم النقد الادبي وتكتشف بعد ان تكتمسل دراستك بأنه شعاع من مدرسة نقدية أوروبية ، شرقية أو غربية ، ونحن كما أسلفنا لا نكره الاستفادة من جهود الآخرين ولكن لماذا لا تكون الصراحة رائد من يقتبس ومن يأخذ عن الاجانب ، والى اليوم يتحدث اكثر نقادنا عن أمور عامة غامضة ولا يستطيعون الخوض في المجالات العميقة الدقيقة ، وقد يكتفي الناقد بتعت موضوع الاثر الادبي بأنه مناسب أو غير مناسب او يصف الشاعر بأنه اخلاقي او غير اخلاقي مجدد او سلفي ولا يدرس بعناية عباراته وخیالاته ، ويبدو ان المحافظ الادبية انتهت الى اهمية النقد فبدأت توليه المزيد من عنايتها .

ومن الادلة على ضعف أدبنا المعاصر ان حركة إحياء الكتب القديمة مازالت دون ما نرغب فيه ، واذا كانت تسجل في كل سنة انتصارات جديدة وتكتشف كنوزاً حرمنا منها مدة طويلة فهي تطالبنا باهتمام اعظم وانصراف البغ وعناية بالدقة والتمحيص اكثر ، وتأسف العربية حين تجد ان الكتاب العربي الذي ينشره مستشرق يخرج أدق من الكتاب العربي الذي تنشره مؤسسة وطنية ، ومن شاء فليأخذ أي أثر نشره المتشرقون ليطلع على مقدار الجهد الذي يبذلونه في سبيله فهم يحاولون ان يجمعوا صوراً عن مخطوطات الكتاب المنشور الموجودة في سائر مكتبات العالم وهم يشيرون في الهوامش الى ان احدى الكلمات

وردت في مخطوطة معينة ولم ترد في مخطوطة أخرى ، وإيقرن بين هذا الكتاب وبين كتاب آخر نشر على يد ابنائنا حيث نجد التسرع وعدم الاكثارات بالتحقيق والامبالاة بالدقة .

ولا ننسى ان المستشرقين لا توجههم الغايات العلمية وحدها ، فاذا تركناهم يسبقوننا في ميدان نشر تراثنا ودراسة اصولنا توصلوا الى النتائج التي تريدها دولهم ، وقد أخذت العناية بالدقة عند نشر الكتب القديمة تزداد في وطننا كما وكيفا .

خامساً - ومسألة الكتب المترجمة تقدم برهاناً آخر على أن أدبنا محتاج الى جهود كبيرة ، فالترجمة ضرورية لكل شعب فمن طريقها يستفيد الناس من خبرات بعضهم وتتلاقى المجهودات الفكرية للبشر جميعاً ، وقد عنيت الدول المتقدمة بأمر الترجمة ، فما يكاد يصدر كتاب هام باللغة الفرنسية مثلاً حتى يترجم خلال اسابيع الى اللغات الالمانية والانكليزية والروسية ... وقد بدأنا نحن نهتم بالترجمة مع بزوغ فجر نهضتنا الادبية ولكننا لم نترجم بعد كل الكتب الهامة في التراث الانساني وكثيراً ما انصرف مترجمونا الى نقل الروايات البوليسية والقصص الرخيصة تاركين الادب الرفيع وكنوز العلم والفلسفة ، ويبدو أن عدداً لا بأس به من المترجمين لا يتمتعون بحس المسؤولية تجاه قومهم ، فينقلون الكتب التافهة قبل القيمة ويقدمون مترجماتهم بلغة ركيكة تنحرف بالقاريء عن الاسلوب العربي الأصيل ولربما صعبت عليهم عبارة فأهلوها أو لم تهجهم فقرة فتركوها ، وهكذا يحسب القاريء أن الكتاب الذي يتصفح منقول بأجمه مع انه يكون ناقصاً وممسوخاً احياناً .

وامرنا مع الاصطلاحات عجيب جداً إذا ترى أن الكلمة الاجنبية الواحدة يضع لها احد الترجمين مرادفاً عربياً معيناً ويضع لها مترجم ثان مرادفاً آخر فيضيع القاريء العربي في زحمة الاصطلاحات .

وما زالت الترجمة من طرف واحد ، إذ يجب علينا أن نعرف القراء الأجانب بتراثنا الادبي ونحن مقصرون في هذا الميدان ، وقد تركنا المسألة للظروف ولرغبة الاجانب انفسهم الذين لم يترجموا الى لغاتهم من تراثنا المعاصر الا كمية محدودة جداً مع ان المبادرة يجب ان تكون مننا في أول الأمر . وعلى كل حال فقد ازداد الاهتمام بالترجمة اخيراً وتسمي الجامعة العربية الى وضع اصطلاحات موحدة وانتشرت مؤسسات الترجمة في اقطارنا ، كما شكلت الجامعة العربية مكتبة دائماً لشؤون التمريب جعلت مقره الرباط ، يشرف على حركة الترجمة ويوجهها نحو مصلحة العرب جميعاً .

٣ - الوضع العلمي في المجتمع العربي المعاصر :

يتصف الوضع العلمي في بلادنا بصفات ثلاثة هامة هي :

أ - بدأ يميل الى التحسن :

من المعلوم أن العرب حملوا شعلة العلم خلال عدة قرون حيث اضاءت جامعاتهم ومدارسهم ومراكز بحوثهم الفكر البشري كله ، وحفظت علوم من سبقهم وأضافت عليها ، وكان العالم يتطلع الى الوطن العربي كمنطلق لاكتشافات العلمية في المجالات الرياضية والجغرافية والطبيعية والطبية والاجتماعية والفلكية . غير أن النكسة التي اصابت الحضارة العربية إثر سيطرة الاعاجم على دولة العرب خففت من النشاط العلمي وكادت

تطفيء الحركة العلمية العربية تماماً ، وأثرت غزوات التتار والمغول
والفرنجية فقتل هولاء كوكب الكتب الثمينة الى دجلة واحرقوا مكاتب غنبة
في سائر بقاع الوطن العربي على يد خلفائه واشباهه ، وبقي الفكر
العربي بعيداً عن متابعة التطور العلمي الذي تكفلت به اوروبا بعد ان
استفادت من التراث العربي وشغلنا امور حياتنا اليومية البائسة عن
متابعة الابداع والتجريب والاكتشاف واصبحنا في زمن العثمانيين نعيش على
بقايا من تراثنا ، ولا نتصور أن العقل الانساني يمكنه أن يهب في ثورات
علمية جديدة .

واصبحت الخرافة في مجتمعاتنا اهم من التجربة والاتباع أفضل من
التجديد ولكن فجر النهضة العربية في القرن التاسع عشر حمل معه
تباشير يقظة علمية جديدة ، لقد رفع الناس رؤوسهم من جديد وحاولوا
رفعها وعادوا يتساءلون عن مشكلات الكون ومعضلاته ويتباحثون في امر
الجسم والنفس والعقائد والابنية .

وعاد بعض من شاهدوا اوروبا يبنهون العرب إلى مسبق الاجانب
ايام في ميادين العلم والتطبيقات العلمية ، وقد رافق رفاعة الطهطاوي البعثة
التي ارسلها محمد علي والى مصر إلى فرنسا ولم يكن بمن كلفهم الوالي بتلقي
العلم ، ولكن الموفدين الرسميين لم يستفيدوا كثيراً ولم يفيدوا أمتهم بشكل
ملموس بعد أن عادوا لأنهم كانوا من المترفين الطامعين في الترف الشخصي ،
اما رفاعة ابن الشعب فقد حاول أن يفهم اسرار التقدم الاوروبي
وكتب للعرب خلاصة تجاربه في هذه الرحلة ، فأثار الحماسة في نفوس من
قرأوه او سمعوا به .

وبدأ أبناء الوطن العربي يكثرون نسبياً من ارتياد مناهل العلم الحديث في أوروبا بعد أن امضوا مدة طويلة لا يعرفون مجداً يفوق محمد استامبول وعلماً يظن على علمها ، وحاول عبد القادر الجزائري أن ينشيء دولة حديثة ، فشحج الحركة العلمية في الجزائر ، كما أن رغبة بعض الولاة المنشقين على السلطنة العثمانية في تقوية جيوشهم دفعتهم الى ارسال البعثات العلمية للتخصص في الفنون العسكرية . وجال جمال الدين الافغاني ومن بعده محمد عبده في بعض بقع أوروبا ودعا محمد عبده الى الوقوف من العلم الحديث موقفاً متبصراً نأخذ منه ما يفيدنا ولا نذيب شخصيتنا ولغتنا .

وكثر الطلاب العرب في المدارس العثمانية العليا واخذوا يتعلمون الى آفاق علمية أبعد مما قيدوا به ولقنوه ، وفي اواخر القرن التاسع عشر شرع الاطباء العرب الذين تلقوا علمهم في الجامعات بتزايدون في المدن العربية وانشئت الجامعة المصرية (القاهرة اليوم) وبه د الحرب العالمية الاولى ازداد عدد القبلين على العلم وكانت البعثات الرسمية قليلة في اول الامر فأضطر اكثر الدارسين الى الاعتماد على انفسهم ، وأخذت المعاهد العليا التي تعتبر مهدياً للبحوث العلمية تنشأ هنا وهناك في انحاء الوطن العربي ، فأقيمت كليتا الطب والحقوق في سورية وبدأت تظهر كليات الزراعة والعلوم في مصر وبدأ التطور يمس جامعاتنا العريقة كالازهر وجامعة القرويين ، وساهمت بعض المجالات في الحركة العلمية الناشئة ، فكانت القنطف تخصص قسماً كبيراً من صفحاتها للبحوث العلمية المترجمة والمقتبسة ، كما نشرت هذه المجلة ومجلة الهلال عدة كتب علمية .

وازداد شغف الناس بالعلم الحديث فطلبوا منه المزيد فكثرت في

الاسواق الكتب التي تتحدث عن الفلك والطبيعة وعلم الحياة والمخترعات العجيبة. واصبح الناس يتناقشون حول نظرية التطور ونظريات أصل الكرة الارضية والمجموعة الشمسية وكثيراً ما احتدم الجدل في اوساطنا بين من يعتقدون بأن الارض تدور حول الشمس ومن يؤمنون بأن الشمس تدور حول الارض ، مما يدل على أن العلوم أخذت تشغل جانباً كبيراً من اهتمامنا، وتطورت الحركة العلمية العربية بعد الحرب العالمية الثانية فازدادت البحوث الرسمية والخاصة ، وبعد ان كانت شعب العلوم في المدارس الثانوية قليلة العدد بالنسبة الى شعب الاداب ، لحقت بها ثم نافستها في آحر الامر ، وازداد عدد الاطباء والمهندسين وعرفت بلادنا المهندس الزراعي والكهرباء ومهندس الري الى جانب المهندس المعماري ، وتضاعف عدد الصيادلة وانشئت كلية للعلوم في دمشق وكلية للهندسة في حلب اعقبها اخيراً كلية للزراعة ، كما اقيمت معاهد عليا للفروع العلمية المختلفة في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة وبغداد (١) كما عقد العرب المؤتمرات العلمية مثل مؤتمرات الاطباء العرب والصيادلة العرب والمحقوقين كما اقيمت مهرجانات واعياد للعلم ومجالس في بعض الافطار العربية .

ب - لم تكتمل نهضته بعد :

وعلى الرغم من أن النشاط العلمي قد دبت فيه الحياة على أرضنا وأصبح الفرق واضحاً بين احوالنا العلمية الان وحالنا خلال القرن الثامن عشر الا أن العلم عندنا لم تكتمل نهضته ، وعلينا ان نقول بكل موضوعية أننا مازلنا في اول الطريق ، فعدد المتخصصين من بيننا في فروع العلوم المختلفة ما زال قليلاً بالقياس الى حاجتنا ، وبالنسبة الى عدد

(١) نتم هنا بايراد الكليات والمدارس المتخصصة في العلوم فحسب

المخصصين من الاوروبيين ، كما أن مراكز البحوث والمختبرات المتفرغة
للاكتشافات محدودة عندنا بل تكاد تكون معدومة .

ونحن وان انجبنا اليوم اطباء مهرة يبرعون في تشخيص الامراض
ووصف العلاجات الا أننا لم ننجب بعد أناساً يقدمون للطب معلومات
جديدة لا يعرفها مختصو الغرب ، أو يكتشفون جرثومة مرض استمعى
اكتشافها على الاطباء الاوروبيين ، نحن ما زلنا ننتظر نتائج بحوث
الاجانب لكي نأخذها عنهم ونشيعها في بلادنا ولم يظهر من بيننا حتى
الآن ابن سينا جديد يضع كتاباً في الطب فتدرسه الجامعات العالمية ، واذا
كنا قد عرفنا صيادلة بارعين فهم يستوردون ادويتهم من البلاد الاجنبية
او يركبونها حسب تعليمات مؤسسات الادوية في الخارج ، ولم يرتفع بعد
الى مستوان السابق حين كنا صيادلة العالم وصناع عقاقير . وقد عرفنا
المهندسين من مختلف الاختصاصات ولكنهم جميعاً تلاميذ اوربا او تلاميذ
تلاميذها عنها اخذوا علمهم ومنها نقلوا طرائقهم في البناء والري والكهرباء
والتعدين ، وفي الوقت الذي نفذت فيه البصائر العالمية إلى جوف الذرة
وحلقت مع الصواريخ والاقمار الصناعية في الفضاء البعيد نقف اليوم
نحن امام عتبة العلم وتقدم بخطوات بطيئة اذا قيست بمظم الفارق بيننا
وبين سوانا ، فالطريق العلمي طويلة ، ولا تصل الشعوب الى نهايتها
بسهولة بل هي ملزمة بالاندفاع والتضحية حتى تعوض ما فاتها خلال عدة
قرون خاصة في هذا العصر الذي ما سمي عصر السرعة الا لان العلم
سجله على اجنحته وطار به .

ج - يعني بالتطبيقات العملية :

وحررنا العالمية تميل حتى الآن الى العناية بالتطبيقات العملية على

العلوم اكثر من ميلها إلى الدراسات العملية النظرية ويتجلى لنا هذا الميل واضحاً عند استعراضنا لمختلف أنواع العلوم :

فاذا اخذنا العلوم الحيوية نرى وجود متخصصين في الطب انتشروا في مدننا وأخذوا يتمدون الى الريف ، ولكننا قلما نعتز على مختص بالعلوم الحيوية التي لا يعتبر الطب الا تطبيقاً لها ، إذ ان الطب ليس علماً بل هو فن تطبيقي معتمد على علم الحياة وما يتبعه من علمي وظائف الاعضاء والتشريخ ، ونحن قد عرفنا عيادات الاطباء والمستشفيات ولكننا لم نعرف مراكز للبحوث الحيوية مهمتها دراسة الكائنات الحية والتفريق بين انسجتها وتحليل الخلايا الحية مع أن كل فتوح الطب جاءت من هذه الابحاث ، وستبقى معتمدة عليها فهي أصلها وجذرها .

وحين نأخذ الرياضيات لا نرى بين ظهرانينا علماء اختصوا بدراسة الاعداد وصفاتها وتناقشوا حول مفهوم العدد وهل اصله الواحد أم الفئة وهل توجد قاعدة لاستخراج الاعداد الاولية أم أن القواعد الحالية لا تكفي . ولا نرى آخرين يناقشون الاعداد الصم^(١) والسالبة وما هو أصلها ومدى الفائدة منها ويضيفون الى المعلومات الرياضية شيئاً جديداً في هذا المجال ، مع ان علماء الرياضيات في العالم يتباحثون في هذه الامور ، كما يتباحثون حتى اليوم في امور المضلعات وحدودها وانحطوط المتوازية والبيدييات والمصادرات (الموضوعات) ويضعون منها الجديد ، وان بحوثهم هذه هي التي تمد الرياضيات العملية التطبيقية التي نهتم نحن بها ، إذ نعني بفنون الهندسة التي هي تطبيقات على الرياضيات ولا ندرس الرياضيات البحتة إلا بمقدار ما تفيدنا في فهم الناحية التطبيقية .

(١) جذور الاعداد التي توصل الى نتيجة $\sqrt{2}$ والسالبة $\sqrt{-2}$ مثلاً

وإذا اخذنا علوم الفيزياء من صوت وضوء وحرارة وكهرباء وإذا
نظرنا الى علوم الذرة والكيمياء نجد أيضاً أننا نهتم بالناحية العملية الناتجة
عنها أكثر من انصرافنا الى الناحية العلمية النظرية التي صدرت عنها
التطبيقات العملية ، إذ نعمتي بالأدوية وتمديد الاسلاك والمصاييح الكهربائية
وإدارة الآلات والمحركات البخارية والانفجارية والكهربائية ، ونستورد
الاجهزة الاشعاعية للفحوص الطبية او اختبار المواد من غير ان نتخصص
في معرفة الاسس النظرية الكامنة وراء كل هذه الشؤون العملية ،
وينطبق الامر نفسه على علوم النبات والتربة وطبقات الارض . . .
وإذا تساهلنا فاعتبرنا الفلسفة من بين العلوم ، نرى أننا نأخذ عن
الفلسفات المختلفة المذاهب الاجتماعية التابعة والتي تعتبر تطبيقات عليها دون
ان نعمتي كثيراً بالاصول الفلسفية لهذه المذاهب ، إذ ضمت بلادنا أناساً
يدينون بالاشتراكية ، بل وبالشيوعية الى جانب من يتنادون بالرأسمالية
والاقتصاد الحر . وعني أناس بالوضع الطبقي وتفسير اوضاعنا من خلاله ،
كما عني آخرون بالوضع القومي وتصوروا حاجتنا على أساسه ، وراء
هذه المذاهب الاجتماعية كلها فلسفات تتناول شؤون الكون بعضها روحي
وبعضها مادي وتهم بأمور المعرفة فتسير إما على طريق عقلي أو حسي
ثابت أو جدلي (ديكارتيني) وأما ان تعتبر الاصل في الحياة الانسانية
الكائن الفردي أو المجتمع الكلي ، وترانا لا نغمر على الفلسفات الا عابرين
لنقف ونظير الوقوف عند المذاهب الاجتماعية الناتجة لها ، وإذا انجبت
حضارتنا السابقة أساندة في الفلسفة كباراً فلا نستطيع ان ندعي ظهور
فيلسوف عربي جديد الى اليوم .

ولم يكن اهتمامنا بالجوانب التطبيقية من المعلوم وليد الصدفة بل

هو أمر طبيعي بالنسبة الى أمة استيقظت حديثاً على الشقاء والمرض والفقر والخراب ، فأول ما تفكر به تلك الأمة هو أن تداوي جروح أبنائها وتبني لهم البيوت وتحسن من ظروف حياتهم ليستطيعوا السير في الطريق الصاعدة ، على أننا مكلفون بزيادة اهتمامنا بالعلوم النظرية ما دامت هي أصل المخترعات الطيبة والصناعية ، وهي أساسها وذخيرتها التي لا تنفذ ، ومتى ظللنا على انصرافنا عن العلوم النظرية الأساسية بقينا تحت رحمة الاوروبيين ننتظر نتائج أبحاثهم واكتشافاتهم لتتلقفها عنهم ، من المفيد ان ننتبه ان العلوم النظرية التي نطالب بالعناية بها ليست هي ما اعتدنا أن نفهمه من كلمة نظرية ، التي توحي في مجتمنا بالمقم والفراغ وعدم الفائدة بل نعي بها العلوم الأساسية التي تنصرف الى دراسة الكائنات المختلفة وتحليلها كي يستفيد المخترعون من نتائج أبحاثها .

٤ - الوضع التعليمي في المجتمع العربي المعاصر :

تعتبر الاوضاع التعليمية الى حد كبير عن مستوى الأمة وما يمكن أن تحققه في المستقبل القريب ولا تعلم الامم ابناءها ابتغاء الثقافة المجردة فقط ، بل تدعياً لنشاط الشعب واندفاعه الى الامام في سائر الميادين ، إذ يؤثر عدد المتعلمين ومستواهم وتنوع اختصاصهم على السياسة والاقتصاد والاخلاق والاسرة وبقية وجوه الحياة الاجتماعية ، وقد أصبح المتعلمون المختصون ضرورة لا بد منها لتكّل مشروع وأصبح مطلوباً ممن يريد اقامة بناء أو انشاء معمل أو اشادة سد أو تجفيف مستنقع ان يهيء لمشروعه سلفاً باعداد الفنيين القادرين على اتمامه بشكل علمي دقيق ، فهم العمود الفقري للهضة وجزء ثمين من الرأس المال الوطني يجب الاكثر منهم والتضحية في سبيل اعدادهم .

وكيف يرتفع المستوى الصحي اذا لم يتوفر العدد الكافي من
الاطباء والصيدالة والممرضين ، وكيف تستصلح التربة وتجدد بأحسن
الغلات وأوفرها اذا لم يكن بين ظهرانينا مهندسون زراعيون
كافون ...

وان المدارس والجامعات هي التي تعد الاطباء والصيدالة والممرضين
والمهندسين والكيميائيين والمؤرخين والجغرافيين ، بل هي التي تعد الشعب
الواعي الذي يتابع انباء وطنه ويدرك حاجات أمته ويناقش الاحداث بمقل
مستنير ويساهم في وضع الحلول الملائمة لمشكلات امته .

وسندرس الوضع التعليمي في وطننا من خلال أهم مسأله
الماصرة وسنرى من خلال دراستنا أن الطابع العام لمجتمعنا ، وهو
النهضة المحتاجة الى الكمال ، ينعكس على امورنا التعليمية والتربوية من
جميع نواحيها .

آ - مسألة الاستيعاب :

أول ما يشغل ذهن المواطن العربي أن يجد لطفله مدرسة تعلمه
وأول ما يهتم به رواد الخير في مجتمعنا أن تصبح المدارس كافية لاستيعاب
كل الاطفال والشباب الذين هم في سن التعليم ويصلحون له ، واذا تأملنا
ما كانت عليه مدراسنا منذ قرن وما وصلت اليه الآن ، نلاحظ أنها قد
ازدادت زيادة مدهوسة في أكثر بقاع الوطن العربي .

فمنذ قرن من الزمان كانت مدننا تعيش بلامدارس ومن يرغب في
تعليم ابنه فعليه ارساله الى الكتاب الذي لا يمنحه إلا مملومات بسيطة
يستظهر اكثرها من غير فهم ، واذا وجدت مدرسة في تلك الايام فهي إما

أجنبية افتتحها إحدى الرسائل التبشيرية وإما طائفية أنشأها اتباع مذهب ديني معين ، ولكن العرب انتبهوا ولم يزل انتباههم في ازدياد الى أهمية المدراس وضرورتها ، ففي منذ القرن التاسع عشر الى اليوم تتكاثر ولا تتر سنة لا تعرف فيها بقاع الوطن العربي الواسعة قيام عشرات المدارس حتى بلغ عدد طلابنا اليوم حوالي ثمانية ملايين طالبا ، توزعوا على ٣٤ الف مدرسة من مختلف المستويات الاولية والابتدائية والاعدادية والثانوية والجامعية ، في مختلف الفروع من تعليم عام وصناعي وتجاري وزراعي الى جانب عدد الاختصاصات الجامعية ، وينوف عدد المعلمين والمدرسين على ربع مليون في مختلف مناطق الوطن العربي .

ومن امارات اهتمام مجتمعنا بدخول التلاميذ الى المدراس وتوفير المعاهد لهم ، ما نصت عليه أكثر الدساتير العربية من أن التعليم الابتدائي وأحيانا الاولي فقط الزامي ومجاني .

ولكن هذه الازامية لم تتحقق تماما على النطاق العملي في مجتمعنا وما زال عدد مدارسنا دون حاجتنا ، وما فتئنا نلمس وجود أطفال وشباب لم تتوفر لهم الأماكن في المدارس ، فظلوا في الشوارع واتجهوا نحو المهن قبل الأوان . ونذكر قلة المدارس في بلادنا اذا قارنا بين عدد الطلاب الحاليين وبين الاطفال والشباب الذين هم في سن التعليم ، فلا شك أنهم أكثر من ثمانية ملايين بكثير واذا اعتبرنا أن سن التعليم تمتد حتى العشرين وعرفنا أن عدد الذين تتراوح أعمارهم بين ستة سنوات والعشرين في بلادنا من ذكور وأناث يقتربون من ٣٠ ٪ من مجموع الشعب العربي أدركنا مقدار حاجتنا الملحة الى مدارس أكثر .

وإذا اكتفينا بالنظر الى من هم في سن الدراسة ولا يستطيعون الكسب بعد ، أي الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ - ١٥ سنة لوجدناهم أكثر من ٢٥٪ من السكان وبذلك تبقى مدراسنا أقل عدداً من حاجتنا .

وإذا أخذنا كلاً من المراحل التعليمية على حدة ، نرى ان المدارس الاولية لا تستوعب جميع الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة الابتدائية وتبلغ نسبتهم ١٦٪ وسطياً من مجموع سكان الوطن العربي ، بينما لا تتجاوز نسبة المقبولين في المدارس المتوفرة ٧٪ من مجموع السكان ، فيظل أكثر من نصف الذين هم في سن الدراسة محرومين من التعليم .

جدول بعدد التلاميذ في مختلف بلاد الوطن العربي

المجموع	عدد التلاميذ	البلد
٧١٧٤٤٦٥١٠	٣١٣٧٨١٥٣٢	مصر
٢٥٨١١٥٠	٩٨٩١٤٣٦	المغرب
٣٤٦٠٠٠	٩٣٠٦٩٩٧	العراق
	٥٤٩١٣٦٤	سورية
	٥١٠١١٨٥	تونس
	٣٨٨١٤٦٣	السودان
	٣٠٣١٧٢٢	لبنان
	٢٨٣١٩٢٢	الاردن
	١٦٧١٤٨٧	ليبيا
	١٥٠١٦٧٩	البحرين
	٤٥٤١٩٣	الكويت
	٤٦١٠٠٠ (١)	الامارات والمحميات

(١) الرقم المعطى عن المحميات تقديري وحسب بناء على تقديرات الاستاذ الحصري

يزداد الامر حرجاً حين تنتقل الى الدراسة الاعدادية والثانوية فمن المشاهد في بلادنا ان عدد الطلاب ينخفض انخفاضاً بالغاً حين تنتقل من المرحلة الابتدائية الى الاعدادية ثم ينخفض أكثر حين تنتقل الى المرحلة الثانوية واذا علمنا ان تلاميذ المدارس الابتدائية العربية يبلغون حوالي ٦ ملايين تلميذ ، لم يبق للمراحل الاخرى من اعدادية وثانوية وجامعية إلا ١٠٥٤٤١٠٧ طالباً ، ويظن البعض ان قلة الطلاب الاعداديين والثانويين طبيعية لان قسماً كبيراً من الناشئة يجب أن يتجه الى العمل بعد الدراسة الابتدائية ، ولأن الامكانيات العقلية لعدد من الاطفال لا تسمح لهم باكمال التحصيل ، ولكن الفرق بين طلاب المدارس الابتدائية والاعدادية أكبر بكثير من عدد الاطفال الذين يدلنا علم النفس على أنهم لا يستطيعون متابعة الدراسة ، فأكثر من ٣/٤ تلاميذ الصفوف العليا في المدارس الابتدائية قادرون على النجاح في الصفوف الاعدادية ، وأكثر من ٣/٤ طلاب الصفوف العليا من المرحلة الاعدادية قادرون على اتمام تحصيلهم الثانوي ، كما ان المجتمعات الحديثة لا توافق على نزول الاطفال الى سوق العمل قبل أن يشتمد عودهم ويكتمل اعدادهم وقد مددت بعض الدول المتقدمة سن التعليم الازمى حتى ١٦ و ١٧ و ١٨ (١).

وإذا بحثنا مسألة الاستيعاب من الناحية الجامعية وجدنا النقص بالغ الخطورة إذ يدل علم النفس على ان أكثرية الناجحين في شهادة انهاء التحصيل الثانوي قادرون على متابعة الدراسة الجامعية بنجاح ، مع ان جامعاتنا في أكثر الاقطار العربية تطوراً لا تستوعب إلا ٣٠ / ٠ من الحائزين على شهادة الدراسة الثانوية بينما تنخفض هذه النسبة في بعض الاقطار الاخرى حتى تكاد تلامس العدم .

(١) انكلترا وفرنسا مثل على ذلك

أما أسباب قلة مدارسنا وطلابها بالقياس الى حاجتنا فمديدة
أهمها :

أولاً - ضعف الامكانيات المادية :

لئن بلغت نسبة موازنة التربية والتعليم في الاقطار العربية وسطياً
١٣٪ من مجموع الموازنة العامة واحتلت المرتبة الثانية بعد ميزانية الدفاع
إلا ان ضعف الموازنات عموماً يجعل الاموال المخصصة للتعليم قليلة بالقياس
الى مطالبينا . وهنا ينعكس ضعف دخلنا القومي العام وسوء توزيع هذا
الدخل وان ميزانية لا تتجاوز الـ ٣٠٠ مليون ليرة سورية لا تقدم للتعليم إلا ٥٥
مليون ليرة سنوية في أحسن الاحوال ولو بلغت نفقات التربية والتعليم منها ١٥٪،
وأفضل منها موازنة ضخمة غنية وان قلت نسبة النفقات التعليمية فيها
عن ١٠٪ .

ويبين الجدول التالي نسبة موازنة التربية والتعليم من مجموع الموازنات
العامة في بعض الاقطار العربية (١) :

النسبة	العام	البلد
٪١٥٦٤	١٩٥٧	سورية
٪١٣٦٧	٥٧ - ٥٦	مصر
٪٧	٥٤ - ٥٣	الاردن
٪١٣٦٣	١٩٥٦	لبنان
٪٨	٥٧ - ٥٦	الكويت
٪١٢٦٨	٥٤ - ٥٣	العراق

(١) عن محاضرات الدكتور عزة النص في كلية التربية بجامعة دمشق

وتتضح ضآلة نفقاتنا التعليمية اذا قسمنا الاموال المرصودة لدينا لشؤون التربية والتعليم على عدد الطلاب وعلى عدد المواطنين وقارناها مع مثيلاتها لدى بعض الدول المتقدمة ، حيث نجد الفرق كبيراً جداً (١) :

السنة	ما يصيب المواطن	ما يصيب التلميذ	البلد
١٩٥١	١٦٨ ل. س	١٨ ل. س	الاردن
=	٨٦٣٣٢ ل. س	٨١٦٦٠ ل. س (٢)	سورية
=	١٠ ل. س	٨٣ ل. س	العراق
=	٨٦٥٥ ل. س	٤٨١٠ ل. س	لبنان
=	١٠٠٨٥٠ ل. س	٢٧ ل. س	مصر
١٩٥٦	٣٠٠ ل. س	١٤٠٠ ل. س	الولايات المتحدة
=	٢٥٥ ل. س	١٠١٠ ل. س	الاتحاد السوفياتي
=	٨٨ ل. س	٥٨٩ ل. س	فرنسا

وعلاج قلة الاموال المخصصة للتعليم في بلادنا مرهون برفع مستوانا الاقتصادي وزيادة دخلنا القومي ، كما ان النظام الضريبي في وطننا يجب ان يصلح فما زالت موارد التعليم تعتمد على الضرائب غير المباشرة التي تلقى حملاً ثقيلاً على كاهل الفقير ، بينما يجب ان تعتمد على الضرائب المباشرة والتضاعدية حسب الدخل فتجلب للموازنة اموالاً أكثر بطريق عادلة ومعقولة ، ونستطيع ان نعيد النظر في موازاناتنا المريية فنحذف منها

(١) عن الحولية الثقافية للاستاذ ساطع الحصري - السنة الثالثة ١٩٥٣ والدكتور النص .

(٢) بلغ ما يصيب التلميذ في سورية ١٥٢ ل. س والمواطن ١١ ل. س سنة ١٩٥٦ .

النفقات الزائدة والمصاريف الشخصية الباهظة على الحفلات والقصور ،
لنوجه اموالها نحو التعليم وان اصحاب الدخول العالية في بلادنا مكافون
وجدانياً وقومياً أن يساهموا بالنهضة التلميمية لا عن طريق دفع الضرائب
وحسب بل بالتبرعات ايضاً ، فان العدد الجم من جامعات الدول المتقدمة
اقامته جمعيات اعتمدت على التبرعات ، كما ساهم اندفاع المواطنين الاغنياء
في بناء المدارس والمدن الجامعية وتقديم الاثاث والمختبرات والكتب
والاعانات السنوية للمعاهد وطلابها . ولضخف الامكانيات المادية وجه آخر ،
وهو أن عدداً غيراً من الآباء لا يستطيعون ارسال ابنائهم الى المدارس ولو
هيئت لهم الامكنة فيها ، لمجزم عن دفع اثمان الكتب واللازم المدرسية
بل لحاجتهم في كثير من الاحيان الى مساهمة اولادهم في إعالة الاسرة ،
ففقرهم يدفعهم الى إخراج ابنائهم من المدرسة طلباً للدرهيات قليلة يعتبرونها
هامة نظراً لموزم الشديد .

وبعض العائلات الريفية تؤثر ان يساعدها أطفالها في امور
الزراعة من حراثة وبذر وحصاد ، ويمكن تلافي هذه الناحية بجعل
توقيت المدارس مرناً ومنلائماً مع ضرورات المواسم الزراعية .

ثانياً - التقاليد :

ولا يقبل الاطفال والفتيان الذين هم في سن الدراسة بأجههم على
معاهد العلم ، إذ ان التقاليد تبقى قسماً كبيراً منهم في البيت وهذا
الجزء الذي لا يرسل الى المدارس الا على استحياء في كثير من مناطقنا
هو الاناث بشكل خاص مما يقلل عدد طلابنا عموماً ، ومن المعلوم ان
الاناث والذكور متساويان عدداً ومع ذلك فالطلاب الذكور يفوقون
الطالبات بثلاث اضعاف في الاقطار العربية المتطورة ، ويقل عدد التلميذات

في بعض الاقطار الاخرى حتى يكاد ينعدم ، وكلما ارتفعت المرحلة التعليمية ازداد الفرق بين عدد الطلاب والطالبات كما يتناقص عدد التلميذات اذا توغلنا في الارياف .

وقد جرت العاد في مجتمعنا العربي على تزويج البنات في سن مبكرة ، مما يدعو إلى تناقصهن في المراحل الاعدادية والثانوية والجامعية ، وكثير من الأهل يمتدنون الا فائدة من تعليم البنات ما دمن سيمتزوجن ويعتمدن على ازواجهن في اعانتهم ، ويحشى بعض الآباء على الاخلاق اذا تعلمت البنات وتفتحت اذهانهن على نواحي الحياة المتعددة وقرآن الشعر والقصص وما حوته من جوانب عاطفية وربما زهد الخاطبون في المتعلمة لخوفهم من أن تكون معتدة بنفسها ، فيصعب قيادها وتناقش فيما يلقي إليها من اوامر وترهق زوجها بالطلبات .

والذين يتمتعون عن ارسال بناتهم الى المدارس يتبعون التقاليد التي طرأت على مجتمعنا العربي ايام انحطاطه ولو انهم استنقوا من التقاليد العربية الاصلية لأقدموا على تعليم بناتهم ودفموهن الى اعلى المراحل ، فقد عرفنا في تصورنا الذهنية الكاتبات والعالمات والشاعرات ، وكانت نساؤنا تشهد مجالس العلم وتناقش في امور الدنيا والدين ... (١)

ويؤثر التطور الاجتماعي في هذه الايام فيزيد من عدد البنات المرسلات الى المدارس ، ويقتنع الناس يوماً بعد يوم أن الفضيلة لا تقوم على الجهل بل تعتمد على العقل الواعي الموجه ومن أته الفضيلة عن غير طريق العلم لا يستطيع ان يواجه الحياة وتمقدها ويفدو فريسة سهلة للتضليل .

(١) كـيـنـة بنت الحسين وغيرها

ب - مسألة مستوى المعاهدة التعليمية :

لا شك أن مؤسساتنا التعليمية ارتفع مستواها كثيراً منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم فقد تمددت المدارس وتوزعت على مختلف المراحل وانشئت الجامعات والمعاهد العليا وعرفت بعض مدارسنا المخابر والاذاعة المدرسية والوسائل الحديثة في التربية ، وتجمعت مكتبات جيدة في المدارس العادية والجامعات وأصبح قسم من المعلمين معداً أعداداً تربوياً ملائماً لشتى المراحل من ابتدائية وثانوية كما عرفت الجامعات اساتذة كباراً .

غير أن مستوانا التعليمي ما يزال دون الغاية التي نقصدها ويتضح لنا ضعفه في الامور الآتية :

اولاً : كثير من مدارسنا وخاصة في الارياف ينقصها الاثاث الضروري ، فعدد كبير من الطلاب لا يجد المقاعد التي يجلس عليها كما أن المخابر الحديثة لا توجد الا في مدارس المدن الثانوية وبعض المدارس الابتدائية الواقعة في الأحياء الغنية ، وتتصف أغلب مدارسنا بالنقص في جميع اللوازم إذ كثيراً ما تمجز عن تدفئة طلابها وشراء الكتب الضرورية ومساعدة التلاميذ الفقراء .

ثانياً : والابنية المدرسية الحديثة الصحية المعدة سلفاً للتلائم مع التعليم قليلة الوجود في وطننا واذا استطاعت الكويت أن تشيد ابنية مدرسية حديثة فهي قطر صغير يتناول ارباحاً طائفة من عائدات النفط ، أما في بقية انحاء الوطن العربي فنسبة المدارس التي تمتلكها وزارات التربية والتعليم ضئيلة وتعتمد المؤسسات التربوية الى استئجار البيوت التي لم تشد لتكون مدارس اصلاً ، وإننا نمر بالقوى الكثيرة فنجد اغلب مدارسها

- اذا وجدت - قائمة في ابنية بعيدة عن الشروط الصحية وغير مشجعة على اعطاء العلم وتلقيه ، وتسمى بعض الدول العربية لتلافي ازمة الابنية المدرسية ، فقد انشئت في سورية مؤسسة للابنية المدرسية بعد أن كانت البلديات هي المسؤولة عن اشادتها ، كما انشئت مثل هذه المؤسسة في مصر ، وتسمى بقية الدول العربية حسب امكانياتها ومستوى وعي المسؤولين فيها الى معالجة هذه المشكلة ولكن يبدو ان علاجها يحتاج الى خطوات حاسمة ووضع مشروعات دورية وتأمين الواردات لا عن طريق الضرائب غير المباشرة كما يحدث الآن أو طريق ارهاق الاهالي الفقراء كما كانت عليه الحال في سورية منذ مدة بل بأسلوب واضح ومباشر .

ولا يفوتنا ان الابنية المدرسية لا تعني الصفوف وحسب وانما تشمل الملاعب والمسارح والمخبر الفنية وقاعات المحاضرات وتلك مرافق ضرورية يفتقر اليها مجتمعنا بشكل واضح .

ثالثاً - ومن مظاهر انخفاض المستوى التعليمي في مدارسنا أزمة الكتب المدرسية كما وكيفاً ، فأغلب الاقطار العربية تشكو من قلة الكتب المدرسية المؤلفة وفق القواعد التربوية والتي تجمع بين التلائم مع عمر الطالب وبين الثقافة والتوجيه والبساطة ، فقد تجد كتاباً غزير المعلومات ولكنه خالٍ من التوجيه القومي والخلقي وربما اطلعت على كتاب حسن توجيهه وقلت معلوماته او كانت خاطئة ، واذا كانت بعض الدول العربية كسورية ومصر قد اتمت الكتب المدرسية وجعلتها تحت اشراف وزارة التربية والتعليم تأليفاً وطباعة وتوزيعاً ، فان أغلب الاقطار العربية الاخرى تركت فيها الكتب المدرسية لاختيار المشرفين على المؤسسات التعليمية وقد لا يهتمون دائماً بالكتب المناسبة ، وأما الجامعات

والمعاهد العليا في كل بقاع الوطن العربي فكتبها ينقحها أو يؤلفها
اساتذة المواد .

وقد أتمت الكتب الجامعية في - ورية بمرسوم صدر منذ ٢١ / ٩ / ١٩٦٣
لتلافي الكثير من النقائص في الكتب الجامعية .

ويحتاج الكتاب المدرسي العربي الى مزيد من العناية بالمادة
والاخراج والتوجيه والتوزيع ، إذ يحرم الفقر ابناء الاسر المعسرة من
شراء الكتب ولا تكفي المنح المجانية - حتى اليوم ، كما ان وجود كتب
مدرسية سهلة وجميلة وعلمية وموحدة بين ايدي الطلاب العرب له فائدة حاسمة
في ميدان التعليم .

رابعاً - ومن مظاهر تدني المستوى التعليمي عندنا ضعف استقرار
المناهج التعليمية ، فقد عرفت سورية مثلاً خلال مدة وجيزة انواعاً مختلفة
لشهادات الدراسة الثانوية . منها الشهادة ذات المستويين (البكالوريا
الاولى والثانية) وهي في نفس الوقت ذات فرعين (رياضيات وفلسفة)
ثم شهادة الدراسة الثانوية الموحدة التي بناها الطالب بعد انتهاء دراسته
الاعدادية بستينين ، بينما كانت سابقها تحتاج الى ثلاث سنوات ، وكانت
شهادة الدراسة الثانوية ذات فرعين علمي وأدبي ثم اعيد نظام السنوات
الثلاث لتحصيل شهادة الدراسة الثانوية الى سورية وأصبحت هذه الشهادة
ذات أربعة فروع (اجماعيات ، ولغات ورياضيات ، وطبيعيات) وبعد
ذاك ألغيت هذه الفروع الاربعة واستعوض عنها بفرعين هما العلمي
والادبي . .

ومن الطبيعي ان يرافق تغير الفروع والسنوات تغيير في المادة
التي تعطى لطلاب كل صف وفي الكتب المدرسية التي يدرسونها وفي
الثقافة التي يحصلونها ، ناهيك عما تستلزمه الانظمة الجديدة من مادة

كافية لاعتماد المعلمين والطلاب عليها ، فما يكاد النظام يبدأ في اعطاء ثماره حتى يحل محله سواء .

وقد اكتفينا بهذا المثل عن الدراسة الثانوية في سورية ، لكثرة ما يمكن ان نضربه من امثلة على سائر مراحل التعليم في بقية الاقطار العربية وسورية نفسها ايضاً .

ونحن ممن يفكرون الاستقرار اذا نبى على خطأ وفساد ولكن تغيير الانظمة بشكل سريع يدل على الارتجال وعلى ان الخطط التربوية لا توضع بعد دراسات علمية تأخذ بعين الاعتبار حاجات مجتمنا وامكانياته فتوفر البليبة والتعديلات المتلاحقة .

خامساً - ولا يشكل المعلمون المعدون اعداداً كافياً لمهنتهم إلا نسبة ضئيلة من مجموع القائمين بالتعليم (١) فنظراً لندرة المعلمين في بلادنا لجأت المدارس الى استخدام ضعاف الثقافة لتعليم ابنائنا ، وكثيراً ما ضمت المدارس الابتدائية العربية معلمين كل ميقاتهم أنهم غير أميين ، ولا يقتصر الامر على المدارس الابتدائية وحدها بل يمتد الى بقية مراحل التعليم الرسمي والخاص ، وقد انشئت في بلادنا دور للمعلمين ولكنها لم تخرج عدداً كافياً لجميع مدارسنا ، ومن الجدير بالذكر ان المعلم لا يقتصر اعداده على دراسته في دور المعلمين الابتدائية او الثانوية ، بل يجب أن تعقد له دورات تدريبية بعد تخرجه كل عدة سنوات ، حتى يظل على مقربة من الابحاث الجديدة في مهنته ويستفيد من تجارب زملائه ويفيدهم بخبرته ويستمتع الى محاضرات فيما يستجد من شؤون التربية عموماً والمادة التي يدرسها خصوصاً . وقد عرفت بعض الاقطار العربية امثال هذه الدورات ولكنها لم تنتشر بعد الانتشار المناسب .

(١) انظر الجدول ص ١٥٤

وما دام القسم الاكبر من معلمينا غير معد تربوياً لذا ما زالت مدارسنا او أكثرها تسير وفق أساليب عتيقة في التعليم ، ويبقى الالتقاء طريقة ممجدة في مدارسنا للشرح مع أن التربية الحديثة تطالنا بأن نعلم التلاميذ عن طريق العمل والتجريب والمشاركة وممارسة النشاط الحر الموجه في آن واحد ، فلا نعجب اذا شاهدنا ان الحفظ البغائي البعيد عن الفهم منتشر بين طلابنا وبلحاقهم بعد تخرجهم من المدارس ولا نعجب اذا لم نستطع الاستفادة من اكثر القوانين العملية التي درسناها لاننا على الاغلب حفظناها عن ظهر قلب بدون تعمق وحمداً لله على نجاحنا في الفحوص ، أما عن التوجيه فان العدد الاكبر من مدارسنا قائم على القسر والاكرام فلا ندهش اذا رأينا ان الفضائل لم تنفذ الى بعض نفوسنا نفوذاً تاماً ولا نستغرب اذا شاهدنا افراداً من مجتمعنا يقدمون على الرذيلة بمجرد ان ترتفع العصا عنهم او تغفل عيون الرقباء ، فقد اعتادوا منذ طفولتهم وفي مدارسهم على ان يتبعوا التوجيهات التي تلقى إليهم كأوامر تدعمها القوة والتهديد بالعقاب .

ولا شك أن الوصول الى معلمين ناجحين اكفاء لا يقتضي فقط تأهيلهم وتدريبهم بل يستدعي تحسين ظروفهم المعاشية وترقيتهم ليكونوا في احسن الظروف الملائمة للقيام بمهمتهم الحسنة . تلك هي بعض الادلة على انخفاض مستوى التعليم في مدارسنا ، فاذا بحثنا عن اسباب هذا التدهور وجدناها في الناحية المادية التي تحدثنا عنها في مسألة الاستيعاب ، إذ تستنزف المباني والملاعب والخيار والكتب الجيدة واعداد المعلمين وتحسين ظروفهم المعاشية اموالاً طائلة ، فالوضع التعليمي مرتبط بالاحوال الاقتصادية ويؤثر فيها وتؤثر فيه ، ولا شك ان الاندفاع في مضار

النهضة الاقتصادية وتوجيه القسم الكبير من الموازنات الى شؤون التعليم وتوفير بعض الصفقات الزائدة تساهم في رفع المستوى التعليمي ، ومن اسباب تدني تعليمنا ايضاً الى جانب الناحية المادية قلة الاختصاصيين العميق الاختصاص في أمور التربية والمتفرغين فقط للدراسة والبحث والتخطيط لسائر النواحي التعليمية .

ج - مسألة التعليم الرسمي والخاص :

عرف الوطن العربي في جميع اقطاره المدارس الخاصة إلى جانب المدارس الرسمية ، وتسمح الدساتير العربية كلها بقيام المدارس الخاصة على اختلاف فيما بينها حول مدى اشراف الدولة عليها ، واغاب التعليم عند العرب رسمي الا في لبنان حيث تفوق المدارس الخاصة المدارس الرسمية عدداً ، وقد اثرت مناقشات في بلادنا حول قيام الدولة بعبء التعليم وحدها أو سماحها ببقاء المدارس غير الحكومية ، وقد انقسم الناس في هذا الموضوع إلى ثلاثة اطراف :

الطرف الاول ينادي بأن تخصص الدولة وحدها بإنشاء المدارس في شتى المراحل التعليمية وسائر الفروع ، وحججهم عديدة منها أن بلادنا تحتاج الى توجيه موحد وثقافة موحدة لا يتوفران الا اذا كان رأس التعليم واحداً ومهما سمعت الدولة لمراقبة المدارس الخاصة فانها تستطيع في كثير من الظروف أن تعلم ما تريد ، وأن توجه التلاميذ بشكل قد يخالف سياسة الدولة العامة ، ويذكرنا أصحاب هذا الرأي بأننا نحوض معركة ضارية ضد الاستعمار وناضل في سبيل توحيدنا وتحررنا ، فاذا بقي التعليم الخاص لم يعبأ بناؤنا تمبئة قومية واحدة إذ يمكن ان تتسرب كثير من الانحرافات إلى المدارس الخاصة وأقصى

ما يستطيع المواطن عمله مع المدرسة الخاصة الا يرسل ولده اليها ، أما الحكومة فهي مسؤولة امام الشعب ويستطيع الشعب ان يطالبها دائماً بالتوجيه السليم . ومن حجج هذا الطرف أيضاً أن وجود المدارس الخاصة يساعد على بقاء الطبقة بين المواطنين إذ تنشأ لأبناء الاثرياء مدارس باهظة الاقساط يتجمعون فيها فلا يختلطون بأبناء الفقراء ويظلون بعيدين عن آلام شعبهم .

وبزبد انصار هذا الرأي فيدلون ببرهان جديد وهو أن بقاء المدارس الخاصة وترك كل طائفة توجه اطفالها كما تريد ينتج جيلاً متباعداً في التفكير وقد تغلب عليه المصيبة الطائفية والعنصرية وتموزه الوحيدة في الاتجاه والوعي القومي ، وربما خرجت المدارس الخاصة مثقفين ملهين بالثقافات الاجنبية من فرنسية وانكليزية وايطالية اكثر من المأمهم بثقافتهم العربية . ويخشى أن ينقلب المجتمع الى مجموعة من الجاليات تسير كل منها حسب اعرف دولة اجنبية بدلاً من أن ينصهر المواطنون في اعرف واحدة ، ثم يضيف انصار التعليم الرسمي المحض دليلاً آخر وهو أن المدارس الخاصة لا توفر دائماً المستوى التعليمي اللائق لتلاميذها فقد تضطرها ظروفها الاقتصادية الى التساهل في قبول معلمين اقل مستوى من معلمي المدارس الرسمية ، وقد تهرب من إنشاء الخبر الكافية وإقامة الابنية اللائقة وربما دفعها سب الربح إلى ترفيع من لا يستحقون النجاح واذا انطبق هذا القول على المدارس ذات الصبغة التجارية وحدها فإن انصار هذا الرأي يذكروننا بالادلة السابقة والتي تنطبق على كل المدارس الخاصة .

واما الطرف الثاني فيرى الابقاء على المدارس الخاصة بسائر

انواعها طائفية أو اجنبية أو تابعة لبعض الجمعيات أو الافراد ويدلون بعدة
براهين على رأيهم منها أن استثمار الدولة بالتعليم يفقده حريته الضرورية
لازدهاره إذ أن التجديد واتباع الاساليب الحديثة تقتضي مغامرة لا
تقوم بها الحكومة ، بينما تقدم عليها المؤسسات الخاصة .

وس براهينهم أيضاً ان التنافس بين المدارس الخاصة يدفعها الى
رفع مستواها والاتيان بأحدث الاساليب واكثرها فائدة لتجذب المدد
الوفير من الطلاب على حين ان المدارس الحكومية اذا وجدت وحدها
لم تخش المنافسة وبالتالي تقع في الجمود وتتوقف عن التطور ، ومن
حججهم ايضاً ان بلادنا فيها طوائف عديدة واغلب هذه الطوائف
لا تظمن الى ان عقائدها تدرس باتقان في المدارس الرسمية ، وإن
مجتمعا يضم السني والشيعة ، الارثودكسي والكاثوليكي والبروتستاني عليه
ان يعتبر المدارس الخاصة شيئاً ضرورياً منثقاً عن حاجة اجتماعية
ملحومة .

ويضيف انصار التعليم الخاص برهاناً جديداً إذ يعجبون ممن يخشى
على وحدة مجتمعه من تنوع الثقافات ففي اعتقادهم أن وجود ثقافات
عديدة في المجتمع يفيد ، إذ يجعل الافكار في غليان دائم وتفاعل مستمر
ينتج عنها خير عميم الامة ، ولا خوف على وحدة المجتمع ما دام فراه
على اختلاف ثقافتهم يدركون أن افكارهم كلها في سبيل وطنهم وأن
كلاً منهم مكلف بخدمة أمته وفق الاسلوب الذي اعتاد عليه والثقافة
التي استنار بها .

ومن ادلتهم أن الدولة اذا كلفت وحدها بعبء التعليم ناءت بمصاريفه
الباهظة وتحملت فوق ما تطيق وهي ذات مسؤوليات جسام ؛ منها الدفاع

عن البلاد وما يتطلبه من تجهيز الجيش وتسليحه ومنها حفظ الأمن الداخلي ومنها تبيد الطرق ومد السكك الحديدية وانشاء المستشفيات ... وإن عدد الاطفال الذين هم في سن الدراسة كبير جداً ، فاذا طالبنا الدولة بفتح المدارس التي تستوعبهم قدمت ميزانيتها كلها من غير أن تصل الى ما تريد ، وما دامت الدولة غير قادرة على استيعاب الطلاب كلهم في مدارسها ، فلماذا لا تسمح بأقامة المدارس الخاصة فتساعدنا على تثقيف أبناء الامة وتخفف من عدد الذين يبقون في الشوارع كل عام ؟

وآخر ما يبرهن به انصار المدارس الخاصة على دعواهم قولهم بأن الطالب قد يتعرض لبعض المشكلات أثناء دراسته ، فقد يرسب مرات متلاحقة فأين يتعلم اذا طردته المدارس الرسمية ، وقد تعاقبه مدرسته بالفصل النهائي من مدارس الحكومة كلها ، فيحرم من التعليم اذا لم توجد المدارس الخاصة ، كما أن المدارس الرسمية لا تقبل الا الطلاب الذين حازوا مجموعاً معيناً في اقسامها الاعدادية والثانوية والجامعية ، فهل نترك حجماً غفيراً من شباننا محروماً من اتمام تحصيله أم الأفضل لإنشاء المدارس الخاصة ، وهم يرون كثيراً من الدول المتقدمة تحمل المدارس الخاصة القسم الاكبر من عبء التعليم ، كالولايات المتحدة الامريكية .

اما الطرف الثالث فيقف موقفاً وسطاً بين الرأيين السابقين ، إذ يرى الابقاء على بعض المدارس الخاصة دون البعض الاخر مع وجود اشرف دقيق وفعلي عليها ومطالبتها بتطبيق مناهج الحكومة وتدریس كتبها في المواد ذات القيمة القومية والتوجيهية على الاقل ، وبأخذ أنصار هذا الرأي قسماً من أدلة انصار التعليم الرسمي وقسماً من أدلة أنصار التعليم الخاص ، فهم يجدون مصاريف التعليم باهظة على الدولة وحدها كما يرغبون

في اذكاء التنافس والابداع الحر بين المدارس الخاصة ويرغبون من ناحية ثانية في ايجاد اساس ثقافي عام لجميع الطلاب على اختلاف مدارسهم ، واغلب اصحاب هذا الرأي ينادون بتصفية المدارس الخاصة الاجنبية ، كما يكرهون وجود مدارس تستهدف الربح ويودون الابقاء على المدارس الطائفية والتابعة لبعض الجمعيات الخيرية ، ويختلفون فيما بينهم حول الابقاء على المدارس الخاصة في بعض مراحل التعليم ، فقسم منهم ينادي بأن يقتصر التعليم الخاص على المراحل الاعدادية والثانوية وأن يمتد حتى الجامعة اذا أمكن مع اختصاص الدولة وحدها بالتعليم الابتدائي لان الخيرة التوجيهية الاولى يحصلها الطفل أثناء هذه المرحلة ، بينما لا يرى القسم الآخر مانعاً من بقاء التعليم الابتدائي الخاص على شرط أن يوجه توجيهاً حسناً ودقيقاً .

أما نحن فمن انصار الطرف الاول إذ نرى أن بلادنا بحاجة الى تدعيم وحدتها الثقافية بدلا من استمرار التفرقة بين المواطنين وقد لمسنا عن تجربة بان الاشراف الحكومي على المدارس الخاصة لا يمكن ان يكون فعالا الى الدرجة التي نطمئننا على حسن تعليم ابنائنا وتوجيههم ، إذ تستطيع المدرسة الخاصة في غياب المفتشين ان تفعل ما تريد وليس من المعقول أن نلجأ الي بث العيون على المدارس الخاصة من الطلاب أنفسهم إذ أن ذلك يزيد من فقدان الثقة بين المواطنين ويساهم في تخريب المؤسسات التعليمية ، كما أننا نعتقد أن تعليم المذاهب الدينية أمر في استطاعة الدولة أن تقوم به فهي ليست ممثلة طائفة معينة بل هي مندوبة عن المواطنين جميعاً .

وأما التنافس فيمكن ان نذكيه بشكل مشروع بين المدارس الحكومية نفسها وفي استطاعتنا أن نشجع الابداع الفردي فتكفي العلم

الناجح المجدد ، ولم يعد التطور قائماً على المغامرة بل اصبح امرأ علمياً
توضع له الخطط وترصد له النفقات وكل مشروع تربوي حديث يحتاج الى
الخبراء والوازم التي تعجز المدارس الخاصة عن تأمينها . واذا استطاعت بعض
المدارس الاجنبية أن ترصد الأموال اللازمة للخبراء والاثاث والوسائل التعليمية
فذلك لان وراءها دولاً تستهدف من وجودها غايات بعيدة .

وأما مسألة الطلاب الذين يرسبون أو يطردون فيمكن أن تعمد
أنظمة المدارس لتستطيع قبولهم على أحد الوجوه ، ومن المعلوم أن
المتخلفين والمشكلين لا تستطيع المدارس الخاصة أن تقوم من اعوجاجهم
أو تنسجم مع مستواهم بل هم في حاجة الى مؤسسات تربوية تختص بأمرهم
وتضم الخبراء في شؤون علاجهم ، وهذه المؤسسات لا يستطيع أحد أن
يقيمها الا الدولة .

وأما العقبة المادية فمعترف بأهميتها ونلاحظ أن ما تشكده الدولة من
مصاريف في سبيل المدارس بل ندرك عجزها أحياناً عن قبول جميع
طلاب مرحلة من المراحل ولكن هذه العقبة يمكن أن تعالج إذا وضعنا
خطة علمية مدروسة تستهدف تصفية المدارس الخاصة خلال عدة سنوات
ولتكن خمساً أو عشرأ ، فليس المهم عدد السنين بل المهم أن نحدد
خطواتنا ونعرف في كل سنة عدد المدارس التي يجب أن نفتتحها في مقابل
المدارس التي نضيفها ، كما أن من المهم جداً معرفة عدد المعلمين الذين
يجب أن نؤهلهم للمدارس الجديدة ولتعلم مختلف العقائد . وعلينا أن نضع
في حسابنا تأمين العمل لمعلمي المدارس الخاصة سواء في مدارس الحكومة أو
في مهن أخرى تتلائم مع كفاءاتهم وتهيء لهم الحياة الكريمة المتناسبة مع
ما أدوه للعلم في وطنهم العربي .

ج - مسألة نحو الامية :

الأمية من أمراض مجتمعتنا المزمنا إذ تصل نسبة الاميين في بعض الاقطار العربية الى ٩٠٪ من عدد السكان ، وهي فوق الـ ٥٠٪ في اكثر الاقطار العربية عدا لبنان الذي انخفضت فيه الى ٢٥٪ .

جدول لعدد ونسبة الاميين في بعض (١)

اقطار الوطن العربي لعام ١٩٦٤

القطر	العدد	النسبة المئوية	٪ الذكور	٪ الاناث
السودان	٥٨٤٧٨٢١	٩٥٫٦	٩٢٫٦	٩٨٫٤
المغرب	٦٤٧٤٤٠٠	٨٦٫٢	٧٨٫١	٩٤
العراق	٥١١٤٥٦٠	٨٢٫٧	٧٣٫١	٩٢٫٤
مصر	١٤٨٥٤٧٠٨	٧٣٫٧	٥٩٫٥	٨٧٫٦
الاردن	٩٣١٧١٠	٦٧٫٦	٤٩٫٩	٨٤٫٦
سورية	٢٨٣٢٥٥٠	٦٤٫٦	٦٥	٨٣٫٢

والأمية ذات أخطار جسيمة على الأمة إذ أنها تقف حائلاً دون نهضتها وتطورها ، ولا يستطيع الاحي أن يتلاءم مع مقتضيات التقدم في العصر الحديث فكل شيء في هذا العصر يحتاج الى القراءة والكتابة وبعض الثقافة لأن الحضارة المعاصرة قائمة على العلم والتدقيق في الحسابات وتتبع أحدث المكتشفات والاستفادة من الاساليب الجديدة في التجارة والصناعة

(١) عن نواة المجتمع العربي - كلية الاداب - جامعة دمشق
العمر المأخوذ بهن الاعتبار هو ١٥ سنة فما فوق .

والزراعة والسياسة وشؤون الاسرة ، ولم يعد البائع الصغير بقادر على الاستغناء عن معرفة القراءة والكتابة والالمام بطرق الدعاوة ، فاهيك بما تتطلبه الاعمال الكبيرة والمشاريع الضخمة والمهن الفنية من اطلاع ، والامي عالة على غيره في جانب كبير من جوانب حياته ، بل هو اذا سار في الطريق وحاول أن يصل الى محل يقصده مضطر الى الاستعانة بغيره ، والامي سهل التضليل لأنه عاجز عن الاطلاع على الوثائق والنظريات السياسية والاجتماعية بنفسه ، فيقرر به اصحاب الاغراض ويسيرونه في الطرق التي يريدونها .

تلك هي أم اخطار الامية وقد تخلصت منها المجتمعات المتقدمة حتى أصبحت منذ مطلع هذا القرن لا تجد الا عدداً قليلاً من الاميين في البلاد الامسكندنافية وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا ، كما تسمى الدول الاخرى الى التخلص منها بجد ، فقد قطع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة اشواطاً بعيدة في هذا المضمار ، كما سارت الصين الشعبية على نفس الطريق .

وقد بدأ الشعب العربي يهتم بمسألة الأمية حتى وصل هذا الاهتمام حدّاً جعل سورية تضع نحو الامية من جملة أهداف الدولة الرئيسية في دستور عام ١٩٥٠ ، الذي نصّ على ضرورة نحو الأمية خلال عشر سنوات ، وشاهدنا في مختلف الاقطار العربية قيام المدارس الخاصة بتعليم الاميين اغلبها مسائي يمتد على التطوع ولم تقف هذه المحاولات كثيراً ، فعلى الرغم من مضي اثني عشر سنة على النص الدستوري السابق في سورية فان الامية ما تزال منتشرة في هذا القطر وتتجاوز نسبتها ٦٠٪ كما ظلت اكثر الاقطار العربية تعاني هذا الوباء .

والحق أننا لا نستطيع نحو الامية الا اذا عالجنا امرها بشكل علمي والدراسة العلمية لمسألة الامية تقتضي منا أن نعرف اسبابها ودرجاتها وطرق معالجتها .

فاذا بحثنا عن اسباب الامية وجدناها في قلة عدد المدارس بالنسبة الى الاطفال الذين هم في سن الدراسة ، مما يترك قسماً كبيراً منهم خارج المدرسة فيصبح مقضياً عليه بالامية طول حياته ، ولذلك نجد أن الامية بين الكهول أكثر وجوداً منها بين الشباب وعند هؤلاء نرى أن نسبة الاميين أعلى منها بين الفتيان ، لان كهولنا أمضوا طفولتهم في فترة من الزمن كانت المدارس فيها نادرة الوجود ، أما شباننا فقد افتتحت في أيام طفولتهم مدارس عديدة وكلما تقدمنا نجد أن المدارس تتزايد وتستوعب عدداً أكبر من الاطفال وبالتالي تنخفض نسبة الاميين ، وللسبب عينه نشاهد أن الامية في ريفنا اوسع انتشاراً منها في مدننا ، لان المدارس في الريف قليلة اذا قيست بمدارس المدن ، كما يلاحظ ان الامية بين الاناث أكثر منها لدى الذكور ، لان مدارسنا تستوعب عدداً كبيراً من الذكور بالنسبة للاناث .

ومن الطبيعي ان تصبح كل العوامل التي جعلت مدارسنا أقل من حاجتنا اسباباً اساسية لتفشي الامية بين ظهرانينا ، وقد رأينا في بحث الاستيعاب أن أهمها ، هو ضعف الامكانيات المادية والتقاليد .

وأما درجات الامية فيختلف حولها المفكرون فمنهم من يرى أن من يعرف كتابة اسمه غير أمي ، وأكثرهم لا تعجبهم هذه الفكرة ، بل يعتقدون أن المواطن يجب أن يحسن القراءة والكتابة والحساب

ويستطيع أن يخط رسالة أو استدعاء أو يقرأ صحيفة أو كتاباً من كتب الثقافة العامة وأن يكون قادراً على فهم ما يقرأ، ويرى البض ان الامية لا يتخلص منها الفرد الا اذا فال الشهادة الابتدائية أو تتقف بمقافة تعادلسا ، بينما لا يجد البعض الآخر ضرورة لذلك ، ومن الباحثين من يعتقد أن الامية ليست كتابية وحسابية فقد ، بل هنالك أمية اقتصادية وسياسية واجتماعية ، وقد ينال المواطن أعلى الشهادات ويظل أمياً في تدبير شؤونه الاقتصادية وفي فهم أوضاع وطنه السياسية وفي السلوك الاجتماعي .

وأغلب الآراء تتفق على أن المواطن يجب أن ينال حداً أدنى لا بد منه من الالمام بالقراءة والكتابة والاطلاع على أهم أمور الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية .

ثم نبحث وسائل مكافحة الامية ، وقد اهتم بها المختصون بشؤون التربية الاساسية ، وانشئت مراكز خاصة في بعض البلدان للتربية الاساسية وتعليم الكبار ساعدت هيئة الامم المتحدة على اقامتها كمركز سرس الليان في مصر ومركز اربد في الاردن ، ومهمة هذه المراكز تخريج مرشدين اجتماعيين يساهمون في رفع مستوى المواطنين الذين فاتهم ركب التعليم ، كما يدربون غيرهم على القيام بهذه المهمة .

ونحن نرى أن من أهم وسائل مكافحة الامية افتتاح المدارس الابتدائية والاكثر منها حتى تستوعب كل الاطفال الذين هم في سن التعليم ، ومما انشأنا من مراكز لحو الامية بين الكبار فلن نستطيع القضاء عليها طالما ظل عدد غفير من اطفالنا بعيدين عن المدارس حيث يصبحون أميين في كبرهم فيمدون في عمر الامية .

ولكن افتتاح المدارس الاطفال لا يكفي ، فلدينا قسم كبير
وعزيز من مواطنينا الذين تجاوزوا سن الدراسة الابتدائية ولم يتعلموا ،
وهؤلاء الاميون يجب أن نمد لهم يد المساعدة وننقذهم من الامية إذ أنهم
يشكلون نسبة كبيرة من شباننا ورجالنا ، عمالنا وفلاحينا ، آبائنا
وامهاتنا واخوتنا ، فلا بد لنا من تعليم الكبار ايضاً ولن ننجح في
تعليمهم اذا افتتحنا معاهد مرتجلة تقوم على التطوع غير المنظم وتسير على
غير هدى ولا يشرف عليها مختصون متفرغون لشؤونها يرتبون دوامها
ويؤلفون كتبها ويضعون مناهجها ، ويجب أن نعلم أن قضية الكتب هامة
جداً في تعليم الاميين الكبار ، إذ لن يتحمس الشاب والرجل لكتاب
الابجدية الذي أعد لصفوف المدرسة الابتدائية الاولى حيث يتحدث الى
الاطفال بلغتهم ويذكر العاهم بشكل يجعل الكبير يحس بنفسه وقد انقلب
الى طفل صغير اذا اهتم به ، وحين توضع لمحو الامية خطة علمية فيجب
أن تقسم معاهدها الى مستويات عديدة منها ما يختص بتعليم من هم دون
العشرين ومنها ما ينتسب اليه الشباب الذين تجاوزوا هذه السن كما يمكن
أن تنشأ صفوف للاميين الذين لم يتلقوا أي حظ من التعليم ولاولئك
الذين الموا بمض الالمام بالقراءة والكتابة ، كما يمكن أن يختلف الدوام
في هذه الصفوف بين مسائي ونهاري ، صيفي وشتوي حسب مشاغل
المنتسبين اليها ، ويجب أن ينظم المنهاج بحيث يشتمل على الثقافة العامة
الضرورية للمواطن ، ومن المهم الا تقوم هذه المعاهد في المدن وحدها بل يجب
ان تشمل الارياف ومناطق البداة .

ونحن مطالبون بأن نستفيد من تاريخنا ومن تجارب الامم الاخرى

في هذا الميدان ، فقد كلف الرسول العربي (ص) كل أسير يعرف القراءة والكتابة من اسرى بدر أن يفتدي نفسه بتعليم عشرة من المدينة ، وقد نظمت الحكومة الصينية منذ سنوات برنامجاً لمحو الامية طالبت فيه كل متعلم بانقاذ أمي على الأقل ، ثم يقوم هذا الامي الذي تتقف بتعليم مواطن آخر خلال مدة معينة وهكذا تتناقص الامية بسرعة متزايدة ، وقد استفادت امم أخرى من العامل والمزارع الجماعية ، فطالبت كل معمل بإنشاء صف خاص لمحو الامية بين عماله ، كما ألزمت المزارع الجماعية وسائر المشاريع بتعليم أفرادها الاميين ، وحين ننوي القضاء على الامية حديثاً فإن الامر لا يمجزنا ، لأننا نستطيع الاستفادة من كل الامكانيات بما فيها الجيوش .

د - مسألة التنوع والوحدة :

ينقسم بحثنا لهذه المسألة الى فرعين ، اولها التنوع والوحدة في التعليم بين الاقطار العربية ، وثانيها التنوع والوحدة بين البيئات من مدينة وريفية ، صناعية وزراعية في الوطن العربي كله وفي القطر الواحد .

اولاً - التنوع والوحدة بين الاقطار العربية :

على الرغم من وحدة الاساس الثقافي العربي فاننا نلاحظ أن الدول العربية تختلف فيما بينها رسمياً حول قضايا التعليم وأنظمتها ، فالقاعدة المتبعة الان هي التنوع ، ولولا أن اللغة العربية تفرض نفسها على المتعلمين العرب لحدثت ثغرات كبيرة في الثقافة بين أبناء الاقطار العربية ، وهذا التنوع يتجلى لنا في كل ناحية ، فكل قطر عربي يحدد منفصلاً برامجه التعليمية وعدد المواد وانواعها ومضمون الكتب المدرسية وما

يركز الاهتمام عليه من الحوادث التاريخية ، كما أن مواقف الدول العربية مختلفة من حيث نظرتها الى التعليم الخاص ، فمع أنها لا تعارض وجوده مبدئياً ، الا أن بعضها يعطى لوزارات التربية والتعليم حـق الاشراف التفصيلي على المدارس الخاصة وبعضها الآخر كـلبنان يتركها حرة ويحدد مراقبة الحكومة لها بشكل ضيق جداً .

ويتنوع التعليم في الاقطار العربية من ناحية السنوات المطلوبة في كل مرحلة من الابتدائية واعدادية وثانوية ، فأنت تجد سورية ومصر تجعل المرحلة الابتدائية ست سنوات والاعدادية ثلاثاً وكذلك الثانوية ، بينما يحدد لبنان المرحلة الابتدائية بخمس سنوات وتكتفي ليبيا بستين للدراسة الاعدادية ، كما أن العراق لا يكلف الطالب الا بستين ثانويتين واذ انقص لبنان المرحلة الابتدائية فانه يزيد من سني الدراسة الاعدادية اذ يجعلها اربعا ، وتختلف الدول العربية في تفسير الازامية التي تنص عليها قوانينها ، فمنها من يجعلها ممتدة خلال ست سنوات هي مدة الدراسة الابتدائية كلها ومنها ما يقصرها على التعليم الاولي الذي يتم خلال اربع سنوات ، ويبدو التنوع ايضاً في الانظمة الاوروبية التي يقبس منها كل قطر أكثر اساليبه التربوية وبرامجه ، فالعراق والاردن ومصر والسودان تأثرت بالنظام الانكليزي ، بينما اخذت سورية ولبنان ودول المغرب العربي عن النظام الفرنسي ، واقتبست ليبيا النظام الايطالي ، أما المدارس الخاصة في لبنان فتعتمد على ضروب شتى من الانظمة ، وقد تقدمت بمص البلاد العربية أكثر من شقيقتها الاخريات فانشأت عدداً لا بأس به من المدارس الحديثة والجامعات بينما لا تزال الكتابيب أكثر انتشاراً في

اقطار اخرى كاليمن والسعودية والساحل المعاهد، وحتى الآن لا توجد في تونس جامعة حديثة وجامعتها الوحيدة هي جامع الزيتونة، تسير على الاساليب المتوارثة من القدم وان ادخلت فيها أخيراً بعض العلوم الحديثة، وعلى حين أن مصر عرفت النظام الجامعي الوطني منذ مطلع القرن العشرين، فان القطر المغربي لم تنشأ فيه جامعة وطنية الا منذ مدة وجيزة وكذلك العراق والسعودية أما الاردن واليمن مثلاً فلم تعرف الجامعات بعد، وأما لبنان فقد عاش على الجامعات الاجنبية منذ القرن التاسع ولم تؤسس فيه جامعة وطنية الا في الفترة الاخيرة، أما الجزائر فكل جامعاتها اجنبية الى اليوم.

جدول بعدد الجامعات في البلدان العربية (١)

الجامعة	العدد	البلد
القاهرة، اسكندرية، امسيوط، عين شمس الازهر	٥	مصر
دمشق - حلب	٢	سورية
بغداد	١	العراق
الجامعة اللبنانية	١	لبنان
فرع جامعة القاهرة	١	السودان
جامع الزيتونة	١	تونس
القرويين والرباط	٢	المغرب
جامعة الرياض	١	السعودية
بني غازي	١	ليبيا

(١) اما الجامعات الاجنبية فهي الامريكية واليسوعية في لبنان والامريكية في مصر وثلاث جامعات فرنسية في الجزائر غالبية طلابها من الفرنسيين .

ويتجلى التنوع أيضاً في عدم وجود تخطيط عربي مشترك لشؤون التعليم يقوم به مجلس نافذ القرارات يساهم فيه مندوبون من سائر الاقطار العربية ويتفرغون لدراسة الوضع التعليمي في الوطن العربي ، بل ان التخطيط يكاد يكون منعدماً حتى على نطاق القطر الواحد في اكثر الدول العربية وهو لم يزل حديث الولادة عند الدول التي اهتمت به كسورية ومصر ، واذا كانت في الجامعة العربية لجنة ثقافية فأكثر أعمالها عام وضيق ، يقتصر على طبع بعض الكتب وادارة معهد الدراسات العربية العليا ، وأما قراراتها وقرارات المؤتمرات التي عقدها وزراء المعارف العرب ، وكبار المسؤولين عن أمور التربية والتعليم تحت اشرافها فلم تنفذ بشكل مرضٍ ، وقد حاولت بعض الاقطار العربية ان تقيم بين بعضها وحدة ثقافية كسورية ومصر والاردن ثم انضمت اليها العراق ، ولكن معاهدات الوحدة الثقافية تحتاج الى مزيد من العناية والدقة في التطبيق .

وليت لامر اقتصر على وجود التنوع واقمياً كظهر من مظاهر التجزئة المصطنعة بل نشأت نظريات تزعم أن هذا التنوع ضروري ولا بد منه بين الاقطار العربية وحثتها في ذلك أن أجزاء الوطن العربي وان كانت واحدة في الأصل الا أن كلاً منها يتمتع بصفات خاصة تميزه عن شقيقه فالمصري قد اكتسب خلال عيشه مستقلاً عن بقية بقاع الوطن العربي خصائص معينة يجب ان نراعيها في التعليم وكذلك السوري والعراقي والاردني واللبناني والتونسي . . . وهم يدللون على رأيهم أيضاً بادعائهم أن المواطن في كل قطر يتأثر ببعض الملامح التاريخية الخاصة بقطره ، ويشاهد

آثاراً قديمة غير التي يشاهدها سكان القطر الآخر (١) فالصيريون محاطون بالآثار الفرعونية على حين يتأثر السوريون بالآثار والخلفات الآرامية والأشورية... واللبنانيون بالآثار الفينيقية، والعراقيون بالبابلية والكلدانية... ويضيف المتدلون من انصار هذا الرأي قولهم بأن الخير أن تتنوع الثقافات بين العرب لئلا نصبح نسخاً جامدة عن بعضنا، ويدعون أن وحدة الثقافة العربية لا تتأثر ببقاء التنوع، ففي إمكاننا المحافظة عليها بالاتفاق على تدريس بعض المواد تدریساً موحداً في سائر الاقطار وتظل المواد الاخرى حرة يتناولها كل قطر كما يشاء.

ولكن هذا الرأي الداعي الى التنوع مع شيء جزئي من الوحدة له معارضون يتزايدون في كل يوم ويكادون يكسبون الجسولة في النقاش حول هذه المسألة. وهؤلاء المعارضون هم انصار الوحدة في التعلیم بين الاقطار العربية جميعها وبراھينهم عديدة، منها ان الوطن العربي واحد، فلماذا نظن أن البيئة الجغرافية في العراق تختلف عنها في سورية ومصر وتونس؟، وتاريخه واحد فالسوري يفتخر بأبطال مصر ويعتبرهم ابطاله لأنهم عرب مثله، والمصري يعتد بشهداء الجزائر والاردن، ما داموا قد ذهبوا ضحية الاماني العربية، ومن براھينهم أيضاً أن التجزئة ما دامت مصطنعة فلماذا نسوغها ونفلسفها ونساعد على بقائها بدلاً من المساهمة في التخلص منها. وحينما وضع الاستعمار الحدود، بين الاقطار العربية، لم يقمها لاختلاف البقاع العربية عن بعضها وانما ابتغاء مصلحته ولو شاء اثناء التقسيم لضم لبنان الى سورية وديرالزور الى العراق والاردن الى السعودية وليبيا الى تونس وغير ذلك، إننا سدج اذا جئنا الى الحدود الوهمية فقلبناها

(١) راجع كتاب الاستاذ ساطع الحصري حول الوحدة الثقافية العربية في رده على الدكتور اسماعيل قباني.

الى حدود فكرية وواقعية ، ولو ان الاستعمار جعل حلب دولة مستقلة ، فليس من المستبعد أن يقوم بمض البسطاء أو العملاء بالدعوة الى نظام خاص بها وثقافة خاصة بها على اعتبار انها قطر له مميزاته وخصائصه ومن ابطالها ابو الفراس الحمداني ، بينما تذكر حماء في سورية فتاها أبا الفداء . . . واذا نادى المعتدلون من انصار التنوع بثقافات عربية عديدة تجمع بينها بعض الخطوط العامة العريضة ينادي انصار الوحدة على العكس بتعليم عربي موحد مع شيء طفيف من التنوع لا في مضمون المواد الدراسية بل في اساليبها ، فليس من الضروري أن يكثر برنامج التاريخ في مصر من الحديث عن الآثار الفرعونية بل يتكلم عنها كبرنامج التاريخ في بقية الاقطار ، ويفهم الطالب المصري هذه الآثار عن طريق الامثلة التي يضرها المعلم ، وخلال الرحلات التي تجريها المدرسة ، ونحن في حاجة الى صهر لا الى تفريق ، الى نمو العناصر المشتركة بيننا لا الى تنمية العناصر الخاصة وجعلها شيئاً مذكوراً ، أما اختلاف البيئات من مدينة وريفية وزراعية وصناعية فلا يختص به كل قطر على حده ، بل يتواضعه الوطن العربي كله ، فما فرق البيئة المدنية في مصر عنها في تونس والمراق ولبنان؟ وما فرق البدو في الاردن عنهم في مصر والمغرب العربي ، فزيادة الاهتمام بتعليم الريفيين اصول حياتهم وتعليم المدنيون ضروب التقاليد في مدينتهم لا تتم عن طريق اختلاف الاقطار العربية عن بعضها في نظم التعليم بل طريقها أن تتوحد هذه الاقطار جميعاً في تعليمها وتميز المناطق المتشابهة وتجمعها في اسلوب تعليمي واحد مما تعددت الاقطار التي توجد فيها ، وهنا نصل الى الفرع الثاني من قضية الوحدة والتنوع .

ثانياً - التنوع والوحدة بين البيئات :

يتفق الربون على أن تلامذة المدارس الريفية يجب أن يتلقوا معلومات عن الزراعة وتربية الدواجن أكثر من تلامذة المدن، ويوصون بأن ينبه طلاب المدن

الى الآلة والصناعة الحديثة والى ضروب العيش في مدنهم وخاصة اذا كانت كبيرة
كانظمة السير في الشوارع المزدهمة والتعرف على مختلف المؤسسات في مدينتهم ،
وتفضل التربية الا^ل يطالع الريفي كتاباً في القراءة محشواً بذكر البيوت
المدنيه ومملوءاً بالرسوم التي لا تصور الا^ل معالم المدن وثياب المدن وظروف
حياة المدينة ، فالتربية الحديثة ترغب في أن يطلع الطفل على منطقتة ويندمج مع
المهن التي تنوعم له ان يمارسها في المستقبل ، وان يتآلف مع كتابه القريب من
عاداته وظروف حياته ، وهي إذ توجه النظر الى أهمية اطلاع الريفي على حياة
المدينة والمدني على حياة القرية فلا تريد هذا الاطلاع تعسفياً وظالماً لأحد الطرفين
بل ترغب في أن تبدأ بتعليم الطفل اشكال الحياة في منطقتة الاصلية ونظام
الاسرة المحلية في بيئته ثم نهيء له عقد المقارنات بين منطقتة الضيقة وسائر
الناطق الأخرى ، واذا كانت انظمة التعليم العربية قائمة على التنوع بين مختلف
الاقطار وهو تنوع لا نقبله فانها بعيدة كل البعد عن التنوع المشروع القائم
على أساس البيئية المحلية من ريف ومدينة وزراعة وصناعة ونظام
مطري ونظام رى ...

ويخلط بعض المرين بين وحدة انظمة التعليم العربية وبين المركزية،
ويحسبون احدهما مرادفة للآخرى كما يحسبون ان اللامركزية لا تتوفر
الا عند وجود التنوع بين انظمة التعليم في الاقطار العربية ، ونحن نخالفهم
فيما يذهبون اليه .

إذ نرى أن اللامركزية يمكن أن توجد مع وحدة التعليم ، فانكلترا
غير مقسمة الى اقطار ولا ينادي أحد مرينها بثقافات متعددة على الجزيرة
البريطانية ، ومع ذلك فهي تتبع نظام اللامركزية في ادارة شؤونها التعليمية ،
ويمكن ان تختلف انظمة التعليم ويبقى مع ذلك رأس المعارف واحداً ،

والنتيجة التي نصل اليها هي أننا نستطيع أن نوحّد التعليم بين الاقطار العربية من حيث أسسه في الاهداف والاتجاه واللغة والتاريخ والمبادئ العلمية التي تدرس للطلاب ، وسني الدراسة وانظمة التفتيش والادارة والشهادات ونبقى مع ذلك تنوعاً محلياً لا يقوم على أساس القطر أو الدولة المنفصلة عن شقيقتها بل على أساس تشابه الظروف البيئية والمعاشية في البيئات المتماثلة من مدينة وريفية وبدوية ، سواء أوجدت هذه البيئات في هذا القطر أو ذاك ، ويمكن توصلاً لذلك أن نمطي للمحافظات دوراً كبيراً في تنظيم التعليم ، فبدلاً من ان تتلقى مديريات التربية والتعليم في كل المحافظات نسخاً متماثلة من قرارات تصدر عن العاصمة تحدد كل شيء ، يكفي بأن تضع المجالس العليا الاهداف والخطوط الاساسية للتعليم ثم تترك قسماً معيناً من التفاصيل لمديرية كل محافظة تساهم في تنظيمه بالاشتراك مع ممثلي المواطنين واولياء الطلاب وفق المهن السائدة فيها وضرور انماط الحياة الموجودة لديها .

ونعود فنذكر بأن أهم ما يتطلبه التعليم العربي اليوم هو انشاء مجلس للتخطيط تشترك فيه الاقطار العربية جميعاً وتكون قراراته ملزمة وجديّة .

الفصل الثالث

- الاوضاع الصحية -

في الوطن العربي

منذ وجود الانسان على سطح الارض وهو في صراع دائم من أجل الاستمرار في البقاء . فالمركبة ضارية بينه وبين الأنواع الأخرى من أجل الاستئثار بالموارد . وهو اذ يقتصر غالباً ، يخسر الجولة أحياناً فتعم المجاعات والحروب ، ويصاب الجنس البشري بنكسة تفقده الكثير من أفرادهِ . ولكنه ، في شهورته للحياة ، يمد الكرة ولا يلبث ان يتنصر ويستعيد ما فقده لينطلق الى الامام ، دائماً الى الامام .

ومن جملة الاعداء الالداء للانسان ، تلوث رهيب يضم المرض الى جانب الجهل والفقر .

واذا كان الانسان لا يزال يقارع المرض . فاننا نشاهد ان مجال المعرفة في هذا الميدان ، كلما تقدم ، ارتسمت امامه نقاط استفهام هائلة الحجم تلح على الدماغ الانساني بايجاد العلاج للداء الذي يهدده في وجوده وبقائه . ففي القرن التاسع عشر ، كان المرض العضال - كما هو معلوم -

السل . وكانت الانسانية تفقد العديد من ابناءها ضحية هذا المرض . ولكن الانسان لم يلبث ان انتصر بايجاد العلاج المناسب الذي مدد لهذا المرض الضربة القاضية . فهل استراحت الانسانية اذ ذاك ؟ بالطبع لا ، اذ لم تلبث امراض أخرى ان ظهرت على المسرح تهدد وتتوعد ، واذا بالانسان يعيد تنظيم نفسه ليشن حملة على ما يهدده . . . على مرض السرطان الرهيب ، حتى بنتنا نعتقد ان لكل عصر مرضاً خاصاً به . فالانسان ، على الرغم من كونه اضعف الخلوقات ، على الرغم من كونه اضعف من احقر انواع القصب - كما يقول الفيلسوف الفرنسي باسكال - الا انه قسبة تفكر ، وتتنصر بتفكيرها على ما يهدد بقاءها .

وبصورة خاصة ، فقد كثرت الامراض وتفشت في وطننا العربي ، ويعود سوء الاوضاع الصحية عامة الى اهمال المستعمر للشئون الصحية في البلاد المستعمرة ، إذ ليس من مصلحة المستعمر بشيء ان يكون من يستعمر بحالة صحية جيدة ، اذ أنه حينذاك ينصرف الى التفكير في تحرره ، والحرية عزيزة من قلب انسان القرن العشرين ، وهي في كل الاحوال من الدوافع الامامية الملحة الموجودة لدينا كما يعود الى الفقر والجهل ، وكأن تماسك الجهل والفقر مع المرض تلازم طبيعي . فحيثما وجد الامامان الاولان ، تبعهما العامل الثالث بالضرورة .

اولاً - الاوضاع الصحية والامراض المتفشية في الوطن العربي

١ - الامراض المتفشية في مصر والخدمات الصحية فيها :

إن الوضع الصحي السائد في القطر المصري متأخر نسبياً ، كما هو الحال في كافة البلاد العربية . واذا أردنا تحديد الأمراض المتفشية في القطر المصري امكثنا حصرها بما يلي :

آ- البلهارسيا : وهو مرض قديم جداً ، وقد عرف عند الفراعنة ، وقدامى المصريين وكان يسمى بالبول الدموي ، وظل مجهول السبب حتى عام ١٨٥١ حيث اكتشف من قبل الطبيب الالماني بلهارس . ويعود السبب في انتشار هذا المرض الى وجود ديدان صغيرة منتشرة في المستنقعات والترع على النيل . تضع هذه الديدان بويضاتها في الاوعية الشعرية الموجودة في جدران المثانة او الحالبين ، فتتقف جدران الاوردة حتى المثانة أو الاحشاء ، ثم تصرف مع البول او البراز وتذهب في المجاري والترع حيث تنفجر هناك وتتحول الى حيوانات مهدبة تسبح في الماء . فاذا قابلت بعض القواقع دخلت فيها واستقرت في جوفها وتوالدت واصبحت حيوانات ذات ذيل يطلق عليها اسم المذنبات ، تنطلق في المياه مجدداً لتهاجم الانسان عند الشرب او الاستحمام . وعند دخولها الجسم تنمو داخل الاوردة وتقبها بحيث يفقد المصاب الكثير من دمه .

وهكذا نرى ان فلاحاً واحداً يتبول عدة مرات ، يلوث الماء بعدد هائل من البويضات تهدد كيان عدد كبير من الافراد ، حتى باتت نسبة ٩٠ ٪ من الافراد مصابين بهذا المرض وما يرافقه من فقر الدم وهزال شديد وتأخر في النضج الفكري وظهور البلاهة .

ب - **الانكلوستوما** : وهو مرض ينتشر بواسطة ديدان بسبب فقر الدم في المجتمع المصري ويصيب من الفلاحين ما يعادل عشرة ملايين تقريباً ومعظمهم مصابون بالبلهارسيا ايضاً ، لان طريقة العدوى في المرضين متشابهة تنتقل عن طريق الجلد الخارجي والمخاطي .

ج - **التراخوما** : وهو التهاب حبيبي يصيب الاجفان ويضعف العينين وهو مرض سار ، يقضي على نظر عدد كبير من الاطفال . ويبلغ عدد ضحاياه (١٠ ٪) من المصريين .

أما فيما يتعلق بالخدمات الصحية ، فقد أعدت الدولة برنامجاً انشائياً شاملاً يهدف الى الاستفادة من الخدمات الطبية والى تعميم المستشفيات تدريجياً في جميع انحاء البلاد ، وبناء على ذلك فقد افتتح عام ١٩٥٩ مستشفيان كبيران في القاهرة وثمانية مستشفيات في المحافظات ، فأصبح عدد المستشفيات / ١٠٤ / كما ضعف عدد الاخصائيين في فروع الطب المختلفة ونظمت المؤتمرات لتبادل المعلومات وتشجيع البحث العلمي . واعتمني بلاشعة وبالتمريض ومستواه وتوفير الادوية ، حتى بلغ عدد الذين عولجوا في الاقسام الداخلية والخارجية عام ١٩٥٧ كما يلي :

العلاج بالقسم الداخلي :

النسبة المئوية للوفاة	مجموع الوفيات	مجموع من شفي	مجموع المرضى المعالجين
٣٪	٧١٢	٢١٧,٨٧٣	٢٢٤,٨٨٥

العلاج بالاقسام الخارجية :

المجموع	مرضى مترددون	مرضى مستجدون
٧,١٣٢,٩٩٣	١,٩٨٦,٧٢٧	٥,١٤٦,٢٦٦

ومنذ عام ١٩٥٢ تم انشاء معمل تحضير لقاح B. C. G المضاد للتدرن الرئوي وقسم تشخيص التدرن وقسم الاختبارات المصلية وقسم الفيروس وقسم التحليل ، وتأسيس / ٢٣ / مصحفاً لعلاج التدرن الرئوي و / ٥ / مصحات لجراحة العظام ومستوصفات للأمراض الصدرية بمعظم المدن المصرية ، كما اقيمت مجموعات صحية كثيرة تضم كل واحدة منها عيادة طبية مجانية وخدمة صحيه ووقائية وداراً لرعاية الامومة والطفولة وحمامات عامة وتشمل كل مجموعة صحية عدة أقسام تقوم بعلاج الامراض التي تنتشر بالريف وتجري فحوص شاملة لأهالي المناطق بغية تبين مشكلاتهم الصحية التي تستوجب العناية والتنفيذ . وعلى الرغم من ذلك فان مصر بحاجة الى المزيد من العناية والخدمات الصحية العامة ، اذ لا يعتمدى ما خصص لكل الف من السكان الستة اسرة في القاهرة ، والاربعة في الاسكندرية والثلاثة في باقي المحافظات . وهذا - كما هو معلوم - دون ما ينبغي بكثير .

الخدمات الصحية في العراق :

ان الامراض السائدة في العراق هي - بالاضافة الى ما ذكر من امراض ممتشرة في مصر - البرداء . وهي مرض ينتقل عن طريق البعوض الذي تكون المستنقعات ومياه الفيضانات مرتعاً خصباً لبيوضه . ومن اعراض هذا المرض الشعور بالبرد الشديد المتبوع بحرارة مرتفعة فتفرق فزوال الازمة لتعود بعد فترة من الزمن . وكان عدد ضحايا هذا المرض يبلغ فيما مضى / ٥٠٠٠٠ / نسمة في كل عام ، عدا عن النقص الذي يصاب به من يشفى اذ يصبح هزيلاً ضعيف الجسم لا يتحمل اي مجهود .

غير ان الحكومة العراقية تولي النواحي الصحية عناية خاصة ، بعد ان تعدد ما انشئ من مستشفيات وما تخرج من اطباء سواء عن طريق البعثات أو عن طريق الدراسة . ولكن يعتبر مستوى المعيشة المتدنية في العراق من اول العوامل المؤدية الى تفشي الامراض ، على الرغم مما يوجد فيه من ثروات دفينه داخل الارض ونخص بالذكر منها البترول .

٣ - الخدمات الصحية في لبنان :

لقد ازدهرت الخدمات الصحية في لبنان ونمت نمواً هائلاً ، والسبب في ذلك التقدم الاجتماعي والثقافي وكثرة المؤسسات الصحية والمستشفيات الخاصة المنتشرة في كافة المدن اللبنانية . وفيما يلي بيان بعدد المشافي الاهلية والحكومية وبعدها الاسرة فيها .

عدد الاسرة	عددها	١ - المستشفيات الاهلية
١٠١٢	٣٦	المحافظة : بيروت
١٩٢٨	١٤	جبل لبنان
٩٢	٤	البقاع
١٦٠	٧	لبنان الجنوبي
٤٣١	١٩	لبنان الشمالي
٣٦٢٣	٨٠	المجموع

عدد الاسرة	عددها	٢ - المستشفيات الحكومية
٣٤٠	٤	المحافظة : بيروت
١٢٠	١	جبل لبنان
١٢٠	١	البقاع
١٢٠	١	لبنان الجنوبي
١٢٠	١	لبنان الشمالي
٨٢٠	٨	المجموع

ويربو عدد الاطباء في لبنان على ١٣٠٠ طبيب .

ثانياً - اسباب المشكلة الصحية في الوطن العربي :

وعلى العموم ، يمكن ايجاز اسباب انتشار الامراض في الاقطار

العربية بما يلي :

انخفاض مستوى المعيشة :

يعتبر متوسط دخل الفرد من المعايير الهامة في تحديد مستوى

المعيشة نظراً لأنه يتيح للفرد تأمين حاجاته الاساسية الضرورية كالغذاء والكساء والسكن والتعليم والملاج . وقد صنف المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة المجتمعات على أساس متوسط الدخل الفردي السنوي كما يلي :

- مجتمعات متخلفة اقتصادياً ، ويكون متوسط دخل الفرد فيها أقل من ١٥٠ دولاراً في السنة .

- مجتمعات متوسطة اقتصادياً : ويتراوح متوسط دخل الفرد فيها بين ١٥٠ و ٤٥٠ دولاراً في السنة .

- مجتمعات متقدمة اقتصادياً : ويكون متوسط دخل الفرد فيها ٤٥٠ دولاراً فأكثر في السنة .

وتقع معظم الاقطار العربية في الفئة الاولى . ويتجلى انخفاض مستوى المعيشة في الوطن العربي في الظاهرتين التاليتين :

١ - عدم توفر المسكن الصحي :

فالسكان في الاحياء العربية الفقيرة متلاصقة متشابكة كثيرة السكان ، مما يؤدي الى الاصابات ، لا سيما وان الازقة في هذه الاحياء ضيقة مظلمة ترتع فيها الجرائم الناشئة عن الاوساخ والاقذار المتراكمة . والوضع في الريف اسوأ مما هو عليه في المدن ، اذ يسكن الفلاح عادة مع بهائمهم وهذا ايضاً عامل فعال في انتقال الامراض من الحيوان الى الانسان .

٢ - عدم توفر التغذية المناسبة :

ان تغذية معظم المواطنين العرب سيئة كما ونوعاً ، فالعمال والفلاحون لا يتناولون الغذاء الذي يموض عما فقدوه من مدخرات

وحريرات خلال اعمالهم الشاقة . وهم لا يتمكنون من تناول اللحوم الا نادراً مما يجعل راتبهم الغذائي في حالة اضطراب . وقد يقتصر الفلاحون في غذائهم على ما تنتجه ارضهم من حبوب او خضار .

٢ - عدم ملائمة الشروط الطبيعية :

آ - عدم توفر المياه النقية :

ان المياه التي تشرب منها القرى العربية غير نقية غالباً ، ويكون مصدرها عادة النهر المليء بالطمي والوحول والامساخ ، أو الساقية او الترع او المستنقع أو حوض الماء الذي يعيش على مياهه الانسان والحيوان على السواء . هذا عدا ما للماء اهمية في النظافة عامة ، وما يجب اتخاذه من وسائل لتصفية المياه كي تصبح قابلة للشرب .

ب - عدم توفر المناخ المناسب :

على الرغم من سطوع الشمس ، ومن تأثير ذلك في الصحة العامة ، فان فوارق الحرارة بين الليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ذات تأثير كبير في تعريض الجسم للأمراض كما ان هطول الامطار بغزارة واحدة من العام يجعل المياه تتجمع وتشكل المستنقعات التي تعتبر مرتعاً لتوليد البعوض والطفيليات التي تنشر الحميات ، ولتكاثر دودة البلهارسيا والاكلوستوما .

٣ - ضعف الجهاز الصحي :

آ - عدم توفر الاطباء والمستشفيات عامة :

تقتضي العناية الصحية المناسبة وجود طبيب لكل /٥٠٠/ فرد ، وسرير للمستشفيات لكل /١٠٠/ فرد . ولكن ذلك بعيد عما هو الحال في الوطن العربي . وهذان جدولان مقارنان بين الحالة السائدة في الاقطار العربية وفي بعض الاقطار الاجنبية .

الجدول رقم ١
عدد الاطباء والمشاغي مع نسبتها في الاقطار العربية
بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٤

نسبة السكان الى كل سرير	عدد الاسرة في المشافي	نسبة السكان الى كل طبيب	عدد الاطباء	القطر
١٥٦	٨٤٧٩	١٣٠٠	١٠٤٩	لبنان
٨٠٥	٣,٦٢١٦	٣٦٠٠	٦٠٥١	مصر
١٥٠٠	٢٣٩٩	٥٣٦٠	٦٧٠	سورية
٧٢٥	٦٦٢٣	٥٦٠٠	٨٧٤	العراق
٦٠٦	٥٧٧١	٦٧٠٠	٥٢٦	تونس
٦٨٢	١٩٩٤	٧٣٤٥	١٨٥	الاردن
٦٨٠٠	١٠٢٥	٤٥٠٠٠	١٥٣	السعودية
١٠٦٥	٨٢٣٠	٥٠٠٠٠	١٧٤	السودان

الجدول رقم ٢
عن الأطباء والمشاغي مع نسبتها في بعض البلاد الاجنبية
بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٤

نسبة السكان الى كل سرير	عدد الاسرة في المشافي	نسبة السكان الى كل طبيب	عدد الاطباء	البلد
١٠١	١,٥٨٠,٦٥٤	٧٧٠	٢٠٩,٢١١	الولايات المتحدة
٢٠٨	١,٠٣٥,٠٠٠	٧٨٩	٣٧٣,٦٩٠	الاتحاد السوفيتي
٧٠	٦٨,٢٧٥	١٠٠٠	٤,٩٣٢	سويسرا
٩٠	٤٦٩,٦١٢	١١٠٠	٣٧,٣٩٨	فرنسا
٩٦٨	٢٣,١٩٦	٣١٠٠	٧, ٧٩	تركيا

ب - فقدان الاطباء والمستشفيات والادوية في الريف العربي :

تقتصر الخدمات الطبية في الوطن العربي على المدن دون الريف ، إذ قلما نجد طبيباً ثابتاً أو ادوية أو مستشفيات في القرى العربية ، فاذا مرض القروي ، فانه يلجأ الى الوصفات البلدية والى من يدعي الخبرة في معالجة الامراض . ومعظم هؤلاء من الدجالين والمستغلين ، أو يتوجه نحو المدينة المنقذة التي تنتظره باستغلالها لموارده المحدودة جداً . وبالتالي فان نسبة الوفيات مرتفعة جداً في ريفنا لا سيما بين الاطفال .

والسبب في ذلك عزوف الاطباء عن مسكن القرى لصعوبة شرائط الحياة فيها وانعدام وسائل الترفيه والتسلية .

وتبين الاحصاءات سوء توزيع الخدمات الطبية في الوطن العربي . ومن أمثلة ذلك ان لواء بغداد الذي يشكل ١٧٪ فقط من مجموع سكان العراق ، احتكر لوحده عام ١٩٥٣ ٦٣٪ من مجموع الاطباء ، وان لواء القدس يحتكر نصف اسرة المشافي مع أنه لا يمثل سوى ٢٢٫٧٪ من مجموع سكان الاردن وان في قضاء القدس طبيباً لكل ٢٧٠٠ فرداً ، بينما ليس في قضاء جرش سوى طبيب لكل ٢٧٠٠٠ نسمة .

والوضع في مصر أو في سوريا شبيه بما ذكرنا . فقد بلغ عدد المستشفيات والعيادات والمستوصفات الخارجية المستقلة في مصر عام ١٩٥٩ كما هو مبين في الجدول :

عدد المشافي	العيادات والمستوصفات	عدد الاسرة	عدد الاطباء	الصيدالة	المرضات
المجموع	٧٨	٧٥٧٦	١٠٧٢	٧٦	٨٢٣
١٤٤					
القاهرة والاسكندرية	٣٥	٤٥٢٤	٧٥١	٤٦	٤٩٢
٧١					

وفي سوريا ، فقد بلغ عدد المستشفيات الحكومية والخاصة عام ١٩٦٠ ، ٧٨ ، منها ٥٠ في محافظتي دمشق وحلب ، كما بلغ مجموع عدد الاطباء عامة ١٢٠٤ طبيباً ، منهم ٨٠٧ في دمشق وحلب ، و ٥٦١ في دمشق وحدها .

كما يبين بوضوح سوء توزيع الخدمة الصحية .

٤- الامية الصحية :

الامية على أنواع ، وقد تكون الامية الصحية المتمثلة بالجهل بوسائل الوقاية من الجرائم وأسباب المرض أشد الاميات خطراً على حياة الانسان مباشرة ، على الرغم من خطورة باقي أنواع الاميات كالامية الثقافية والامية الاقتصادية والامية السياسية والاجتماعية . وهناك تلازم بين الامية الثقافية والامية الصحية . فاذا كان مقياس تلك الامية الحصول على الاقل على شهادة الدراسة الابتدائية ، فان نسبة من حصلوا على هذه الشهادة في سوريا مثلاً لا يتعدى ٦٪ في نهاية عام ١٩٥٧ . وتنخفض هذه النسبة لتبلغ ٣٪ لدى الاناث ، امهات المستقبل ، بينما تبلغ ٩٪

عند المذكور . هذا عدا الفروق في النسب بين المدن والريف ، حيث تميل الامية الصحية الى الانتشار والسيطرة على كافة الافراد .

وقد تسهم المدارس في مكافحة الامية الصحية وذلك بان تساعد الافراد على اكتساب المعلومات الصحية أولاً والمعدات الصحية ثانياً والاتجاهات الصحية ثالثاً .

فالمعلومات الصحية تبين الافراد على حفظ صحتهم واثقاء المرض ومعالجته بقدر المستطاع .

والمعدات الصحية يكونها الافراد كثيراً في البيت وفي المدرسة ، حيث يتعودون مثلاً عدم استعمال مشط الغير أو الشرب بكأسه أو وضع الاصابع في الفم أو التهام الطعام بسرعة .

أما الاتجاهات الصحية فهي الايمان باهمية الصحة في حياة الفرد وحياء الجماعة .

ثالثاً - خطة الاصلاح الصحي في الوطن العربي

ينبغي أن تشمل كل خطة للاصلاح في هذا الميدان المجالين التاليين :

١ - الاجراءات الوقائية

٢ - الاجراءات العلاجية

آ- الاجراءات الوقائية التي يجب ان تتخذ في الوطن العربي :

قديمًا قيل الوقاية خير من العلاج وهذه الحكمة الشعبية لا زالت

على قدر عظيم من الصحة . فملينا والحاله هذه درء الامراض عن الافراد قبل أن يصابوا بها لئلا يكون الأوان قد فات عند المباشرة بعلاجهم . واذا كانت مسؤولية الدولة عظيمة في هذا المجال ، فانها لا تقبل بحال من الأحوال عن مسؤولية الفرد الذي يطلب اليه أولاً الاعتناء بصحته ليتقي شر الوقوع في الامراض .

وتم الوقاية باتخاذ الاجراءات التالية :

١ - تحسين الاوضاع المادية للطبقات الفقيرة بحيث تستطيع تأمين الغذاء الصحي الضروري لمعيشتها وذلك عن طريق تحديد الحد الأدنى لأجور العمال .

٢ - وضع شروط خاصة بالبناء السكني بحيث تتوافر فيه الشمس والهواء ؛ وبالابنية العامة التي يكثر فيها انتشار الامراض بواسطة الهواء أو الجوار كالاسواق العامة المغلقة وكدور السينما ، ومراقبة المعامل والمصانع التي قد يشكل انتاجها خطراً على الصحة العامة .

٣ - توفير المياه النقية للقرى والمدن ، إما عن طريق التصفية أو حفر الآبار الارتوازية .

٤ - انشاء شبكة تصريف فنية لجر المياه القذرة الى باطن الارض .

٥ - ردم المستنقعات التي تشكل خطراً أكيداً على صحة الافراد بما تحتويه مياهها الآسنة من جراثيم .

٦ - الاعتناء بالارشاد والتعليم الصحي وذلك عن طريق انشاء

وحدات صحية وارشادية تجوب جميع انحاء الريف ، وعن طريق تزويد التلاميذ خاصة والافراد عامة بالمعلومات الصحية التي تثبت فيهم عادات صحية والتي تنيرهم وتبين لهم طرق الاسعاف البدائي ووسائل الصحة العامة وفوائد التمرينات الرياضية في الهواء الطلق والشمس الساطعة .

٧ - تلقيح الافراد بلقاحات الامراض السارية والمستوطنة في مجتمعنا وعزل المصابين بها في مستشفيات خاصة .

ب - الاجراءات العلاجية :

عند تغلب المرض والجراثيم على الفرد ، فانه يتحتم عليه وعلى المجتمع توفير العلاج اللازم كيلا يستمر الفرد في عجزه عن الاسهام الصحيح في مجتمعه .

وبناء على ذلك ، فانه ينبغي على مجتمعنا العربي الاهتمام بما يلي :

١ - العمل على الاكثار من الاطباء والمستشفيات :

من المعلوم ان الخدمة الطبية الملائمة يجب أن توفر طبيياً لكل ٥٠٠ فرد وسريراً واحداً في المستشفيات لكل ١٠٠ فرد . ومجتمعنا مقصر عن بلوغ هذه النسب ، إذ لا يوجد في سوريا مثلاً إلا طبيب واحد لكل ٤٠١٩ فرداً وسريراً واحد لكل ١٢٦٨ ، وفي مصر يعمل المسؤولون على تخصيص سرير في المستشفيات لكل ٣٠٠ فرد . فعلى مجتمعنا ألا يألو جهداً لبلوغ نسب معقولة عن طريق تخطيط برامج مناسبة توصله الى المستوى المطلوب .

٢ - توزيع الخدمة العلاجية توزيعاً عادلاً بين المناطق :

يجب أن تؤمن الخدمة العلاجية في المدن وفي القرى والارياف على السواء ، وذلك بتنظيم المهن الطبية بصورة تؤدي فيها الخدمة الطبية على غرار خدمة العلم ، فيقضي الطبيب مدة لا تقل عن السنتين في مركز ريفي محددة له الجهات المختصة ليحق له حينذاك انتخاب مركز عمله .

٣ - توزيع الخدمة العلاجية مجاناً للفقراء :

وذلك عن طريق حمل الاطباء عامة على تخصيص يوم يعالج فيه الفقراء مجاناً وفتح باب المشافي والمصحات والمستشفيات لمعالجة الفقراء المرضى على نفقة الدولة . هذا وقد لجأت بعض الدول الاجنبية الى تأميم الطب ، وقد نجحت هذه الخطة في كثير منها ، فيمكن الاسترشاد بذلك لتحويله بما يلائم مجتمعنا العربي ، ثم لتطبيقه .

٤ - انشاء دور للولادة وأخرى للمصابين بالاعاقات الجسدية والامراض

المستعصية وثالثة للشذوذ العقلي .

٥ - انشاء مراكز كافية للاسعاف السريع بحيث يختص مركز لكل

٥٠٠٠ فرد ويمنح في هذه المراكز العلاج الطبي السريع لمن يحتاج اليه الى أن يتسنى للمسعف مراجعة الطبيب المختص :

وبهذه الاجراءات من وقائية وعلاجية يمكن رفع المستوى الصحي في مجتمعنا العربي بصورة يتمتع معها المواطنون بالصحة المناسبة كي يكونوا أعضاء منتجين نافعين .

اِغْلَاصَة:

درسنا في هذا الفصل الخدمات الصحية في الوطن العربي ومدى كفايتها لحاجات السكان وعرضنا الامراض المستعصية المستوطنة فيه ، وانتقلنا الى محاولة ايجاد اسباب تفشي المرض في الوطن العربي وبحثنا في مختلف العوامل التي تؤدي الى ذلك ثم حاولنا ان نجد طرق الاصلاح الصحي من وقائية وعلاجية .



الفصل الرابع

الاضاع السياسية

ادركت حركة تفتح الوعي العربي أن انطلاق الطاقة العربية وتحقيقها لمثلها مرتبطان أشد الارتباط ، بوصول الامة العريية الى وضع سياسي سليم يساهم في دفع عجلة التقدم ويكافح اعداء العرب من استعمار وفقر وجهل ومرض ، ويرعى المصلحة العامة وينمي مواهب الافراد وامكانياتهم في جو من الحرية والتعاون والتفاهم .

ومن الملاحظ ان الحال السياسية للعرب لم تصل بعد الى مستوى الآمال المملقة عليها ، فهي وليدة المؤامرات الاستعمارية العثمانية والاوربية ، تتلاعب بها من جهة الايادي الخفية وانظاهرة المستعمرين والانانيين بينما تصرخ جماهير الشعب العربي في وجهها مطالبة اياها بأن تكون عوناً لها لا عليها .

وإن أهم ملامح الاوضاع السياسية العربية المعاصرة هي :

أولاً - وجود النفوذ الاستعماري :

سيطرة المستعمرون الفرنسيون والايطاليون والبريطانيون على شمالي افريقيا خلال القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن العشرين وورث

الانكليز والفرنسيون المهيمنة العثمانية على العراق والاردن وفلسطين وسوريا ولبنان ، وكان الانكليز قد استعمروا عدن وعقدوا معاهدات الحماية مع مشايخ امارات الجزيرة العربية بعد استعمارهم لها في أواخر القرن التاسع عشر .

واليوم نجد عدداً من البلدان العربية تتمتع باستقلال فالتة بتضحياتها وثوراتها كسورية ولبنان ومصر والعراق والاردن وتونس والمملكة المغربية وليبيا واليمن ، والسودان والكويت أخيراً ، أما المملكة العربية السعودية فقد قامت مستقلة منذ نشوئها ، ومن يتعمق في دراسة أوضاع هذه البلدان المستقلة يدرك ان الاستعمار لم يخلفها وراءه نهائياً ، واذا كانت قد غادرتها جيوشه الصريحة فقد ابقى فيها جيوشاً خفية من العملاء ذوي النفوذ الكبيرة ، يدمم بشتى أنواع المعونات المادية والدعم المعنوي لينفذوا أغراضه ويقوموا اقطارهم تحت سيادته العملية والخفية وليتآمروا عليها اذا حاولت كسر الطوق الاستعماري كسراً تاماً .

وتعاون السيطرة السياسية للاستعمار في هذا المجال مع السيطرة الاقتصادية والثقافية ، ولا تكاد تمر سنة لا نسمع فيها عن ثبوت اتفاق بين بعض الحكام والفئات السياسية وبين المستعمرين .

وثمة اقطار عربية لم تدل حتى الاستقلال الظاهري ، ومنها المحميات ومستعمرة عدن والجزائر وفلسطين التي سلمها الاستعمار الانكليزي وحلفاؤه للصهيونيين ، كما توجد أجزاء من الوطن العربي اقتطعتها بمساعدة المستعمرين ، دول مجاورة لنا كإواء الاسكندرون ومنطقة كيليكيا ، ومنطقة عربستان .

ومن هذا التصوير السريع لسلطان الاستعمار على وطننا ندرك ثقل الكابوس الذي نزرع تحته ، وحين نتذكر أن القوى الاستعمارية متكاتفه

مع بعضها في سبيل تدعيم سيطرتها علينا نعم مقدار البطولة الفائقة التي تحصن بها هذا الشعب لتنفجر في الثورات وتتناضل في سبيل التخلص من العبء الاستعماري الثقيل .

آ - الثروات الطبيعية :

وهي تعتبر المادة الخام للصناعة ، وقد ازدادت أهمية البترول بشكل خاص منذ الحرب العالمية الاولى وأصبح يعد الثروة الاولى التي يتكالب الاستعمار على سرقتها .

وإن غنى الوطن العربي بالبترول دم الصناعة الحديثة والمواد الخام المدنية كالحديد والفوسفات يجعله عرضة لاندفاع المستعمرين نحوه ، فهناك اقطار عربية يفرض عليها الاستعمار سلطانه لوجود البترول فيها كالعراق والكويت والبحرين وقطر وعمان والسعودية وليبيا والجزائر ...

وأقطار أخرى يأمل في أن يستخرج البترول منها أو أي معدن هام آخر أو يخشى اذا هي تحررت تحرراً تاماً أن تصبح عامل إثارة لانباء الاقطار البترولية ، فتشجعهم على تحطيم قيود المستعمرين ، ونبتد تحكيمهم ، ونحن ان نصدق أبداً ما يروجه المستعمرون من أنهم لم يعودوا يكتفون كثيراً ببتولنا بعد اكتشاف منابع بترولية جديدة وبعد ظهور الطاقة النووية إذ أن التكالب على البترول العربي ما زال قائماً وحاداً يتجلى في تمسك فرنسا بالصحراء الجزائرية وفي تهديدات بريطانيا المستمرة ، للمحافظة على مصالحها البترولية في العراق والكويت .

ولم تقدم المنابع البترولية الجديدة ما يوفر حاجة الصناعة الاوروبية والحياة اليومية الاوروبية الى البترول ، كما أن الطاقة النووية لم تصل بعد

الى درجة تستطيع معها أن تستعمل في الاغراض العمالية على نطاق واسع .

فما تظاهر الاستعمار بالامبالاة إلا وسيلة للتكر واخفاء نواياه .

ب - تأمين مواصلات المستعمرين في السلم والحرب :

فوطننا يحتل الجناح الجنوبي والشرقي من البحر الابيض المتوسط ، وهو بحر ذو قيمة اقتصادية وعسكرية كبيرة ، خاصة لوجود قناة السويس فيه التي تربط الاسواق الافريقية والاسيوية بالمصانع الاوروبية ، بل إن مفتاح هذا البحر الغربي عند مضيق جبل طارق في يد العرب ، كما ان وطهم يمتد كواجهة خلفية لمضيق الدردنيل والبحر الاسود الذي لا تفصلهم عنه إلا تركيا ، ويفصل بين الكتلة الغربية والشرقية .

وللخليج والجنوب العربيين أهمية بالغة في تأمين المواصلات للاسواق الهندية والاسيوية ، وتعتبر الاجواء العربية مركز اتصال بين الشرق الاقصى وأوروبا وافريقيا .

وتزداد هذه الاهمية في ايام الحروب ، فالارض العربية الواسعة ذات التضاريس العالية المحدودة تتيح للجيش حرية التحرك ، كما أن إنشاء الفواعد العسكرية يتم على مقربة من طرق المواصلات الهامة ومن النقاط الفاصلة بين المتحاربين ، والوطن العربي عقدة هامة لطرق المواصلات في السلم والحرب لا تستطيع أي من الكتلتين الاستغناء عنها عند وضعها لخططها الدفاعية .

وما حلف بغداد ، وما دعم المستعمرين للصهيونيين الذي أدى الى قيام دولة العصابات في فلسطين إلا تعبير عن رغبة المستعمرين في ايجاد

قواعد ثابتة ودائمة لهم في هذا الوطن ، تساعد في الحروب كمخزن الاسلحة ومركز للتمبئة والانطلاق البري والبحري والجوي ، ولم يتغير الوضع الدولي تغيراً تاماً من هذه الناحية خلال السنوات الاخيرة ، بل نستطيع القول بأن الوطن العربي قد ازدادت أهميته الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية ، إذ لم يعد الصراع بين دول المحور والحلفاء كما كان الامر سابقاً ، بل بين الكتلتين الشرقية والغربية ، واحدى هاتين الكتلتين يكاد الوطن العربي يلامسها ، فملينا أن نتوقع بقاء التكالب الاستعماري علينا من هذه الناحية للمحافظة على مصالحه .

ج - ايجاد مستوطنات جديدة للفائض من سكان اوروبا:

على اثر ازدياد السكان في اوربا في القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر ، اخذ المستعمرون يفكرون في ايجاد مناطق خارجة عن اوطانهم تؤوي عدداً من الفائضين عما تستوعبه مساحة دولهم ، وقد كان الوطن العربي من بين المناطق التي وقع عليها اختيار المخططين الاستعماريين لسكنى المهاجرين الاوروبيين ، فهو بقعة غنية وقريبة من اوروبا كما انه في حالة ضعف تشجع الطامعين فيه ، وهكذا تعرض الوطن العربي بعد استعماره الى هجرة جماعية ، فقد سكن ما يزيد على المليونين من الاجانب في افريقية العربية منهم اكثر من مليون في الجزائر وحدها .

كما أن الهجرة الصهيونية الى فلسطين والتي جاءت باعداد كبيرة من الاوروبيين اليهود إليها ، ساهمت في تخفيف ازدحام السكان في اوروبا ، وقد شجعتها الاستعمار لهذا السبب ولاسباب عديدة أخرى .

وقد ذكرنا سابقاً أن هؤلاء المهاجرين لا يحلون مشكلة تكاثف السكان في بلادهم الاصلية وحسب ، وانما يجلبون إليها منافع اقتصادية كبيرة عن طريق اغتلاهم لثروات وطننا الطبيعية والبشرية ويمكنون لتنفيذ الاستثماري في بلادنا ، فهم عملاء طبيعون للاستعمار .

د - ابقاء الوطن العربي سوقاً لبضائع الدول الاستعمارية:

فبلادنا يسكنها ٨٦ مليوناً من العرب ، ومثل هذا العدد الضخم ، يفري اصحاب الشركات الاستعمارية بابقائه سوقاً كبيرة لبضائعها ، والسوق العربية سوق مربح ، لمظنها من ناحية ولضعف تطورها الاقتصادي من ناحية أخرى ، واذا خسر الاستثماريون ما يدفعه العرب من أموال في كل سنة ثمناً لمشترياتهم تكون قد ألت بهم مصيبة كبرى . ولا يستطيع الاستثمار أن يعتمد على الترويج لبضائعه بالدعاية والجودة ورخص الأسعار بل هو يستهدف الربح الفاحش ويرغب في فرض سلعه علينا ولو كانت أغلى ثمناً وأقل جودة من سواها ، ولا يحقق الاستثمار هذا الهدف الاً بابقاء سلطانه السياسي والعسكري علينا ، وان له أملاً سخيفاً في أن تستطيع (اسرائيل) أن تصبـح وكيـلته التجارية في قلب وطننا يوزع منها بضائعه ؛ وما إقدام المعامل الاوروبية على افتتاح فروع لها في فلسطين المحتلة الا تميراً عن هذا الأمل الذي يسمعون الى تحقيقه عن طريق الضغط على العرب لانهاء مقاطعتهم للصهيونيين ولا جبارهم على عقد الصلح مع دولة العصابات .

وقد طاش صواب المستعمرين حين اتجهت بمض الاقطار العربية كسورية ومصر وقبل العدوان الثلاثي على مصر وبعده الى التجارة مع الكتلة الشرقية ، ولم يكن قلق الاستثمار ناجماً عن خوفه من انتشار الشيوعية في بلادنا كما يدعي وانما خشي ان نعتاد التعامل بحرية مع

من نزي المصلحة في التعامل معهم ، وتغيير خط تجارتنا كلما اقتضت حاجتنا الاقتصادية ذلك ، ونحن على كل حال لا نرضى وصايته علينا ولا تقبل ان يصبح هو الحامي لنا ضد الشيوعية أو سواها ، فالامم هي التي تحمي نفسها .

ثانياً - التجزئة:

لا شيء ادعى الى الالم من مشاهدة الوطن العربي على المصور السياسي ، إذ يصدف الناظر بوجود دويلات عربية متعددة مع انها خلقت جميعاً لتكون دولة واحدة . وقد عرف تاريخ الأمم أمثال تجزئتنا وأشد منها ، فقد كانت المانيا حتى مطلع القرن التاسع عشر مؤلفة من مئات الدول وعرفت ايطاليا مدة طويلة تعدد الدول فيها قبل ان تتوحد في النصف الثاني للقرن التاسع عشر : ولكننا اذا استعرضنا الامم المعاصرة نجد ان اكثرها قد توحد ، واذا كانت التجزئة باقية في بعضها فهي لا تصل الى الشكل الذي اخذته التجزئة العربية . فألمانيا منقسمة الى شطرين فقط وكذلك كوريا وفيتنام ، وقد وضعنا هذه الصورة المؤلمة أمام القارئ لأن قضية الوحدة اذا لم تصبح شغلنا الشاغل وتماًلاً ليلنا ونهارنا فان طريقها عندئذ سيكون طويلاً ، أما اذا حدثنا المهم ووجهنا الطاقات نحوها فالمصاعب تزول أمام قوى شعبنا ولا ننسى ان تلك المصاعب على خطرها سطحية ومصطنعة .

ومما ساعد على تجزئة الوطن العربي سياسياً وأطال عمرها
الاسباب التالية :

أ - الاستعمار :

وهو عدو وحدتنا اللدود ، فهو يدرك تماماً الا بقاء لمصالحه

ونفوده في وطننا عندما نعمل كقوة سياسية متحدة ، وهو لا يرضى
ابداً أن يصبح مضيق جبل طاوق وقناة السويس مضيق باب المندب
وخليج العقبة والخليج والساحل العربيين تحت إمرة دولة واحدة ،
تستمد من الطاقة العربية بأجمعها قوتها فتكسر ظهر اعدائها وتقضي على
استغلالهم وسيطرتهم ، ولا تقبل بالانجراف لاغراضهم في الحروب التي يخوضونها
في سبيل أطعهم .

وقد أوهن العرب من عزيمة الاستعمار وهم مجزئون ، فماذا تكون
عليه الحال اذا هم اتحدوا وزالت من بينهم الحدود التي أوجدها هو ، واجتمع
شبابهم في جيش واحد لجب كالبحر الزاخر وامتدت ايديهم لبعضهم متعاونة
في الاقتصاد والثقافة وسائر الميادين ؟

ان الاستعمار يعتقد أن وجوده على أرضنا رهن ببقاء التجزئة ، وهو
يرى أن الدول العربية اذا بقيت مجزأة لا تخيفه كثيراً ولو امتقلت بمقدار
ما تخيفه الدولة العربية الكبرى . ولذلك يسعى الاستعمار دائماً الى محاربة
كل اتجاه جدي نحو الوحدة أو الاتحاد ، وينفق في سبيل ذلك الاموال
ويقيم الحكومات ويسقطها ويدعم الصهيونية والعملاء ، وحين يضطر تحت
ضغط ثورية الشعب العربي الى التظاهر بمسيرة ميلهم نحو الوحدة ، يبذل
جده لتقوم اتحادات زائفة معادية للشعب تحت سيطرته كما فعل حين ارهب
سورية المناذبة بالوحدة العربية عن طريق الترويج لمشروع سورية الكبرى
تحت لواء اجرائه ، أو لاتحاد العراق مع سورية تحت حكم نوري السعيد
وأمثاله ، أو حين أقام الاتحاد الهاشمي بين دولتي العراق والاردن أو كما فعل في
بعض امارات الجنوب العربي .

وأول ما يستهدف الاستعمار عند الترويج لامثال هذه المشاريع

والسماح بتحقيقها أحياناً أن يشوه وجه الوحدة العربية الحقيقية وينفر الناس منها كما يريد ان يحمل كل إجماع يقوم بين العرب بذور انشقاقه حتى يتمكن من انهائه بعد ذهاب حاجة الاستعمار اليه .

وقد عمل الاستعمار جاهداً في سبيل إيجاد حركات اقليمية بين العرب تنادي بالوطن الصغير أمة قائمة بذاتها .

ب - الحركات الاقليمية :

وهي تيارات فكرية وسياسية ، أنجبتها الاستعمار وكلفها مهمة رئيسية هي إظهار بعض الاقطار أو بعض مجموعات الاقطار على أنها أمم قائمة بذاتها ، تستقل بقوميتها عن القومية العربية .

ومن هذه الحركات الدعوة الفينيقية (١) في لبنان التي فادت بأن هذا القطر العربي قائم بذاته ومنتسب الى حضارة خاصة هي الحضارة الفينيقية ولذلك لا يرتبط لبنان مع العرب بغير رابطة الجوار ، أما اللغة فلا يقيم الداعون للفينيقية لها وزناً . واذا كانت هذه الحركة كغيرها من التيارات الاقليمية مفلسة فكريباً . فان اموال الاستعمار وشراءه لذوي الضمائر المنحرفة ، أبقيا لها أصداء سياسية حتى اليوم تشوه وجه لبنان العربي الاصيل .

والقومية السورية التي تبناها الحزب القومي الاجتماعي من أبرز الحركات الاقليمية التي عرفها الوطن العربي ، وقد أدعت ان الامة عندها تقوم على الأرض ، الارض السورية الواحدة المتميزة عن بقية الوطن العربي ، تضم سورية ولبنان وفلسطين والاردن ، ثمّ اضاف اليها قبرص

(١) هذا العالم العربي - لبيه امين فارس .

والعراق واخيراً لا آخراً الكويت !!!

وان صلات اتباع هذه الفكرة بالاستعمار معروفة ، فقد غدت إيطاليا حزبهم أول الامر ، لانها كانت تحلم في عهد موسوليني باقامة امبراطورية لحوض البحر الابيض المتوسط ، ثم اتجهوا نحو المانيا النازية ، فهي اقوي واغنى من الايطاليين وبعد انكسارها رسي المزداد على البريطانيين ، وبقية دول الاستعمار الغربي ، وما ضموا العراق والكويت وقبرص للوطن السوري المزعوم الا تمبيراً عن مصالح الاستعمار البترولية والعسكرية .

وقد انكرت جماهير الشعب العربي هذه الحركة ، فالارض السورية كما يثبت العلم جزء لا يتجزأ من الأرض العربية بسائر تضاريسها وصفاتها الطبيعية ، كما أن القومية العربية تقوم على أساس اللغة والتاريخ العربي الواحد ووحدنة المصير والمصالح . ولم تزل هذه الحركة على قيد الحياة في بعض الاقطار عملياً وان لم تستطع ان تجذب اليها الناس فكرياً واجتماعياً ، ويستعملها الاستعمار اليوم لتنفيذ بعض المؤامرات .

وشجّع المستعمرون ظهور الدعوة الاقليمية في مصر ، القائمة على الاعتزاز بالحضارة الفرعونية واعتبارها حضارة غير عربية والنظر الى أبناء مصر على أنهم امتداد لها لا للحضارة العربية . وقد نشطت هذه الحركة على أثر الاحتلال الانكليزي وكانت نجد في ضخامة آثار الفراعنة وعظمتها وسعة ارض مصر وكثرة سكانها وانعزالها بتأثير الاستعمار سياسياً عن بقية الاقطار العربية ، ادلة وبراهين لدعم دعواها الزائفة (١) غير أن العرب في خارج مصر استنكروا هذه الدعوة فهم لا يرون في مصر

(١) نفس المصدر السابق .

الا قطراً عربياً فصله الاستعمار عن بقية أجزاء الوطن واستنكرها الشعب العربي في مصر فلم تلق رواجاً بين طبقات الشعب الاصيل ، وان استطاع الاستعمار أن يشتري لها حينذاك انصاراً بين ابناء العائلات المتنفة المسيطرة والتي رأت في بقاء التجزئة خدمة لأغراضها ، وقد أخذ الوعي القومي العربي في مصر ينتشر ويعمق وغداً قميناً بالقضاء على الدعوة الفرعونية ان لم يكن قد قضى عليها نهائياً .

وحاول المستعمرون في افريقية العربية أن يوغر صدر البربر ويوهمهم بأنهم ليسوا عرباً (١) لا من حيث الأصل ولا من حيث الحضارة ، وسعى ليفرق بينهم وبين المواطنين العرب : فأعطاهم بعض الامتيازات وغذى زعامات أنانية مصطنعة تعمل بوحى منه وأقدم على نشر اللغة الفرنسية بينهم ، ولكن هذه الدعوة الاستعمارية الاقليمية التي بنى عليها المستعمرون الفرنسيون الآمال العريضة لم تستطع ان تصمد امام وعي الشعب العربي لوحده القومي .

وللاقليمية والاقضية عليها نهائياً حديث نستأنفه حين الكلام على اهداف القومية العربية في بحث مقبل ، وهي على كل حال اذا ارتبطت بالاستعمار فقد غدتها ايضاً المصالح العائلية والفردية الضيقة .

ج - المصالح العائلية والفردية :

كما أخرجت سيطرة بعض العائلات على عدد من الامارات الالمانية قيام الوحدة الالمانية ، فكذلك يعاني العرب اليوم من وجود بعض الاسر

(١) راجع بحث اصل السكان .

التي لا تنظر الى الامور الا من خلال مصالحها ولا تقيسها الا بمقياس منفعتها الخاصة وزيادة نفوذها و ثروتها ، فوجود العائلات المالكة في بعض الاقطار العربية يساعد على ابقاء التجزئة ، إذ أن الاسرة الحاكمة لا ترضى اوعودتنا الا ترضى عن العرش بديلاً ، ومن دواعي السخرية ، أن نجد عائلات تحكم دويلات صغيرة ومحدودة السكان والموارد ومع ذلك تنادي بأن دويلاتها ذات كيان خاص وان الوحدة العربية ليست قادرة على تمثيلها في وقت قريب .

وقد فضلت العائلات المالكة حتى اليوم ان تلجأ للاستثمار حماية لبروسها وتضخيماً لثروتها على أن تتجارب مع آمال شعبها في التوحيد ، وحين تفكر احداها بالوحدة العربية فانما تتصورها زيادة لرقعة الارض الخاضعة لها واكثرأ لعدد رعاياها ، وقد ذهب الوقت الذي تستطيع عائلة مالكة فيه أن تحيط نفسها بهالة قدسية تجعل الشعب العربي يسبح بحمدها والثناء عليها وتلبية أوامرها ، ومع ذلك فقد تنافست هذه الاسر الحاكمة وما زالت تتنافس على حكم شعب لا يرضاها جميعاً ولو تركت له حرية الاختيار . فقد اشتعلت نيران الحرب بين السعوديين والهاشميين بعد الحرب العالمية الاولى ، كما كانت مشتعلة بين السعوديين وآل رشيد قبل تلك الحرب ، ثم نشبت المعارك بين امام اليمن والادريسي حاكم عسير ، ثم بين امام اليمن والسعوديين ، كما اشتعلت الحرب الباردة بين السعوديين من ناحية وبين الهاشميين حكام الاردن والعراق من ناحية ثانية قبل قيام الثورة العراقية .

واننا نلاحظ أن بقاء بعض الاقطار العربية منفصلة عن سواها عائد الى وجود عائلة مالكة تريد المحافظة على سلطتها .
والى جانب المصالح العائلية الضيقة تقوم الاغراض الفردية بدور

كبير في تثبيت التجزئة ، ففرور كثير من الزعماء والحكام وكبرياؤهم ووظنهم أن أكبر ما حققه الله لاقطارهم من فوز هو ايصالهم إلى سدة الحكم بينهم من النظر إلى الامور على مستواه الآمال العربية .

ويرتبط ببقاء الحاكم الأثاني عادة بقاء حاشيته والمنفعين من المناصب التي يرفعهم إليها والخيرات التي يفدقها عليهم .

وللفردية الاقتصادية ايضاً أثر فعال ، فبعض ارباب المصالح الاقتصادية يخشون أن تؤدي الوحدة إلى التقليل من أرباحهم أو انقاص ثروتهم لسماحهم بوجود منافسين لهم في الاقطار العربية الأخرى ، ولرغبتهم في التفرد بأسواق قطرم واحتكاره لأنفسهم .

والوحدة العربية تقضي علينا أن نكيف أنفسنا تبعاً لها ، لان نكيفها حسب مصالحنا الشخصية فهي ليست صولجاناً في يد ملك ولا كرسيّاً لحاكم ولا كيساً من المال اثري ، وانما هي لأجل العرب جميعاً وأملهم المشترك .

د - الطائفية :

ولا نعي بها تمسك المواطن بدينه ، واقامة شعائره ، والحفاظ على تعاليمه ، بل نعي بها التعصب وانكماش اتباع كل مذهب على انفسهم ، والنظر إلى شؤون الوطن من خلال المصلحة الضيقة لتوقعتهم ، ولا شك ان الاستعمار العثماني بذل جهوداً كبيرة لبث الطائفية بين صفوفنا نحن الذين لم نعرفها في تاريخنا الحر ابداً . وقد سار الاستعمار الاوروبي على نهجه ، فحاول ان يبعد أبناء الوطن الواحد ، أبناء الأمة الواحدة ، عن التعاون بنشر الحذر بين المذاهب الدينية ، وإقامة الحواجز وإيفار

صدور المواطنين على بعضهم ، وقد أثر الاستعمار عن هذا الطريق بأن أعاق وحدة الصف الوطني في بعض الاقطار ، واشغلتها بالتخلافات الطائفية المفتعلة ، ليصرفها عن قضايا العرب الحقيقية ، ولكن وعي الشعب العربي لوحده القومية استطاع أن يلهم الاستعمار حجراً حتى في أحلك أيام نفوذه علينا واضطهاده لنا . وليس هذا غريباً على شعبنا الذي هب ابناؤه منذ الازمنة القديمة صفاً واحداً على اختلاف اديانهم لمكافحة الاعداء ، وایام الوثبة العربية في القرون الاولى للهجرة وكفاحنا ضد الصليبين المستعمرين وضد الاستعمار العثماني والاوروبي شواهد كافية على وحدة الشعب العربي وعدم اقامته وزناً للتفرقة الطائفية . ولا شك أن اختلاف نظم الحكم ايضاً وتمسك اتباعها بانظمتهم ساعد على وجود التجزئة ودوامها .

ثالثاً - اختلاف نظم الحكم :

عرفت الاقطار العربية اشكالاً شتى من الحكم ، ايد الاستعمار استمرار اكثرها وان هو سمح بتغييرها احياناً ، فقد يكون السبب اما رغبته في تغيير وجه الحكم أمام الشعب ليسهل عليه خداعه من جديد أو مكرهاً عندما تقوم ثورات شعبية يجد نفسه مجبراً على قبولها انتظاراً لوقت مناسب يمكنه فيه من القضاء عليها على أن يحاصرها ريثما ينتهي منها اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً .

ومن اشكال الحكم الموجودة في الوطن العربي حتى اليوم حكومات ملكية دستورية كشرقي الاردن وليبيا أو هذا ما دون في سجلاتها الرسمية على الأقل ، وحكومات عربية ملكية من غير

دستور ولو ظاهرياً (١) كالمملكة العربية السعودية والمغرب العربي . ولو أن ملك السعودية يعتبر دستوره القرآن الكريم والمبادئ الوهابية ، كما كان يعتبر الحكم الامامي الزيدي دستوره القرآن والمبادئ الزيدية في اليمن قبل قيام الثورة التي أطاحت بحكم الامام البدر عام ١٩٦٢ وانتهجت سبيلاً تقديمياً رئاسياً على المنهج المصري .

وهناك امارات ومشيخات وراثية في الجنوب والخليج العربيين لا تعمل وفق دستور صريح وان كانت التقاليد ورغبات الحكم وقرارات المندوبين الساميين هي التي تحدد اساليب الحكم ، وقد عمدت بريطانيا الى محاولة تجميع لبعض هذه الامارات المحميات تحت ستار الدعوة الى الاتحاد ومنحه استقلالاً ظاهرياً لتشديد قبضتها على المنطقة التي بدأت تستيقظ على واقمها المؤلم الممزق وتطالب بالتححر والاستقلال .

أما عمان فهي امارة ينتخب امامها انتخاباً وفق تقاليد الخوارج (٢) الاباضية . وما تزال الثورة تستعر فيها ضد المستعمر في الجبل الاخضر منذ اعوام . أما الكويت فقد اصبحت امارة ذات دستور منذ عام ١٩٦٢ وانتخب فيها مجلس نيابي من ثلاثين عضواً تطبيقاً للدستور ، وان كان نفوذ العائلة الحاكمة ما يزال اقوى من الدستور المكتوب .

(١) من هذا العالم العربي - لنبهه أدب فارس .

(٢) الخوارج : هم الخارجين على علي بن ابي طالب بعد وقعة صفين وتنازله لماوية عن الخلافة .

أما السودان فقد علقت فيه الحياة الدستورية البرلمانية بعد انقلاب الفريق عبود عام ١٩٥٨ ، وحكم من قبل العسكريين ، الا ان هذا القطر على الرغم من انه ليس ملكياً الا انه لم يعرف بعد رئيساً للجمهورية . ثم قامت الاحزاب عام ١٩٦٤ بعد اعلان ميثاق وطني بانتفاضة على الحكم العسكري فحاصرتة حتى استسلم بعد ان قضى مئات الضحايا لتخرج حكومة احزاب ما تزال تتنازعها العائلية والطائفية وشقى المذاهب السياسية التي يفذيها الاستعمار ، اذ أن الاستعمار لم ينفذ يده بعد بصورة نهائية من السودان، وما اثاره موضوع الجنوب السوداني الا " حلقة في سلسلة الضغط الاستعماري على الحكم الجديد في السودان .

وفي العراق قامت ثورة تموز عام ١٩٥٨ فألغت الدستور الملكي وسنت في حينه دستوراً مؤقتاً قام بمهام رئيس الجمهورية فيه مجلس للسيادة وتحول نموذج الحكم الجديد الى حكم عسكري طغياني بزعامة عبد الكريم قاسم فحاكم من حاكم سوريا وقتل من قتل ، الا ان كفاح الشعب قد اسقط حكم الطغاة في ثورة رمضان الاشتراكية الوحشية عام ١٩٦٢

وأما سورية فقد عرفت الجمهوريات الدستورية منذ عهد طويل ، منها الجمهوريات النيابية والرئاسية الا انها جميعاً كانت جمهوريات تعتمد على حكم الطبقة المستغلة للشعب عن طريق الاقطاع والرأسمالية ، كما كانت خلال الانقلابات المتعددة والتي هي مظهر من مظاهر عدم الاستقرار السياسي الذي كان يدعمه الاستعمار والنفوذ العربي والاجنبي ، كانت

تحكم مدة من الزمن بدون دستور ، الى ان قامت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ فأعطت الحكم ايديولوجية القيادة الجماعية والتنظيم الشعبي المستند الى مبادئ عقائدية تهدف الى تحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية في ارجاء الوطن العربي . ذو دستور مؤقت هو قيد الاعداد النهائية .

وجهورية لبنان دستورية نيابية تعتمد على التوازن الطائفي ، وكما هي العادة تبقى السلطة التنفيذية فيها أقوى من كل برلمان .

أما مصر فقد حكمت منذ الثورة عام ١٩٥٢ التي اطاحت بالحكم الملكي بدستور مؤقت تلاه آخر بنظام جمهوري رئاسي حتى ايام وحدة سورية ومصر ، اذ عدل الدستور ليضم القطرين ولكن بقيت الخطوط العامة فيه هي نفس الخطوط في الدستور المصري قبل الوحدة مع تعديلات اقتضاها الوضع الجديد، ثم بعد جريمة الانفصال طرح الميثاق الوطني واعلن عنه في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ٢١ ايار عام ١٩٦٢ واضحي بمثابة الدستور الذي يحكم به القطر المصري حالياً وبعوجه قام الاتحاد الاشتراكي العربي الذي يضم مختلف القوى الشعبية في القطر المصري على اساس الحزب الواحد . . .

وتحكم تونس التي اصبحت جمهورية رئاسية بعد اقضاء (الباي) منذ عام ٩٥٧ بدستور يعين طريقة الحكم فيها ، ويلعب الحزب الحاكم دوراً كبيراً في سياسة الدولة وهو حزب ذى نهج اشتراكي .

والجزائر منذ ان قامت الثورة فيها عام ١٩٥٤ ضد الاستعمار الفرنسي حكمت عن طريقين ، اولهما السيطرة الفرنسية المباشرة التي كانت تتمثل بالحكام والقادة العسكريين ، الفرنسيين ، وثانيها حكم جبهة التحرير الوطنية

الجزائرية التي انبثق عنها المجلس الوطني ، الجزائري ، ومثلته في حينه الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، ولكن بعد ان وصلت الثورة الى النصر وفي اعقاب المفاوضات التي جرت في مدينة ايفيان السويسرية أعلن استقلال الجزائر نهائياً عن فرنسا ، وقامت الجمهورية الجزائرية الشعبية والديموقراطية عام ١٩٦٢ ووضعت المجلس الوطني الجزائري وجهة التحرير الجزائرية الممثلة بمكتبها السياسي الدستور الحالي الذي يحكم بموجبه القطر الجزائري على اساس الحزب الواحد .

أما موريتانيا فقد فصلت عن المغرب العربي بارادة استعمارية ولم يحدد نظام الحكم فيها بشكل واضح على الرغم من ان اثار العائلية والقبلية هما الوجه البارز لنظام الحكم فيها ، ورغم ادعاء المغرب ان موريتانيا قسم من اراضيه .

ويطيب لنا بهذه المناسبة ان نتذكر حالنا في الماضي لنرى اثره في هذا الواقع السيء ولننشد مع « دعبل الخزاعي » ابياته المشهورة :

تراثٌ بلا قُربى وملكٌ بلا هدى
وحكمٌ بلا شورى بفير هُدَاة

رزايا أرتنا خضرة الافق حمرة
وردت أجاجاً طعم ماء ثورات

وما سهلت تلك المذاهب فيهم
على الناس الا بيعة الفلتات

وهكذا يطالعنا الوضع السياسي العربي بانظمة متباعدة منها الديني
ومنها الجمهوري والملكي والمسكري . . .

وأما الاسباب التي أدت الى هذا الاختلاف فأهمها الاسباب
التالية :

أ - الاستعمار :

فهو الذي يتقدم صفوف اعدائنا ، ويهمه جداً أن توجد حكومات
مختلفة الاسس لكي تتنابد ، ويخشى جمهور كل منها واتباعه والمؤمنون بطريقته
أن يقضى على شيء عزيز لسيهم اذا تحققت الوحدة ، فهو يتدخل الى حد بعيد
في إقامة الحكومات واسقاطها ، ومنع تطويرها ، أو السعي الى تطويرها بخطوات
متفارقة حتى لا يلتقي العرب في صف سياسي واحد .

وليس غريباً عليه أن يؤيد في وقت واحد عائلات مالكة متنازعة
وأن ينشئ عروشاً جديدة يرفع اليها اشخاصاً لم تكن لهم من قبل صفة
الحكام ، وليس غريباً عليه أن يؤيد حكومة جمهورية وملكية في آن
واحد ، دستورية وغير دستورية ليمقي التضارب بين الحكومات العربية وأهدافها
وليعيق سير الوحدة .

ب - العائلات المالكة والحكام :

وأهواء الملوك والحكام ليس لها أثر في التجزئة فقط بل في
اختلاف أنظمة الحكم ، إذ أن الملك متمسك بعرشه ، لا يبيعه برضى
الشعب ومحبيه ، وسائر أنواع الحكام يمولون وكأن انظمتهم خالدة وأبواب
التساهل في أمرها .

ج - التطور الجزأ :

منذ أن فكك المستعمرون وطننا دأبوا على عزل تطور كل قطر

عن تطور الاقطار الأخرى ، وإن الحركة الاجتماعية والسياسية اذا سارت في كل دولة على حدة أعادت قيام الوحدة العربية ، وتؤيد الملاحظة البسيطة وجود هذا التطور القائم على اساس التجزئة ، فتمه أقطار عربية لم تزل في وضع عشائري أقرب الى البداوة ، وأقطار أخرى بدأت تنال قسطاً أوفر من التفتح والوعي ، لقد اصبح المستحيل على بعض الاقطار أن تقبل ولو الى حين حكماً ملكياً ، بينما ما زالت أقطار أخرى تتحمل تحت الحكم الملكي ، وإن لم تثر عليه ثورة جلوفة .

ويسمى الاستعمار جاهداً الى عزل الاقطار العربية عن بعضها في التطور لا من الناحية السياسية فحسب بل من النواحي الأخرى كالاقتصاد والثقافة والعلاقات الاجتماعية . ونعتقد ان هذا العامل خطير جداً من واجبا المبادرة الى إيقافه عن طريق وحدة النضال العربي والعمل العربي . واذا كان شعبنا متصلاً ببعضه دائماً غير معترف بالحدود التي اقامها الاستعمار ، فلا شك أن القوانين تزيد في سرعة هذا الانصال ونشاطه او تحد منه .

د - المذاهب الدينية والاجتماعية :

كان للمذاهب الدينية أثر في قيام بعض أنظمة الحكم العربية ، فتجمع اتباع المذهب الزيدي في اليمن حملهم على اتباع النظام الامامي الوراثي ، ووجود الخوارج في عُمان جعل نظام الحكم في هذا القطر امامياً انتخابياً ، كما ان نظام الحكم في المملكة العربية السعودية يستمد شيئاً من قوته من التفاف اتباع المذاهب الوهابي حوله ، وقد بدأت المذاهب الاجتماعية والاقتصادية تدلي بدلوها في تنويع أنظمة الحكم ، فأنصار الاقتصاد الحر ووجود الرأسمال الفردي يفضلون نظاماً للحكم غير الذي يدين

به الاشتراكيون أو الداعون الى الاقتصاد الموجه ، ولعل قيمة هذه المذاهب ستزاد يوماً بعد يوم .

ومن الواجب والمأمول الا يبقى لاختلاف المذاهب الدينية أثرأ على وحدة العرب أو نظام حكمهم ، كما أن المذاهب الاجتماعية لا تثبت جدارتها للعرب الا اذا تسابقت للعمل على تحقيق وحدتهم .

وان اختلاف نظم الحكم اذ يثبت التجزئة فهو ايضاً يضعف من شأن الدول العربية .

رابعاً - ضعف الدول العربية:

لم تصبح الدول العربية على درجة مرموقة من القوة عسكرياً أو دولياً ، واذا كانت اصواتها في الامم المتحدة عديدة فلعل تمددها من عوامل قلة اهميتها إذ لم تستطع ان تحول دون قرار تقسيم فلسطين ، واعتراف هيئة الامم بدولة المصابات الصهيونية وضمها اليها ، ولم تستطع أن توقف الا مجموعة محدودة من الدول عن تبادل التمثيل السياسي مع اعدائها ، كما ان قلة المتفرين بحكومة الجزائر المؤقتة في حينها تعبر بشكل صارخ عن ضعف دولنا .

وان أكبر الانتصارات التي حققها العرب حتى اليوم قامت على موائد جماهير الشعب العربي التي كانت تغور لا كحكومات ولا كدول ، وانما كعشبة تدفعه قوميته وينظمه حماسه وصفائه .

لقد عجزت عدة دول عربية زحفت جيوشها عام ١٩٤٨ الى فلسطين ، عن تحريرها ، كما أن (اسرائيل) دولة المصابات لم تنكمش حتى الآن شبرأ واحداً عن الحدود التي وصلت اليها اثر كارثة فلسطين .

ولم تجرؤ الحكومات العربية أن تساعد الجزائر بالجيوش النظامية صراحة رغم وضوح انتصارها وتلبية للواجب القومي ، وهذا دليل آخر على ضعفها الدبلوماسي والحربي ، كما انها لم تتدخل صراحة حتى الآن لانقاذ عُمان وبقية الاجزاء المحمية والمستلبة من ارض الوطن العربي .

وللاستعمار اثر كبير في وجود هذا الضعف ، كما أن قلة الدخل القومي العربي رغم عظم الامكانيات الاقتصادية وسوء توزيع هذا الدخل على الاقطار العربية وعلى الفئات الاجتماعية في القطر الواحد ، أهمية في هذا الميدان ، ولا ننسى دور التجزئة والتنافس بين الحكام ، فنحن كالأصابع المتفرقة لم نتجمع في قبضة واحدة قوية .

ومن المؤسف حقاً الا تستطيع الجامعة العربية التي يفترض انها تمثل ٨٦ مليوناً من العرب ، القيام بأي دور حاسم في المجال الدولي وتعجز عن التأثير على الرأي العام العالمي تأثيراً جدياً ودائماً ، ناهيك بعجزها عن التأثير على الحكومات العربية نفسها .

ويساعد عدم الاستقرار على اضماف الدولة العربية ايضاً .

خامساً - عدم الاستقرار السياسي :

الأمة العربية توج كالبركان ، وتصطبغ كالفيضان ، ومن مظاهر اصطلحها قلة استقرار الحكومات وأنظمة الحكم فيها .

زيادة على الثورات السافرة التي قامت وما زالت تقوم في بقاع الوطن العربي ضد الاستعمار وحكوماته المزيفة ، عرفت كثير من الاقطار العربية ، خلال مدة وجيزة عدة دساتير منها الدائم ومنها المؤقت ، ومرت بانقلابات متعددة ، وحتى اليمن لم تحرم من الانقلابات والمنازعات

الداخلية ، واذا كانت بعض الدول العربية تتمتع باستقرار نسبي فهو ظاهري يخفي تحته كثيراً من المنازعات التي لا يعلن عنها ، ومن محاولات تغيير الحكم التي تفشل ولا يذاع خبرها .

ولا نظن أن أي نظام للحكم يستطيع ان يراهن على بقائه طويلاً في أي قطر عربي .

ومن أهم أسباب ضعف الاستقرار ، التباين الكبير الواقع بين آمال الشعب العربي العريضة ورغبته في إقامة حكومات على مستوى هذه الآمال وبين عدم تجاوب الحكومات مع ارادة امتنا ومحاولتها كبسح المد الثوري العربي بدلاً من سيرها في طليعته .

والاستعمار ومؤامراته يدخية وظاهرة في حمل الحكومات على الانحراف ، فتتناقض مع الشعب ، أو في التخلص منها اذا تناقضت معه .

كما أن اختلاف المذاهب الاجتماعية والاقتصادية يساعد على قلة استقرار الحكومات .

ومن الملاحظ أن القوى الحاكمة من وراء الحكومات العربية ليست غالباً دستورية ، فالعدد الجهم من دويلات العرب ما يزال من غير دستور واضح ، كما أن البلدان ذات النظام الدستوري عرفت اشكالات واجتهادات شتى ، في تفسير دساتيرها حسب ارادة القوى المسيطرة من سائر الأنواع .

سادساً - نقطة الشعب العربي السياسية :

وراء هذا الواقع المر ، لحالة العرب السياسية ، والذي تجلي لنا

في الفقرات السابقة ، يتحرك الشعب العربي متمللاً حيناً وثائراً أحياناً ، محاولاً دائماً أن يصل الى وضع سياسي منسجم مع أهدافه وآماله ، فاذا كنا نعلم من الاستعمار فان الاستعمار ايضاً يعانينا ، واذا فرضت التجزئة علينا فوحدة الشعب تدينها في كل يوم وتعمل على التخلص منها الى الأبد . وصحيح أن الدول العربية ضعيفة غير أن الشعب قوي ، وقد سجل انتصارات رائعة منذ فجر نهضته الحديثة في القرن التاسع عشر ، حتى اليوم .

وان كانت أنظمة الحكم عديدة متصارعة فالشعب لا يرضى عن الحكومة الواحدة بدلاً ، ويسام أبناء كل قطر في مناقشة أساليب الحكم في الاقطار الأخرى ، والعمل على إحلال الجيد منها محل السيء ، وان تجل عدم الاستقرار فثعبنا يبحث بجد وتوضيحية عن الاستقرار الذي لا يخدم الاستعمار ولا يجمد النهضة ، بل من الاستقرار الحي القائم على دفع عجلة التطور بانتظام ، وتتبدى لنا وثبة الشعب العربي واندفاعه نحو النظم السياسية المتحررة المتجاوبة معه في كل ما نسمعه من أقوال وما يخوضه العرب من مناقشات وما قاموا به ويقومون من ثورات ومعارك من أجل وحدتهم وتحررهم .

ومن الأمثلة على وثبة العرب ، الحركات الفكرية والثورات المسلحة ضد الاستعمار والحركات السياسية ومحاولات التخلص من الاوضاع الفاسدة .

أ - الحركات الفكرية السياسية :

عملت السنوات الطوال على يقظة العرب من جديد فقد أخذت الجروح التي أحدثتها غزوات التتار والمغول بالشفاء ، وأثرت القرون التي امضاها العرب تحت حكم غيرهم فأبمدتهم عن النفسية الدخيلة عليهم والتي

ابتلاهم بها الترف والبدخ والاعاجم في أواخر أيام العباسيين (١) واستطاعوا بعد أن عرفوا الفقر وذاقوا مرارة الذل ، ان يقارنوا بين ماضيهم المجيد وطبيعتهم الباسلة وبين واقعهم المرير ، فبدأوا يدركون ما أدت اليه التفرة والتمصب من شرور مكنت للغرباء في بلادهم واطمعت فيهم شتى المستعمرين . ومع فجر القرن التاسع عشر ، بصورة خاصة ، أخذ التامل يحل محل الاستسلام والقلق يطرد الاستقرار القائم على الضياع وتساءل شعبنا عن مصيره ، فلا الدولة العثمانية عادت مثله الاعلى وما هو مستعد للذوبان في الاوربيين . وقد ساعدت بعض العوامل الاخرى في إذكاء التفكير السياسي العربي ، اذ انشئت في وطننا بعض المدارس وانتشر التعليم ولو على نطاق محدود ، كما أن عدد السكان في البقاع العربية مال الى السرعة في الزيادة مما دلّ على انبعاث حيوية الشعب العربي من جديد .

وإذا اعتد بعض زعماء المناطق العربية بأنفسهم كأفراد وكعائلات فليس هذا دليلاً على طموحهم الشخصي فحسب بل على شعورهم بأهمية المناطق التي يحكمونها بشكل لم يظهر يوم أن كانت اكثر بقاع الوطن العربي ذائبة في الشخصية العثمانية ، وليس من المعقول أن تأتي الصدفة وحدها بهذا الشعور الى الامراء العرب ، اذ لا بدّ من أن يكون قد تسرب اليهم من فئات الشعب الذي يسوسونه ، فتجاوبوا معه على طريقتهم الخاصة السائدة في تلك الايام والتي كان ينقصها الكثير من الوعي والتجرد .

ومن مظاهر بداية الانبعاث القومي ازدياد اهتمام المثقفين المتخرجين من المساجد او الاديرة بدراسة قواعد اللغة العربية وأدبها والاعتداد

(١) يقظة العرب - جورج انطونيوس .

مميزاتها (١) ، فقد كان ناصيف اليازجي لا يطيب له الحديث الا عن لغة العرب وماضيهم الأدبي ثراً وشمراً ويدعوا طلابه ومجالسيه الى بذل الجهد في سبيل احياء هذه اللغة المحيطة ، واهتم بطرس البستاني باللغة العربية تعليماً وتعليماً كما اهتم بمعالجة المشكلات السياسية فدعا الى نبذ الطائفية والتعصب ، واعتقد أن السبيل الى مكافحتها هو العلم (٢) والعلم باللغة العربية وآدابها بشكل خاص ، ثم قويت حركة الطباغة العربية وبما التفكير السياسي واتجه العرب الى إنشاء الجمعيات وعقد الندوات التي سمعت الى تعميق التفكير السياسي واذكائه . فقد كافتحت الجمعية العلمية السورية المنازعات الطائفية حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، وذكرت العرب بأن الاستعمار يعتبر هذه النزعة معواناً له ، ونظم أحد اعضاء الجمعية وهو ابراهيم اليازجي قصيدته المشهورة « تنهوا وامتنعوا ايها العرب » ، التي كان لها دور طليعي في تنبيه أذهان العرب الى اجادهم وإذكاء الثقة في نفوسهم ودفعهم الى التخلص من نفوذ الترك وسواهم .

كما ان منشورات جمعية بيروت السرية التي قامت عام ١٨٧٥ احدثت صدى عميقاً في نفوس قرائها ، إذ دعت الى حكم الولايات العربية من قبل ابنائها والعناية باللغة العربية والقضاء على المفاسد . . .

وإذا كان جمال الدين الافغاني قد اهتم بالعالم الاسلامي كمجموعة واحدة الا أن آراءه خدمت حركة الوعي السياسي عند العرب إذ نادى هذا المفكر بخليفة ترضى به كل الاجناس الاسلامية على حد سواء والحث على ضرورة الحكم السليم ، مما زاد في تنبه العرب الى المظالم الحكومية التي تقع عليهم .

(١) تاريخ الحركة القومية - عبدالرحمن الرافي .

(٢) يقظة العرب - جورج انطونيوس .

أما عبد الرحمن الكواكبي فقد كانت أفكاره خطوة حاسمة نحو اكتمال الوعي السياسي عند العرب إذ حمل بشدة على استبداد العثمانيين في عهد السلطان عبد الحميد ، وعلى كل استبداد (١) أياً كان مصدره ، ودعم ثقة العرب بأنفسهم وأثار فيهم اصالتهم بما أورده في كتابه أم القرى في بحه للخلافة ، من ان خليفة المسلمين لا يمكن أن يكون إلا عربياً .

وإذا كانت الجمعيات العربية السرية والعلمية (٢) التي قامت بعد انتهاء حكم السلطان عبد الحميد تهتم بالأعمال السياسية الى حد كبير فانها ضمت في الوقت نفسه ، نخبة المثقفين العرب وساهمت مناقشاتها وبياناتها في توضيح معالم الطريق السياسي للعرب . وقد عني المنتدى الادبي بشكل خاص بالابحاث الفكرية السياسية وتوزعت بقية الجمعيات بين واحدة تنادي ببقاء العرب تحت حكم العثمانيين مع ادارة بلادهم من قبل أبنائها بشكل لامركزي ، وبين أخرى تدعو الى وضع الاتين العربية والتركية على قدم المساواة تحت تاج عثماني مزدوج يمثل صراحة ورسمياً العرب والأتراك . وبين ثالثة

(١) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد وأم القرى

(٢) أهم الجمعيات العربية هي :

- ١ - جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥
- ٢ - الاخاء العربي العثماني عام ١٩٠٨
- ٣ - المنتدى الادبي عام ١٩٠٩
- ٤ - الجمعية القحطانية عام ١٩٠٩ ورئيسها عزيز المصري
- ٥ - جمعية العربية الفتاة عام ١٩١١ (في باريس)
- ٦ - حزب اللامركزية الادارية العثماني عام ١٩١٢ (القاهرة)
- ٧ - جمعية الاصلاح البيروتية عام ١٩١٢
- ٨ - جمعية العهد العسكرية عام ١٩١٤ - اسسها عزيز المصري بدلاً من الجمعية القحطانية .

تنادي باستقلال العرب تماماً عن السلطنة العثمانية وابتعادهم عن قبول أي حكم غريب عنهم مهما ادعى لنفسه من اسماء أو اتخذ من صفات . كما رأت بعض هذه الجمعيات أن انقاذ البلاد العربية لا يتم الا بالنضال السري الصلب ورأى بعضها الآخر ان النضال يمكن أن يكون علمياً سافراً ، واعتقدت جمعيات عربية أخرى بأن العمود الفقري لحركة الانقاذ هم العسكريون بينما قبلت اخريات امتزاج العسكريين والمدنيين فيها .

وهذا يدل على مساهمة هذه الجمعيات في تلمس الطريق السياسي الذي يصلح للعرب وفي تنمية الوعي القومي بين صفوفهم .

ومها تعددت آراء تلك الجمعيات فقد كانت متفككة جميعاً على أن الاقطار العربية وحدة قائمة بذاتها ولها شخصيتها وكيانها . ومن واجب المؤرخ الا يتعسف فيحكم على حركات الماضي بمقاييس عصره ، بل عليه أن يكون عادلاً وواقعياً ينظر الى الحوادث السابقة ضمن الظروف التي احاطت بها وقيسها بمستوى الوعي في زمانها ، ومن الامثلة على ذلك أن لقاء العرب في دولة واحدة مع أمة أخرى لا يقبلها الوعي القومي الذي نضج في أيامنا الى حد كبير ، ولكنها في بداية هذا الوعي جدرة بالاعتبار والاحترام اذا قامت على اساس النظرة الى العرب كشخصية متميزة عن بقية الاجزاء المشتركة معها في الدولة الواحدة .

وقد جسدت الثورة العربية التي انطلقت من مكة عام ١٩١٦ انتصار الفكرة القومية الداعية الى الاستقلال التام ، ومن واجبتنا أن نضع هذه الثورة ايضاً ضمن ظروفها ، فاذا كان الاستعمار قد استطاع التفرير ببعض قاداتها نظراً لانخفاض مستوى وعينا يومئذ ، فانها تبقى بلا شك ثورة ارادتها الطلائع العربية لتحقيق امل هذه الأمة في الوحدة والتحرر ،

وهي ليست وليدة هذا الشخص أو ذلك بل ثمرة جهود عديدة تعاونت فيها الجمعيات وذهب في سبيلها الشهداء الذين اعدمهم جمال باشا السفاح في بيروت ودمشق من مسلمين ومسيحيين ، فساهمت دماؤهم في التعجيل بقيام الثورة .

وازدادت حركة التفكير السياسي عند العرب اتساعاً وعمقاً بعد الحرب العالمية الاولى اذ تفتحت عيونهم على مؤامرات المستعمرين وألاعيبهم ، وأصبحت الكتب والمجلات والجرائد ميداناً تتفاعل فيه الافكار محاولة تلمس السبيل لتحرير العرب وتوحيدهم وتبين معالم الحكم الصالح لهم .

وتعد كتب ساطع الحصري ومحاضراته أعمالاً بالغة الاهمية في انضاج الوعي القومي للمواطنين العرب ، كما تكاثر المفكرون المادفون الى نفس الغاية والتعمقون في فهم القومية العربية والنظم السياسية وتقد الواقع المر ومعرفة حاجات الأمة وكيف تصل اليها ، وازدادت الاحزاب وحميت المناقشات وعرف العرب الممارك الانتخابية في كثير من اقطارهم ، وتضاعفت الحركات الفكرية السياسية في الحرب العالمية الثانية وهي ما تزال في نمو مضطرد حتى اصبح المواطن العربي العادي يعتبر أن من حق أمته عليه بذل الكثير من وقته في مناقشة امورها والمساهمة برسم طريقها والتضحية من أجلها .

وليس هذا عجيباً اذ أن الوعي وان ابتدأ بالفكرين الا أنه مستمد من الشعب في أساسه وما دور المفكر الا العمل على بلورة آراء المواطنين وتحليلها وشرحها وايصال كل منها الى الجماهير بسائر الاقطار .

ب - الثورات المسلحة :

اذا كانت ثورات فخر الدين المعني في جبل لبنان والشبابي وظاهر

العمر ومحمد علي الكبير قد اصطبغت بصبغة الاحلام الفردية والعظيمة الشخصية والعائلية إلا أن سرعة غو هذه الثورات وصمودها خلال مدة طويلة من الزمن أمام الدولة العثمانية يدلان على أن الشعب العربي كان يعلق عليها بعض الآمال وان لم يعتبرها مجسمة تماماً لما يهدف اليه .

وقد عرف المغرب العربي مقاومة ضارية للمستعمرين حين احتلالهم لأراضيه فقاد عبدالقادر الجزائري ثورة منظمة أذهلت الغربيين المعتدلين بتنظيمهم وصناعاتهم ولم توقف الثورت أبداً منذ ان وضع الفرنسيون والاسبان والايطاليون والانكليز أرجلهم على أرض المغرب العربي . ومن الثورات المتلاحقة التي عرفتها الجزائر ثورة اولاد سيدي شيخ وثورة لالا فاطمة وحركات أخرى تكاد تكون يومية كان من ابرزها أخيراً مظاهرات / ١٩٤٥ / الدامية ، ثم اجتمعت ثورات الجزائر وطاقة العرب الثورية جميعاً فانتخبث الثورة الجزائرية التي بلغت حد الاعجاز في الاعتماد على النفس والصمود والتنظيم والصلابة .

وقاوم الليبيون العرب احتلال ايطاليا لقطرهم واشترك معهم العرب من سائر الاقطار حتى ان تهاون السلطنة العثمانية في امر الدفاع عن ليبيا ، كان اسوأ الاثر على سمعتها عند العرب وساهم هذا في اسراع العرب بالمطالبة بالاستقلال عنها ، ووثب عمر المختار ورفاقه على الايطاليين فأضعفوا شأنهم وأطاروا ألبانهم حتى جندت ايطاليا كل طاقتها لتتخلص من عمر المختار وثورته المجيدة .

وثار المغاربة في الريف بقيادة عبدالكريم الخطابي فاضطرت اسبانيا وفرنسا الى التعاون ضده صراحة .

وهب الشعب العربي في مصر ضد استبداد الخديوي والدولة العثمانية

وتغلغل النفوذ الاوروبي بزعامة احمد عرابي واستطاع ان يغير من وجه الحكم في مصر ولكن الخديوي والانكليز والعمانيون جمعوا صفوفهم وايدوا الحملة الانكليزية التي ضربت الاسكندرية من البحر وتوغلت في ارض مصر ، فنشبت بينها وبين القوات العربية معركة التل الكبير التي قضت على هذه الثورة ومكنت للاحتلال الانكليزي ، وكان لتآمر المتآمرين وخيانة الخديوي ومنشور التفكير العماني دور حاسم في تدعيم الانكليز .

وقام الشعب العربي في مصر بحركات عديدة ضد الاحتلال ، لمت اثناءها اسماء مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، حتى استطاع ان يجلي الانكليز ويؤمم قناة السويس بمعونة الشعب العربي كله .

واذا كانت ثورة المهدي في السودان قد قامت مكتسبة بالطابع الديني فهي من بعض الوجوه تعبير عن رغبة الشعب العربي في تحقيق تحرره ، إذ أن القطر المصري كان يحكمه الانكليز وباسمه كانوا يحكمون السودان ، فاستطاع المهدي أن يستقل بالسودان وكاد يشب على حكومة الاحتلال في القاهرة .

أما فلسطين فلم يخل يوم من ايامها منذ الانتداب وظهور الحركة الصهيونية من ثورة أو مظاهرة دامية ، يبذل فيها الفلسطينيون والعرب جميعاً ارواحهم في سبيل تحريرها . وعرف التاريخ العربي في سورية والعراق ولبنان صفحات مجيدة من البطولات والتضحيات خلدت ثورة ١٩٢١ في العراق وما تبعها من وثبات ومعركة ميسلون وثورات الغوطة وجبل الدروز وحماه والعلويين وجبل الزاوية ، وصمود محافظة الجزيرة ضد مؤامرة مسلخها عن القطر السوري ، وعدداً وفيراً آخر من الثورات معروف بعضه في كتب التاريخ ، كاضرابات سورية الكثيرة ضد محاولات الفرنسيين وصمود العراق في وجه الانكليز خلال الحرب العالمية الثانية

بثورة رشيد علي الكيلاني ، وتحطيمه لمؤامراتهم ومعاهداتهم واحلافهم بعدها ، وصمود الشعب العربي في سورية ضد مؤامرات المستعمرين التي كانت تستهدف ربط هذا القطر بعجلة الاحلاف الاستعمارية وطرده الشعب العربي في الاردن للجنرال غلوب ووقوفه بصلابة ضد حلف بغداد .

اما الجزيرة العربية فقد كانت وما تزال مرجلاً يغلي بالعضب والثورة على المستعمرين والاضاع الفاسدة ، فقد تخلص اليمينيون من الاستعمار العثماني وقطعوا كل الايدي الاجنبية التي امتدت اليهم ، وفي الجنوب العربي تستمر الثورات اليوم في عدن وتقف عمان مثلاً لأهداف الخليج العربي في التحرر من الاستعمار وعملائه .

أما الثورة العربية التي انطلقت في مكة عام ١٩١٦ فهي من الثورات العربية العامة التي بنى عليها شعبنا آماله وكان يسعى عن طريقها الى التحرر من العثمانيين دون الوقوع في ايدي المستعمرين الجدد ، والى اقامة الحكم العربي الموحد، إلا انها لم تبلغ الغاية التي ارادها العرب لها ، بل بلغت الغاية التي خطتها الاستعمار في معاهد سايكس بيكو عام ١٩١٦ .

ونستنتج مما تقدم ان الملامح السياسية متشابهة في الوطن العربي فنحن جميعاً نماني من الاستعمار ظاهراً ومقنعاً وتصيننا التجزئة بأفدح الاضرار وببذل الجهد للتخلص من المطامع الفردية والمائلية ، ولا يوجد مظهر سياسي إلا وتشترك فيه الاقطار العربية جميعاً واذا وجدت بعض الفروق في تكوين الحكومات بين ملكية وجمهورية رئاسية وجمهورية نيابية وعسكرية ومدنية فان الاختلاف ظاهري إذ يظل عدم الاستقرار وسيطرة القوى التنفيذية والطبقة واضحة كل الوضوح ، وظاهرة التوثب هي الوجه الرئيسي الآن للوضع السياسي العربي واذا كانت التجزئة والاستعمار وعدم الاستقرار والضعف ادلة على وحدة

آلامنا فان ثوراتنا ونضالنا وتضحياتنا ادلة على وحدة آمالنا ومصيرنا واندفاعنا نحو غايات واحدة .

ونستطيع القول ان العرب لم يعرفوا ثورات متعددة بل يرون في ثورة واحدة كبيرة مستمرة منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم تظهر في هذا القطر لتساهم فيها بقية الاقطار ثم تنتقل الى جبهة أخرى وهكذا وستظل هذه الثورة قائمة الى أن يتحقق أمل العرب في انشاء دولتهم الواحدة البعيدة عن نفوذ المستعمرين ومطامعهم والحصينة ضد مؤامراتهم الى أن يطرد آخر مستعمر صهيونياً كان أم فرنسياً أم انكليزياً ... والى أن يزال آخر حد من الحدود المصطنعة .

ولا شك أن هذه الثورة العربية الواسعة قد بدأت تفرض وجودها وما لجوء المستعمرين الى الاختفاء وراء المؤامرات وخوفهم من الظهور سافرين أمام العرب الا تعبير عن فرض الوثبة العربية هيتها الى حد كبير على اعدائها .

ومن الملاحظ ايضاً أن الملامح العامة للوضع السياسي العربي متداخلة تؤثر على بعضها البعض ، فالاستعمار يدعم التجزئة وهي بدورها من عوامل بقائه ، والضعف يطمع الاستعمار ويبقى التجزئة كما انها من اسباب وجوده واستمراره ، وهكذا في بقية الملامح، وتقف الوثبة العربية الموحدة في مقابل سائر الثغرات ونقاط الضعف محاولة ان تنهها وأن تقلب وجه السياسة العربية وتحيلها الى عامل دفع للقوى العربية بدلاً من أن تكون حجرة عثرة في مسيلها .

الفصل الخامس

- الأوضاع الاقتصادية -

- تمهيد -

يعتبر الاقتصاد العمود الفقري للتقدم والقوة ، فاذا ما امتلكت أمة موارد للثروة فترة واحسنت استخدامها ، واستمدت دخلاً قومياً كبيراً عدلت في توزيعه فانها تستطيع ان تحمي نفسها من الطامعين ، وتسترد اجزاءها السليمة وترفع المستوى الصحي والمعاشي لابنائها وتمكن من أن تجدد اعمالاً للزيادة المتوقعة في سكانها ، وتزداد قدرتها على افتتاح المدارس وتخرج المختصين ، وتقضي على الامية بين ظهرانها .

ومن الطبيعي أن نقر بأن المادة كانت أحد عوامل قيام الحضارات ، لذلك كانت دراسة الأوضاع الاقتصادية في أي مجتمع من المجتمعات - بما يفترضه الاقتصاد من تنظيم - دراسة اساسية شاملة ، تشير لدى الباحثين بمجموع مشكلات ذلك المجتمع .

ونحن على الرغم من أننا لا نقر بوجهة انصار المذهب المادي الذين اعتبروا ان البنى العليا وحتى السلوك والتفكير هي نتاج للبنى الدنيا الناجمة عن الانتاج وطرقه ، الا انه لا يسعنا الا ان نعترف بأن

تاريخ البشرية تأثر قليلاً بالعوامل الانتاجية (الادوات والآلات) منذ انسان ما قبل التاريخ . فمع التقدم التقني كانت الأفكار تتأثر بهذا التقدم ، وتبدل تدريجياً مع تبدل الوسائل المستعملة في الانتاج ، حتى ان الافكار التي دعت الناس الى الحرية والعدالة كانت في بعض مظاهرها اثراً من الثورة الصناعية التي كتلت الطبقة العاملة فهبت تطالب بحقوقها وبالعدل الاجتماعي .

ومع المشكلات التي اثارها الثورة الصناعية ، بدأت تظهر أمور شديدة الحدة ، من مثل ظهور الصراع الطبقي في المناطق الرأسمالية وكذلك مطالبة المناطق المستعمرة بالتححرر الاقتصادي والسياسي .

وأمام ضغط كهذا سارع الرأسمال الذكي الى اصدار تشريعات اجتماعية كانت في اصلها تهديئة لخطط الطبقة العمالية ، كما سارع الاستعمار الى منح بعض المناطق المستعمرة استقلالاً ظاهرياً خادعاً معتمداً في فرضه على عملائه .

ومما تقدم يتبين لنا أن للاقتصاد أثره على جميع المظاهر الاجتماعية ، سواء منها الفكر أو النُحلة أو السياسة وعلى الخصوص علاقة الانسان بأخيه ، هذه العلاقة تبدلت في مجتمع القرن العشرين لتصبح علاقات احترام متبادل بعد أن كانت علاقة السيد والمسود والمستعمر بالمستعمر .

أما نحن العرب ، فان تحررنا التام من الاستعمار والامبريالية (١) بكافة صوره القديمة والحديثة ، ووجدتنا التي يعيش على أمل تحقيقها بجوع شعبنا العربي ، فننتظر أن يسهم الاقتصاد العربي في تحقيقها لايماننا

(١) الامبريالية هي السيطرة التي تفرضها الدول العظمى على الدول المستعمرة أو شبه المستعمرة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية .

بأن لهذا الاقتصاد تأثيره الكبير على قضايانا الاساسية في الحرية والوحدة ،
وأن أقى العقبات التي تبدو في طريقها لتزول اذا حلت المشكلات الاقتصادية
التي تعترض مسيلهما .

هذا وان أم مظاهر الاقتصاد العربي في رأينا هي كونه اقتصاد ،
متخلف ، تابع ، مجزأ ...

وسنعرض في هذا البحث الى هذه المظاهر ثم نتعرف على نتائجها ،
النعمد بمدها الى دراسة علاج التخلف وتبيان الحلول المختلفة لبلوغ التنمية
الاقتصادية .

١ - تخلف الاقتصاد العربي

لقد اضحى التخلف الاقتصادي من مشكلات الساعة التي كثر حولها الجدل في قرننا هذا ، لرفع مستوى المجتمعات المتخلفة التي دعيت باسم المجتمعات النامية under developed Countries .

ولقد دات دراسات الامم المتحدة في مختلف الميادين على أن المجتمع العربي هو من بين المجتمعات المتخلفة أو من مجتمعات العالم الثالث . Third - World

ويتجلى لنا تخلفه هذا في المشاكل السكانية والاقتصادية والسياسية .

اولاً - المشكلة السكانية :

لقد سبق لنا ان بحثنا في اوضاع السكان في المجتمع العربي وتبين لنا بأن مجتمنا هذا يعتبر من بين الشعوب الفتية بل من اكثر شعوب العالم خصوبة .

والمجتمعات عموماً يمكن ان تقسم الى مجتمعات شديدة الخصب ومعتدلة وضييفة (١) .

فالمجتمعات الكثيرة التوالد أو ما يدعى بالشديدة الخصوبة هي تلك

(١) راجع بحثنا في الاوضاع البشرية .

المجتمعات التي يزيد فيها سنوياً عدد المواليد عن (١٠٠) مولود لكل (١٠٠٠) امرأة في سن الخصب .

والقطر المصري كمجموع الوطن العربي هو من أكثر المجتمعات العالمية خصباً ، إذ بلغ معدل الخصوبة في هذا القطر عام ١٩٣٧ ،
م . خ = ١٨٠

هذا مع العلم بأن كل مصرية تلد وسطياً ستة ولادات خلال حياتها
الخصبة (ذكور واثان) .

أما معدل الولادات عموماً فقد بلغ في هذا القطر (٤٥) بالآلف
وفي سوريا (٤٠) بالآلف وسطياً ، وهذا المعدل يتجاوز نسبة ٣٠ بالآلف في
سائر الاقطار العربية مما يجعل المجتمع العربي من المجتمعات الكثيرة الولادات ، الا
ان الوفيات تجزىء من هذه الولادات فتكون نسبة التزايد أكثر من (٢٠)
بالآلف وسطياً .

ويؤثر هذا التزايد الكبير تأثيراً حاداً وخطيراً على موارد الوطن العربي
وعلى تجارته الخارجية وكذلك على مشروعات التنمية الاقتصادية منه ، وذلك لأن
موارده لا تنمو بنسبة تزيد سكانه مما يؤثر على المستوى المعاشي ويحمله ينخفض
باطراد ، وكذلك فان كثرة الافواه التي تحتاج الى طعام ولباس ومسكن ،
تجمل كميات المواد الاولية التي تصدر تدني بسبب استهلاكها محلياً ، كما ان
العدد المتزايد من السكان يلتهم نسبة كبيرة من الموارد الاقتصادية ومن التنمية
الاقتصادية ، لذلك كانت هناك ضرورة قصوى - للذين يعالجون موضوع التنمية
الاقتصادية - الى ربط التخطيط السكاني بالتخطيط للتنمية الاقتصادية .

ثانياً - المشكلات الاقتصادية :

لقد تبني الاقتصاديون بعض المقاييس لتحديد هوية المجتمعات ودرجة

تطورها ، إلا أن أهم المقاييس التي اعتمدت للتعرف على هوية المجتمعات المختلفة هي :

- ١ - انخفاض متوسط الدخل الفردي .
- ٢ - سيطرة القطاع الزراعي على سائر القطاعات الأخرى كقطاع الصناعي وقطاع الخدمات .
- ٣ - ضعف المستوى الفني .

١ - انخفاض متوسط دخل الفرد :

ان متوسط الدخل الفردي هو حاصل قسمة مجموع الدخل القومي في سنة ما على السكان وهو يحسب وفق المعادلة الآتية :

$$\text{م د ف} = \frac{\text{د}}{\text{س}}$$

حيث ترمز (م د ف) الى متوسط دخل الفرد ، و (د) الى الدخل القومي و (س) الى عدد السكان . وهذا الدخل عموماً يتناسب عكساً مع مجموع السكان وطرداً مع الدخل القومي ، وبمعنى آخر ان متوسط الدخل الفردي يتدنى مع ازدياد السكان اذا ثبت الدخل القومي ، ويرتفع مع زيادة الدخل القومي اذا بقي عدد السكان ثابتاً والا لامتص العدد المتزايد تزايد الدخل القومي ، اذ قد يبقى الدخل دون زيادة ، اذا لم ينخفض .

ولقد حددت احصاءات الامم المتحدة عن الدخول الفردية المجتمعات المختلفة بأنها تلك التي لا يتجاوز فيها متوسط دخل الفرد الـ (٢٥٠) دولاراً

في السنة ، كما بينت ان مجموع الدخل القومي للوطن العربي لا يتجاوز ١٦٥٪ من مجموع الدخل القومي لجميع بلاد العالم ، بحيث ان المدخول الوسطي للفرد العربي لا يتجاوز بحال من الاحوال الـ (١٥٠) دولاراً مما يجعل جميع اقطار الوطن العربي تعتبر من المناطق المتخلفة اقتصادياً وهذا ما يوضحه الجدول المقارن التالي :

جدول متوسط الدخل الفردي السنوي بالدولار (١)

درجة التطور	متوسط الدخل الفردي	الدولة	درجة التطور	متوسط الدخل الفردي	الدولة
الدول المتقدمة	٢٠٢	الجزائر	الدول المصنعة	٢٢٣٧	الولايات المتحدة
	١٧٢	تركيا		١٥٨١	كندا
	١٥٠	سوريا		١٢١١	اوستراليا
	١٥٠	تونس		١٠٣٢	بريطانيا
	١٤٠	ج.ع المتحدة		٩٢٧	بلجيكا
	٧٠	الكونغو		٨٨٣	فرنسا
	٦٤	الهند		٨٧٣	المانيا الغربية
	٦٢	اندونيسيا		٧١٩	الاتحاد السوفياتي
	٥٢	الباكستان	الدول المتوسطة النمو	٤٧٢	ايطاليا
	٥٠	السعودية		٣٤٠	كوبا
	٥٠	اليمن		٢٩١	اليابان
				٢٦٩	امبانيا
				٢٦٧	لبنان

(١) ان متوسط الدخل الفردي ليس معياراً سياسياً بل هو معيار تقريبي بسبب وجود طبقات موسرة ومتوسطة وفقيرة لاتتماثل في مداخيلها، الا ان الرقم المعطى هو رقم احصائي استدلالي فحسب .

٢ - سيطرة القطاع الزراعي :

لايضاح م-كأنه احد القطاعات الاقتصادية يجب علينا ان نتبين اهميته من حيث نسبة اسهامه في الدخل القومي ، ومن حيث عدد العاملين فيه .

فمن ناحية اهم القطاع الزراعي في الدخل القومي العربي نجد أن نصيب الزراعة في هذا الدخل يتراوح بين ٣٠ - ٤٠ ٪ في جميع الاقطار العربية .

والجدول التالي يوضح ما تقدم .

جدول يبين نسبة الدخل الزراعي (١)

نسبة الدخل الزراعي الى مجموع الدخل	القطر	السنة
٪٤٥	السوري	١٩٥٧
٪٣٢	المصري	١٩٦٠
٪٢٩	الجزائري	١٩٥٣
٪٣٤	المغربي	١٩٥٨
٪٤٠	الاردني	١٩٥٧

أما عن نسبة العاملين في القطاع الزراعي ، فقد تتجاوز ثلثي مجموع القوى العاملة .

والجدول التالي يوضح ما نقصد :

(١) الأرقام المعطاة هي الأرقام التي أمكننا الحصول عليها .

جدول يبين نسبة العاملين في القطاع الزراعي (١)

القطر	القطاع الزراعي	القطاع الصناعي	قطاع الخدمات
السوري	٪٦٠	٪١٧	٪٢٣
المصري	٪٦٥	٪١٣	٪٢٢
العراقي	٪٧٧	٪١٣	٪١٠
الليبناني	٪٥٠	٪١٥	٪٣٥ (٢)

الا ان ما تقدم من ارقام لا يمكن له ان يبين لنا وضع فلاحنا المتأخر بالنسبة الى فلاحى البلاد المتقدمة .

ففى امريكا الشمالية ينتج الفلاح سنوياً اكثر من خمسة اطنان من الحبوب ، مما يسمح له باعالة (١٥) شخصاً ، وكذلك فان الفلاح الاوروبى ينتج اكثر من طن واحد من الحبوب وذلك بسبب ضيق رقعة الارض التي يعمل بها وطول استخدامها مما يضعف انتاجها ، بينما نجد ان الفلاح فى البلاد المتخلفة لا يتجاوز انتاجه نصف طن اذا لم يقل عن ذلك ، وهذا يدل على ضعف كفايته ومردود عمله ، وذلك بسبب قدم الوسائل التي يستعملها وضعف تدريبه على الطرق الزراعية الحديثة ، كاستخدام الدورات (٣) الزراعية وامتعمال الاسمدة والمبيدات

- (١) علماً ان الصادرات الزراعية قد تصل الى ٠.٩٠٪ من مجموع الصادرات .
 (٢) ارتفاع نسبة العاملين في قطاع الخدمات في لبنان اسبابه السياحة والاصطياف .
 (٣) راجع بحثنا عن تخلف الزراعة في القطر السوري واسبابها - في كتابنا مطالعات في المجتمع الريفي - مقربل وعقاد - منشورات جامعة حلب / ١٩٦٤ .

وتخلفه في تبني الآلات الزراعية واعتماده على الطرق البدائية في الري . . .
وكل ذلك يعود الى عدم توفر الأطر العليا في الزراعة التي يقع على عاتقها
الارشاد والتدريب .

ومن مظاهر تخلف الفلاح في الوطن العربي ايضاً ان متوسط
انتاجه من المواد الغذائية - مثله كمثل فلاح العالم الثالث عموماً - لم
يسجل الا تقدماً طفيفاً خلال الاعوام الماضية ، بينما قفز انتاج فلاح
البلاد المتقدمة قفزات قوية ، مما أسهم في توسيع الشقة وساعد على
ازدياد الفروق في مقدار التطور بين الزمرتين ، وهذا يظمر - واضحاً
من نصيب الفرد من الغذاء الذي يختلف اختلافاً كبيراً بين البلاد المتقدمة
والبلاد المتخلفة ، علماً ان متوسط الحريات التي يحتاج اليها الانسان
للابقاء على حياته تبلغ / ٢٥٠٠ / حريرة (كالوري) في اليوم ، كما
ان نسبة البروتين التي يحتاجها لا تقل عن ٣٠ غراماً ، ومتوسط الحريات
متوفر للانسان العربي احصائياً ، بينما لا تزيد نسبة البروتين التي يتناولها
في احسن اقطاره عن ٢٠ غراماً في اليوم الواحد ، بينما تتدنى حتى تصل عشر
غرامات في اغلب اقطار الوطن العربي .

وفي الجدول التالي ما يبين اختلاف ما يتناوله الفرد في المجتمعات المختلفة .

جدول بالحريات واللحوم المستهلكة من كل فرد حسب منشورات
منظمة الزراعة والتغذية الدولية (F. A. O)

الدول	كمية الحريات في اللحوم	كمية اللحوم في اليوم
العالم الثالث	٢١٠٠	٥٠
المجتمعات في اول مراحل النمو	٢٦٥٠	٧٧
المجتمعات المتقدمة	٣٠٥٠	٨٧

ولقد دفع ما تقدم احد الاقتصاديين الى تقسيم المجتمعات الى فئتين :
« فئة تأكل ولا تنام ، وفئة تنام ولا تأكل فهي جائعة ، الا ان العاقبة ستكون
وخيمة عند استيقاظها وثورتها ، (١) .

وتبين احصاءات الامم المتحدة على أن ١٦٪ من سكان العالم يتمتعون
بـ ٧٠٪ من الدخل العالمي ، بينما يعيش ٥٤٪ من سكان العالم على دخل قدره
٠.٩٪ من الدخل العالمي ، ولكن ما هي نسبة المالكين الفعليين لهذه الـ ٠.٧٠٪ ؟

لقد كان ٠.٦٪ فقط من سكان القطر المصري قبل ثورة عام ١٩٥٢
يتملكون ٠.٦٤١٥٪ من مجموع الارض الزراعية ، بينما كان ٠.٩٤٪ من السكان
لا يتملكون الا ٠.٣٥١٥٪ من هذه الارض ، ولكن ما هو عدد المالكين
الفعليين ؟

الا ان سؤالاً يمرض لنا الان وهو ما نسبة اسهام كل قطاع من
القطاعات الاقتصادية في هذا الدخل العالمي ، وما هي الدلائل التي يستدل منها على
اوضاع تلك المجتمعات ، ان الجدول التالي يوضح هذا التساؤل :

جدول يبين اسهام كل قطاع في الدخل العالمي (٢)

مدى التطور	متوسط دخل الفرد	نسبة الممل في القطاع الزراعي	نسبة العمل في بقية القطاعات
المجتمعات المتقدمة	٧٥٠	٠.٣٠	٠.٧٠
في اول مراحل النمو	٣٥٠	٠.٥٠	٠.٥٠
المتخلفة	١٥٠	٠.٧	٠.٣٠

(١) جوزيه دي كاسترو « Geopolitique de la faim »

(٢) هارثورن : وضع التنمية الاقتصادية - نيويورك ١٩٥٩ .

يتبين من الجدول السابق أولاً - ان المعيار الذي يميز بين المجتمعات انما هو معيار التصنيع ، اذ يزداد تقدم المجتمع مع ازدياد التصنيع ، وعلى العكس فان سيطرة القطاع الزراعي على الدخل وعلى طبيعة العمل في مجتمع من المجتمعات يعتبر ظاهرة من ظواهر التخلف (١) ، فاذا بلغ اسهام القطاع الزراعي في الاقتصاد والدخـ القومي اكثر من ٥٠٪. دل ذلك بوضوح على التخلف، وهذا ينطبق ولا شك على الوطن العربي، علماً بأن المردود الزراعي الذي نحصل عليه لا يصل الى نصف مردود الزراعة في المجتمعات المتقدمة .

ثالثاً - ضعف المستوى الفني :

من خصائص الدول المتخلفة ندوة وضعف الاطر العليا الاختصاصية وتسربها ، إذ تشير الاحصاءات عموماً الى ضعف نسبة المتعلمين من السكان عامة والفنيين خاصة ، كما انها تشير الى انعدام خطة يسير الاختصاص والتعليم العالي حسبها .

ولو عدنا الى نسبة الامية مثلاً فاننا نجد انها شديدة الارتفاع في المجتمعات المتخلفة ، حتى انها لتصل الى اكثر من نصف عدد السكان ، والوطن العربي (٢) مثل رائع على هذا التخلف ، اذ تتراوح نسبة الاميين بين ٦٠ - ٩٠٪. وتكون بين الاناث اكثر منها بين الذكور ، وفي القرى اكثر من المدن وبين طبقة العمال اكثر من طبقة الموظفين والاعنياء .

(١) لا يمكن لنا تعميم هذا القول ، اذ ان هناك بعض المجتمعات التي يسيطر فيها القطاع الزراعي على غيره دون ان تعتبر من البلاد المتخلفة كالدانمارك واستراليا ...

(٢) راجع بحثنا في الاوضاع الثقافية - مسألة الامية .

والأمية كما هو معلوم أقل مردوداً وكسباً من المتعلم عامة ، كما أنه عرضة للتقلب بين الاعمال المختلفة ، دون ان يتوصل الى الاستقرار ، كما أن الازمات تصيب أول ما تصيب الأمية ، فيقع بين برائن البطالة ومشاكلها .

وفقدان الاطر العليا أو ضعفها حلقة ذات صلة وثيقة بالحلقات التي الحفا اليها ، فالتعليم الجامعي الفني لا تتعدى نسبته ١٠ - ١٥ ٪ من مجموع عدد الجامعيين عموماً والسبب في ذلك يعود في رأينا الى انعدام خطة سير وفقها التعليم العالي - في هذه البلاد - هذه الخطة التي يجب أن تستمد من خطة التنمية الاقتصادية ذاتها ، إذ لو رغبتنا في إنشاء عدد من الصناعات خـلال خمس سنوات مقبلة ، وجب على الخطة التعليمية ان تدعم الخطة الاقتصادية بتكوين الاطر اللازمة لهذه المصانع سلفاً .

وان الامر لا يقتصر في البلاد المتخلفة على نقص في الاطر العليا فحسب بل انه ليبدو واضحاً أيضاً في انعدام الاطر المتوسطة (الكادر الاوسط) الذي يدير هذه المصانع تحت اشراف الاطر العليا ووفق مخطط علمي مدروس .

كما ان اهمال وضع الانسان المناسب في المكان المناسب نقطة جوهرية بارزة في المجتمعات المتخلفة ، لذلك وجب الاعتماد على التوجيه المهني Professional Guidance الذي يرفض فكرة صلاحية الفرد لكل الاعمال ، ويعتق فكرة وجود فروق فردية بين الناس تجعل احدهم اكثر كفاءة في عمل من الاعمال من فرد آخر بسبب توفر خصائص جسمية ونفسية فيه لا تتوفر للفرد الآخر ، والتوجيه المهني عموماً يحاول وقاية الافراد من الازمات الاقتصادية وما ينتجم عنها من بطالة ويجعلهم اكثر كفاية ورضا في عملهم الذي يمارسونه لانه يهدف الى تمكينهم من استغلال امكانياتهم على أحسن وجه .

ومما تقدم يتبين لنا ان حصر القوى البشرية والاستفادة منها بصورة فعالة يعتبران شرطين اساسيين في كل محاولة للتنمية الاقتصادية ، وان اهمال هذا الجانب يعرض اية خطة للفشل مهما كانت مدعومة بالوسائل المادية ، وذلك لأن الانسان عنصر اساسي في الانتاج لا يمكنه ان يحقق دونه أي مشروع . ويتضح لنا ضعف المستوى الفني في وطننا العربي ونقصان الاطر اللازمة للتنمية لو نحن حاولنا فقط ان نعدد الاختصاصات الادبية المتوفرة ، ونقص الاختصاصات العلمية والفنية .

فاذا رغبتنا ان نعد الاطر اللازمة لخطة مقبلة وجب علينا ان نلجأ الى احدى الوسيلتين التاليتين :

أ - فعلى الصعيد القطري يمكن ان نتعرف على ما تحتاجه خطط التنمية القطرية من اخصائين لنعتمد الى اعدادهم منذ اليوم ، رغم قناعتنا ان اية خطة اقليمية للتنمية ستكون معرضة للفشل بسبب محدودية الاطار الذي تعمل فيه وان الخطط القطرية يجب ان تنبثق عن خطة للتنمية على المستوى القومي طالما ان هدف العرب جميعهم هو الوحدة ، ويكون ذلك باستدعاء الفنيين - في حالة عدم وجودهم - من البلاد الاجنبية للقيام بالتدريب وفق حاجات مجتمعنا العربي .

ب - وعلى الصعيد العربي ، يمكن اللجوء الى استدرار الخبرات من الاقطار العربية الاكثر خبرة واللجوء الى ايفاد البعثات الى الخارج في حالة عدم توفر بعضها .

ونحن نفضل دوماً لو تتمكن من التعاون على الصعيد العربي في هذين المضامين لما لذلك من فائدة كبرى على القضية القومية .

وختاماً لما تقدم نتبين ان الاقتصاد العربي اقتصاد متخلف بسبب

زيادة السكان التي تمتص كل محاولة للتنمية ، مما يجعل الدخل الفردي والقومي شديد الانخفاض ، وكذلك بسبب سيطرة القطاع الزراعي على الحياة واعتماده على محصول واحد مما يجعل المشكلة أشد وطأة في حالة اصابته بالآفات (١) ثم لاعتماد الفلاح على ماء السماء ، وعدم وجود محاولات جدية للاستفادة من الأنهار والينابيع بإنشاء السدود وشبكات الري الا في بعض الاقطار العربية واخيراً لفقدان الاطر الفنية اللازمة للنهوض بجميع الاوضاع الاقتصادية .

(١) ان ما تعرض له محصول القطن المصري عام ١٩٦١ خير دليل على ذلك .

٢ - تبعية الاقتصاد العربي

التبعية الاقتصادية بمعناها الواسع صفة ملازمة لاقتصاد كافة الاقطار العربية وان العصر الذي نعيش فيه يتميز بتطورات سريعة غايتها تبديل الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لينقل هذه الاوضاع من حالة التخلف الى مستوى الانتصارات التي احرزتها الحضارة العالمية الحديثة .

ولقد سبق ان عاشت امتنا العربية قمة الحضارة الانسانية ، كما عاشت فترة انحطاط جثم فيها التخلف على كاهلها فران عليها الجهل والركود ، وغطت في نوم عميق في حين كانت الانسانية تحطو خطوات جبارة في عصر النهضة الاوروبية والثورة الصناعية .

ولقد ذاقنا مرارة الاستعمار بأعنف صورته وانكاله ما يزيد على اربعة قرون ، استعماراً عثمانياً ثم غربياً اثر اتفاقية سايبس-بيكو عام ١٩١٦ ، وناضل العرب في كافة اقطارهم هذين الاستعماريين بعد ان استفاقوا نتيجة احتكاك طليعتهم المثقفة مع الغرب واطلاعها على منجزاته ، فأخذوا ينفضون عن كاهلهم غبار التخلف والاستعمار ، فاستقلت دولهم الواحدة تلو الاخرى سياسياً ونالت حريتها بعد نضال كلفها الدم كضريبة للحرية ، الا ان الحدود المصطنعة التي اوجدها الاستعمار لم تزل بعد رغم الجهود الكبيرة المبذولة حتى اليوم .

ولقد كان حكم الاجنبي مباشراً حيناً ومقنعاً في حين آخر تحت ستار ما اسمي بالوصاية والانتداب ، وكان لهذا الحكم آثار على الاقتصاد العربي ، سلبية تارة وإيجابية تارة أخرى .

فلقد امتنع الاستعمار من الناحية السلبية عن القيام بأعمال التنمية الاقتصادية والاجتماعية والاصلاحيات الاجتماعية الضرورية ، فربط وطننا به كمورد للمواد الاولية ، وجعله سوقاً مفتوحة لبضاعته وصناعاته . يشترى منا المادة الاولية بسعر الذي يحدده ويبيعنا منتجاته وبالسعر الذي الذي يفرضه ، دون أن يهتم جدياً الى استغلال ثرواتب الدفينة الا في الحدود التي تشبع حاجات صناعاته ، فبقي البترول والحديد والفوسفات وبقية المعادن الاخرى داخل الارض حتى امد قريب دين ان نستفيد منها كما اهمل اعمال الاصلاح في مجال المواصلات والسدود والمرافق العامة الا في الحدود الضرورية للاستراتيجية العسكرية .

ولقد بذل الاستعمار جهداً كبيراً لئلا الاستقلال ليقينا ذوي صناعة خفيفة استهلاكية ، واخذ يحاول ايهامنا بمد صلاحية بلادنا لاقامة صناعة كبرى بالتركيز على ان اقتصادنا لا يمكن ان يكون الا زراعياً ، وجهد في عدم اتاحة الفرصة امامنا لاقامة صناعة ثقيلة ، أو صناعات انتاجية يمكن بواسطتها رفع الدخل القومي بصورة محسوسة وذلك عن طريق مفاسته لصناعتنا الناشئة وخلق صناعات متنافسة متائلة في اقطار الوطن العربي احياءاً ، لخلق التناقضات الاقتصادية بين اقطار الوطن العربي ليقبي عليه تجزئته ويمنعه من التقدم والقوة .

وإذا كان التحرر الاقتصادي والاكتفاء الذاتي وهو مطلب اساسي من مطالب قوميتنا ، مثلاً اعلى يصعب تحقيقه كاملاً لكون الاقتصاد

العالمي وحدة متكاملة يتجلى فيها التعاون العالمي بين مختلف القوميات ، هذا التعاون الذي تفرضه الضرورات ، فان الوطن العربي ما زال يخضع للاحتكارات العالمية وللضغط السياسي في مختلف مشروعات التنمية ، وخير مثال على ذلك مشكلة السد العالي في مصر وتمويل مشروع سد الفرات في القطر السوري ، إذ بقيت مفاوضات تمويل السد العالي تتعثر حتى عام ١٩٥٥ حين احجم الانكليز والامريكان عن تمويل المشروع رغبة منهم في ابقاء العربي المصري في وضع متخلف تابع لهم اقتصادياً ، الا ان الضغط لم يود الا الى نتائج عكسية كان من نتائجها تبديل في الاستراتيجية ودخول الاتحاد السوفياتي كمحول للمشروع بدون قيد أو شرط وبفائدة ضئيلة .

وكذلك فقد ناور الالمان ووعدوا ثم انسحبوا من تمويل مشروع الفرات بعد ان لم يجدوا لطمهم بترول القطر السوري طريقاً .

كما ان ارتباط نقدنا في الوطن العربي بمناطق النفوذ الاجنبي يجعل ماليتنا تحت رحمة المستعمرين القدامى والجدد وتسمح لهم بالتلاعب باسماره كما يشتهون وحسب مصالحهم ، إذ يخفضون سعر هذه العملات عندما يستوردون منا ويرفعونها استيرادنا لبضائعهم ومنتجاتهم المصنوعة .

ولقد خطت بعض الاقطار العربية خطوات حاسمة في هذا السبيل ، فحررت نقدها من التبعية وامست مصارف الاصدار المستقلة كما هو الحال في القطر السوري والمصري ، متخلصه بذلك من التلاعب والمضاربات .

وتتبدى التبعية ايضاً في التثمين الاجنبي ، إذ يثمر الاجانب رؤوس اموالهم في مختلف البلاد العربية ، وان فرنسا وبريطانيا تثمر القسم الاكبر

من رأس المال الاجنبي الموجود في الوطن العربي ، كما ان الولايات المتحدة قد دخلت عقب الحرب الثانية سوق التثمين وحصلت على نصف التثمينات الاجنبية المباشرة في هذا الوطن ، وان القسم الاكبر من هذه التثمينات يستغل في صناعة استخراج البترول ونقله ، مع العلم ان الاستثمارات البترولية ضعيفة الاثر في الوطن العربي لانها جزء من اقتصاد البلاد المستثمرة على ارضنا ، ولأن ارباح البترول لا تثمر من جديد في مشاريع جديدة تنشأ لصالح المواطنين العرب ، بل تذهب لتضخم خزائن المستغلين وجيوب اليد العاملة الاجنبية المختصة ومن يشغل المناصب الرئيسية في هذه الاحتكارات ومعظمهم من الاجانب .

كذلك نلاحظ اثر الشركات البترولية على السياسة العربية والسياسة الاقتصادية منها بشكل خاص إذ تأتي ٥٠٪ من موارد العراق و ٧٠٪ من موارد العربية السعودية وكامل موارد الخزانة الكويتية من عائدات البترول أي ما يعادل ٩٠٪ من الدخل القومي تقريباً . وفي الجدول التالي تأكيد لما نقول .

جدول بعائدات النفط في الاقطار العربية عام ١٩٥٥-١٩٥٦ الرقم بملايين الدولارات

النوع	العراق	العربية السعودية	الكويت	موريا	لبنان
المدفوعات	١٦٩٥٢	٢٥٨٥١	١٨٨٥٩	١٢ (I.P.C)	٣ (I.P.G) (١)
النفقات المحلية والرواتب والاجور	٧٥٢	٢٠	١٥	٤ (T. L)	٤ (T.L.) (٢) ١٤ (من) I.P. و (T. L.)

(١) هذه الارقام هي ارقام تقديرية بالرغم من الوصول الى اتفاق نهائي مع لبنان .

(٢) ان المبالغ المبينة اعلاه مبالغ مملقة .

المصادر : عن تقارير منظمة الامم المتحدة (التطور الاقتصادي للشرق الاوسط)

١٩٤٥ - ١٩٥٤ و ١٩٥٤ - ١٩٥٥

فاذا اضمنا الى ما تقدم بأن الشركات البترولية هي التي تفرض الاسعار العالمية للبترول العربي الخام ، عرفنا مدى الكوارث التي تصيبنا في حال تلاعب الاجانب بها أو عند تخفيضها ، علماً بأن الاقطار العربية لا تستفيد الا من نصف عائدات البترول الخام (عدا الجزائر التي تحاول ان تناصف الارباح بعد التكرير) ، وهي تلجأ الى الشركات الاجنبية لتصفية حصتها لقاء التنازل عن قسم من الكميات المصفاة كتعويض للتكرير ، مع ملاحظة ان اغلب هذه العائدات تعود الى خزائن الحكام لا للشعب الذي لا يستفيد الا من جزء يسير منها .

ومهما يكن من امر التبعية الاقتصادية فان هنالك عوامل عدة اسهمت في الابقاء على اقتصادنا العربي تابعاً واهمها :

١ - سياسة الباب المفتوح : ونعني بذلك ترك اسواقنا أو اجبارنا على تركها مفتوحة امام البضائع الاجنبية التي تنافس صناعتنا الناشئة ، وذلك بمنح حرية الاستيراد لمن شاء دون حماية للاقتصاد العربي الذي لم يستطع المقاومة طويلاً في معركة التنافس الاقتصادي والاحتكار ، ولو أن بعض الاقطار العربية قد تنهت مؤخراً الى هذا الامر فحاولت معالجته .

٢ - سياسة استخدام رؤوس الأموال الاجنبية : إذ قامت معظم صناعات الوطن العربي معتمدة على رؤوس الاموال الاجنبية ، ولم ينتظر والحالة هذه ان تكون المنافع الاقتصادية لصالح شعبنا ، وانما كان هذا الشعب يستغل لمصلحة الاجنبي الذي أسس المصارف لمنح القروض بسخاء لعملائه من الاموال المحلية .

٣ - السياسة الاقتصادية الابتدائية : كانت السياسة الاقتصادية أثناء

الانتداب موجهة للاهتمام بالمشروعات التي تضمن ارباح الدولة المنتدبة ، لا لمشروعات غايتها تحقيق مصالح الوطن العربي ، ولذلك كانت جميع المشاريع التي حققت في عهد الانتداب او الاستعمار ليست الا مشاريع انشئت في سبيل صالح المستعمر وحده .

وأخيراً وعلى الرغم من التقدم الاقتصادي الذي احرزته بعض الاقطار الاقطار العربية اليوم تبقى هناك بعض الصعوبات التي يجب تذليلها في سبيل قيام صناعة عربية قوية اهمها :

آ - صعوبات التمويل : تحتاج الصناعة عامة الى رؤوس أموال ، وهذه الأموال قد لا تتوافر لدى الصناعيين أو الدولة ، فيلجأ الصناعيون الى المصارف المحولة التي تقرضهم بفوائد تتراوح بين ٧ - ١٢٪. سنوياً وأحياناً الى المرابين الذين يقتطعون نسباً طائلة من الأموال لقاء ما يقرضون حتى تصل النسبة أحياناً الى ٢٥٪ من المبلغ الاصيل .

وهذه المشكلة لا يمكن ان تحل الا باتباع سياسة ادخار قومي شامل ، يتسنى عن طريقها للمواطنين الادخار في حسابات مصرفية تتجمع في مؤسسات الادخار وتستخدم في الصناعات وتوجه الى رفع الدخل القومي .

ب - ضيق الاسواق المحلية : وبسبب من ضيق هذه الاسواق يصعب على الانتاج العربي في حالته الحاضرة منافسة مثيله الاوربي أو الاجنبي بصورة عامة رغم رخص اليد العاملة المنتجة ، الا بحماية جمركية تطبق في جميع ارجاء الوطن العربي ، وبفتح الاسواق العربية امام المبادلات العربية على نطاق واسع ، وذلك لأن اسعار الكلفة للمصنوعات العربية قد تكون أكثر ارتفاعاً من مثيلاتها الاجنبيات بالنظر لاعتمادنا حتى اليوم على

الآلات القديمة من جهة والاساليب المتقنة من جهة أخرى ولانعدام
الخبرة أو نقصها لدى المنتجين ، وان تيار التطور الفني المستمر في العالم
وتبدل الاساليب الانتاجية يفترض من العامل العربي اطلاعاً أكبر وتدريباً
متواصلاً على المستجدات من الآلات والاساليب ، هذا على الرغم من ان
عاملنا على العموم سريع التلاؤم بطبعه ، لا ينقصه الا المران المناسب
ليكون بمستوى غيره من عمال العالم .

★ ★ ★

٣ - تجزئة الاقتصاد العربي

على الرغم من مرور اكثر من عشرين عاماً على استقلال بعض الاقطار العربية فلا زال العرب يعيشون كأغراب في مختلف اقطارهم ، واذا كان الاستعمار قد اقام منذ احتلاله لأرضنا الحدود المصطنعة فان حب الحكم والتسلط قد أدى الى تعميق هذه الحدود وتوضيحها ، وكذلك فان المصالح الفردية التي نمت نمواً منقطع النظير مع التطور الجزأ ما تزال تسهم في تأخير وحدة العرب السياسية والاقتصادية .

واذا كان الاستعمار قد جزأنا ليسهل عليه حكمنا فما بالنا حتى اليوم ونحن مستقلون نظرياً لم نستطع ان نزيل هذه الحدود التي فرضها علينا منذ عام ١٨٣٠ في الجزائر وعام ١٨٨٠ على مصر وعام ١٨٨١ على تونس وعام ١٩١١ على ليبيا وعام ١٩١٢ على تونس ، كما فرضها على القسم الشرقي من الوطن العربي منذ اتفاقية سايكس بيكس بيكو عام ١٩١٦ ومعاهدة سان ريمو عام ١٩٢٠ وقبل ذلك بكثير على مناطق البترول العربي .

ان مؤامرات التجزئة التي فرضها الاستعمار ما تزال تجدد لها بين ظهرانينا من يؤيدها ولو بشكل خفي مدعياً أنه يرمي الى وحدة عربية دون ان يعمل جدياً من أجلها .

فاذا كانت الاطماع الانكليزية الفرنسية خاصة ، ولاستعمارية عامة قد فنتت اوصال الوطن العربي ليسهل عليها التحكم فيه وابقاؤه مزرعة لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، فان الطليعة العربية ايماناً منها بوحدة العرب القومية الشاملة لأمر الاقتصاد ولايمانها بأن العرب يشكلون وحدة اقتصادية كاملة متكاملة لا تتجزأ ، تستطيع أن تقاوم الاستعمار وان تستقل عنه ، فقد رفعت هذه الطليعة شعار الوحدة الشاملة كبديل منطقي وحقيقي للتجزئة المصطنعة في كافة المجالات .

ولكن على الرغم من هذا الايمان بضرورة الوحدة فان مظاهر التجزئة الاقتصادية ما تزال تطل بوجهها واضحة في الكثير من شؤوننا ، مما يجعل الامل بعيداً يحتاج تحقيقه الى كثير من الجهود والتضحيات .

وتتبدى التجزئة الاقتصادية في أمور كثيرة منها :

١ - التجزئة في الانتاج :

تلاحظ هذه الظاهرة عموماً في الاقتصاد العربي نظراً لعدم وجود خطة توحد الجهود الانتاجية .

ففي القطاع الزراعي نلاحظ أن اكثر الاقطار العربية تعتمد على المحصول الواحد ، والذي تماثل فيه أقطار أخرى ، مما يتيح المجال أمام التنافس الضار بالمصلحة العربية ويضعف من مقاومتنا أمام الشروط التي يفرضها الطلب الخارجي على هذه المنتجات بالنظر لافقـدان التنسيق في العرض ، والقطن الذي يزرع في القطرين السوري والعربي وعلى الرغم من أنه ذو خصائص متميزة في كل من القطرين مثال واضح على ما نقول ، الا ان هذا يجب الا يمنع من ان تنتشر زراعة القطن حيثما توفرت لها الشروط الملائمة اذا وجدنا « مؤسسة موحدة للتصدير » تقوم بالتنسيق بين

المنتجات وتصدر عنها العروض العالمية .

والحبوب مثال آخر ناطق عن التنافس العربي ، اذ يصدر أحياناً من بعض الاقطار العربية بأسوأ الشروط وارخص الاسعار على الرغم من استيراد بعض الاقطار لها من المصادر الاجنبية .

كذلك هو وضع الزيتون والزيت والتمور وسائر المحاصيل الزراعية التي تتعرض دوماً لضغط المستعمر وارهابه وتهديده بعدم شرائها أو تخفيض اسعارها حسب رغبته وعلاقاته السياسية بنا ، مما يجعل تجزئة الانتاج الزراعي عاملاً مهتماً في الاقتصاد العربي يؤدي الى تخلفه وضعفه .

أما في القطاع الصناعي فيبدو ان توحيد التخطيط ضرورة اقتصادية قومية ملحة ، لأن المصانع التي تنشأ ضمن حدود التجزئة لا تتنافس مع بعضها فحسب بل انها لتضطر الى تخفيض انتاجها بعد ان تفرق السوق المحلية بسبب ضعف الطلب وسوء التسويق الخارجي العربي مما يجعل ازمات فرط الانتاج تستفحل بالنسبة لبعض المنتجات في الوقت الذي تمس فيه الحاجة الى مصانع أخرى كفيلة بسد حاجتنا التي لا تزال نشعبها حتى الآن عن طريق الاستيراد الخارجي رغم الصعوبات التي نعانيها في تأمين القطع النادر .

إن ما تقدم ليشير بوضوح الى ضرورة تنسيق التخطيط الصناعي على الصعيد القومي لا القطري ليتكامل الاقتصاد العربي فعلاً ، لا قولاً ، ناهيك عن ضرورته لرمي آثار التجزئة ظهرياً باتاحة الفرصة للعرب في استغلال مواردهم الطبيعية والقيام بمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٢ - التجزئة في التبادل وفي التمويل :

على الرغم من اختلاف نظم التبادل في الاقطار العربية ، فاننا نلمس بوادر تقارب بين هذه النظم بدأت تفرضه الضرورات ، إذ بعد أن كانت التجارة حرة مطلقة مالت في السنوات القليلة الماضية الى التقييد رغم تفاوت نسبة هذا التقييد بين قطر وآخر ، حيث نجد اقطاراً تؤمن بضرورة اطلاق حرية التجارة (١) في صالح المستحدثين والمستهلكين واقطاراً تؤمن بضرورة حماية الصناعة الناشئة فتقيد التجارة تاركة للصناعة المحلية الفرصة لتدعيم خطاها وتشجيعها لبلوغ مستوى التصنيع الذي يتمكن معه المجتمع من سد حاجاته والاستفادة من فيض الانتاج في التصدير للحصول على القطع النادر .

وان أولى الملاحظات التي نتبينها فيما لو استعرضنا الاحصاءات المختلفة هي الضالة النسبية للتبادل بين البلاد العربية (٢) .

فصادرات مصر ملاً الى البلاد العربية ووارداتها منها تصل في المتوسط الى ٠.٦٪ فقط من مجموع صادراتها ووارداتها الكلية . وصادرات مصر وواردتها الى الاقطار العربية لم تكن تشكل عام ١٩٥٤ مثلاً الا نصف صادراتها ووارداتها الى انكلترا وحدها .

ولعل السبب في ذلك ان القطن وهو مادة التصدير الاولى والذي يمثل ٠.٧٠٪ من صادراتها لا يصرف منه شيء يذكر في البلاد العربية أما صادراتها الصناعية فانها تلقى شهباً لها ومنافساً حيثما تذهب في الارض العربية ، ومع ذلك تظل الصادرات المصرية الى الوطن العربي كثيرة ، واهمها الارز

(١) وضع سورية ولبنان من مشكلة اطلاق حرية الاستيراد وما نجم عنه من قطيعه
اقتة ادية عام ١٩٥٠ .

(٢) عن اقتصاديات البلاد العربية (الاستاذ عمر الحكيم ١٩٦٠) .

والمصنوعات السكرية وبعض المنسوجات القطنية والملابس والاثاث والجرائد والكتب والافلام السينمائية . بينما تتكون وارداتها من الاقطار العربية من بعض أنواع الحبوب والفاكهة (خاصة من لبنان) والتمور (من العراق) والبن (من اليمن) والحيوانات الحية (من السودان وليبيا) .

أما من جهة توزيع تجارة مصر الكلية من الاقطار العربية ، فيعتبر السودان أهم سوق عربي لها من حيث نصيبه من صادراتها الكلية ثم تليه العربية السعودية .

وكذلك فإن صادرات السودان الى البلاد العربية الأخرى تمثل في المتوسط ٠٧٪ من صادراته الكلية ، أما وارداته منها فحوالي ٠٩٪ وتمثل تجارة السودان مع القطر المصري وحدها بين ٨٠ - ٩٥٪ من تجارتها مع مجموع البلاد العربية .

وان اغلب صادرات السودان الى هذه البلاد هي من الحيوانات الحية والاحوم والجلود وبعض الحبوب كالذرة والبقول .

أما وارداته فتتكون من بعض المنتجات الزراعية كالارز (من مصر) ودقيق القمح والفواكه الطازجة والجافة (من لبنان وسوريا) ، والتمور (من العراق) ، والمنسوجات القطنية والحربية (من مصر وسوريا ولبنان) والمنتجات البترولية (من السعودية) .

ثم تبرز في الاحصاءات مجموعة ثانية من البلاد العربية تتميز بأن تجارتها مع بقية الوطن العربي تكون نسبة مرتفعة نسبياً من تجارتها الكلية ، إما في كل الصادرات والواردات كلبنان وسورية وإما في جانب الصادرات وحدها كالعراق والاردن ، وإما في جانب الواردات وحدها كالسعودية .

ومن مقارنة أرقام الصادرات اللبنانية ووارداته الكلية نتبين أن تجارة لبنان مع البلاد العربية تمثل نسبة مرتفعة من صادراته ووارداته الكلية ، ويمكننا القول أن صادرات لبنان الى البلاد العربية الاخرى تمثل حوالي ٠.٥٠٪ من مجموع صادراته الكلية اما وارداته فتمثل ٠.٣٣٪ من مجموع وارداته الكلية .

وان هذا النشاط ناشىء ولا شك عن الصلات التجارية الحسنة للبنان مع القطر السوري ، وكذلك بسبب قيام اللبنانيين بدور الوسيط في المنطقة العربية . واتباع لبنان سياسة الحرية التجارية شبه المطابقة في التصدير والاستيراد .

وصادرات لبنان الى الاقطار العربية تتكون من سلع زراعية اهمها الفواكه وخاصة التفاح والحضيات والزيت ومن سلع صناعية أهمها المنسوجات والمصنوعات الجلدية والاسمنت وبعض الآلات، اما وارداته منها فتتكون من الحيوانات الحية والجوب والبذور والقطن الخام (خاصة من سوريا) والبترو (من السعودية والعراق) وسوريا هي العميل الاول للبنان بين الاقطار العربية ثم تليها العربية السعودية .

أما سوريا فان صادراتها الى الاقطار العربية تتجاوز الـ ٠.٤٠٪ من صادراتها الكلية ، بينما تشكل وارداتها منها حوالي ٠.٢٣٪ ، وتعتبر هذه النسب جيدة اذا قورنت مع نسب مصر والسودان .

ومن خلال الجداول الاحصائية تبدو اهمية صادرات سوريا الى لبنان حيث تبلغ اكثر من ٠.٦٠٪ من مجموع صادراتها الى الاقطار العربية الاخرى .

وكذلك يلاحظ كبر حجم واردات الاردن من سوريا الى حد يفوق حجم واردات أي بلد عربي آخر وخاصة فيما يتعلق بالمصنوعات النسيجية والغذائية .

وتتألف صادرات سوريا الى الاقطار العربية من الجوب والقطن

الخام (الى لبنان) والحيوانات الحية ومنتجاتها (تستورد بعضه من العراق وتركيا وتميد تصديره) ، والخضروات والفواكه (الى لبنان والاردن) والفواكه المجففة ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والصابون (الى العراق والسعودية) .

أما وارداتها من الاقطار العربية فتتألف من الحيوانات الحية (من العراق) والارز (من مصر) والخضراوات والفواكه (من الاردن) والكتب والمجلات (من مصر ولبنان) والمنتجات البترولية (من العراق) .
ولبنان هو أول الاقطار العربية من حيث تعامله مع سوريا ثم يليه العراق فالعربية السعودية فالاردن . والجدولين التاليين يوضحان ذلك :

١ - علاقات لقطر السوري التجارية بالاقطار العربية عام ١٩٦٠ بالوف الليرات السورية

الامتيراد	التصدير	القطر
٥٢٤٧٦ (١)	٦٠٩٨٢	مصر
٢٨٦٧٣	٤٨٤٨٢	لبنان
٤٤٧٦٣	٢٥٢٨	العراق
٢٩١٧	٢٦٨١٥	السعودية
٧٤٥٥	٢٤٠٧٣	الاردن
١٧٥٦	١١٦١٧	الكويت
٧٦١	١٠٤	المغرب
١٨٦٦	٨	تونس
٣٠٧	٤	الجزائر

(١) ان وقوع القطر المصري كاول قطر في التعامل مع سوريا كان حدثاً استثنائياً فرضته الوحدة التي كانت تقوم بين البلدين .

٢ - مجموع صادرات القطن السوري لعام ١٩٦٢
بملايين الليرات السورية

البلد المستورد	اجمالي الصادرات
لبنان	٢٧٨
ايطاليا	١٨٨
الداغمارك	٩٥
المانيا الاتحادية	٨٩
هولندا	٨٧
فرنسا	٦١
بلجيكا	٥٥
بريطانيا	٤٤
الاردن	٤٣
العراق	١٦
السعودية	١٥

ومن دراسة ارقام الجدول الاول نتبين وجود كئلتين اقتصاديتين تجاريتين ، اولهما دول المشرق العربي وثانيها دول المغرب العربي وأن العلاقات التجارية القائمة بينها شبه معدومة تحتاج الى مزيد من التعاون .

كما نتبين من الجدول الثاني انه على الرغم من ان القطن اللبناني يعتبر من اكبر الاقطار العربية المستوردة من سوريا ، فان بلاداً اجنبية تأتي بين اوائل الدول التي يتم معها التعامل التجاري بصورة اكبر مما يتم مع الاقطار العربية مع ان المفروض ان يكون العكس صحيحاً ، كما نتبين من الجدول انه ليس لبعض الاقطار العربية أي ذكر ونخص

بالذكر منها دول المغرب العربي ، علماً بأن المبادلات التجارية بين كل من المغرب والجزائر من جهة وبين فرنسا من جهة ثانية تتراوح بين ٥٦-٠٦٥/ . من مجموع مبادلات هذين القطرين .

وإذا عدنا الى الجداول الاحصائية المراقية نرى ان صادرات العراق الى الاقطار العربية (عدا منتجات النفط) تؤلف حوالي ٠٢٩/ . من صادراته الكلية ، في حين ان وارداته منها لا تتجاوز ٠٣٦٥/ .

وصادات العراق تتألف من الحبوب والتمور والحيوانات الحية ، وقد بلغت نسبة صادرات هذه الاصناف الثلاثة الى صادرات العراق الكلية ٠٨٠/ . عام ١٩٥٤ .

وان امارات الخليج وخاصة الكويت تشكل السوق الاول للعراق بسبب قربها منه ولوقوعها في منطقة نقدية واحدة (منطقة الاسترليني) وتتألف واردات العراق من الاقطار العربية من الفواكه الطازجة والمجففة وبعض المنسوجات القطنية ومن الحرير الصناعي والصابون (من سوريا ولبنان) ومن الكتب والجرائد والمجلات (من لبنان ومصر) .

أما الاردن فهو ذو اقتصاد فقير بمجموعه ، لذلك كانت صادراته قليلة و وارداته التي تعتمد على المساعدات الاجنبية والسياحة كثيرة .

وصادات الاردن الى الاقطار العربية تشكل ٦٧ - ٠٨٥/ . من مجموع صادراته الكلية ومعظمها من نصيب سوريا ولبنان .

أما وارداته من هذه الاقطار فتتألف من الحبوب وبعض الخضروات والفواكه (من سوريا ولبنان) والسكر والمنتجات القطنية والحرير والكتب والمجلات والمواد البترولية .

وتمثل واردات العربية السعودية من الاقطار العربية حوالي ٢٨٪. من مجموع وارداتها العامة ، وتظهر هذه الواردات قدراً كبيراً من التنوع ، فهي تتراوح بين المواد الغذائية والمنسوجات والسلع الاستهلاكية الصناعية والآلات - وكثير من هذه المستوردات تستورد من قبل الاقطار العربية ليعاد تصديرها الى السعودية .

وتمثل البحرين المركز الاول من حيث نصيبها من واردات السعودية ، ثم تليها مصر وسوريا ولبنان ، أما صادرات السعودية الى الاقطار العربية فهي قليلة جداً وتتألف من التمور والاعناب والجلود والصوف الخلام والحصر .

أما المبادلات التجارية بين دول الشمال الافريقي وبين الشطر الشرقي من الوطن العربي فقد كانت حتى عهد قريب محدودة جداً ، ولعل السبب ناشئ عن تشابه الموارد والمنتجات هنا وهناك وصعوبة النقل وارتفاع نفقاته عدا عن ارتباط هذه الاقطار بمنطقة الفرنك مما يجعل تجارتها مرتبطة اصلاً بالدولة الفرنسية ، ولذلك فقد اقتصرت تجارة هذه الاقطار على التجارة مع الدول الاوروبية القريبة منها والواقعة على الطرف الآخر من البحر المتوسط كانكلترا وفرنسا ، بالاضافة الى تبادل السلع بينها ثم تجارة القوافل مع البلدان الافريقية المجاورة .

واقعد كانت اكثر من نصف الصادرات والواردات التونسية والمغربية حتى عهد قريب تجري مع فرنسا ، ولكن عندما احست الاقطار العربية الافريقية بمغبة اخطار هذه التبعية بعد حصولها على الامتقلال عمدت الى البحث عن اسواق جديدة لمنتجاتها في اسواق الاقطار العربية الأخرى والدول الاجنبية .

وعلى الرغم مما تقدم تظل التجارة العربية فيما بينها أقل بكثير من المطلوب وان تجارة هذه الاقطار مع الدول الاجنبية تفوق مئات المرات التبادل فيما بينها .

وتنحصر الصادرات الاساسية للوطن العربي الى خارجه بالمواد الاولية كالبتروال والقطن والحبوب^(١) ، مما يجعل في مكنة الدول المستوردة لهذه المواد ان تستأثر بتحديد اسعار هذه السلع وان تحجم عن شرائها لتضغط على بعض الاقطار سياسياً . وتتراوح تقلبات الاسعار العالمية بالنسبة لهذه المواد ٣٠٪ . هبوطاً وصعوداً مما يجعلنا في وضع غير مستقر بالنسبة لمشروعات التنمية التي تعتمد في جزء من تمويلها على هذه الصادرات .

اضف الى ذلك ان احتمال التقلبات العالمية في حجم مجموع الطلب على المواد الاولية قد يتطور ويتبدل نتيجة للتقدم العلمي والاختراعات التي تتيح الاستعاضة عن المواد الاولية بمواد صناعية ، كما حصل بالنسبة للحريز الطبيعي اذ استعيض عنه بمادة الحريز الصناعي الارخص سعراً مما عرض عملية انتاج الخيوط الطبيعية الى هزة كبرى وأدى الى التأثير مباشرة على الدخل القومي .

وعلى الرغم من كثرة الصادرات العربية نسبياً الا ان هذه الصادرات لا تكاد تشكل الا جزءاً ضئيلاً من التجارة العالمية (بسبب كون اغلبها مواداً اولية) اذ تتراوح نسبة هذه الصادرات بين

(١) ان نصف صادرات الوطن العربي او يزيد هي من البترول ، كما ان القطن يمثل في مصر حوالي ٧٠٪ من صادراتها وكذلك السودان ، اما الحبوب والقطن والصوف فتمثل ٥٠-٧٠٪ من صادرات سوريا ، بينما يمثل التمر والحبوب والصوف الخام ٨٠٪ من صادرات العراق .

١ - ١٩٧ / (١) فقط من مجموع الصادرات العالمية الا ان واردات الوطن العربي تعادل ١٩٦ - ١٠٧٪ من الواردات العالمية ، ولهذا الارقام دلالتها وخطرها ، لأن الميزان التجاري يعبر عادة عند توازنه على توازن الاقتصاد ، وعندما يفقد ذلك التوازن يتأثر التقدم الاقتصادي والميزان التجاري خسر عموماً بالنسبة لمجموع اقطار الوطن العربي ، وان دراسته بالنسبة للاقطار العربية تظهر حقيقة مؤلمة وهي احجام بمض الاقطار العربية عن التعامل مع اشقائها وارتباطها بالدول الاجنبية في تعاملها التجاري رغم توفر الساع في السوق العربية التي قد يضطر أحد الاقطار الى بيعها بارخص الاسعار للمحتكرين الاجانب .

والآن ما هي اسباب الغزلة بين الاقطار العربية ؟

من المعروف ان معظم البلاد الحديثة الاستقلال تكون عادة مفرطة الحساسية بالنسبة لسيادتها ، ولذلك فهي تنكفيء على نفسها وتنعزل في معاملتها محافظة منها على استقلالها خوف تقلص سيادتها ، واذا كان هذا الأمر صحيحاً وله ما يبرره بالنسبة للبلاد الغربية عن بعضها فانه امر لا يمكن تصوره بالنسبة لاقطار الوطن العربي التي تعتبر الوحدة المقبلة امراً حتمياً .

واذا صح مثل هذا الموقف تجاه الدول المستعمرة والشركات الاجنبية المستقلة المتكثرة فلا يصح بحال بالنسبة للاقطار العربية فيما بينها والا لما وجد له تفسيراً غير سيطرة الانانية على الحكام مما يجعل التعاون الاقتصادي العربي مستحيلاً .

وان خير مثال نصر به على هذا الامر هو تلك التحفظات الدائمة

(١) هذه النسبة لا تشمل الصادرات البترولية .

التي يديها حكام المناطق المنتجة للبترول تجاه كل تعاون عربي ، مما يترك هذه الاقطار رغم غناها بالمال منعزلة عن المساهمة الفعالة في تمويل مشاريع التنمية العربية في الاقطار الأخرى ، خوفاً منها ان يقاسمها العرب عائداتها من البترول ، هذه العائدات التي يجمدا اكثرها في المصارف الاجنبية وتتصرف بها التنمية الاجنبية بينما يحرم الوطن العربي من فوائدها ولا يتمكن من الاستعانة بها في تطوره الاقتصادي وفي القضاء على التخلف في شتى المجالات الاجتماعية .

والخلاصة :

فلقد عرضنا في القسم الاول من الاوضاع الاقتصادية العربية الى صفات الاقتصاد العربي عموماً وتبيننا انه يتصف بالتخلف والتبعية والتجزئة ، وسنبحث فيما يلي في الحلول الكفيلة بالنهوض باقتصادنا بحيث يسير اقتصاد الدول المتقدمة . لترفع من مستوى الفرد العربي الذي يعتبر الخلية الاساسية في كيان الامة العربية .



- التنمية الاقتصادية العربية -

على الرغم من الاتفاق الحاصل بين المختصين حول ضرورة إيجاد سبل لتطوير المجتمعات المتخلفة الا انه يصعب حصر طرق التنمية الاقتصادية بحلول جامدة ثابتة تنطبق على جميع المجتمعات المتخلفة وذلك لأن اسباب التخلف قد تختلف من مجتمع لآخر وكذلك نتائج هذا التخلف ، كما أن مظاهر التخلف قد تبدو في بلد غيرها في بلد آخر ، ولهذه الاسباب ولحدائثة طرح موضوع تطوير البلاد المتخلفة فقد تشعبت آراء الاخصائيين حول موضوع التنمية الاقتصادية ، اذ انه لم يطرح الا عقب الحرب العالمية الثانية ، عندما قامت البلاد المتخلفة المستقلة حديثاً بتطالب بتطوير بلادها رامية جميع اسبابه على اكتاف الدول الكبرى المتقدمة مما جعل تلك الدول تنظر من وجهة نظر مصلحتها الخاصة الى أوضاع البلاد المتخلفة ، وبدأت تحاول تهدئة لخواطر هذه الشعوب إيجاد طرق أو سبل لمساعدة البلاد المتخلفة على التطور .

ولقد لاحظ المختصون في البلاد المتقدمة البون الشاسع بين بلادهم والبلاد المتخلفة التي اسموها بالنامية ، وادر كوا من الاحصاءات المتوفرة لديهم انهم شركاء في مسؤولية تخلف هذه البلاد .

ولكن على الرغم من وجود شبه اجماع على اهمية ضرورة

التنمية الاقتصادية ، فان هذا الاجتماع يفقد عند محاولة ايجاد طريقة واحدة للتلمية .

فمن قائل بأن الحلول للتخلص من مشكلة التخلف تكمن في ايجاد العلاج الديموغرافي لتكاثر البشر على سطح الكرة الارضية المحدود ، ومن قائل بأن الحلول يجب ان تكون اقتصادية لمعالجة الاوضاع الاقتصادية وذلك بتعديلها وتبديلها اذا اقتضى الأمر ، وآخرون يقولون أن التحرر من الاستعمار هو الحل الوحيد لمشكلة التنمية معتبرين المشكلة سيامية بحتة .

ونحن سنعرض هنا لمختلف الحلول المقترحة ، مؤكداً بأن الحل لا يمكن أن يكون وحيد الجانب ، بل هو متعدد الجوانب يشمل السكان والاقتصاد والسياسة .

اولاً - الحلول الديموغرافية :

مما لا ريب فيه ان الحل الديموغرافي اي تحديد تزايد السكان كفيلاً الى حد ما بايجاد بمض التوازن في التنمية الاقتصادية .

فاذا اخذنا مجتمعنا العربي وجمعنا الدخول القومية لاقطاره التي نرمز اليها بـ (د) ثم قسمنا هذه الدخول على عدد السكان الذي نرمز اليه بـ (س) . سنجد الحالات التالية احتمالاً .

اذا كان العامل (د) يتزايد مع ثبات العامل (س) وهذا امر فرضي فان مستوى الفرد يكون في حالة ارتفاع اكيد .

أما اذا ثبت العامل (د) كما ثبت العامل (س) فان الاوضاع الاقتصادية تكون ثابتة لا تتأثر ولا تتغير وهذا مستحيل ايضاً .

أما اذا ازداد العامل (س) ، وهذا هو وضع المجتمع العربي كما

سبق ان بيناه في البحث البشري ، وثبت العامل (د) كان معنى ذلك كارثة محققة وانخفاض مستمر لمستوى الفرد العربي .

ان الحالات السابقة هي ولا شك حالات نظرية محضة ، لاننا نلمس في مجتمعنا العربي تزايداً في (د) وفي (س) ولكن (س) قد تكون اكبر من تزايد (د) عند ذلك يمتص التزايد السكاني كل ارتفاع ممكن في الدخل القومي الذي ينتج عن التنمية الاقتصادية ، أو قد يترك معدلاً صافياً للتنمية بسيطاً جداً لا يظهر أثره الا على المدى البعيد ، وهذا يبدو واضحاً جلياً من ملاحظة الجدول التالي حيث نجد ان معدل التنمية الصافي يكون شديد الانخفاض بالنسبة للقطر المصري حيث يتزايد السكان تزايداً كبيراً ، بينما نجد ان معدل التنمية الصافي يكون كبيراً بالنسبة للقطرين السوري والعراقي .

جدول بمعدل التنمية الصافي في بعض الاقطار العربية

القطر	الفترة	معدل الزيادة (د)	معدل الزيادة (س)	معدل التنمية الصافي
المصري	١٩٥٦-١٩٥٠	٢٦٦	٢٦٤	٠/٠٠٢
السوري	= =	٦٥	٢٦١	٠/٠٤٤
العراقي	= =	١٢	٣٦٢	٠/٠٨٨

الا انه تجدر الملاحظة بأن انخفاض معدل التنمية الصافي لا يكون دوماً دليلاً على التخلف أو على عدم جدوى التنمية الاقتصادية (١) فالمجتمعات

(١) وهذا الامر لا ينطبق على القطر المصري لان تزايد السكان فيه تبادل تقريباً تزايد الدخل القومي والامر هنا يحتاج الى علاج اذ ان الزيادة في السكان تمتص كل ارتفاع في الدخل القومي .

المتقدمة والتي وصلت أعلى مراحل التطور الصناعي يكون فيها معدل التنمية الصافي ضئيلاً لأنها وصلت في التنمية الى اعلى حدودها ، كذلك فان ارتفاع المعدل الصافي للتنمية ليس دليلاً على نجاح خطة التنمية التي اخذت بها الدول المتخلفة الا اذا بقي هذا المعدل كبيراً على المدى البعيد ، وذلك لان هذا المعدل يبدو مرتفعاً لدى جميع الدول الاخذة ببرامج للتنمية بسبب حداثة هذه البرامج من جهة وكذلك بسبب التركيز عليها لانجاحها ، فاذا بلغت التنمية المستوى المطلوب بدأ هذا المعدل يقل تدريجياً حتى يصبح طفيفاً كما هو الحال لدى المجتمعات الكاملة التطور .

ونحن مع قناعتنا بأن تحديد النسل وتثبيت التزايد ضمن حدود معقولة قد يكون ضرورياً في كثير من البلدان التي تشكو من الاكتظاظ السكاني ، الا ان هذا الحل مرفوض من قبلنا نحن العرب لأن بلادنا تشكو ضعف الكثافة السكانية ومواردها تكفي مئات الملايين زيادة عن العدد الموجود حالياً ، لأن الاخذ بمثل هذا المبدأ يعرضنا للضعف والاستعمار ارضنا واستثمار خيراتها من قبل غيرنا .

هذا مع قناعتنا ايضاً ان تزايد السكان قد يؤدي الى انخفاض في مستوى المعيشة اذا لم يواكبه تزايد في الدخل القومي ، مما يعرض الناس الى انخفاض في المستوى الصحي وانتشار الامراض والابوئة والى نقص في المواد الغذائية مما قد يسبب المجاعات والفوضى الاجتماعية ، وقد يدفع البلاد المتقدمة اذا ازداد سكانها الى البحث عن موارد جديدة فيدفعها الى الاستثمار (كما حصل عقب الثورة الصناعية الاوروبية) او قد يدفعها الى الحرب للحصول على مناطق نفوذ او مجالات حيوية .

آ- الاتجاهات التشاركية :

ويقف على رأس دعاة هذا الاتجاه الاقتصادي الانكليزي

مالتوس Malthus الذي يرى بأن تكاثر السكان هو اكبر بكثير من امكانيات الارض على انتاج الغذاء . لأن السكان يتزايدون وفق متوالية هندسية في حين ان الموارد الغذائية تتزايد وفق متوالية حسابية ، مما بذل الناس من جهد في الانتاج .

تزايد السكان : ١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ الخ ...
تزايد الغذاء : ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ الخ ...

ومما تقدم يمكن لنا ان نتبين فقدان التوازن بين المتوالتين ، مما يسبب وقوع الكوارث كالمجاعات والحروب وذلك لان السكان يتضاعفون على سطح البسيطة كل خمسة وعشرين عاماً ، بينما لا يتزايد الغذاء بنفس النسبة .

ويكمن الحل بالنسبة لمالتوس في تبني الموانع الاخلاقية كالعفة والزهد وتأخير سن الزواج ، الا ان ذلك لا يكفي وحده ، اذ تقوم الطبيعة نفسها لتدعم التوازن بموانعها المتمثلة بالابوة والزلازل والفيضانات والمجاعات .

وقد وصفت هذه النظرية من قبل البعض بأنها « عبقرية سوداء تخنق كل أمل للجنس البشري » .

ب - الاتجاه المتفائل (١) :

يهاجم المتفائلون مالتوس وينتقدونه بشدة لانه اغفل أهمية التقدم التقني Technical Progress وأثره في ايجاد موارد جديدة وامكانيات مبتكرة لتنفيذ الانسان (٢) وامكانية هذا التقدم في اعادة التوازن المفقود باستمرار ،

(١) جان فوارستيه « Le Grand Espoir du xx Siècle »

(٢) فكرة الحصول من خبز من البحر عن طريق تجميع بعض الاشنيات التي تتزايد بشكل هائل ...

ويقولون ان الدفاع الانساني قادر وكفيل على ايجاد المخترعات والاكتشافات التي تحقق ايجاد حلول للمشكلات السكانية ، فها هو الانسان ينطلق الى عوالم أخرى غير الارض وها هو ذا يبحر عبر الفضاء الكوني بمركباته محاولاً غزو القمر ولعله قد يجد موارد جديدة للجائعين والمحرومين من بني البشر .

اضف الى ذلك ان الكثير من المجتمعات لم تنظم نفسها اقتصادياً بعد ، كما انها لم تفكر جدياً في رفع مستوى افرادها عن طريق توزيع عادل للثروة ، كما ان بعض المجتمعات الاخرى لم تحاول معالجة الموضوع على أساس التكامل الديموغرافي بين أجزاء الوطن الواحد ، بحيث تتوزع الكثافة السكانية بشكل معقول ومدروس ، وان هناك مناطق كثيرة الموارد قليلة السكان تمنع الناس من الهجرة اليها أو تحدد عدد القبولين في مجتمعاتها .

ومها يكن من أمر التثاؤم والتفاؤل ، فان المجتمعات في عصرنا الحاضر تتوزع بين ثلاثة مذاهب ينادي اولها وهو المذهب العربي وهو ذو طبيعة مالتوسية ، بتحديد النسل كما انخفض مستوى المعيشة في حين ينادي ثانيها وهو المذهب الاشتراكي بأن ازدياد السكان في دولة ما انما هو ازدياد لقوتها الاقتصادية ، لان زيادة اليد العاملة معناه زيادة وارتفاع في الانتاج ، أما الثالث وهو مذهب الحياد فيعتقد مبدأ النسبية الاجتماعية الذي يبيح لكل مجتمع أن يتبنى السياسة الديموغرافية المنفقة وظروفه .

ج - الاتجاه العربي :

فاذا عدنا هنا الى محاولة تطبيق ما تقدم على وطننا العربي ، يبدو لنا أن أي حل يتخذ على أساس ظروف قطرية فاشل حتماً ، وأن الحل الصحيح للمشكلة السكانية في مجتمعنا العربي يجب ان يرقى الى

المستوى القومي ، ونعود هنا مجدداً لنؤكد ان طريقة تحديد النسل لا يمكن ان تصح لمجابهة المشكلة السكانية العربية نظراً لوجود اقطار تعاني نقصاً في الكثافة السكانية مع امتلاكها امكانيات كبيرة في الثروة الطبيعية كسوريا مثلاً في حين تكتظ اقطار أخرى كعصر بسكانها مع قلة في الموارد ، وان وجود اسرائيل شوكة في كيان الاممة العربية يؤكد لنا خطر الاخذ بطريقة تحديد النسل ، كما ان التهديد المستمر لوطننا من قبل الاستعمار يجعلنا نلج لايجاد طريقة لعلاج تعديل الضغوط السكانية وفقاً لسياسة تهجير عربية منظمة ، اخذين بعين الاعتبار وحدة الاممة العربية مصرين على أن التجزئة المصطنعة يجب ان لا تحول دون اعادة التوزيع على نحو يحقق التوازن المرغوب في البناء الديموغرافي للمجتمع العربي .

الا ان هذا يجب الا يمنع بعض الاقطار العربية ولا مرحلياً وحتى الوصول الى اتفاق حول الموضوع من أن تنبني فكرة تنظيم النسل لعلاج مشكلة التخلف الاقتصادي على الصعيد القطري على أن تدعم بحملة توعية للجهاير تجعلها اكثر تقبلاً لمثل هذه الافكار الجديدة .

ثانياً - الحلول الاقتصادية :

ان مشكلة تمويل مشروعات التنمية الاقتصادية تعتبر من المشكلات العويصة التي تحتاج الى حل ، خاصة وان الادخار الفردي ضعيف في الوطن العربي اجمالاً بسبب انخفاض مستوى الدخل الفردي ، ولذا يصعب الاخذ بهذه الوسيلة لتمويل المشروعات ، واذا صح هذا السبيل بالنسبة لبعض الاقطار العربية كسوريا مثلاً فانه صعب التحقيق في مجموع اقطار الوطن العربي حيث يتدنى مستوى الدخل الفردي الى ادنى حدوده كما في

السعودية واليمن (١) ، بحيث يكاد يكفي تأمين الحاجات الحياتية الضرورية ، ولذلك نتجه انظار الحكومات العربية الى التمويل الخارجي المتمثل بالهبات والقروض الاجنبية ، لذا فان بحثنا سيتناول على التوالي امكانية التمويل الداخلي عن طريق الادخار وعائدات النفط ثم التمويل الخارجي .

آ - التمويل الداخلي .

ويتمثل التمويل الداخلي بمصدرين اساسيين الاول الادخار الفردي والثاني بعائدات النفط وعائدات مروره في الانابيب .

١ - الادخار :

والادخار الفردي هو المصدر الاول للتنمية الاقتصادية ، لان زيادة حجم الادخار تتيح عادة زيادة حجم التوظيف ما دام البلد يعتمد على امكانياته المحلية دون اللجوء الى القروض والمساعدات الاجنبية .

الا ان الادخار القومي - كما سبق ان بينا - ضعيف الجدوى في الوطن العربي لا يمكن الاعتماد عليه وحده في تمويل مشروعات التنمية الاقتصادية ، لان الادخار الخاص لا يتجاوز (٧٦٦) مليون دولار او ٢٪ مما يحتاجه الوطن العربي لزيادة دخله القومي ، حسب احصاءات الامم المتحدة .

وهذا الادخار ينصرف عادة وبسبب انخفاض سوية عيش الجماهير الى تلبية الحاجات الاكثر الحاحاً اكثر من اتجاهه الى التثمين والتنمية .

والجدول التالي يوضح ضالة الادخار وبالتالي ضالة التثمين في بعض الاقطار العربية .

(١) راجع بحثنا عن انخفاض مستوي الدخل الفردي .

جدول بمعدل الادخار والتشهير لبعض الاقطار العربية

القطر	السنة	معدل الادخار	معدل التثمين
المصري	١٩٥٥	% ٩١٤	% ٩١٤
اللبناني	١٩٥٧	% ١٧١٥	% ١٥١٢
السوري	١٩٥٦	% ١٦١٨	% ١٦١٥
العراقي	١٩٥٦	% ٢٣١٥	% ٢٧١٣

٢ - عائدات البترول :

ينقص الاقطار العربية المنتجة للبترول الكيان الاقتصادي الذي يسمح باستثمار عائدات البترول بل ان اكثر هذه العائدات ان لم يكن معظمها ينصرف الى البذخ والاستهلاك دون الالتفات الى حاجة العرب لهذه العائدات لتنمية اقتصادهم . ونتيجة لشعور العرب بالحاجة الى استثمار جزء من هذه العائدات على الأقل في هذا المجال فقد اتجه التفكير لانشاء منظمة عربية للبترول تقوم باستثمار فائض العائدات في برامج التنمية الاقتصادية العربية .

وتجسيداً لهذه الفكرة فقد وضعت في حزيران عام ١٩٥٧ اتفاقية بين أعضاء المجلس الاقتصادي التابع لجامعة الدول العربية نصت على إنشاء مصرف عربي للانماء الاقتصادي برأسمال مبدئي قدره / ٢٠ / مليون جنيه مصري .

وهكذا اضطرت دول البترول على الخروج من عزلتها وعلى تشهير جزء من عائدات النفط فيها في مشاريع قومية للتنمية الاقتصادية وعلى الاسهام بانشاء مصرف عربي للتنمية ، وعلى فرض اشتراك عدد معين من

المواطنين العرب في الشركات البترولية المستثمرة وايصالهم الى المناصب الادارية الرئيسية فيها وكذلك اجبار هذه الشركات على تصفية البترول العربي ما أمكن ذلك في مصاف مقامة على ارض العرب للاشتراك مع هذه الشركات في جني ارباح التصفية التي تزيد مئات المرات عن ارباح العائدات، واخيراً اجبار الشركات البترولية على الاسهام في مشاريع التنمية الاقتصادية بشمير جزء من ارباحها في الارض العربية لتعجيل في هذه التنمية .

كذلك فقد عمدت الاقطار العربية التي تمر عبرها انابيب النفط الى المطالبة بزيادة عائدات المرور فيها لتتمكن من تخصيص المبالغ الجديدة (١) لتمويل المشاريع الاقتصادية وانشاء كيان اقتصادي جديد يعتمد في جزء منه على العائدات البترولية ويكون وسيلة من وسائل تحقيق التنمية الاقتصادية .

ب - التمويل الخارجي :

لما كان الادخار الخاص عاجزاً عن تأمين تمويل مشاريع التنمية الاقتصادية فقد انصرف التفكير الى البحث عن مصادر خارجية لتمويل كالهبات والقروض .

١ - الهبات :

وهي في جزء منها اقتصادية الهدف بتبغني التنمية والمعونة الفنية ، وهذه إما أن تكون معونات دولية كمعونات الامم المتحدة أو معونات حكومية قد ترمي الى غايات دعائية .

والجدول التالي يبين مقدار المعونات الفنية التي قدمتها الامم المتحدة لمنطقة الشرق الاوسط عام - ١٩٥٦ - .

(١) ان المبالغ التي كانت تتلقاها اكثر الاقطار التي يمر عبرها البترول كانت تنصرف في تدعيم الموازنات العادية لتغطية بعض النفقات فيها .

المعونات الفنية للأمم المتحدة عام ١٩٥٦ (١)

المنح	الخبراء	مشاريع التجهيزات الأرقام بالآلاف الدولارات	البلد
٢٤	٨٧	٨٩١٦٢	مصر
٢٥	٥٠	٦١٦٠	سورية
٣٦	٥٣	٤٨٦٦٩	العراق
٤١	٤١	٤٠١٦٤	اسرائيل
٢١	٣٨	٣٨٣٦٣	الاردن
٢٨	٢٢	٢١٢٦٥	لبنان
١٣	١٦	١٣٥٦٠	العربية السعودية
١٥	٢٠	١٥٣٦٠	اليمن
١٥٤	٤٤	٥٢٦٦٤	المشاريع الاقليمية
٣٦٧	٣٧١	٣٦٨٠٢٦٧	المجموع

ومن الجدول السابق يتبين ان مصر والعراق والاردن وبقية الاقطار العربية ثالث قسماً كبيراً من هذه المساعدات ، بينما نالت سوريا اقلها ، وكذلك فان اسرائيل نالت مساعدات تعادل تقريباً ما ناله الاردن ، مما يتبين معه اصرار المنظمة الدولية على سياسة التوازن بين هذا القطر واسرائيل .

أما الجدول التالي فيوضح توزيع المساعدات الامريكانية في الشرق الاوسط بين عام ١٩٤٥ - ١٩٥٦ .

(١) عن كتاب التنمية الاقتصادية والبنى في الشرق الاوسط - بيروت ١٩٥٧ للأستاذ الياس غناجة .

جدول بتوزيع المساعدات الامريكية في بلاد الشرق الاوسط (١)
بين عام ١٩٤٥ - ١٩٥٦ بلايين الدولارات

الدولة	١٩٤٥-١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	العون الكلي بعد الحرب
لبنان	١٦٨	٣٦٧	٠٠٩	٨٦٧	٢٦٠	٧٥٧	٢٤٦٨
مصر	١٨٦٤	٠٠٤	١٢٦٩	٣٦٢	٤٢٦٦	٢٦٦٠	٨٠٦١
الاردن	١٦٥	٤٦٧	٢٤٨	١٠٦٥	٧٦٢	٧٥٥	٣٤٦٢
العراق	٠٠٩	٠٠٥	٢٦١	٢٦٢	٢٠٨	٢٦٣	١٠٦٨
العربية السعودية	٢٠٦٦	٠٠٢	١٦٣	٠٠٦	٠٠٢	—	٢٢٦٩
اسرائيل	١٢٧٦١	١٠٤١٠	٧٢٦٩	٥٣٦٩	٤١٦٥	٢٤	٤٢٣٥٤
المجموع	١٧٠٦٣	١١٣٦٥	٩٢٦٩	٧٩٦١	٩٦٦٣	٤٤٤١	٥٩٦٦٢

من الجدول السابق يتبين بأن اسرائيل نالت ما يزيد عن ٤٢٣٥ مليون دولار خلال عشرة سنوات من الولايات المتحدة أو ثلاثة ارباع المبلغ المقدم كمنح مساعدات الى منطقة الشرق الاوسط ، وهذا يدل على اصرار الولايات المتحدة الامريكية احياء اسرائيل بسدل الدماء الجديدة بصورة مستمرة لها وتدعيمها .

وكذلك يلاحظ ان مصر نالت ٧٥٪ من مجموعات المساعدات أو ما يعادل ٨٠ مليون دولار خلال نفس المدة ، في حين يغيب اسم القطر السوري عن قائمة المساعدات هذه .

ان التضامن العالمي والاخوة الانسانية تفرض من المجتمعات المتقدمة

(١) المصدر - مكتب الامم المتحدة في لبنان .

اخلاصاً اكبر لهذا التضامن وشعوراً انسانياً أقوى من الذي ساد حتى اليوم
لتقوم هذه المجتمعات بواجبها تجاه المجتمعات المتخلفة عن طريق منحها
المساعدات والهبات والمساهمة في تطوير هذه المناطق المتخلفة مساهمة فعلية
الا ان بعض الدول المتقدمة كانت تمن^س على المستفيدين من مساعداتها مما
جعل الكثيرين يرفضونها وبعضهم يتردد في قبولها خوفاً من أن تكون
ذات غايات ابعد من مظاهرها الخارجية ، فعمدت الى طلب القروض
تستعين بها على تطوير اقتصادها ووجدت الدول المتقدمة ان طريق القروض
أفيد للطرفين بمد إذ وجدت مساعداتها لا نتأق كثيراً بالترحاب حيث
حلت ، لذلك ورغبة في تمييز الأموال فقد عمدت الى القروض الطويلة
الاجل التي تتطلب من الدول المستفيدة ان تشترك بالفعل بنسبة مئوية من
تكاليف المشاريع ، لاذكاء الشعوب لدى الدولة المستفيدة بأنها صاحبة
المشروع ولو في جزء منه ، وقد حققت هذه الطريقة الكثير من المشروعات
حتى اليوم .

٢ - القروض :

والقروض على أنواع ثلاثة ، فاما أن تكون قروصاً وطنية وتكون
ب طرح أسهم ذات قيمة محدودة وبفوائد محددة على المواطنين لتغطية مشروع
من المشروعات وقد عمد اليه القطر المصري مرات عدة فغطى المواطنون
هذه القروض بساعات أحياناً وبأيام .

واما أن تكون قروض قومية كتلك القروض التي قدمتها السعودية
يوماً لسورية أو التي ما زالت تقدمها الكويت لبعض الاقطار العربية
بعشرات ملايين الدنانير للمساهمة في تنمية المشروعات العربية .

او ان تكون اجنبية ، وهذه قد تكون دولية كقروض البنك

الدولي الذي يساهم في اقراض الدول الاعضاء على تنمية مشاريعها بنسبة اشترك العضو في الرأسمال الاصلي للبنك وتتدخل في هذه القروض ومدتها وكميتها الدول المسيطرة على البنك بمساهمة كبيره كالولايات المتحدة الامريكية التي قد لا تسمح لمجلس البنك اقراض أي جهة قد تقاوم او لا تجاري السياسة الامريكية ، أو قد تكون قروضاً بين دولتين دولة متقدمة في الصناعات ودولة نامية ، كالقروض الاميركية التي تقدمها الولايات المتحدة الى بعض الدول أو القروض السوفياتية أو غيرها وقد تلعب القيمة السياسية للدولة المقترضة أو استراتيجية الدولة المقترضة في شكل هذه القروض وكمياتها ، فبعضها يكون آنياً كالقروض التي تمنحها الولايات المتحدة من فائض الاغذية لديها للمناطق التي تتعرض للكوارث الطبيعية أو التي تنقص فيها كميات الغذاء في فترة من الفترات وقد تكون طويلة الاجل لتمويل مشاريع تنمية طويلة الأمد كقروض الاتحاد السوفياتي لانشاء السد العالي .

ومنستعرض فيما يلي القروض الامريكية ثم السوفياتية ثم القروض الأخرى دون التعرض للقروض الداخلية أو العربية لانها تعتبر تمويلياً محلياً للمشاريع الصناعية .

القروض الامريكية :

انشأت الولايات المتحدة من أجل تنمية البلاد المتخلفة صندوقاً خاصاً للتنمية الاقتصادية ، وغايته منح القروض الطويلة الأجل للاستثمارات الواجبة التي تعطي دخلاً منتظماً بعد وضع دراسة كاملة للمشروع والتأكد من ربحه ، بالإضافة الى القروض التي يمنحها المصرف الدولي للانشاء والتمير والى الصندوق الخالص للمساعدة العاجلة المفوط بالرئيس الامريكي مباشرة .

وقد بلغت مخصصات صندوق التنمية بين عام ١٩٥٧ - ١٩٦٠

مبلغ خمسة مليون دولار سنوياً ، وجميع القروض التي منحها كانت مشروطة وليس امتناع الصندوق عن تمويل مشروع السد العالي عام ١٩٥٥ عنا ببعيد .

القروض السوفياتية :

بعد ان وصل الاتحاد السوفياتي الى المستوى الصناعي المرتفع الذي هو فيه اليوم ، عمد الى النزول الى سوق القروض وبدأ ينافس الولايات المتحدة الامريكية في هذا المجال كما ينافسها في كثير من مجالات الحياة الاخرى ، إذ وجد هذا الاتحاد انه من المستحيل تحرير الدول المتخلفة من اثار الاستعمار والامبريالية وخاصة منها الدول الحديثة الاستقلال في آسيا وافريقيا الا بتمويل مشاريع في تلك الدول تساعد على ايجاد توازن بين وارداتها ونفقاتها ، ولذلك فقد رصد الاتحاد السوفياتي ميزانيته المبالغ الطائلة للقروض هذه وحدد القروض بفوائد لا تتجاوز ٢.٥٪ وهو اقل معدل ممكن لاي قرض في العالم اجمع .

ولقد وجدت البلاد المتخلفة ومنها بعض اقطار الوطن العربي فرجاً في نزول الاتحاد السوفياتي الى سوق القروض فاستطاعت ان تكون اكثر صلابه تجاه المشاريع الامريكية واستفادت من وجود مصدر آخر للقروض للمساومة مع الدول الكبرى .

وقد استفاد القطر السوري من القروض السوفياتية اذ عقد عام ١٩٥٧ اتفاق بين الاتحاد السوفياتي وهذا القطر اطلق عليه اسم « اتفاق التعاون الاقتصادي والفني » منحت سورية بموجبه قرضاً بمبلغ / ١٦٥ / مليون دولار اضافة الى المعونة الفنية اللازمة ، على ان يسدد القرض على اقساط سنوية مدتها / ١٢ / عاماً من تاريخ البدء باستعمال القرض وعلى ان يستفاد منه بتمويل مشروعات الري والكهرباء والنقل الحديدي واستغلال المعادن وتنمية

الموارد الحيوانية والزراعية .

كما منح القطر المصري عام ١٩٥٨ قرضاً بمبلغ / ٢٦٤ / مليون دولار بشروط ممتازة ثم تلاه قروض اخرى .

وتتميز القروض السوفياتية عدا عن انخفاض معدل فائدتها ، أنها سهلة الدفع والتسديد ، إذ يتميز التسديد بالمنتجات الوطنية او بالعملات الاجنبية القابلة للتعديل .

القروض الاجنبية الاخرى :

ومنها القروض الالمانية الشرقية والغربية . وقد منحت المانيا الغربية قبل القطيعة السياسية مبلغ مائة وخمسون مليون دولار لاستخدامها في انشاء مراكز للتدريب ومعاهد للبحوث البترولية ولدراسة خامات الحديد والمنغنيز وانشاء مطار دولي في دمشق ، اذ أن الاتفاق كان يشمل القطرين المصري والسوري .

أما المانيا الشرقية فقد أقرضت مصر مبلغ عشرون مليون دولار يستخدم في الحصول على الآلات والمعدات اللازمة لاقامة مصانع للخشب المضغوط والورق ، واقامة وحدات للغزل والتبريد على ان يتم التسديد بمنتجات وطنية .

ومنها القروض اليابانية اذ منحت اليابان مصر قرضاً بمبلغ ثلاثون مليون دولار بفائدة قدرها ٥٪ تستخدم في انشاء معامل جديدة للسكر والغزل والسردين والصد الكاوي وشباك الصيد وبناء اربع ناقلات بترولية واحواض لبناء السفن .

هذا وقد نزلت الصين وفرنسا (١) مؤخراً الى سوق

(١) الغرض الفرنسي لسورية لانشاء المطار الدولي بدمشق وقد تم توقيعه عام ١٩٦٥ الجاري بعد ان انسجت المانيا من هذا التمويل .

الاقراض وبدأت المباحثات بين بعض الاقطار العربية وهاتين الدولتين للاستفادة من قروضها .

ولكن وعلى الرغم من مغبات الاقتراض فان العرب بسبب نمو شعورهم القومي رفضوا دوماً القروض المشروطة من أي مصدر كانت خاصة اذا كان لها مساس قريب أو بعيد باستقلالهم أو قضاياهم القومية ، كما انهم عرفوا ان اعتمادهم على مصدر واحد للاقتراض يجعلهم دائماً عرضة للضغط من الجهة المقرضة وكذلك يشل حرية حركتهم في تصرفاتهم الدولية لأن خلافاً قد يقع بين الجهة المقرضة والجهة المقرضة مما يعرض الجهة المستفيدة من القرض الى نتائج وخيمة العواقب على اقتصادها وقد يصيب بالشلل كافة مشروعات التنمية فيها ، لذلك فقد خرج العرب على مبدأ الاعتماد على جهة معينة وساعدهم في ذلك نزول عدد من الدول الكبرى الى سوق المنافسة في الاقراض .

الا ان امراً واحداً بقي هنا لا بدّ من ان نشير اليه ، الا وهو ان العرب يجمدون اموالهم في البنوك الاجنبية بل ويقرضون هذه الاموال الى بعض الدول التي تقرض بعضهم الاخر ، كقروض الكويت مثلاً لليابان والتي كثر الحديث عنها .

وان المال العربي الناشئ عن ثروة العرب جميعاً أي البترول يجب ان يستخدم لصالح العرب كلهم لتنمية مشاريعهم الاقتصادية الا ان الاقليمية والعزلة وما ينتجم عنها من خوف وشك وكذلك اختلاف الانظمة الاقتصادية عوامل خطيرة ما تزال تلهب دوراً كبيراً في تأخير استفادة العرب من هذه الأموال وتمهيرها في المشاريع الجديدة ، والتي باستطاعتها وحدها تحريرهم من التنمية الاقتصادية بل والسياسية .

ح - التوحيد الاقتصادي وفوائده في النمو الاقتصادي العربي :

بعد أن عرضنا الى الاوضاع الاقتصادية في وطننا العربي وتبيننا مظاهر تخلفه وتجزئته وتبعيته وعرضنا الي طرف التنمية الممكنة فيه ، لا بدّ لنا من ان نعرض بإيجاز الى ضرورات التوحيد الاقتصادي وفوائد هذا التوحيد في النمو الاقتصادي والاجتماعي الموصل بالضرورة الى الوحدة العربية الكبرى التي هي هدف الشعب العربي .

ولكن التوحيد الاقتصادي على الرغم من ضرورته لتحريرنا من الاستعمار وايصالنا الى اهدافنا فانه يجابه الكثير من العقد السياسية والاجتماعية على الصعيدين الداخلي والخارجي رغم ان قضايا النمو الاقتصادي تشكل عنصراً جوهرياً وراء كل تطور .

وان النظرة الخاطفة التي عرضنا فيها الى اوضاع الوطن العربي اقتصادياً ابرزت لنا الحقيقتين التاليتين :

اولاً - تخلفنا الاقتصادي وثانياً تفككنا الاقليمي أي عدم وجود تعاون يتخذ شكل التوحيد الاقتصادي رغم جهود الجامعة العربية .

وان ثمة علاقة لا بدّ هنا من اظهارها ولو باقتضاب بين التوحيد الاقتصادي للوطن العربي والنمو الاقتصادي العربي ، ولتبيان هذه العلاقة لا بدّ لنا من عرض الوضع الحاضر ثم الى فوائد التوحيد واخيراً الى بعض المعبات الظاهرة والحلول الممكنة لها .

كما لا شك فيه ان للمسائل السياسية اثر كبير على الوضع الاقتصادي الحاضر بل قد يكون لهذه المسائل اهمية كبرى لا تعادلها اهمية بمسائل التوحيد الاقتصادي ، وهذا ما عرضنا اليه عند البحث عن الاوضاع السياسية تاركين مجال البحث هنا الى دراسة هذا التوحيد .

لذا فاننا نفترض ان الجامعة العربية - نظرياً على الأقل - اداة
صالحة للتقارب والتعاون العربي ، وبالتالي فان الوضع الحاضر للجامعة يؤمن
ادنى حدود التعاون والتقارب اذا شاءت دولها السير في طريق التوحيد ،
ولو أن الجامعة قد اثبتت حتى وقتنا الحاضر عقمها عن امكانية ايجاد
أي توحيد جدي سواء أكان هذا التوحيد سياسياً او اقتصادياً نظراً
لبنيها الانفصالية .

والتوحيد الاقتصادي يعني تعاوناً اقتصادياً كاملاً بحيث يشمل
ازالة جميع الحواجز عن المعاملات التجارية الجارية وحرية تنقل الرساميل
العربية والاشخاص .

وقد يظهر هذا النوع من التقارب مثلاً في إنشاء وحدة جمركية
تامة تسمح بالحرية المطلقة للتجارة وتنقل الرساميل بين أعضاء الجامعة ، الا ان
نجاح مثل هذه الوحدة يتوقف الى حد كبير على الامور الثلاثة التالية :

اولها توحيد السياسات التجارية والمالية لاعضاء الجامعة ، وثانيها
توحيد الجداول الجمركية بالنسبة للبضائع الاجنبية وثالثها وضع اتفاقية
مدفوعات جماعية Multilateral Payments Agrèement وذلك لأجل تأمين
قابلية التحويل لمختلف نقود الدول الاعضاء .

ومما لا شك فيه ان النمو الاقتصادي يتخذ بالضرورة مظهر
الارتفاع المستمر للدخل الوطني الحقيقي بالنسبة للفرد ، ويعتمد لذلك والى
درجة كبيرة على امكانيات استثمار وتكوين الرساميل على مختلف أنواعها . أي
أنه بقدر ما يساعد التوحيد على جعل استثمار الموارد الفائضة في جهات معينة
امراً ميسوراً في تلك الجهات المفتقرة اليها ، وبقدر ما يسهم في تكوين الرساميل

والادوات الضرورية للنمو الاقتصادي ، تتحقق وسائل وشروط ارتفاع مستوى المعيشة للسكان .

ان هذه التحديدات التي عرضنا اليها ضرورية ولا شك لحصر البحث في النطاق الاقتصادي الذي نهتم به هنا اولاً ، ولتبسيط التداخل الظاهر بين قضيتي التوحيد والنمو ثانياً ، لأن عوامل النمو كثيرة وتختلف باختلاف البلدان .

فقد يكون انعدام الرساميل هو المعضلة الرئيسية في أحد الاقطار ، بينما يكون النقص في الخبرة الفنية أو تكاثر السكان العائق الاول في طريق النمو في قطر آخر (١) ، ولكن رغم ذلك لا بد من التأكيد بأن قضايا استثمار وتكوين الرساميل عنصر اساسي وراء كل نمو وخصوصاً في البلاد المتخلفة اقتصادياً كقطار الوطن العربي .

وقبل ابراز العناصر التي تربط بين نمو الاقطار العربية وتوحيدها اقتصادياً لا بد لنا من ان نعرض باختصار الى مدى التعاون الاقتصادي العربي الحاضر والتي كنا قد الحنا الى بعضها بشكل سريع عاجل قبل قليل .

١ - واقع التعاون الاقتصادي الحاضر :

يتخذ التتارب العربي الحاضر في حقل الاقتصاد مظهرين رئيسيين : اولهما - الاتفاقات الثنائية التجارية العربية ، وهذه الانفاقات بالرغم من بعض الفروق بينها ، لا يتعدى اكثرها نفعاً التخفيض الجمركي على بعض المنتجات الزراعية والصناعية العربية مما قد ينشط الى حد ما التبادل التجاري ، الا انه قد يكون للمسائل السياسية هنا وجهاً آخر

(١) سبق ان بحثنا هذا الموضوع سابقاً باسهاب في بحثنا لمظاهر تخلف الاقتصاد العربي .

في إيقاف هذه الاتفاقات أو تعطيلها أحياناً مما يجعلها غير ذات فائدة بشكل جذري .

ثانيها - الاتفاقية الاقتصادية الجماعية التي عقدت بالقاهرة في ١٧ ايلول عام ١٩٥٣ في الجامعة ، وقد اعتبرت في حينها أول خطوة نحو تنسيق التوحيد الاقتصادي الا أنها لم تؤت الثمرة المرجوة منها لاسباب متعددة ، مع هذا فقد قسمت هذه الاتفاقية الى قسمين : الاول يتعلق بالتجارة والترازيت ، والثاني يتناول قضايا المدفوعات والرساميل .

أما القسم الاول فقد انطوى على النقاط التالية :

أ - اعفاء جمركي تام لاصناف عديدة من المنتجات الزراعية والحيوانية العربية .

ب - اعفاء جمركي جزئي يتناول بعض المنتجات الصناعية العربية .

ج - تسهيل تجارة الترازيت وفق الانظمة السارية .

بينما نص القسم الثاني على تسهيل المدفوعات الناجمة عن الاعمال التجارية وفق نظم القطع واتصدير والاستيراد المعمول به في كل قطر متعاقد ، وان السماح بحرية تنقل الرساميل بين الاقطار يخضع لشرط المساهمة في مشاريع الاعماء الاقتصادي .

ومن دراسة هذه الاتفاقية يتبين ان الهدف الرئيسي لها هو فقط تنشيط التجارة المنظورة بين أعضاء الجامعة عن طريق الاعفاءات الجمركية ، أما حرية تنقل الرساميل فلا تزال محدودة ، كما ان تسهيل المدفوعات الناجمة عن التجارة بين هذه الاقطار لا تزال تخضع للنظم المختلفة الموجودة في هذه الاقطار .

وعلى الرغم طرح موضوع السوق العربية المشتركة مؤخراً من قبل مجلس الوحدة الاقتصادية في ١٣/٨/١٩٦٤ وسعي بعض الاقطار العربية وضعها موضع التنفيذ (١) فقد مرت ولا تزال تمر بعقبات عدة منها السياسي كخوف بعض الاقطار التي أدعت بأن السوق تدخل صريح في شؤونها الداخلية ومنها الاقتصادي الناجم عن اختلاف النظم المعمول بها بين دعاء الاقتصاد الحر والموجه الاشتراكي...ومنها عقبات مادية تنصب على الخوف الوهمي من مشاركة الاشقاء لارباح الاقطار البترولية .

وان المبادئ الاساسية التي قامت عليها السوق لا تخرج عن كونها توسيعاً للاتفاقية الاقتصادية الجماعية التي الحنا اليها قبل قليل مع اطلاق حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الأموال ، وعدم جواز فرض رسوم أو ضرائب على المنتجات العربية تزيد على الرسوم التي تفرصها الدولة على منتجاتها الداخلية ، وعدم خضوع المنتجات المتبادلة الى رسم تصدير جمركي الخ...

وبناء على ما تقدم فلم توقع على قرار انشاء السوق الا خمس دول فقط من مجموع الدول العربية وهي الاردن والعراق وسوريا ومصر والكويت ، ورغم ذلك فلا يزال التقارب الاقتصادي العربي كما يبدو من جملة الاتفاقات بعيداً جداً عن مفهوم التوحيد الاقتصادي ولو ان السوق العربية المشتركة لو أقرت من جميع الاقطار العربية لكانت طريقاً من طرق التنمية الاقتصادية العربية ولبنة من لبنات اقامة صرح الوحدة الاقتصادية ولكن ويا للأسف فان المنافع - وما أقلها - التي يمكن ان تنتج

(١) ان اول دولة اقترتها كانت الاردن ، في حين اعربت الكويت عن رغبتها في عدم مشاركتها فعلا في هذه السوق حتى يتسیر لها الاشتراك المتكافئ .

عن اتوحيد الاقتصادي لا تزال في حدودها الدنيا ان لم تجن بعد اطلاقاً رغم كل هذه الاتفاقات .

٢ - فوائد التوحيد الاقتصادي :

تبدو هذه الفوائد اولاً في المنافع العامة التي قد تنجم عن أي شكل من اشكال التوحيد الاقتصادي وثانياً في المنافع الخاصة التي تنجم عن التوحيد الاقتصادي العربي .

أما المنافع العامة والتي كانت سبباً في اقرار مبدأ السوق الاوروبية المشتركة من قبل دول متنافسة تمزقها الحروب والاختلافات وتباعد بينها اللغة والتاريخ والتراث والعداء التقليدي فتبدو لنا كما يلي :

أ - ان التوحيد يوسع امكانيات التصنيع ويمكن من جني المنافع التي تنجم عن الانتاج الواسع . واذا اعتبرنا أن البلاد المتخلفة اقتصادياً تلجأ عادة الى الحماية الجمركية لمساندة صناعتها المتخلفة ، ما قد يؤثر تأثيراً سيئاً بصورة غير مباشرة على الصناعات التي تعتمد على التصدير فان التوحيد يعمل على تخفيف هذا التأثير السيء .

ب - كلما توسعت الوحدة الاقتصادية التي تسمح بالحرية المطلقة لتنقل الرساميل ازدادت الكفاءة الاقتصادية لزيادة مجال التخصص .

ج - ومن الحقائق الثابتة ان القسم الاكبر من الرساميل الاجنبية في البلاد المتخلفة اقتصادياً يوظف في صناعة استخراج المواد الاولية المعدة للتصدير الى البلدان المتقدمة صناعياً واقتصادياً .

وان أحد اسباب هذه الظاهرة هو ولا شك ضعف القوة الانتاجية وبالتالي القوة الشرائية في البلد المتخلف مما يجعل التوظيف في الصناعات التي تعتمد على قوة الشراء المحلية امرأ غير مرغوب فيه .

فإذا افترضنا ان النمو الاقتصادي يتطلب الى حد ما توظيف الرساميل في تلك الصناعات التي تعتمد على الاستهلاك المحلي ، فان التوحيد يكون عاملاً مساهماً في انحاء القوة الانتاجية والثرائية وبالتالي عامل جذب لرؤوس الأموال باتجاه تلك الاعمال التي تعتمد على الانتاج والاستهلاك المحلي، وبعبارة اعم ان التوحيد يشكل جاذباً أقوى للرساميل الاجنبية المرغوب فيها ويعمل على فتح مجال التخصص في مثل هذه الصناعات .

و - ان تحقيق المنافع الثلاث المذكورة آنفاً يعمل على رفع الدخل الوطني الحقيقي بالنسبة للفرد ، أي يتيح امكانيات اكبر لتكوين الرساميل وبالتالي يسهم في النمو الاقتصادي .

وهذه المنافع الرئيسية ستكون ميسورة التحقيق اذا ما تحققت الوحدة الاقتصادية العربية بل ستكون عوامل فعالة في سبيل الانماء الاقتصادي الاجتماعي .

أما منافع التوحيد الاقتصادي العربي فهي كثيرة الا ان أول ما يستلفت النظر فيها هو الحقيقة التالية :

ان الوطن العربي يشكل وحدة اقتصادية اقليمية غنية بالموارد الضرورية للتصنيع والنمو ، وان عدم الاستفادة من هذه الموارد لا يعود فقط الى عدم استغلالها استغلالاً كاملاً من قبل كل قطر بشكل منفرد ، بل الى وجود الحواجز الاقتصادية بين هذه الاقطار مما يشكل عقبة رئيسية في طريق الاستغلال المرجحي .

الا أن هناك عاملين رئيسيين تركز عليهما مساهمة التوحيد العربي في الانماء العربي :

اولا - ان التوحيد يؤمن توزيعاً أفضل من ناحية التوظيف لموارد البترول فلا تبدو هناك اقطار تفيض بهذا المورد بينما هناك اقطار بحاجة ماسة اليه .

ثانياً - ان التوحيد يسهم في ازالة العقبات الناتجة عن ضعف القوة الانتاجية والشرائية في الاقطار العربية ، تلك القوة التي تكوّن اساس النمو ومستوى المعيشة ، فكما قويت عناصر الانتاج وارتفع الدخل الحقيقي للفرد العربي اتسعت امكانيات الادخار Savings وتكوين الرساميل التي تشكل العنصر الاساسي للانتاج ، على أنه يجب التنبه الى أن تحقيق التوحيد بمحد ذاته لا يعتبر ضماناً كافياً لازالة العقبات الناتجة عن ضعف القوة الانتاجية ، بل يوسع امكانيات التغلب عليها بوسائل شتى لا مجال لبحثها هنا .

الا ان التوحيد الاقتصادي العربي ولا شك يشكل عنصراً هاماً ورئيسياً في التطور الاقتصادي للوطن العربي اذا ما روعي في تطبيقه الطرق السليمة .

٣ - العقبات القائمة في وجه التوحيد الاقتصادي :

ترجع هذه العقبات الى عوامل عدة اقتصادية وسياسية واجتماعية يصعب في كثير من الأحيان التفريق بينها بسبب تداخلها وتشابكها ، لأن السياسات الاقتصادية والسياسة كثيراً ما تكون وثيقة الصلة بحيث يتعذر التمييز بينها كأن يكون احدها سبباً للآخر أو بالعكس .

فاذا أهملنا الجانب السياسي والاجتماعي في قضية التوحيد واعتبرنا انها محلولة مع الزمن نجد ان العقبات الرئيسية في وجه التوحيد الاقتصادي هي عقبات اقتصادية بالدرجة الاولى وانها تتبدى بشكلين رئيسيين :

اولهما - اختلاف الفلسفة الاقتصادية المتبعة في كل قطر بمحد ذاته .

ثانيهما - تأثير المصالح الاقتصادية الشخصية المقاومة لمشاريع التوحيد .

ومما لا شك فيه ان التغلب على العقبة الاولى أمر جوهري وضروري للوصول الى التوحيد الاقتصادي . واذا نحن عرضنا هنا الى اسباب القطيعة الاقتصادية بين سوريا ولبنان عام ١٩٥٠ مثلاً فذلك لأننا نرغب بأن نبرهن على أهمية التقارب في السياسات الاقتصادية المتبعة على التوحيد الاقتصادي .

ومن المعلوم ان من أهم الاسباب في الانفصال الجرمي بين القطرين هو اختلاف وجهات النظر بالنسبة للسياستين التجارية والمالية ، ففي حين اتجهت سوريا نحو تقييد التجارة الخارجية بواسطة رفع التعرفة الجمركية ، واللجوء الى نظام « الاجازة المسبقة » وتحديد اسعار القطع ، اتخذ لبنان سبيلاً مما كسباً لازالة الحواجز عن اعمال التجارة الخارجية - عدا التعرفة الجمركية - وبتأسيسه سوقاً مالية حرة ، وكان هذا من اسباب الاختلاف والقطيعة لأن سوريا كانت ترمي الى حماية صناعاتها الناشئة .

ومما لا شك فيه ان إيجاد تقارب في السياسات التجارية والمالية والاقتصادية عموماً بين الاقطار العربية ضرورة حتمية لا يمكن بدونها اغراء هذه الاقطار على العمل من أجل التوحيد الاقتصادي ، وهذه المهمة الشاقة لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق الاغراء أو الاكراه السياسي . أما العقبة الثانية وهي وجود عناصر قد تتضرر اقتصادياً من جراء التوحيد ، فأمر التغلب عليها منوط الى حد كبير بالفئات الحاكمة واتجاهاتها السياسية ، وما الانفصال الذي وقع بين سوريا ومصر عام ١٩٦١ الا مظهراً من

مظاهر بروز العناصر المستغلة التي دعمت وايدت الانفصال ، وهكذا نرى أن للاتجاهات السياسية أثر كبير على التوحيد الاقتصادي .

وان قضايا الوحدة العربية الشاملة متعددة قد يظهر البعض منها مستحيل التحقيق ، كما ان مفهوم الوحدة لا يزال غير واضح بحيث يفسر تفسيرات شتى متباينة وهذا ما سنعرض اليه فيما بعد عند البحث في اهداف الأمة العربية ، الا ان هذه الحقيقة تصدق بشكل خاص في المجال السياسي حيث تتوفر عناصر الاختلاف ، ولهذا السبب بالذات تبرز اهمية التشديد على التوحيد الاقتصادي عند دعاة الوحدة ، وان التطبيق العملي للتعاون والتقارب الاقتصادي بين الاقطار العربية لا يزال من أجدى الوسائل للوصول الى الوحدة المرجوة ولايجاد الاسس التي تبنى عليها الوحدة الشاملة .

فحيث يتعذر التوحيد السياسي لأسباب جوهرية كاختلافات الفلسفات السياسية والاجتماعية نجد ان التقارب الاقتصادي قد يجد سبيله الى التحقيق رغم الفوارق السياسية لانه مفعمة مشتركة للجميع بصرف النظر عن اختلاف الفلسفات الاجتماعية والسياسية للاقطار العربية بل ويساعد على تطوير تلك الفلسفات وتقاربها .

واختلاصة : فلقد عمدت قوميات متباينة وحكومات متنافرة الى توحيد اقتصادها وجهودها في البناء الاقتصادي فيما اطلق عليه اسم الاسواق المشتركة كالسوق الاوروبية المشتركة وما شابهها في القارة الامريكية ، وذلك لأن هذه القوميات قد وجدت ان الصالح المادية في هذه المرحلة من تاريخ البشرية قد اوضحت ذات أهمية قصوى تفوق التفرقة القائمة على الاسس القومية . والوطن العربي باعتباره وحدة قومية كاملة مهية

لمثل هذا التوحيد الاقتصادي نظراً للوحدة القومية التي تربط بين أقطاره
برباط وثيق ، ناهيك عن المصلحة الاقتصادية التي تتحقق في تحقيق مثل
هذا التوحيد .

الحلول السياسية للتخلف :

مما لا شك فيه ان الحياة الاجتماعية كل موحد منها نشبت مظاهرها
وتمدت جوانبها ، إذ انها كل متفاعل متكامل يؤثر بعضه في البعض الآخر ،
ولقد سبق ان عرفنا الى أن السياسة لا يمكن فصلها اطلاقاً عن الاقتصاد ،
كما أن للاقتصاد أثره الواضح على السياسة ، والسياسة نفسها تطبع الحياة
الاجتماعية بطابع معين متميز .

وان تفاوت الانظمة السياسية في وطننا العربي الجزأ حتى اليوم يجعل
النظم الاقتصادية التي يأخذ بها كل جزء تختلف باختلاف النظام المعمول به وكذلك
بالسياسة التي تنتهجها حكومات الاقطار .

لذلك كان من الضروري استعراض النظم الاقتصادية القائمة في الحلول التي
أنتجت لتطوير المجتمع العربي ، ودفع التنمية الاقتصادية فيه .

١ - النظم الاقطاعية :

يقوم النظام الاقطاعي على مشروعية الملكية الكبيرة للأرض الزراعية ،
ولقد ورث هذا النظام من نظم العبودية التي كانت مشروعة في القرون
الاولى فكرة ارتباط الفلاح بالأرض التي يعمل بها ، بل لقد اعتبره بعضها
جزءاً لا ينفصل عن الأرض التي يعمل بها ، يباع ويشترى معها .

وقد نشأ هذا النظام منذ عهود الغزو مع فجر التاريخ ، وكان
الغزو يمنح الغازي حق امتلاك ثروة المدحور المهزوم ، ولما كانت أغلب

الملكيات في تلك العهود تنحصر بالارض ، لذا فقد استباح العزاة الارض ووزعوها على الموالين لهم وبمساحات كبيرة وملكوهم هذه الارض يستغلونها على شكل اقطاعات هم وورثتهم من بعدهم . ولن نناقش نحن هنا النظرة القائلة بأن الاقطاعات نشأت بسبب حاجة الفلاح الفرد الى حمايته من الغزو فوضع نفسه رهينة من أجل حمايته تحت وصاية من يتمكن من ان يحميه .

ومها يكن سبب نشوء الاقطاع فقد امتد هذا النظام حتى القرن الخامس عشر في القارة الاوروبية ، وانبرى المنتقمين منه يحاولون تكييف الاوضاع السياسية حسب رغائبهم المحافظة على امتيازاتهم فاصدروا التشريعات المختلفة التي تخدم مصالحهم واقتتلت الاوضاع نتيجة تحول رجال الكنيسة الايطالية وغيرها الى اقطاعيين تبنا في فترة الانحطاط حتى مبدأ السخرة .

والى جانب الاقطاع في القرون الوسطى قامت طبقة وسطى عملت في التجارة بعيدة عن سيطرة الاقطاع تعمل لمصلحتها الخاصة دعيت باسم الطبقة البرجوازية ، ووضحت ثري حتى على حساب الاقطاعية التي سمحت لها بالتمايش الى جانبها ، ولم يلبث الوضع ان انقلب بعد لجوء العديد من الامم الى الاستعمار اذ ازدادت قوة البرجوازية الوطنية حتى أنها استخدمت الدولة والاقطاع ذاته للمحافظة على بقائها ، فأضحت الثروة في ايديها وخاصة بعد ان انتشر التعليم والتفكير الحر في القرن ١٦ .

والنظام الاقطاعي لا يزال واللاسف حتى اليوم منتشرأ في بعض الاقطار العربية وهو وإن كان قد بدأ مع منح الامراء أثناء الفتوحات الارض لمواليهم الا انه استمر ايام العثمانيين والاستعمار القديم لأنه كان

نظاماً وجد ليخدم قضايا الاستعمار والاستثمار لقضايا الوطن العربي ، ولقد تميز هذا النظام في الوطن العربي باستغلال بشع لحاجة الفلاح الى العمل مما اوقعه تحت ظروف سيئة فعانى الاستغلال والحرمان والهوان .

لهذه الاسباب جميعاً وضعت الثورات العربية كهدف من أهدافها المرحلية القضاء على الاقطاع وتحرير الفلاح وجهده من السيادة الخانقة التي كان يمارسها الاقطاع عليه ويهدر بذلك قيمة الانسانية .

القوانين الاصلاحية وقانون الاصلاح الزراعي :

هدفت قوانين الاصلاح الزراعي وقوانين العمل الزراعي ومنع تهجير الفلاحين الى معالجة الاوضاع الفلاحية السيئة والتي هي ذات أثر بالغ على الحياة الاجتماعية بصورة عامة ، ولقد تبنت جميع الاقطار العربية ذات الاتجاه الاشتراكي قوانين الاصلاح الزراعي لتحرير ارادة الاكثرية من مساكنها وجملهم يمتلكون القدرة على تقرير المصير الذاتي ، بعد ان ظلوا طويلاً يرسفون في قيود الذل والعبودية .

وكان أول قانون صدر للاصلاح الزراعي هو القانون المصري عقب ثورة عام ١٩٥٢ ، اذ ان الحاجة كانت تمس في ذلك الفطر الى إيجاد وسيلة لتحرير اكثرية الفلاحين ، حيث كان يسيطر ٦٪ من مجموع الملاك على ٦٤,٥٪ من الاراضي الزراعية الخصبه بسبب عصور الظلم التي مرت على ذلك انقطر ، ولقد صدر القانون على مرحلتين ، بدأت اولها عام ١٩٥٣ وتقرر فيها الاستيلاء على جميع الاراضي الزراعية التي تتجاوز ٢٠٠ / فدان لتوزع على غير المالكين من فلاحين وعمال تراحيل ، بحيث يصيب الواحد منهم ما لا يقل عن فدانين و يزيد على خمسة افدنة ، ثم خفض

سقف الملكية العليا بمقدار النصف عام / ١٩٦١ / سجماً للاوضاع مع ما جرى في القطر السوري من جهة وللحاجة الى ارض جديدة توزع على من لم يصبه نصيب في التوزيع الاول من جهة أخرى فحددت الملكية العليا بمائة فدان للمالك الواحد .

اما في القطر السوري فقد كانت نسبة لا تزيد عن ١٥٪ من مجموع المالكين تسيطر على خمس الاراضي الزراعية المروية ، فصدر عام ١٩٥٨ قانون للاصلاح الزراعي حدد الحد الاعلى للملكية الزراعية بـ / ٣٠٠ / هكتار من الاراضي البعلية أو / ٢٠٠ / هكتار من الاراضي المروية أو المشجرة ، ثم عدلت هذه النسبة بقانون لاحق خفض الحد الاعلى للملكية وقسم الارض الزراعية وفقاً لكميات الامطار السفوية ، وحسب نوع الارض وجودتها فتراوحت الملكية الزراعية العليا بين ٢٠ هكتار في اراضي الغوطة الدمشقية و / ٢٠٠ / هكتار في الاراضي البعلية في الجزيرة السورية ، ووزع الفائض وما يزال على الفلاحين ينسبة خمسة هكتارات للأسرة الواحدة .

وكذلك فقد أصدر في القطر العراقي مع ثورة ١٨ تموز عام ١٩٥٨ قانون للاصلاح الزراعي جعل الحد الاعلى للملكية الزراعية / ٢٠٠٠ / دونم في الاراضي البعلية و / ١٠٠٠ / دونم في الاراضي المروية .

أما في القطر الجزائري فقد صودرت الاراضي الزراعية المحصية والتي كان يفتصبها منذ زمن بعيده المستعمرون الاوروبيون ووزعت على السكان العرب وذلك بعد حصول الجزائر على الاستقلال عقب معاهدات ايفيان .

ولكن على الرغم من صدور عدد من القوانين الاصلاحية لا تزال الاقطاعية تسود في بعض الاقطار العربية الاخرى ، كما ان هذه

القوانين لم تكن قط بكافية لأن تحرير الفلاح من عبودية الارض لم يواكبه في كثير من المناطق نشوء التعاونيات المختلفة التي تساعد على تحريره تحريراً كاملاً .

٢ - النظم الرأسمالية :

على الرغم من أن التناقضات الحادة التي ظهرت في أوروبا بين النظم الاقطاعية والبرجوازية والتي أدت الى تقويض دعائم الاقطاعية من قبل البرجوازية الجديدة في تلك البلاد ، لم تظهر بشكلها الحاد في وطننا العربي حيث كان هناك حلف مقدس بين الاقطاع والبرجوازية والاجنبي لفترة طويلة من الزمن ، الا ان أسس النظام الرأسمالي كانت تطل برأسها في رحاب الوطن العربي ، وعندما أطلت البرجوازية العربية برأسها حاول الاقطاع مقاومتها الا أن محاولته كانت في غير عصرها ، فأحنى هامته أمامها محاولاً التعايش معها .

والنظم الرأسمالية عموماً تشجب تدخل الدولة ان لم يكن التدخل لمصلحتها ، وتنادي بالحرية الفردية في كافة المجالات كشرط أساسي لتحقيق هدفها الاكبر وهو المصلحة الشخصية وخاصة الحرية الاقتصادية التي تعتبرها وسيلة أساسية للحصول على الثروة .

وقد أوضح آدم سميث Adam Smith أسس هذا النظام في كتابه « ثروة الامم » فافترض وجود توازن آلي بين الانتاج والاستهلاك ، لأن الربح يدفع المستحدث (صاحب العمل) الى بذل أقصى جهده لتحسين الانتاج وتقليل التكاليف للصدور أمام منافسة الغير مما يعود بالفائدة على المستهلك الذي يتمكن من اشباع حاجاته بأدنى الاسعار وأجود السلع .

أما الدولة فتتحصص واجباتها في توفير حرية المبادرة الفردية وتأمين

حرية البلاد وأمنها واحترام العقود بين الافراد والقيام بالخدمات المختلفة ...

ومع الثورة الصناعية تدّعم هذا النظام وقامت الصناعات الكبرى وتشكلت طبقة عمالية تزايد وعيها مع ازدياد العلم والافكار الثورية الفلسفية الجديدة .

وإذا كانت أوروبا قد استفادت من تطبيق هذا النظام عن طريق دعم الدولة لصناعاتها بالاستعمار ، إلا ان تطبيق هذا النظام في بلاد متخلفة كبلادنا قد كشف عن الكثير من عيوبه ، بسبب من ضعف صناعاتنا أولاً ثم لانعدام السوق الخارجية المدعومة بالاستعمار والمنافسة الدول الكبيرة. الانتاج لصناعاتنا المحلية وأم هذه العيوب :

آ - التعارض بين مبدأ الفردية والمصلحة العامة : فالرأسمالية لم تخدم إلا مصالح طبقتها وحدها ، وان تدمير الانتاج وتهريب السلع والاموال لمقاومة كل توجيه اقتصادي ظاهرة بارزة في المناطق التي أخذت حكوماتها بالتوجيه الاقتصادي من أجل المصلحة العامة .

ب - فشل النظام الرأسمالي في تحسين أوضاع المجتمع : ونتيجة اتجمع الثروة بيد أفراد قلائل ، سعى هؤلاء الى السيطرة على الحكم لتأمين مصالحهم ونادوا بالحرية - حريتهم هم - في الاستغلال والكسب غير المشروع ، واعتبروا العمل الانساني سلعة تخضع للسوق أي لقانون العرض والطلب .

ح - سوء توزيع الثروة والدخل : ولقد ظهرت نتيجة لظاهرة تركز الرأسمال فئتان ، صغيرة تملك ولا تعمل وكبيرة تعمل ولا تملك ، مما جعل مبدأ تكافؤ الفرص الذي ينادي به أصحاب النظرية الحرة في الاقتصاد حبراً على ورق .

و - تقييد الانتاج لمكافحة انخفاض الاسعار : وإذا فاض الانتاج عن استيعاب السوق يعتمد الرأسماليون الى خفض من انتاج مصانعهم للحفاظ على سوية الاسعار ، ويلجأون الى تسريح عدد كبير من العمال لخفض انتاجية هذه المصانع دون الاهتمام بمصالح هؤلاء العمال وأسره .

ه - نشوء الاحتكارات والانحصارات لمكافحة المنافسة :

وبسبب المصلحة المشتركة للطبقة الرأسمالية انى كانت ، نشأت اتحادات ومنظمات تجمع بينهم كالكارتل والتروست دفاعاً عن مصالح هذه الطبقة وتأميناً لديومة استغلالها وتخلصاً من المنافسة الضارة بمصالحها .

و - وقوع الازمات الاقتصادية : يعقب فترات النشاط الاقتصادي والازدهار الرأسمالي عادة زيادة في الانتاج عن طاقة الاستهلاك مما يؤدي الى تدهور في الاجور وهبوط في الاسعار بسبب قلة الاستهلاك وارتفاع اسعار الانتاج وصعوبة تمويله ، وليست الازمات الاقتصادية التي مر بها العالم عقب الحربين العالميتين الاولى والثانية عنا ببعيد ، وإذا كانت الدول الرأسمالية تحاول حتى اليوم بشتى الطرق تفادي ازمات اقتصادية جديدة عن طريق ايجاد منصرف لفائض الانتاج ، فان هذه الازمات لا بد حاصلة طالما ان الدول المستغلة قد أخذت بالاستيقاظ .

والاقطار العربية على الرغم من أنها لم تصل بعد الى النظام الرأسمالي بمعناه العالمي بسبب ظروفها الخاصة الا أن بعضها قد أخذ في فترة ما بعد الاستقلال بهذا النظام محاولاً تطويره بما يلائم أوضاعه .

الا أن بروز معالم ومعابب النظام الحر قد دفع بالاقطار العربية المنادية بالاشتراكية وبتحرير العمال والملاحين الى الاخذ بنظام تحديد

الملكية الصناعية كوسيلة للحد من سيطرة الرأسمال على حياة المجتمع ومصيره .

تحديد الملكية الصناعية :

عمدت بعض الاقطار العربية بعد أن است عملياً معايب الاقتصاد الحر الى تبني سياسة تهدف الى علاج الاوضاع عن طريق التحويل الاشتراكي (١) سيما وقد شعرت هذه الاقطار أن القطاع الخاص ، بعد أن خاف من انتشار الافكار الداعية للعدالة الاجتماعية والى تكافؤ الفرص ، أخذ يحجم عن كل تطوير صناعي فبلي ، فأخذ يهرب الأموال الى البلاد الاجنبية ، على الرغم من الامتيازات التي كان هذا القطاع يتمتع بها ، كحماية الصناعات الناشئة من المنافسة الداخلية عن طريق نظام الاجازات الخاصة وحماية هذه الصناعات من المنافسة الخارجية عن طريق رفع التعريفات الجمركية على المنتجات المماثلة والاعفاء من الضرائب العامة طيلة فترة التأسيس ، ثم المساعدات التمويلية والقروض الصادرة عن الدولة .

وقد اتاحت هذه الامتيازات فرص النمو للقطاع الخاص فقوي واشتد وأخذ يضغط على الحكم لتكريس امتيازاته ، لذلك فقد عمدت بعض الاقطار العربية للحيولة دون تمركز رأس المال واستغلاله وتوجيه دفة الحكم فيه الى اصدار القوانين المحددة للملكية الصناعية كحل مرحلي ، كالقانون رقم / ١١٩ / لسنة / ١٩٦١ / الصادر في القطرين المصري والسوري والذي جعل الحد الاعلى للملكية المسهم الواحد في مجموعة من الشركات لا تتجاوز مبلغ عشرة آلاف جنيه مصري ، أو مائة الف ليرة سورية ، مع استيلاء الدولة على فائض الاسهم ، والتعويض على أصحابها خلال مدة محددة من الزمن وبفائدة معينة .

(١) ك مصر وسوريا والجزائر .

الا ان هذا الاجراء لم تكن نتيجته الا محاولة لتخريب القطاع الصناعي بما حدا بالدولة الى الدخول كشريك مشرف على كافة الشركات الصناعية عن طريق امتلاك ربع أو نصف اسهمها ، الا ان هذا الحل كان حلاً مرحلياً لم يجد لأن الرأسمالية استطاعت حتى ان تشتري المشرفين المينين من قبل الدولة .

وأمام وضع كهذا لم تجد الدولة ورائدها العدالة الا طريقاً واحداً وهو تأميم القطاع الصناعي بمؤسساته الكبيرة ، وقد اختلف حجم المؤسسات المؤممة بين القطر المصري والسوري لاختلاف وجهات النظر في الاسس الاشتراكية ، اذ أن القطر السوري قد أخذ بمبدأ التأميم التام لكثافة المصانع والمؤسسات الحيوية بموجب المرسومين التشريعيين ١ و ٢ لعام / ١٩٦٥ / وذلك لتطوير الاقتصاد الوطني الذي امتنع الرأسمال عن تدعيمه وللحيلولة دون الاستمرار في تهريب الاموال الى الخارج ومحاولة لتحقيق عملية التنمية الاقتصادية على أوسع نطاق ممكن ، عن طريق الاعتماد على التسيير الذاتي في ادارة المؤسسات المؤممة (١) .

وان جدولاً كالتالي يظهر لنا ان القطاع الخاص الرأسمالي قد أحجم عن تطوير الاقتصاد الوطني غير عاىء الا بمصلحته بعد ان استشم اتجاه الدولة نحو قوانين تحديد الملكية وهذا الجدول يشير بوضوح الى احجام ما يدعى بالقطاع الخاص عن كل تنمية صناعية بعد صدور مثل هذه القوانين مما أجبر القطاع العام على تحمل كامل مسؤولياته في التنمية احقاقاً لحق الجماهير ولتأكده من صعوبه تحقيق أي تعايش بين القطاعين الخاص والعام في فترة التحويل الاشتراكي .

(١) وقد أخذت الجزائر ايضاً بمبدأ التسيير الذاتي .

جدول بالاستثمارات الصناعية
بملايين الليرات السورية بين عام ١٩٥٥ - ١٩٦١

القطاع الخاص	القطاع العام	السنة
٢٨٥	٩٥	١٩٥٥
٣٠٥	٦٠	١٩٥٦
٢٠٦	٦١	١٩٥٧
٢٣٥	٨٤	١٩٥٨
٢٢٣	١٢٠	١٩٥٩
١٥٤	٢٦٥	١٩٦٠
٢٠٠	٣٢٣	١٩٦١

٣- الاشتراكية والاشتراكية العربية :

مفهوم الاشتراكية :

يهدف النظام الاشتراكي الى تحقيق العدالة الاجتماعية من جميع وجوهها وهو كنظام يتحدد عادة بحدود تميزه عن غيره من الانظمة الاقتصادية والاجتماعية ، ويختص بخصائص متعددة تبدو فيما يلي :

أ- الملكية الجماعية لوسائل الانتاج - الارض ورأس المال -

ولقد نادى أول من نادى الى هذا النوع من الملكية اتباع سان سيمون على ضوء مبادئ استاذهم (١) ، الذي كان يرى ان الملكية الفردية

(١) انظر كتاب الاشتراكية العربية والاشتراكية العالمية للدكتور محمد طلعت عيسى القاهرة عام ١٩٦٥ .

قد اوضحت اداة استغلال وظلم اجتماعي لذلك « كان لا بد من اخراجها من يد المستغلين الذين لا يعملون الى يد العمال انفسهم ، وذلك يكون عن طريق ترك العمال لحياثهم التقليدي والمبادرة الى استسلام زمام أمورهم بأنفسهم ، أي أنهم كانوا من دعاة تملك وسائل الانتاج للمجتمع لا للفرد أو الافراد .

ثم زاد من تلاهم توضيحاً لهذا المفهوم الاشتراكي ، والذي لم يدعه صاحبه سان سيمون ابدأ بالاشتراكية بل دعا « بتنظيم المجتمع » وانما دعا أحد تلاميذه من بعده بهذا الاسم ، فأجازوا في بعض الاحيان تملك الافراد للارض ورأس المال الضروريين لبعض الاعمال على أن لا يؤدي ذلك الى أي نوع من أنواع الاستغلال ، كيجواز تملك الفرد لمسكنه أو لعدد صغير من الدواجن أو لمصنع صغير يعمل به واولاده دون استغلال لجهود الآخرين :

ب - اشراف الدولة على الانتاج وتخطيطه :

ومعنى هذا ان تقوم الدولة بادارة شؤون الصناعة ، لتضع جميع المصادر الانتاجية في خدمة وجوه النشاط المختلفة وذلك من أجل تحقيق أكبر قسم ممكن من مطالب المستهلك وحاجاته ، وبهذا ايضاً تتمكن الدولة من الاشراف على عملية توزيع الدخل والارباح بموجب المبدأ القائل « لكل حسب عمله » .

الاشتراكية العربية (١):

على الرغم من تشابه طرق الاصلاح التي أخذت بها الاقطار

(١) سنبحث هذا البحث بشكل مطول عندما نحدد اهداف الامة العربية في الباب الرابع من هذا الكتاب .

العريية المناهية بالاشتراكية ، الا انه لم يضع أحد بعد حدوداً واضحة معينة لنظرية اشتراكية عريية ، وان كان جميع دعاة الاشتراكية العريية يتفقون على ان هذه الاشتراكية يجب الا تكون تلك التي طبقت في بلد معين اجني بل يودون تطوير اشتراكية عريية خاصة بالاستناد الى المفاهيم الاشتراكية عموماً مع الدعوة الى تعديلها وفق الظروف المكانية والزمانية للأمة العريية . وكذلك يميز دعائها بينها وبين الاشتراكية المادية ، اذ انهم يلحون على ان المادة ليست كل شيء في الوجود ، كما أنه لا ضرورة لالغاء الملكية الخاصة الغاء تاماً وانما يرون ان تحديدها (١) أمر ضروري ولمصلحة المجموع ، وان كانوا جميعاً يؤكدون ضرورة سيطرة الشعب على جميع وسائل الانتاج الكبير عدا الارض الزراعية ، مع الحاحهم على اذابة الفروق بين الطبقات بالوسائل السلمية وذلك عن طريق توزيع قاعدة الثروة القومية بشكل يؤمن الحاجات الأساسية للأفراد وفقاً لمبدأ تكافؤ الفرص .

أما وسائل تحقيق ما ترمي اليه فيكون :

آ - بتجميع المدخرات القومية .

ب- باستثمار هذه المدخرات بأفضل الوسائل العالمية الحديثة التي تكفل أوفر انتاج .

ج- باتباع تخطيط علمي شامل لعملية الانتاج بحيث لا تترك السياسة الاقتصادية للارتجال والفردية هذا وان دعاة الاشتراكية العريية

(١) صدرت قوانين التأميم في سوريا ومصر منذ عام ١٩٦١ وفي سوريا في مطلع ١٩٦٥ غايتها تحديد الملكية الصناعية .

جميعهم يلحون على ضرورة العناية بالعنصر الانساني لكي لا يبقى بمزلة
عن جميع التطورات وان يسايرها ويتطور معها وذلك عن طريق التوعية
اللازمة للوصول الى الاصلاح الانساني .

ويكون ذلك باصلاح الفرد العربي في شتى المجالات ليصبح مواطناً
صالحاً واعياً لمصالحه القومية قادراً على تحميل مسؤولياته ، مدركاً لحقوقه
وواجباته رافعاً ونازلاً لفكرة الاستقلال مهما يكن ، مؤمناً بأن الكفاءة
وحدها هي المرجع الاول والوحيد في أسس تقييم الأفراد لا الحسب أو النسب
أو قيمة ما يملك لأن معايير كهنه قد انقضت عندها .



Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page.

الباب الرابع

القومية العربية

ويتضمن :

تمهيد : النظريات الكبرى في فهم القومية

الفصل الاول : فكرة القومية ومدلولها

الفصل الثاني : الاصول التاريخية للقومية العربية

الفصل الثالث : مقومات القومية العربية

الفصل الرابع : اهداف القومية العربية

كتاب الازهار

في بيانها

بسم الله

في بيانها وفي بيانها وفي بيانها
الطالعة في بيانها وفي بيانها
في بيانها وفي بيانها وفي بيانها
في بيانها وفي بيانها وفي بيانها
في بيانها وفي بيانها وفي بيانها

تمهيد

عرض النظريات الكبرى في فهم القومية^(١)

١ - نظرية العرق :

ان من أوائل القائلين بالعرق كأساس لتحديد هوية الامة هو الفرنسي غوينو في كتابه « دراسة على الفروق بين الاعراق الانسانية » (١٨٥٤-١٨٥٥).
و خلاصة هذا الكتاب هي التالية : ان العرق هو مفتاح التاريخ وموجهه . وان عدم المساواة بين الاعراق هو الاساس الدائم الثابت ، وان هناك اعراقاً ممتازة ومختارة وأماً قائدة ، كما ان هناك اعراقاً منحطة وأماً مقودة . وان العرق الابيض هو العرق الممتاز السيد ، وفي داخل هذا العرق هناك شعب متفاوتة ، والشعبة الآرية (من أبناء يافث .) هي أعلى الشعب وأرقاها ، وان الفرع الجرمني من هذه الشعبة الآرية هو الأرقى والأعلى ، لانه حافظ على صفائه بينما امـتـزج الفرعان الآخـران السـلتي والسـلافي بالعرق الاصفر فخرسا صفاء دمها . وان انحطاط الامم ومبدأ انحلالها يكون بامتزاج دماؤها بغيرها وباختلاط الاعراق وتصلبها . وان هذا الاختلاط ليعم ويستشري ، وان الانسانية لتسير للانحلال والتدني بسبب نفاذ الدم الآري باختلاطه بغيره ...

(١) عن كتاب المجتمع العربي بتصرف - الجزء الثاني - للدكتور محسن الشيشكلي ص ٩٨ - منشورات مديرية الكتب والطبوعات الجامعية بحلب .

إن غوبينو هو فرنسي الجنسية ولكنه يدعي أنه جرمني الاصل ، ولم
تستطيع نظريته ان تلاقى في فرنسا رواجاً لانها تحطم مفهوم الامة الفرنسي .
ولكنها حققت نبوءة الكسبي ده تو كفيل عندما قال ذات يوم لنوبينو : « ان هذه
النظرية ستعود الى فرنسا بعد ان يتبناها الالمان » .

وعلى اثر غوبينو نشر فاشيه ده لابوج (١٨٩٩) مؤلفة عن « الآري
ودوره الاجتماعي » ، ولقد كان كتابه بمثابة تبرير شبه علمي (مستند لبعض علوم
الانسان) لآراء غوبينو .

وفي ذات العام (١٨٩٩) نشر الانكليزي هوستون شامبرلان كتابه
« أسس القرن التاسع عشر » . والكتاب يعتبر العرق أساس التاريخ ومفتاح
فهمه ، ولكنه لا يكتفي بالعلامم الجسدية الخارجية (لون البشرة والعيون ، شكل
الجمجمة ..) كأساس للعرق ، ويتطلب شعوراً بتملك المزايا العرقية . ولا يحمل
كتابه روحاً تشاؤمية كاتي تسود افكار غوبينو ، بل هو يعرض خطأ قوامها
الامل والتفاؤل بانتصار فكرة العرق .

ولقد أنضجت هذه الافكار في المانيا خلال النصف الثاني من القرن
التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتجلبت صريحة عارية فعالة في البناء النازي
للريخ الثالث على يد هتلر ورفاقه . ففي كتاب هتلر « كفاحي » ، وفي الباب
الحادي عشر من الجزء الاول من هذا الكتاب ، وتحت عنوان الشعب والعرق
(Volk und Rasse) ، يشرح هتلر افكاره عن العرق بصراحة غريبة .
يقول هتلر : « لا تتزوج الحيوانات إلا مع جنسها . واذا حصلت ظروف شاذة
أدت الى بعض الاستثناءات ، فان الطبيعة سرعان ما تضع كل وسائلها لمقاومة هذا
الاستثناء (الشذوذ) . وان احتجاج الطبيعة ليبدو واضحاً صريحاً سواءً بمنع

الجنس المهجين من امكان التناسل ، أو بتحديد النسل وتجريد النموذج الشاذ من امكان مقاومة الامراض والاعداء . وهذا طبيعي ، لان التزاوج بين سويتين مختلفتين تؤدي الى انتاج سوية متوسطة . وهذا التزاوج هو ضد إرادة الطبيعة التي تحرص على رفع سوية المخلوقات . ان دور الاقوى هو ان يحكم غيره (الاضعف) ويسيطر عليه ، لا ان يمتزج فيه ويضيع ميزاته واصالته في الاختلاط معه .

هناك إذاً حسب مفهوم هتلر نوع من الانسانية عال يمثله العرق الآري . وهو عرق موجود ، حسب قوله ، ولا حاجة للنقاش والاختلاف حول وجوده . وان تفوقه ليبرهن عليه كيان هذا العرق ذاته ، فهو مستودع التطور الحضاري وحامل مشعل الحضارة .

وهناك أعراق دنيا موجودة أيضاً . ولا يجوز ان تتصالب الاعراق المتفاوتة ، لان التهجين هو ضد ارادة الله و ارادة الطبيعة ، ولانه لا يتم إلا على حساب التفوق . ويرى هتلر ان كل الرجال من دم واحد يجب ان تجمعمهم دولة واحدة ، وان الدولة ما هي إلا جهاز اقيم للدفاع عن مصالح العرق . ولهذا فان اولى مهام الدولة هي : منع المهجانة والاختلاط ، والسهر على تحسين النسل ، وحفظ العرق . ويرى هتلر ان الشعوب التي لا تسهر على نقاء دمها تخسر وحدتها الروحية وتنحل . والخلاصة : ان هتلر يعيد حتى الالفاظ الواردة في كتب غوبينو وده لابوج ، ولكنه بدل الاخذ بتشائم غوبينو يستعير تفاؤل شمبلن .

وفي عام ١٩٣٠ صدر كتاب روزنبرغ (فيلسوف النازية) وعنوانه : « اسطورة القرن العشرين » وهو اشمل محاولة لفلسفة نظرية العرق .

٢- نظرية المشيئة او الارادة :

وهي تقول بالوجود النفسي للامة مقابل الوجود الفيزيولوجي للمادي الذي يقول به العرقيون . وهي نظرية فرنسية تعكس بنين الامة الفرنسية الخاص . ففي فرنسا تقوم الحياة السياسية على مبدأ التمثل والتبني ، وفرنسا نفسها محصلة عوامل تاريخية ترجع بالنشأة الى روما التي حصل تكوينها من انصهار شعوب مختلفة في بوتقة ثقافية واحدة .

ويمثل هذه النظرية من اعلام الفرنسيين ادوار كينييه ، وميشيليه ، ورينان وفوستيل ده كولانج وأميد أوليفيه .. ففي صفحات شهيرة (بعد عام ١٨٧٠) أجب المؤرخ الفرنسي فوستيل ده كولانج (مخاطباً المؤرخ الالماني مومسن) عن السؤال ماهي الأمة بما يلي :

« يشعر الناس بانهم من شعب واحد ، واذا كانت لهم افكار مشتركة ، ومصالح مشتركة ، وعواطف وذكريات وآمال مشتركة . وهذا هو ما يصنع الأمة .. فالأمة هي ما نجهه . وقد تكون الازناس المانية في العرق واللغة ، ولكنها قومياً ووطنياً فرنسية وان الذي جعلها فرنسية ليس الملك لويس الرابع عشر ولكن الثورة الفرنسية . بعد الثورة شاركت الازناس في مصائرنا ، وعاشت حياتنا ، وقاسمتنا المصائب والانتصارات ، والاجاد والاختفاء ، وكل افراحنا وآلامنا » .

وفي محاضرة شهيرة (في السوربون) عام ١٧٨٢ عنوانها ماهي الأمة ؟ اعاد أرنست رينان ذات المعنى ، فبعد ان استبعد نظرية العرق موضحاً أنها اسطورة ضاره ، استبعد اللغة كأداة ملزمة بإنشاء الامة معتبراً إياها عاملاً داعياً مساعداً ، وبعد ان عرج على الدين مستبعداً تأثيره القومي في العصور الحديثة ، أوضح أن المصلحة الاقتصادية لا تكفي لإنشاء الامة ، وكذلك

العوامل الجغرافية .) وخلص رينان الى القول التالي : « إن الامة هي نفس ، هي مبدأ روحي . وهناك في الحقيقة عاملان هما بمثابة عامل واحد يشتمان روح الامة . الاول في الماضي ، والثاني في الحاضر . الاول هو الملك المشترك التراث ثمين من الذكريات ، والثاني هو الرغبة الحالية بالعيش المشترك ، واردة انماء التراث المشترك . فالانسان لا يرتجل ، وكذلك الامم . إنها بنت ماض طويل من الجهود والتضحيات .. على الماضي البطولي ، والرجال الكبار ، والابحار ، على هذا الرأس الاجتماعي تقوم الامم ، وان فرنسا قد حققت هذا النموذج منذ القديم تحقيقاً كاملاً . »

ونظرية المشيئة هي بنت الثورة ومبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ، ولهذا أسموها مذهب القومية الانتخابية . وخلاصة هذا المذهب حق كل مجموعة بشرية في تقرير مصيرها ، واختيار قوميتها بالانفصال عن قومية أو الانضمام اليها . فالقومية لا تفرض على المجموعات باسم الحق التاريخي (الشبيه بالحق الالهي الملوك) ، بل يترك لهذه المجموعات حق التعبير عن المشيئة . والقومية ليست العرق المشترك أو اللغة المشتركة أو الدين أو غير ذلك من العوامل .. ولكنها الرغبة في الارتباط بأمة معينة وتنمية التراث المشترك . والامة آمال وآلام وذكريات ، وليست وجوداً فيزيولوجياً مادياً .

والحقيقة لقد تكونت هذه النظرية بعد الازمة السياسية الكبرى التي حصلت من انفصال الازناس واللورين عن فرنسا بعد عام ١٨٧٠ . فالازناس المانية في اللغة والاصل ، ولكنها قد ترغب في مشاركة فرنسا مصيرها فيما اذا سمح لها بالتصويت والتعبير عن ذلك . ولهذا لحأ الفرنسيون لتأكيده على نظرية المشيئة والتعبير عنها بالتصويت كأساس للقومية . ولكن التصويت يخرج الامة من عداد الجماعات الطبيعية « ويجعل قضيتها حزبية مصطنعة .

فالارادة قابلة للتعديل والتبديل ، وهي خاضعة لاراجيف كثيرة ، ولا يمكن تعليق وجود الامه على مثل هذه الظاهرة الرجراجة . ولقد شعر انصار النظرية بهذا الضعف فأضافوا أنهم يريدون بالمشيئة « المشيئة التي تظهر بصورة فعلية وتستمر مدة طويلة » . ولا تبدل أمثال هذه الاضافات شيئاً من الحقيقة ، وهو ان الامة حقيقة عميقة ، وان المشيئة ظاهرة سطحية . وان الامم لا تصنعها الارادات ولا تدمرها الارادات . وان المشيئة أو الارادة هي في العادة نتيجة لأسباب عميقة وان عمل المفكر هو التحري عن هذه الاسباب ، وان هذه الاسباب التي تملئ المشيئة هي في الحقيقة العناصر التي تتكون منها الامة (اللغة ، القرابة ، المصلحة ..)

٣ - اللغة :

إن هذه النظرية ترى في اللغة الاساس الحقيقي لتكوين الامة ، والعامل الاول في توليد الشعور القومي . والقرابة المعنوية التي تنشئها اللغة توحى بالاعتقاد بوجود القرابة المادية التي تنشأ عن وحدة الاصل . وان هذا الاعتقاد وان كان غير مبرر في الواقع ، إلا انه مؤثر وفعال وذو قوة دافعة كبيرة ..

وأول من دعا الى تحديد الامم باللغات في المصور الحديثة هو الالماني هيردر (١٧٧٤ - ١٧٩١) . فهو يقول : إن الطبيعة فرقت الشعوب بواسطة اللغات (لا بالحدود والغابات والانهر ..) ، وان لغة الشعب هي روح الشعب وقلبه ، وان الجماعة التي تتكلم لغة واحدة ، تحمل روحاً واحدة ، وتكون أمة واحدة ، وهي بالتالي يجب ان تجتمع في دولة واحدة .

ولم يكن تأثير هيردر كبيراً في المانيا ، لان المانيا كانت في عهده موحدة

اللغة والثقافة ، ولكن آراءه نفذت في سلاف الجنوب والشمال وأيقظت الاهتمام باللغات كشرط لليقظات القومية .

وبين عامي ١٨٠٧ - ١٨٠٨ القى الالماني فيخته J-G Fichte خطبة الى الامة الالمانية ، فعرض في الخطب الثلاث الاولى لمذهب في التربية . وفي الخطبة الرابعة اعلن ان هذه السياسة التربوية لا تليق الا بالشعب الالماني المتصف بخاصة أساسية مستمدة من كيانه ذاته ، هذه الخاصة هي بقاء الالماني مقيماً في مواطن القبائل الجرمنية التي اجتاحت أوروبا محتفظاً بلغته ، واللغة شيء بدئي ينبع من الحياة المشتركة .. فالالمان هم على العكس من القبائل الجرمنية الاخرى التي أقامت في فرنسا واسبانيا وأيطاليا وامتزجت بأهلها ، وتبنت لغات جديدة اجنبية ذات أصول لاتينية معدلة . فهذه الشعوب التي تتكلم اللاتينية المعدلة لا تملك (لغة الأم) وإن مجموعة لغاتها المستعارة هي مجموعة ميتة لا تعيش إلا على السطح ، وهي في الحقيقة ميتة لانها منتزعة من جذورها الحية ، ولم ينشئها الشعب الذي يتبناها ، وان المقارنة بين اللغة الالمانية وباقي اللغات الاوربية هي مقارنة بين الموت والحياة .

ففي اللغات الحية تدخل الثقافة في كافة مظاهر الحياة وتنفذ على الشعب ، وفي اللغات الميتة تنفصل الثقافة عن الحياة وتصبح وسيلة تسلية رقيقة للفئات المتعلمة فحسب . وان الشعب الالماني الذي بقي محافظاً على أرومته البدائية محتفظاً بطابعه البدئي له الحق بان يعلن أنه وحده الشعب ، عندما تقابله بالجرمن المهاجرين ، وهو أساساً الشعب الوحيد الذي ظل مرتبطاً بوطنه الاصلي .

وفي الخطاب الخامس يوضح فيخته آراءه فيقول : « ان من ينطق بلغة واحدة هو كل وحدته الطبيعة الصادقة المحضة ، وأوجدت بين أجزائه روابط

عديدة غير منظورة . ومثل هذا الككل لا يمكن ان يتقبل بين ظهرانيه شعباً آخر ، من أصل آخر ، يختلف عنه باللغة ، ويحاول الاختلاط والاندماج فيه . واللغة في أفضل صفاتها ، وأسمى درجاتها ، وانما هي اللغة الام التي تتحد في جوهرها مع الجنس . انما اللغة الالمانية ، غير المستعارة أو المشتقة من غيرها ، كما هي حال الفرنسية المشتقة عن اللاتينية . وان شعوب اللاتين عندما فقدوا لغتهم ، فقدوا روحهم القومية ومعناهم الاصيل . »

وهكذا فان فيخته يرى ان اللغة والامة متلازمان ، وان الذين يتكلمون لغة واحدة يكوّنون كلاً واحداً ربطته الطبيعة بروابط متينة غير مرئية . وان الحدود الامامية التي تستحق التسمية باسم « الحدود الطبيعية » هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغات ، وأخيراً أن اللغة هي أساس القومية .

ولقد مات فيخته مغموراً ، لكنه بعد وحدة المانيا عام ١٨٧١ ، أعطته أمته المكان اللائق به ، فجعلته من عداد أنبيائها في العصور الحديثة ، اذ أيقظ شعبه على هويته وخاصته الامامية .

واللغة هي التي تميز الانسان عن الحيوان . فالانسان حيوان ناطق يتمتع عن طريق قابلية الكلام والنطق بالقدرة على التجريد والتعميم ، وبهذه القدرة يمتاز العقل الانساني عن عقل سائر الحيوانات . واللغة تدعم « الصفة الاجتماعية » في الانسان بتقوية الاتصال الاجتماعي ، وعن طريق اللغة تمتاز المجتمعات البشرية عن المجتمعات الحيوانية . واللغة التي تميز الانسان عن الحيوان تميزه عن أخيه الانسان أيضاً ، فلكل أمة لغة . واللغة تكوّن الامة لأنها واسطة التفاهم ، وآلة التفكير ، والطريق الى نقل التراث والمكتسبات بين الاجيال .

ولقد علمتنا التجارب التاريخية ان الانسان عندما يفقد لغته فانه يفقد

قوميته وهويته . وما دام الشعب عاكفاً على تطوير لغة الام فإنه يستطيع إذا واثته الظروف والاحداث ، أن يرقى الى مستوى القومية ، فالدولة . فاللغة هي أولى الخصائص التي تتميز بها أمة من أمة وأوضحها وأكثرها فعلاً وتأثيراً . وان الطابع القومي ليكن في اللغة التي تحمل في موكبها آداب الامة ، وغانيتها الشعبية وقصصها وملاحمها ..

ولقد اظهر التاريخ أهمية اللغة في اليقظات القومية الحديثة ، فان النهضة القومية بين الشعوب السلافية وأمم البلقان بدأت على أساس نهضات لغوية ، والنهضة القومية العربية ، والتركية ، كإرأينا ، سبقتها نهضة لغوية بشرت بها ، وكانت الداعي والنفير .

ولقد أدرك المستعمرون خطورة اللغة في اليقظات القومية فاصروا على الغناء اللغة القومية واحلال لغاتهم مكانها ، وليس عيباً أن قال بعض الفرنسيين يوماً : ان إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة تمتلكة فرنسية الا عندما تصح لغتنا هناك لغة قومية . . وان نزاع البقاء بين قوميات الذي لحناه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوربا الشرقية والجنوبية الشرقية ، لم يأخذ الا صورة النزاع على اللغة . والجرمنة ، والترويس ، والفرنسة ... ما هي الا محاولة لتعميم لغة الفاتحين أو الطامعين ، وبالتالي ادماج الشعب وتمثلها عن طريق تبنيها لغة غير لغتها الاصلية .

وقد لاحظ المؤرخون ان الحكم المشترك (الذي يذكره بعضهم كعنصر مستقل من عناصر تكوين الامة) ليس سوى أداة مؤثرة في اللغة . فالحكم المشترك يؤثر في القومية عن طريق نشر لغة الحاكم ومهاربة لغة المحكوم . والدين (الذي يعده بعضهم اساساً في القومية) يراه بعضهم مجرد عامل مساعد أو عائق لليقظة القومية باعاقته انتشار بعض اللغات ، ومساعدته في انتشار

بعضها الآخر .

ولقد قام مفكرون يردون على المبالغة في أهمية اللغة في تشكيل القومية . وجاء هؤلاء بأمثلة على قيام دول متعددة اللغات ، وانفصال دول موحدة اللغات . ويمطي هؤلاء عادة مثالي سويسرا وبلجيكا وأمريكا الشمالية والجنوبية . ولقد فات هؤلاء ان سويسرا وبلجيكا ليست أمماً ولكنها دول متعددة القوميات، أمّلت وجودها وحفظت بقاءها متطلبات التوازن الدولي الاوربي . وان التجربة الانفصالية الامريكية عن انكلترا واسبانيا هي تجربة من نوع خاص ، وهي محاطة بظروف جغرافية (فاصل المحيطات) وانسانية (تكوين السكان وتنوع اصولهم) فريدة لا يصح القياس عليها ..

٤ - النظرية الماركسية عن الامة :

لقد صاغ هذه النظرية يشكها الحاضر متالين في رسالته : الماركسية والمسألة القومية (١٩١٣) والمسألة اللينينية القومية (١٩٢٩) ويمكن تلخيصها بالمبادئ التالية :

أولاً : إن نضال الطبقات هو القوة المحركة الاولى للتطور التاريخي ، وليس نضال الاعراق والامم . وان انقسام الامم الى طبقات متناحرة متصارعة هو أعمق من انقسام الناس الى امم . وان في داخل كل أمة بورجوازية أمّتين (البورجوازية ، والبروليتاريا) .

ثانياً : إن المصالح الطبقية لبروليتاريا مختلف الامم واحدة ، وهي متضادة مع المصالح البورجوازية الوطنية والاجنبية معاً . ولذا نشأت الامة البروليتارية إحدى خصائص المفهوم الشيوعي عن العالم ، ولذا كان شعاره ياعمال العالم اتحدوا .

ثالثاً : إن القومية البورجوازية هي نتاج عهد تاريخي معين ، فهي بنت

الرأسمالية الصاعدة ، وهي إحدى الميزات الرئيسية للمفهوم البورجوازي عن العالم . وهي عقلية المدو الذي يحاول ان يجتذب البروليتاريا (تحت ستار القومية) الى صف البورجوازية الوطنية ضد البورجوازية الاجنبية المنافسة ، والذي يحاول اخفاء التناقض الطبقي تحت ستار التناقض القومي .

رابعاً : هناك أمم بورجوازية وقوميات بورجوازية ، كما ان هناك أمماً اشتراكية وقوميات اشتراكية ، وان الامم البورجوازية لتختلف عن الامم الاشتراكية في الطابع الروحي والسياسي والاجتماعي اختلافات جذرية عميقة . وان مصير الامم البورجوازية هو الى التفكك والانحلال في الصراع الطبقي ، كما ان مصير الامم الاشتراكية هو الى تقوية اللحمة الداخلية لهذه الامم بسبب زوال التناقضات الطبقة ووحدة المجتمع المعنوية والسياسية .

خامساً : رغم كل الباديء المبينة أعلاه فان النظرية البولشفية الروسية لم تستطع انكار واقع الامة من حيث أنها « جماعة ثابتة من الناس ، تألفت تاريخياً ونشأت على أساس أربع عناصر اساسية مجتمعة ، هي : اللغة ، والارض ، والحياة الاقتصادية ، والتكوين النفسي الذي يتجلى في خصائص الثقافة القومية » .

والملاحظ ان المقومات المجتمعة التي تقترحها البولشفية الروسية للامة ليست جديدة ولا طريفة . ولكن الجديد الطريف فيها هو اعتبار الامة مفهوماً تاريخياً لم يظهر إلا في عهد الرأسمالية ، وربط مبدأ القومية بمصالح طبقة معينة (البورجوازية) وبم حاجتها الى السوق الداخلي الواسع . ولقد أحسن الذين ردوا على هذه النظرية عندما أوضحوا أن الحياة الاقتصادية المشتركة (التي تعطيها الشيوعية الاهمية الكبرى) لا تنشأ إلا بعد تكوين الدول القومية ، فهي نتيجة لمبدأ القوميات لا إحدى عوامله وأركانها .

كذلك فان المبدأ القومي لا يأخذ بالضرورة شكل تجميع الامة المعزقة في دولة ، بل قد يأخذ شكل حل الدوله المتعدده للقوميات وانفصال القوميات فيها عن بعضها . فالمبدأ القومي ليس دوماً أو بالضرورة جامعاً ولكنه قد يكون فاصلاً ، وهو عندما يكون فاصلاً يضرب فكرة السوق الداخلية من أساسها وكذلك فكرة المصلحة الاقتصادية المشتركة .

ولا يستطيع على أي حال ربط مبدأ القوميات بأي مبدأ اقتصادي بفرده ، لان القومية إنما تقوم على مصالح مادية وروحية في آن واحد ، كما قد تقدم أحياناً على تضحية بعض المصالح المادية في سبيل المثل الروحية .

فالمبدأ القومي هو الذي يوفق بين المصالح المادية والروحية في آن واحد ، ولا يفرق بينهما ، بل يجمع بينهما في وحدة واحدة ، وهذا هو المبدأ القومي الحقيقي .

فالمبدأ القومي هو الذي يوفق بين المصالح المادية والروحية في آن واحد ، ولا يفرق بينهما ، بل يجمع بينهما في وحدة واحدة ، وهذا هو المبدأ القومي الحقيقي .

فالمبدأ القومي هو الذي يوفق بين المصالح المادية والروحية في آن واحد ، ولا يفرق بينهما ، بل يجمع بينهما في وحدة واحدة ، وهذا هو المبدأ القومي الحقيقي .

الفصل الأول

فكرة القومية ومدلولها

القومية لغة مصدر صناعي مشتق من كلمة قوم التي تدل على الجماعة وهي تشبه من هذه الناحية العائلية المشتقة من العائلة والانسانية المشتقة من الانسان ، وكما أن العائلية تعبر عن وجود العائلة والعمل على أساس هذا الوجود ، وكما أن الانسانية تعبر عن وجود البشر والعمل بمقتضى هذا الوجود فكذلك تعبر القومية عن وجود الامة ، وتعني التصرف بمقتضى طبيعة الامة وغايتها وخصائصها ، ولا يستحسن العرب أن ينسبوا الاشياء مباشرة الى كلمة الامة لأن النسبة الى الامة هي الامي ومصدرها الصناعي الامية التي تحتلط بمعنى الجهل ، كما يمكن أن تحتلط بالامي المنسوب الى الامة ، بالأمي المنسوب الى الام ، فهذه الاشتباكات اللغوية جعلت العرب يؤثرون البحث عن كلمة أخرى غير الامة تدل على معناها ولا تحتلط مشتقاتها بسواها لينسبوا اليها شؤون الامة ، فكانت كلمة القوم هي الراجحة في هذا الميدان .

والقومية ذات معنيين مرتبطين ببعضها ، ففي نفي أولاً ، وجود أمة من الأمم وهي تدل ثانياً على مبدأ محرك في الحياة السياسية والاقتصادية

والاجتماعية عموماً ابتداء من خصائص الامة وأهدافها ، أي يدل أول هـذين المعنيين على القومية كوجود وثانيهما على القومية كمحتوى .

والقومية كوجود قائمة منذ الازمنة القديمة ، فالبشر لم يكونوا في عصر من العصور أفراداً متباعدين ، بل تكتلوا في جماعات كانت أحياناً عائلية وكانت أحياناً أوسع من حدود العائلة وأكثرها تنوعاً في وجوه النشاط ففدت هذه التكتلات امماً كاليونان والرومان والعرب والفرس .

ومن يتتبع تاريخ الشعوب القديمة يلاحظ ما بينها من تفاوت ويدرك أن العادات والتقاليد والاذواق مختلفة عن بعضها بما يدل على وجود أمم متعددة ، فالقومية ليست حديثة النشأة بل هي شكل أساسي عريق من اشكال الحياة البشرية ومظهر جوهرى قديم من مظاهرها .

وقد حسب البعض أن نشأة القومية تمت في القرون الاخيرة ، التي تميزت بقيام الدول القومية ابتداء من انكلترا وفرنسا ثم المانيا وايطاليا والدول البلقانية وبقية الدول القومية في آسيا وأمريكا ، والحق أن القومية في المصور الاخيرة لم تنشأ بمد أن كانت معدومة ولم تولد بمد أن كانت مفقودة وانما هي قائمة منذ المصور الأولى ولكن الطاريء الناشئ هو تطور محتواها أي ان شكلاً جديداً من الوعي القومي قد ظهر في القرون الاخيرة ومهد ظهوره أوروبا التي سبقت غيرها الى النهضة الحديثة ثم انتشر هذا الوعي الجديد وسرى سريان النار في الهشيم في سائر بقاع العالم فقير من طبيعة المجموعات السياسية .

وهذا المحتوى الجديد للقومية أعلن عن نفسه بالدعوة الى قيام الدولة على أساس قومي ، فعلى الرغم من وجود قوميات قديماً لم تكن الدول قائمة على أساسها ولم يشترط الاوائل أن تستقل كل قومية بدولة

خاصة وانما قبلوا وجود الدول الامبراطورية التي تحكم عدة قوميات
كامبراطورية الاسكندر والرومان والعرب ، كانت كل أمة في الزمن القديم
تدرك ولو بغموض تميزها عن بقية الامم وتفردها بخصائص ثقافية
وحضارية معينة ولكنها لم تكن ترى مانعاً من بقائها مع امم أخرى تحت
تاج ملك واحد ، غير أن العصور الحديثة غيرت هذا المفهوم ، إذ لاحظ
البشر ما تنطوي عليه الدول الامبراطورية من بذور الشقاق والخلاف
والفتنة وأدركوا أن الجو الطبيعي لانطلاق الانسان وتعاونه مع أخيه هو
الجو القومي الذي يضم أفراداً يتفوقون في التركيب الاساسي لذوقهم
وفكرهم ونظرتهم للحياة وتساعدهم اللغة الواحدة على التفاهم السريع ،
ويساعدتهم التاريخ الواحد على التجمع والانصهار ، وهكذا عرفت القرون
الاخيرة تحطم الامبراطورية الجرمانية المقدسة والامبراطورية النمساوية والعثمانية ،
وسعى كل شعب الى استقلاله والى تفرده بدولته وحكم نفسه ونيل سيادته
القومية ، ووقعت من جراء ذلك حروب وسالت دماء ، واصبح المحتوى الجديد
للقومية حقيقة واقعة لا يستطيع تجاهلها أحد .

الا أن قيام الدول القومية لم يكف المفكرين القوميين بل عادوا
الى تأمل الموضوع من جديد ، فوجد بعضهم أن القومية لا تكفي باقامة
الدول المستقلة وإنما تدفعنا نحو غايات جديدة فهي ثورة في عالم الانسان
غيرت وجه تاريخه وبروزها الصارخ في العصور الحديثة دليل على احترام
الكيان الانساني فبعد ان كانت المجموعات البشرية تخضع في الزمن القديم
لحامل السيف البتار أو لابن العائلة المسيطرة اصبحوا لا يرضون الآن
ان يحكموا الا من قبل أناس منهم ويميزون بين مجتمعاتهم وسائر المجتمعات ،
وهذا الطريق له بقية فما دامت القومية دعوة الى الكرامة الانسانية
فالكرامة لا تعني فقط الاستقلال السياسي وانما تعني أشياء أخرى عديدة ،

فهي تريد مثلاً أن يحيا الفرد حياة عزيزة لا يشوهها استبداد أو ظفیان ولا يشقيها فقر أو حرمان ، وهكذا اغتت مفهوم القومية واتسع محتواها حتى شمل الحرية الداخلية والنظام الاقتصادي الأمثل الى جانب الاستقلال والوحدة السياسيين .

وتدل الشواهد على ان الحركة القومية لم تبلغ بعد غاية مداها ، فما زال أمامها طريق طويل وفي كل يوم يقف تحت لوائها شعب جديد يطالب بوحده القومية وحرية السياسية كما يطالب بتحسين ظروف العيش لابنائها ، وقد آمنت بها غالبية الحركات الاستقلالية التي قامت في القرنين التاسع عشر والعشرين وهي ككل شيء عظيم لها خصوم يجارونها الى جانب أنصارها المدافعين عنها والموضحين لمفهومها ، وأهم ما يدعيه خصومها انها مرحلة عابرة مؤقتة ستزول اذا اكتمل الوعي البشري وتترك محلها للدولة العالمية ، كما أن من خصومها من يرى أنها ليست شرطاً لقيام الدول بل يمكن أن تقوم الدولة على الطراز القديم الذي يجمع عدة قوميات .

اولاً - أما الذين يرونها مرحلة عابرة فهم الامميون الشيوعيون من ناحية والمفكرون العالميون من ناحية ثانية ، فالقومية عند الماركسيين الاوائل أمر عارض نتيج عن تجمع القوى البرجوازية في كل منطقة من المناطق ، وسعت هذه القوى الى ابقاء نفوذها على الطبقات العاملة باستشارة الحساس القومي وإلهاء الكادحين عن مشكلاتهم الحيوية بشن الحروب العدوانية تحت اللواء القومي وباشغال الناس بالأزمات السياسية وجر الجماهير الى التضامن مع المستغلين باسم المصلحة القومية العليا ، كما أن قسماً من دعاة الانسانية تصوروا القومية تصوراً متناقضاً مع انسانيتهم فرأوا في القومية تعصباً

وانغلاقاً يمنع بني الانسان من التعاون فيما بينهم ومن السير في ركب واحد نحو تحقيق الاهداف البشرية الواحدة واعتقدوا أن النظام الأمثل لبني الانسان هو قيام الدولة العالمية الموحدة ، التي تذوب فيها القوميات ، ولا يبقى فرق في الطابع بين مجتمع وآخر ، واتجه قسم من اصحاب النزعات الدينية الى ما يشبه هذا الرأي فأعلنوا بأن الفروق بين البشر مصنعة ونادوا بالدولة الدينية الواحدة التي يعتبر رعاياها أمة قائمة بذاتها ولو كانوا في الاصل من قوميات مختلفة ، بل اعتبر بعضهم الحركات القومية مضرّة بالوحدة الدينية ومخرقة لابناء الدين الواحد .

ويرد انصار القومية على هذه الاتجاهات بردود متعددة ، منها أن القومية لم تنشأ مع ظهور الرأسمالية وانما هي قديمة قدم التكتلات البشرية وان تغير محتواها على مر الازمان ، ومنها أن ارتباط القومية بالرأسمالية ليس ضرورياً على الرغم من ان الرأسمالية حاولت استغلالها في بعض الفترات لمحاربة عدوها الاقطاع من جهة ، ولإشغال الكادحين من جهة أخرى ، ولا نكون منصفين اذا حكمنا على القومية من جهة نظر مستغليها ومشوهيها ، ومن المعلوم أن الرأسمالية في اوربا لم تستغل القومية وحدها بل استغلت الدين والعلم والادب والفن ايضاً وحواتها في كثير من البلدان الى وسائل تخدم اغراضها ومطامعها الداخلية والخارجية فهل ننبت الدين والعلم والادب والفن لأن بعض اصحاب الاهواء سعوا الى الاستفادة منها بشكل غير مشروع ؟ ومن ردود انصار القومية ايضاً ان الحركة القومية ليست وبقاً على اوربا وحدها واذا ارتبطت هذه الحركة عند دول الاستعمار الاوروبي بالتعصب والعدوان وامتصاص دماء الشعوب الاخرى فان القومية ارتبطت عند العرب والشرقيين عموماً بالعمل على التحرر وامتنكار الاستعمار والعدوان ، ومن العجيب أن نسمع دُعاة من اوربا وصلت ائهم الى وجدتها

ونحررها يحاولون اقناع الشعوب الاخرى بألا فائدة من العمل على أساس قومي ولا يستطيع العاقل المتبصر الا أن يحكم على هؤلاء بسوء النية وتعهد ضرب الحركات التحررية في الامم المهضومة الحقوق .

ومما يدافع به القوميون ، أن القومية لا تتعارض مع الانسانية اذا فهمتا على شكل سليم فالانسانية لا تشترط ذوبان الخصائص الجوهرية لكل مجتمع ، بل من الافضل لها أن تضم مجتمعات متميزة ذات شخصيات متنوعة ليستطيع كل منها ان يخدم الانسانية من ناحية وأن يفي تراثها الذوقي والعملي بأسلوب جديد ، وليس من صالح الانسانية أن يصبح البشر كلهم نسخاً متماثلة تتكرر بآلية عمياء فتجمد الحركة الفكرية ، وكل ما تشترطه الانسانية هو أن يتماون البشر بدلاً من أن يتقاتلوا ، ويمدوا ايديهم لدفع الركب الانساني الصاعد عوضاً عن أن يمد كل منهم يده لنهب خيرات اخوته وسلبهم ارضهم وأرواحهم ، وهذا الهدف يتحقق عن طريق بقاء القوميات التي تعتمد على قيم وفضائل انسانية وتدرک أنها وجدت في سبيل خير ابناءها وخير البشر اجمعين ، بل تفقد الانسانية وجودها اذا انسلخ الافراد عن قومياتهم وضاعوا في خضم العالم من غير أن يرتبطوا بجماعة تفهمهم ويفهمونها ويستطيعون العمل والاتساج في جوها .

وليس صحيحاً ان البشرية تنتقل من دائرة ضيقة الى دائرة أوسع أي من العائلة الى المدينة الى القومية الى الانسانية ، إذ أن هذه الدوائر موجودة الى جانب بعضها فنشوء المدينة لم يلغ وجود العائلة وظهور القوميات لم يقض على المدن والانسانية موجودة كنوع بشري وكأهداف تعاونية سامية مع وجود القوميات ، أما الانتقال الى العالمية فهو أمر

متناقض مع طبيعة التطور التاريخي لان هذا التطور يتم بين حالات ووجوه متعددة لنظام واحد، ونشوء العالمية شىء جديد غاية الحدة يختلف عن تطور القوميات ، إذ يمكن أن تكتسب القومية خلال التطور صفات جديدة وتستطيع أن تظهر بأشكال متعددة ولكنها لا تقدر على اعدام ذاتها لأنها حقيقية انسانية جوهرية . لا يستغني الكائن البشري عنها كما لا يستغني عن العائلة ، وهي تقف في الوسط بين الاسرة والمدينة الضيقتين اللتين تمهدان بضيقهما انتشار النشاط الانساني وبين العالمية المائمة التي يضيع الفرد فيها ويمجز في مجرائها عن تركيز نشاطه .

ثانياً - والفئة الثانية هي التي تعترف بوجود القوميات ولكنها لا تشترط قيام الدول على أساسها وانما تحد الفعالية القومية بالمظاهر الثقافية لها والفنون الشعبية والحياة المشتركة ، ولا ترى مانعاً من انشاء الدول على الاساس الامبراطوري القديم الذي يضم عدة قوميات ، وقد اتجهت الشيوعية بعد صدور كتاب ستالين (مسألة القوميات) هذا الاتجاه ، إذ لم تستطع ان تقف في وجه التيار القومي وقفة حاسمة وخشيت على نفسها اذا هي انكرت وجود القوميات ، فما كان منها إلا أن أقرت لها بالوجود ودعتها الى التجمع في دولة واحدة مع احتفاظ كل منها بلغتها وثقافتها وفنونها الشعبية وراثتها التقليدية ، وحفلاتها واعيادها ، ومن المعلوم ان الدولة الروسية القيصرية كانت تتألف من عدة قوميات اكبرها القومية الروسية والى جانبها قوميات أخرى قامت بثورات دموية على القيصرية ، فأراد الحزب الشيوعي الروسي ان يصل الى حـل وسط يبقي الدولة الروسية حدودها المترامية الاطراف ويرضي القوميات الداخلة تحت سلطتها امثلاً لتثير المتاعب ، فخرج على الناس بفكرة الاتحاد السوفياتي الذي يضم عدداً كبيراً من المقاطعات تتبع حكومة واحدة على شكل لا مركزي

وترك للقوميات امورها الجزئية الداخلية وسمح لها أن تتحدث بلغاتها وتعترف
بتراتها الخاص ضمن البوتقة الشيوعية .

ومن الامثلة على الدول غير القومية سويسرا وبلجيكا حيث تضم بلجيكا
قوميتين وتضم سويسرا عدة قوميات .

ولا يعجب انصار القومية بهذا الاتجاه ويسعون الى تفنيده فهم حين
يناقشون الشيوعيين يربطون بين الفكرة الماركسية التي تنادي بزوال
القوميات بعد القضاء على الرأسمالين وبين التظاهر باقرار وجود القوميات
مع اندماجها في حكومة واحدة ، بل ان كتابات الشيوعيين حتى اليوم
تدل على أنهم ما يزالون ينظرون الى القومية كمرحلة عابرة وان تساهلوا
معها مؤقتاً ، فمن يطالع كتابي الطبقة والامة وأمم رأسمالية وأمم اشتراكية
الشيوعيين يلمس ان الطبقة هي محور التجمع البشري عند الشيوعيين
ويدرك انهم يطلعون الى مرحلة عالمية تذوب فيها القوميات وان لم يظروا
استعجالهم للوصول الى هذه المرحلة الآن ، ويعلم القوميون ان الحكم على تجربة
الاتحاد السوفياتي ومقدار نجاحها في تجميع القوميات صعب نظراً للحكم
الشديد الذي يأخذ به الشيوعيون مواطنهم بل يرون ان الامور في الاتحاد
السوفياتي تسير لمصلحة القومية الروسية ما دامت لغتها تفرض على سائر
المقاطعات الى جانب اللغات القومية الأخرى ، وما دامت هي الغالبة في
شؤون الحكم والسلطان والثقافة والتوجيه ، ولا يصدق القوميون ما ينسبه
الشيوعيون للاتحاد السوفياتي من حكم لا مركزي واستقلال داخلي لكل
مقاطعة بل يؤكدون ان للمركز المتمثل في قيادة الحزب الشيوعي والجهاز
الحكومي التابع لها الدور الاكبر في تسيير دفة الامور في سائر

المقاطعات ، وهم لا يترددون في التنبؤ لدولة السوفيت بتعاقب قومية خطيرة في المستقبل .

أما سويسرا وبلجيكا فيرى القوميون أن وجودهما كدولتين مرتبط بانفاق الدول الكبرى المحيطة بهما ، فسويسرا ضمنها سائر الدول الأوروبية وابقها بعيداً عن المنازعات لاصلاية بنيانها وانما درءاً للمشكلات التي ستقع بين هذه الدول حين التعرض لها ، وكذلك الحال في بلجيكا فان فرنسا وانكلترا تعتبران من قواعد سياستها الخارجية ان تبقى بلجيكا على حلها لا تنقسم ولا تتوزع بين الدول المجاورة .

وجمل آراء القوميين ان الدولة المستقرة النية البعيدة عن التفكك والقلقل والمذابح هي الدولة التي تضم قومية واحدة ففي امكان ابناء هذه الدولة أن يتفاهموا ويتعاونوا بل ويتطوروا ويغيروا من أنظمتهم الاجتماعية من غير من ان يخشوا استبداد منطقة بمنطقة أو قومية بقومية ومتى وجدت عدة قوميات في الدولة الواحدة فلا بد من أن تستغل اكبرها الاخريات وينقلب الامر الى استعمار ، ويبدو أن التاريخ يسير في هذا الاتجاه فنحن نسمع في كل سنة بقيام دولة قومية جديدة ، وحين يكون ابناء الدولة متجانسين يصعب على الاجنبي التدخل فيما بينهم واثارتهم على بعضهم ، وقد انطلقت القوميات الأوروبية بعد استقلالها عن الامبراطوريات انطلاقاً هائلاً فاستطاعت فرنسا والمانيا وايطاليا وسواها ان تصل مراتب عالية من القوة والتقدم منذ ان توحدت كل منها في دولة قومية قائمة بذاتها .

ونلاحظ الآن ان الدعوة القومية الى العربية تشكل دافعاً كبيراً نحو التحرر وتحفز على بذل التضحيات في سبيل الرفعة والمزة والعيش

الكريم ، ويستنكر القوميون الواعون أن تصبح الدولة أو الامة اداة في يد المتعصبين يوجهونها نحو المدوان واستغلال الآخرين . فالدولة القومية المثلى في نظرهم هي التي تقوم على أمة موحدة متحررة تبذل جهودها للاستفادة من كنوز وطنها الطبيعية وتبني مجتمعها بناءً سليماً خالياً من الاستغلال وتمد يدها للمساهمة في خير الانسانية بأجمعها وفق امكانياتها وطبيعتها الخاصة .



الفصل الثاني

الاصول التاريخية للقومية العربية

القومية العربية من اعرق القوميات الموجودة على سطح الارض لأن أمة العرب قديمة ومعروفة منذ بداية التاريخ وقد كان وعي العرب لقوميتهم يشتد أو يضعف ويكتسب ملامح عديدة خلال العصور ، غير أن الحقيقة الاولى تظل ثابتة وهي أنهم أمة عربية قائمة بذاتها لها ما يميزها عن الامم الأخرى ، وسندرس الشواهد على وجود القومية العربية ونمو وعيها قبل الاسلام وبعده .

القومية العربية قبل الاسلام :

عرفت وثائق الاقدمين ونقوشهم اسم العرب وذكروا في التوراة وأسسوا قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين دولاً واسعة غنية قوية في جنوب الجزيرة العربية وشمالها كدولة معين وسبأ وحمير والانباط وعاد وثمود بل أنهم دخلوا في الاساطير الشعبية لسكان هذه المنطقة ، وتصور الناس لبعض قبائلهم بدايات ونهايات لا تقل غرابة وجلالاً عن الاساطير التي تتناول التاريخ الاولي للقبائل اليونانية ، وكانت مدينتهم تزدهر في احدى بقاع الجزيرة العربية خلال عدة مئات من السنين ثم تسلم لواءها بقعة

أخرى ، ولم يعرف التاريخ القديم سنة لم تكن فيها للعرب دولة قائمة في إحدى مناطقهم وجيش واقتصاد وتأثير على مجرى الاحداث .

وفي الفترة التي سبقت الاسلام كانت للعرب دولة في اليمن كافحت الاحباش والفرس ودولة في الشام وأخرى في العراق ، وعرفت الجزيرة العربية في تلك الفترة القريبة من الاسلام ازدهاراً للشعر وفنون الكلام والخطابة ، ويبدو أن نجداً والحجاز كانتا متحلتين من روابط الدول ، أي تبعدان الانظمة العشائرية في حياتهما ولا يدل هذا على أن هاتين المنطقتين لم تعرفا النظام المستقر قبل ذلك ، بل تشير دلائل عديدة الى انها عرفتا الدول والناظم الحضارية ثم ألت بهما الكوارث فشتت القبائل وخربت المظاهر الحضارية ، وليس من المعقول ان يكون امرؤ القيس والناطقة وعترة وطرفة من سلالة شعب لم يعرف الحضارة وينطقون أروع الشعر فخامة وتنظيماً وفكرة ، وتبين الادلة أيضاً أن العرب قبل الاسلام في جوف جزيرتهم وفي يمنهم وشامهم وعراقهم ملوا الفرقة والفوضى وتمدد الدول والنفوذ الاجنبي والضياع السياسي والديني ، فتنقلوا الى وثبة تعيد لهم وحدتهم وتتيح لهم ابراز مكنوناتهم ، وتجلى هذا الوعي في قصائد زهير بن ابي سلمى التي دعا فيها الى نبذ الخصومات واطراح الحروب اهلية بين العشائر ، كما يتجلى في ظهور امواق العرب التي يقصدونها من كل حذب وصوب للمناظرة والمنافسة في الخطب والاشعار ، ويتضح هذا الوعي في الاشهر الحرم والحج فقد حرمت العرب على نفسها الغزو والقتال في أشهر معينة من السنة يتلاقى فيها أبناء القبائل على ما بينهم من ثأر أحياناً فلا يختصمون بل يتفرغون للمصالح المشتركة كما أن الحج كان مؤتمر العرب في تلك الازمنة ، وان اتجاههم الى إقامة مدوين عن آلهة القبائل في الكعبة يعبّر عن شعورهم بوحدتهم ، ويتضح

لنا قلق العرب الديني من خطب قس بن ساعدة ومن تساؤلات عدد كبير من بلغاء العرب قبل الاسلام ، كما انهم بدأوا يميلون الى الوحدة الاقتصادية فأصبحت قريش قبيلتهم التجارية الاولى والوسيطه بين شملهم وجنوبهم ، وازداد تعاملهم ولقاؤهم مع بعضهم وظهروا كقوة عسكرية منافسة للاجانب من جديد حين غلبوا الفرس في معركة ذي قار ، ويعبر فخر شعرائهم واندفاعهم عن عودة الحياة الى نفوسهم بشكل قوي ، وقد سميت الفترة السابقة للاسلام والقريية منه زمنياً بالجاهلية مشتقة على الاجح لا من الجهل ضد العلم ، بل من الجهل ضد الحلم ، أي اعتبرت مرحلة فوة الامة العربية والفتوة فيها اندفاع وحيوية وقلق وتلس وطيش وشجاعة وسعي الى التلور ، وقد اشتهر العرب منذ القدم باخلاق مجيدة اعترف لهم بها الرحالة اليونان الاولون ، فهم عفويًا يمتازون بالكرم والشجاعة والمروءة والتضحية والنخوة وحماية المستجير واكرام الضيف وكره الطغيان وتقدير الحرية والاشتراف في الغانم والمغارم ، كما اثر عنهم حين يقيمون الدول حبهـم الشديد للعمران واشادة المدن والسدود والقصور كسد مأرب وبيوت ملوك اليمن الشاهقة ومنازل البتراء المنحوتة في الجبل وتدمر والحيرة وبصرى الشام ...

وقد ذكرنا هذه الامثلة لنبين أن العرب حقيقة واقعة بشرياً وحضارياً منذ آلاف السنين وانهم كسائر الامم مروا بفترات نهوض ومراحل تخلف وكانوا اثر انقضاء احدى دولهم يبحثون من جديد عن النهضة ويسعون اليها ، وحتى في الايام التي اندجوا فيها مع غيرهم سياسياً ظلوا أمة متميزة وقدموا لشركائهم في الدولة نتاج عبقرتهم ، فقد عرف عرش روما مثلاً اباطرة عرباً حكموا الدولة الرومانية في أوج قوتها ، ولكن اندماجهم مع الآخرين لم يكن بطول إذ سرعان ما يشورون

ويسعون الى الاستقلال على الرغم من أن الاستقلال القومي لم يكن قوي النداء في العصور القديمة وثورة تدمر ومحاولات المناذرة وتمرد قبائل الجزيرة العربية على الرومان اوضح دليل على ذلك ، وقد أدى بهم الشعور بالهزة القومية في أيام جاهليتهم الى مفاخرة الامم القوية في ذلك الوقت كالفرس والروم فكثيراً ما وقف على طنافس ايوان كسرى عربي فقير يملن ان العرب خير من الفرس بل وأشرف من جميع الامم ، وكانوا يعتبرون زواج بناتهم من الاجانب ولو كانوا اكسرة أو قياصرة عاراً وأي عار .

للقومية العربية والاسلام :

استجاب الله لدعوات العرب فبعث لهم محمداً (ص) مبشراً بدين جديد وداعياً الى اصلاح اجتماعي وسياسي واسع ، فقد كان العرب قبله يحاولون تلمس طريقهم ويتساءلون عن الوسيلة التي تنظمهم وتعيد اليهم قوتهم الموحدة وتنقذهم من الخلافات القبلية وتسمح لهم بالانطلاق نحو المستقبل العليا التي يمجدهونها ، وقد كان محمد (ص) عربياً وظهر في المكان المؤهل لانجاب القادة فمكة جموع العرب ومثار حديثهم ومحل مناظراتهم والمطلعة على آلامهم وحاجاتهم والواعية اكثر من سواها حقيقة ، لم تكن مكة مدينة عادية منعزلة بل كانت عاصمة العرب اليها يحجون ومعها يتاجرون وفيها قريش التي بدأت لهجتها تنتشر بين القبائل العربية وكانت سائر الدول العربية في ذلك الحين تقدر مكة وتحترم الكعبة لذا لا نكون بميدين عن الصواب اذا اعتقدنا بأن الوعي العربي في مكة بلغ في أواخر العصر الجاهلي ذروته ، وقد تجاوب العرب الوثنيون مع الاسلام منذ ظهوره ولم

يتوف الله محمداً (ص) الا بعد ان اسلمت الجزيرة العربية الوثنية كلها تقريباً ، أما القبائل المسيحية فقد رأت في الدين الجديد شقيقاً لدينهن فأحترمته ولم تقف منه موقف العدا ، وقاوم اليهود الدعوة الجديدة وتآمروا عليها لتمصهم المعروف دائماً ولرغبتهم في بقاء العرب متفرقين ضعفاء فقراء ، فيثري اليهود على حسابهم ، وقد قاوم الاسلام في أول الامر وجهاء مكة وزعماء العشائر وعمداء الاسر الكبرى والاعنياء والمتنفذون من بين القبائل الوثنية وذلك لخوفهم من جماهيرية الاسلام ولومه المترفين والمستعبلين ودعوته الى المساواة والصدقات واشتراك الناس في الاموال عن طريق الزكاة ، وعدم تفرقه بين سيد ومسود ووضعه سلباً جديداً للقيم لا يقيس الافراد بأنسابهم بل بتقواهم واعمالهم ، غير أن هذه المقاومة لم تطل فقد انتشر الاسلام بسرعة بين العرب الذين رأوا فيه حركة منقذة من الفوضى والتجزئة ، كما أنهم كانوا قد ملوا عبادة الاصنام واحترقوها ، وقد جاء الاسلام في وقته اذ فهم العرب آيات القرآن الكريم مباشرة من غير شراح ومفسرين وتأثروا بحكمتها وتوجيهها وروعة صياغتها مما يدل مقدار وعيهم في ذلك الحين وقوة ادراكهم . ولم يخيب الاسلام رجاء العرب فيه ، فقد حرر نفوسهم من سلطان المشيرة واطلقها للعمل على مستوى الامة وانشأوا به دولة عربية موحدة غدت المدينة المنورة عاصمتها واصبحت العواصم الاخرى تابعة لها ، ونظم العرب حياتهم الاقتصادية عن طريق الاسلام ، فجيبت الزكاة والصدقات ووزعت الغنائم على المجاهدين ، ولم يكادوا ينتهون من توحيد أنفسهم في الجزيرة حتى انطلقوا لضم الاجزاء العربية الاخرى في الشام والعراق ومصر والشمال الافريقي ، بل انهم على سنة العصور القديمة حملوا دينهم الجديد وافتتحوا من أجل نشره بلاد الفرس والهند وجزءاً من الصين وقسماً من

البلاد البرنظية والاندلس وجزر البحر الابيض المتوسط ، وكانت القبائل المسيحية تحارب الى جانب المسلمين في أيام الفتوح وأوصى الاسلام بالابقى عربي وثنياً أو مجوسياً والا كان السيف بينه وبين المسلمين ، وانتشر الاسلام أيضاً في البقاع غير العربية ، وأثر في تدعيم اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ولكننا نلاحظ أن الاسلام شمل شعوباً قبلته كدين ولم تتعرب والى جانبها نجد أن العروبة سادت مع الاسلام في بعض البقاع وظلت عربية حتى بعد انحسار القوة الحربية للعرب المسلمين ، فقد شملت العروبة الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر والشمال الافريقي ولكنها لم تشمل بلاد الفرس والهند والافغان والترک والاندلس وجزر المتوسط ، مما يدل على أن موجة الفتوح الاسلامية ثبتت دعائم العروبة في الوطن العربي الذي كانت بقاعه تشكو من حكم الاجنبي الرومي أو الفارسي ولم تسلب الناس أوطانهم ولم تجعل اناساً أو شعوباً لم تكن عربية سابقاً تترك قوميتها وتذوب في القومية العربية ، ولولا أن الشام والعراق ومصر وشمال افريقيا بلاد عربية في الاصل لما استقبل ابناءؤها المد العربي الجديد بحفاوة ولما ساعدوه ، ولما تركوا لهجاتهم المحلية بسرعة وأخذوا لهجة قريش يستعملونها في كتاباتهم واحاديثهم اليومية بينما قبل الفرس اللغة العربية كلمة ثقافية وظلوا يستعملون لغتهم الاصلية في حياتهم العادية .

ويعمل بعض المؤلفين قوة اللغة العربية وسرعة انتشارها ونفوذها الى المدن والقرى الشامية والعراقية مع العادات والتقاليد العربية المتعددة بالقرابة الجنسية والاجتماعية بين العرب الفاتحين وبين سكان هذه انبعاث الساميين ، وبعضهم يرى أن هذه القرابة تكفي لجعل السامي يفهم العربي ويسرع الى الاندماج معه وخاصة بعد ان انهارت الحضارات السامية الاولى من بابلية وكدانية وآرامية وفينيقية وشعر الساميون بأن العرب أقرب اليهم فكراً وطبعاً ولغة من البرنظيين الغرباء عنهم تماماً ، أما البعض الآخر فيرى أن الملاقة بين العرب وبقية

الساميين ليست قرابة خارجية بين شعبين مختلفين بل ان الساميين من العرب والعرب منهم ، والجزيرة العربية هي مصنع الساميين تصدرهم عن طريق الهجرات والفتوحات من حين الى حين وتحت هذا اللواء أو ذاك ، وما المد العربي الاسلامي الا مظهر من مظاهر الحركات السامية . ومهما يكن من أمر فان العروبة وجدت نفسها غير غريبة عن البقاع التي تسمى اليوم بالوطن العربي ، بينما ظل الفتح العربي في بلاد الفرس غريب الوجه واليد واللسان . وقد تعرض هذا الوطن لهزات وكوارث عديدة كانت كافية لانحسار ظل العروبة عنه لو أنها طارئة عليه وعابرة ولكن المصائب والكوارث كانت تزيد العرب تمسكاً بوطنهم وتضحية في سبيل المحافظة على حدوده مما يدل على عمق جذور العروبة فيه ، ولا شك أن القبائل العربية كانت منتشرة خارج الجزيرة العربية وحول المدن السورية والعراقية .. بشكل واسع النطاق وهي قبائل لا يتناولها النقاش الذي أثير حول الساميين .

وقد عرف العرب بعد ظهور الاسلام عدة دول اولها الخلفاء الراشدون ثم الامويون والعباسيون وكان الوطن العربي موحداً في عصر الراشدين والامويين وأول العهد العباسي وفي أواخره استقل الفاطميون بمصر بعد أن سبقهم الى ذلك بعض ولاياتهم عزلوا شمالي افريقية عن بقية بقاع الوطن العربي سياسياً الى جانب مصر وعرف وطننا دولات فرعية هنا وهناك منها دولة الحمدانيين في حلب والموصل ومنها دول المرابطين والموحدين في الشمال الافريقي ، ولا زبد هنا ان نتعرض للملك الطوائف والدول المستقلة التي نشأت في الامبراطورية العربية الاسلامية خارج حدود الوطن العربي كدولة الامويين في الاندلس وملوك بعض المقاطعات الفارسية .

وبعد توسيع الفتوح وعلى الرغم من شعور العرب بقوميتهم الا انهم لم يجدوا مانعاً من إنشاء الدول الامبراطورية التي تضم عدة قوميات واغلب الدول الاساسية التي ذكرناها منذ قليل كانت امبراطورية شملت العرب والفرس

والترك . . . الا ان العرب ظلوا في عصر الراشدين والامويين والحكام
الرسامين والفعليين لهذه الامبراطورية ، وعلى أثر استنجد العباسيين
بالفرس للقضاء على الامويين بدأ النفوذ الاعجمي يتسرب الى الحكم واستطاع
الخلفاء العباسيون الأوائل ان يصمدوا في وجهه ويحدوا من انتشاره بالين
طوراً وبالتشديد أحياناً وكلنا يعلم بمصرع ابي مسلم وتصفية البرامكة ، غير ان
النفوذ الاعجمي تابع سيره وتوسعه رغم العراقيل فازداد نفوذ الفرس في
زمن المأمون ثم تدخل الاتراك في الحكم ابتداء من عهد المعتصم الذي لم يستطع
التخلص منهم ولو أنه قتل الافشين أحد زعمائهم المسكرين ، ومنذ مصرع
المتوكل أخذ أمراء الجند من ترك وفرس ، بويهيين وسلاجقة ، يتلاعبون بمقدرات
الدولة العباسية كما يريدون واصبح الخليفة العربي رمزاً اسمياً للسلطة الروحية لا
يتمتع بأية صلاحية فعلية زمنية ويخلع أو يقتل متى أراد الاعاجم ذلك .

وقد رافقت الحركات الاعجمية السياسية تيارات فكرية اعجمية الاصل
دعيت بالشعوية وقاعدتها الاماسية ازدراء العرب والفض من تاريخهم والتقليل
من شأن أمجادهم وتعبيرهم بيداوتهم والافتخار عليهم بآثار الفرس وآثارهم
وتعجيد الشعوب الاخرى على حسابهم ، وقد ارتبطت الشعوية بالزندقة وتشويه
الدين الاسلامي ووضع الاحاديث المغلوطة على لسان الرسول العربي ، ومن أشهر
ممثلي الشعوية الشاعر الفارسي الاصل بشّار بن بُرد .

وإذا كان حكام العرب قد عجزوا عن ايقاف الموجة الشعبية
سياسياً وعسكرياً فان الشعب العربي صمد لها فكراً واجتماعياً ، فهب
الكتاب المؤمنون بشرف العرب يدافعون عن امجادهم وهاجم الجاحظ مثلاً
الشعوية هجوماً عنيفاً في كتاب البيان والتبين وسعى هو واضرا به الى
جمع التراث العربي التاريخي والادبي واظهار محاسن أقوال العرب وعمق

حكمتهم وروعة شعرهم بل إن الجاهلية التي سخر منها الشعوبيون كثيراً ليبرهنوا على أن العرب ليسوا في الاصل جديرين بالحضارة اصبحت عند كثير من المكركبين دليلاً على فتوة الامة العربية ومنبعاً ثراً لخطبهم واشعارهم ومظهراً لشخصيتهم الاصلية ونظرتهم العفوية للوجود .

وحين امتلك الاعاجم دور الحكومة وثكنات الجيش راح الشعب العربي يحمي نفسه بانشاء منظمات غير حكومية هي منظمات الفتوة التي دخلها الشباب العربي ليحموا بلدانهم وشخصيتهم من المد الاعجمي ، وقد كان لأهل الفتوة على بساطتهم أثر كبير في حفظ الطابع العربية وتشجيع الفضائل العربية الأساسية كالبرورة والشجاعة والكرم ، وحين كان العرب يتسامعون بأمر عربي متحرر من سلطان الاعاجم يجدونه ويشعرون بدماء العروبة تتدفق في عروقهم ، وقد مدح ابو فراس ابن عمه سيف الدولة بقصيدة مجد فيها صراحة أصله العربي حين أورد أن الفتيات كن يدعين الى الله ألا يقطع نسل العرب :

ينادين بين خلال الببو ت لا يقطع الله نسل العرب

وقد غير المتنبى قومه بحكم الاعاجم لهم واكد ان العرب لا تصلح اذا كانت ملوكها من الاعاجم .

وحين اشتدت غزوات التتار وقوي سلطان الاتراك السلاجقة وتمهم الغزو المغولي على يد تيمورلنك ثم سيطرة الاتراك العثمانيين ، تقوقع الشعب العربي وخاصة في الريف على نفسه وكأنه أراد من انطوائه على ذاته ان يحمي طبيعته وفضائله وشخصيته الخاصة .

ويعتبر العثمانيون أول من تجرأ فنقل الخلافة رسمياً الى ايد غير

عربية فقد جرت عادة المسلمين من قبلهم ان يتركوا منصب الخلافة لاحد العرب القرشيين وهذا ما فعله المهاليك في مصر اذ نصبوا عليهم خليفة عباسياً وان لم يكن له من الامر شيء ، اما السلطان سليم العثماني فقد انى خلافة العرب ونصب نفسه اميراً للمؤمنين ، وقد كان للعثمانيين منذ بداية دولتهم نصيب في محاربة اللغة العربية اذ أقدموا على جعل ديوان حكومتهم وكتابة رسائلهم الرسمية باللغة التركية مع ان اللغة الرسمية للمسلمين كانت العربية من قبلهم ، وقد أثرت طبيعتهم العسكرية وخوفهم من العلم والنور فجعلتهم زاهدين في الكتب العلمية وحتى الدينية لأن اكثرها مكتوب باللغة العربية ، ويروي بعض الباحثين ان استامبول مر عليها وقت لم يكن فيها من يعرف قراءة القرآن بشكل صحيح^(١) ، وقد بذلوا جهودهم لتدعيم نفوذهم على العرب باسم الدين وحماية الثغور الاسلامية ، غير ان حركة القومية العربية أخذت تستيقظ في أواخر أيامهم وفي هذه المرة لم ترض الامة العربية بالبقاء في دولة امبراطورية مع أمم أخرى وانما تبلورت الحركة العربية خلال الحرب العالمية الاولى واتجهت في نهاية الامر اتجاهاً استقلالياً يناهز بدولة تجمع أمة العرب الواحدة المتحررة وتترك للشعوب الاخرى ان تقيم دولها كما تشاء .

والآن توجد بعض المدارس الفكرية التي تحاول أن تنظم علاقة القومية العربية بالاسلام ، وكل منها تمثل اتجاهاً معيناً في فهم القومية والدين ، ومن أهم هذه الاتجاهات :

أولاً - توجد فئة من المفكرين الدينين تعتقد ان القومية بلاء تشتت ابناء الدين الواحد الذين يجب ان يكونوا متحدين لا يفرقهم جنس ولا لغة ولا تمتد بينهم حدود ، ويرون ان نشوء الدول القومية والمناداة

(١) كتاب سلالة العصر .

بالعزة القومية تثير الضغائن والعداوات وتفرق المسالمين وتتركهم لقمة سائغة في يد المستعمرين الذين يُستحسن ان نسميهم بالكفار من وجهة نظر هذه الفئة ويدلون على رأيهم ببراهين منها ان العرب لم يكونوا شيئاً مذكوراً قبل الاسلام فهم في جاهليتهم الجاهلية وضلاتهم العمياء حفاة عراة يفزون بعضهم ويثدون بناتهم ويخضعون لنفوذ الفرس والروم والاحباش وتتنازع قبائلهم على التافه من الامور .

ومن براهينهم أيضاً أن الاسلام قوة أعظم من العروبة ومن الافضل لنا أن نشكل دولة تضم مئات الملايين من أن تقتصر على دولة الثمانين مليوناً وهم يرون أن الاعاجم قد ساهموا مساهمة جديدة في الحضارة العربية السالفة ، فقد كانت منهم الكتاب والفلاسفة والفقهاء والعلماء والشعراء ... كما انهم دافعوا عن بلاد العرب ببسالة ضد الصليبيين وبقية الغزوات ، ولا ينسى أصحاب هذا الرأي ما للدولة العثمانية من فضل على العرب فلولاها لا كتسحقنا المستعمرون الاوروبيون منذ قرون عدة ، وقد اعزت الاسلام بأن دوخت أوروبا وكانت قوة رهيبه خضع لها ملوك فرنسا وروسيا والنمسا واحتلت بلاد البلقان .

ويقول انصار هذا الرأي ان الاستعمار ليس هدفه تحطيم العروبة بل هو يستهدف الاسلام ويريد القضاء عليه لأنه يربط بين هزائمه السابقة وبين الدين الاسلامي ، ثم يتقدمون خطوة أخرى فيعلنون ان الاسلام قدم خير نظام للدولة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ويمكن ان تحمل الاخوة الدينية محل الرابطة القومية وتعني عنها بل هي أشرف منها لأن الدين شيء فكري سام بينما تظل الرابطة القومية مادية الى حد كبير .

ولا بنفرد بعض المفكرين العرب بحمل هذا الرأي بل يشاركونهم فيه مفكرون اسلاميون من أبناء الشعوب الاخرى ، كالاستاذ ابي الاعلى المودودي امير الجماعة الاسلامية في باكستان والذي نُشر له منذ مدة مقال في احدي المجلات يعلن فيه ان القوميات كالقومية العربية والتركية خطر

على الوحدة الاسلامية ، ولا يزالون الاوروبيون يصرون على تسمية بعض الحركات الوطنية العربية باسم اسلامي فتقول اذاعاتهم مثلاً قتل في الجزائر كذا من الفرنسيين وكذا من المسلمين ولا تقول من العرب .

ثانياً - وهناك رأي آخر يتساهل مع القومية ، فيعلن موافقته على قيام دولة عربية موحدة في أول الامر على أن تكون خطوة في سبيل الوحدة الاسلامية الكبرى وقد بدأ كثير من المفكرين الدينيين يتجمعون في السنوات الاخيرة حول هذه الفكرة ويجدونها أفضل من الفكرة السابقة التي تحارب القومية اصلاً ، وبرهانهم الرئيسي قائم على الاعتراف بأن القومية تقرب بين المنتسبين اليها وتجعلهم اقدر على التعاون فيما بينهم نظراً لوجود اللغة المشتركة والتاريخ الذي يوحد نفسياتهم ومن الخيران نبدأ بتجميع الدائرة القريبة منا وهي الدائرة القومية لنتهي بعد ذلك الى تجميع الدائرة الواسعة التي تضم اتباع الدين كله ، وهؤلاء لا يجحدون القومية ولا يتنازلون عن أملمهم في الدولة الاسلامية الشاملة ، ويأخذون أكثر ادلة الاتجاه السابق مع شيء من الاعتدال ، وبمضهم يتحمس لقوميته فيعلن ان الوحدة الاسلامية المنشودة يجب ان يتزعمها العرب لأنهم اقدر من غيرهم على فهم الاسلام وهم حملة لوائه الاولون ، ومنهم رسوله وخلفاؤه الراشدون ، وفي أول عهد اليقظة العربية تبنى هذا الرأي عدد لا بأس به ممن شعروا بأهمية القومية العربية وفي نفس الوقت ظلوا متأثرين بالامبراطورية الاسلامية التي كان يمثلها الممانيون فأرادوا ابقاء هذه الامبراطورية مع وضع قيادتها في يد العرب .

ثالثاً - وهناك رأي ثالث يرى ان الدولة القومية لا بد منها وان نظام الامبراطوريات التي تجمع عدة قوميات قد انتهى اوانه ، وكل دولة تجمع بين رعاياها قوميات متعددة لا بد لها من الانشقاق وقيام الفتن

الناجمة عن شعور هذه القومية أو تلك باستغلال القوميات الأخرى لها ، ولا توجد امبراطورية الاوتسير الامور فيها لمصلحة احدى القوميات فالحكم العثماني كان يفيد الاتراك على حساب سواهم والامبراطورية العربية الاولى جرت الامور فيها لمصلحة العرب اول الامر وخاصة في زمن الامويين ثم راح الاتراك والفرس والدليم يستخدمونها لاغراضهم وليس من المعقول ان يتم التفاهم بين مجموعات من الناس ذات لغات مختلفة وطبائع وتقاليد متباينة ، ولا شك ان المصيبة القومية ستزداد في الدولة الامبراطورية ومستخدم المفاخرة ويسود التنافر بين القوميات ، ولن تستطيع الرابطة الدينية ان توقف التنافر والتنازع اذ ان القومية تمس حياة الانسان العميقة وتطبع شخصيته بطاها ، فالفرنسي والاماني مسيحيان ولكنها مختلفان كل الاختلاف والعربي غير التركي والاراني والباكستاني وان اتفقوا في الدين .

غير أن أصحاب هذا الرأي حين يدعون الى دولة قومية يريدون لها نظاماً اسلامياً في شؤون الحكم والاقتصاد ومثلهم الأعلى دولة عربية تسير على الشريعة الاسلامية وتتعاون مع سواها من الدول الاسلامية ضمن حدود المصلحة المشتركة على ألا تندمج الدول ولا تذوب القوميات ولا تعتدي دولة على دولة وهم يربطون بين العروبة والاسلام فيرون عز العروبة في الاسلام وخيرة الاسلام في العرب ، ويحاولون ان يظهروا أنفسهم بمظهر المعتدلين فيرضون دعاه القومية بالواقعة على الدولة العربية الموحدة التي تعتبر غاية في ذاتها ولا تندمج في وحدة أوسع منها ويرضون دعاه النظام الاسلامي بالواقعة على جعل الشريعة الاسلامية أساساً لحكم الدولة العربية المنشودة ، وهم يعتقدون أن انشاء الديانات الأخرى في الوطن العربي يمكن أن يعيشوا كمواطنين محترمين ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين لأن النظام الاسلامي يمكن أن يسمح بذلك ، ويدعوننا على كل حال أن نحترم ديانة الاكثرية التي هي الاسلام بل يعتبرون هذا الدين المعبر الاول والاخير

عن طبيعة العرب وخصائصهم وفضائلهم وكما صلح به أولهم سيصلح
به آخرهم .

رابعاً — وهناك انصار القومية العربية البحتة الذين يدعون الى تحجر
العرب وتوحدهم في دولة قومية لا تكون خطوة في سبيل وحدة اسلامية ولا
يشترط لها أن تتبع النظام الاسلامي في حكمها وتشريعها ، بل لها ملء الحرية
بأن تختار حسب حاجتها ومشكلاتها العصرية التنظيمات القانونية والاقتصادية
والسياسية التي تلائم الزمن الذي تعيش فيه .

وأنصار هذا الرأي يتكاثرون اليوم بين العرب ويعلمون احترامهم
لسائر الديانات ويريدون أن يكون الفرد تقياً في دينه من غير أن يدخله في
الشؤون السياسية ، ويقدر دور الذي قام به الاسلام في رفع مستوى العرب
كما يقدرون تضحية العرب في سبيل الاسلام ولا يوافقون على أن العرب لم
يكونوا شيئاً مذكوراً قبل ظهور الدين الاسلامي بل يذكروننا بالحضارة العربية
المعينة والحضرمية والسبئية وبدول الانباط والنسائية والناذرة والتدمريين ،
ويرون ان الفترة التي سبقت الاسلام مباشرة ودعيت بالجاهلية لم تكن شرأ كلها
بل تجلت فيها فضائل عديدة من شجاعة وكرم ومروءة ووفاء ، وكانت في قلق
توجه نحو النهضة وتلمسها وليس عجيباً على الامم أن تمر بفترات قلق واضطراب
لتركن نفسها من جديد .

ويعتقد أنصار هذا الرأي ان الدين له ميدان والقومية لها ميدان آخر ،
الدين يسد حاجة المرء الى الارتباط بخالق الكون ويرسم له منهجه في العبادة
ويشجعه على مكارم الاخلاق ، أما القومية فهي التي تدفعه الى انشاء المنظمات
السياسية وتشعره بالوحدة الحيوية بينه وبين أبناء امته ، وليست القومية قشرة
سطحية تغشى النفس الانسانية وانما هي ذات جذور عميقة في النفس تخالط طبع

الفرد وتكسبه شخصية متميزة وتكويناً نفسياً واجتماعياً وفكرياً خاصاً ،
القومية نقتربها في كل شيء ، نستقيها من الكلام ومن التصرفات ومن اسلوب
الصفات والقصص والاساطير والاغاني والتاريخ والمصير المشترك ، القومية
تحيط بنا أني " ذهبنا فتصهرنا وتجعلنا اجزاء عضوية منها ، والقومية العربية
ليست تعصية ولا تطلب إلا أن يكفيها الآخرون شرهم وتكفيهم شرها بل تبذل
جهدا لتقدم لهم الخير وتمد لهم يد المعونة على شرط ألا تدوب فيهم وألا يظفوا
عليها ويستهملوها ، وحين تقوم الدولة على أساس قومي تستريح نفوس الافراد
ولا يتوجسون خيفة من أي شريك لهم في الدولة بل يشعرون بأنهم أعضاء
من شجرة واحدة يجتمع التركي والعربي في دولة واحدة فلا يمكن إلا أن يكون
الاتراك أكثر تفاهماً فما بينهم وأكثر تعلقاً بمصالحهم الخاصة من المصلحة
المشتركة ، بينما لو ظلت كل قومية في دولتها لعرفت حدودها ولاستطاعت أن
تفكر بوعي وهدوء بكيفية التعاون مع الآخرين ، وكيف نطالب نطالب الاتراك
بإعادة كليكييا والاسكندرون وكيف نطالب الايرانيين بإعادة عربستان ونقف في
وجه اطاعهم بالبحرين اذا لم نفكر على أساس قومي محض؟

والقومية العربية ليست مادية بل هي مستودع للقيم وذات اتجاه انساني
وتسعى لا الى المكاسب والمغانم على حساب الآخرين بل الى سعادة الانسان وتهيبته
الجو الصالح ليمشه الرغيد وانتاجه في سائر الميادين الدينية والعلمية والادبية
والفنية . انها لا تدعو الى قيام عصابة ولا الى قيام شركة وإنما الى بزوغ فجر
مجموعة مترابطة من البشر المنسجمين المتعاونين في سبيل وخير الناس أجمعين .

وترى هذه الفئة ان الزمان يتطور والحياة تتعقد ومن الخطأ أن نقيّد
العرب بالنظام الاسلامي في سائر الشؤون وخاصة ان هذا النظام اذا أخذ من
الناحيات السياسية والاقتصادية له تفسيرات عديدة لا ندري أيها تتبع ، وروح

الاسلام ذاتها تشجع على التطور ولا ترضى بالجمود فيجب أن يبقى الفرد محافظاً على دينه أياً كان مع فخره بالمواقف البطولية التي اجتمع فيها الاسلام والعروبة ، وأما التنظريات التفصيلية للمجتمع فيجب ان تنبع من الدراسات العلمية ، وتتلائم في نفس الوقت مع روح الاسلام وروح سائر الديانات السامية التي تحض على العدل والصدق والتضحية والايتار ...

فالعدل مثلاً يحض عليه الاسلام ويجب أن ندعو الى العدل ولكن مفهوم العدل يتطور حسب المراحل التاريخية ، ففي بعض الازمنة يكون المرء عادلاً اذا اعتق امته التي جاءته بولد وأبقى الاماء الاخرى ملكاً له ، وفي زمن ثان يصبح الاحتفاظ بأية أمة بعيداً عن العدل ، وفي ظروف تاريخية معينة يعتبر محسناً من قدم قسماً من أمواله للفقراء حسب اختياره ، وفي ظروف أخرى يطلب من الفرد أن يدفع ضريبة تصاعديّة على أمواله ثم يعتبر مع ذلك مواطناً عادياً لأنه يؤدي واجباً تفرضه الدولة ولا يمجد كرمه وسخاؤه .

ثم يقول القوميون من الخير للاسلام ولكل دين أن يبقى بعيداً عن حمى المناقشات السياسية والاقتصادية ، فالخلاف على أشده بين اتباع مختلف المذاهب ويصل الامر في المجادلات الى التشهير أحياناً الى التفنيد الصارخ والنقد اللاذع والدين يجب ان يبقى محترماً مصنوناً من عبث الماشين وهجوم المنددين ونقاش المجادلين .

أما التعاون مع الدول الاسلامية فيرى انصار هذا الرأي أن دولاً كثيرة في العالم يمكن أن تتعاون معها ولو لم تكن مسلمة وقد دات التجارب على امكانية ذلك كما ان دولاً مسلمة من الممكن ان تعادينا وقد برهنت الاحداث على امكانية ذلك أيضاً ، ولكنهم يرون ان الدول المسلمة يوجد بينها نقطة اتفاق لا تتوفر مع الدول الأخرى وهي الاسلام الذي يساعدنا كثيراً على فهم

بعض خصائصها ويستطيع أن يقربنا اليها ويشجعها لمساعدتنا اذا كان الجو الدولي طبيعياً واذا تركت الشعوب الاسلامية تتصرف بحرية من غير تدخل اجنبي أو انحراف حاكم ، ومهما كانت أنظمتها السياسية والاقتصادية فاحترامها للدين المشترك لا بد وان يوجهها نحونا ، ومن الحق ان نضيع هذه الثروة في الوقت الذي تباحث فيه الامم عن روابط تقرب بينها وتبادل المساعدة على أساسها ويستطيع الاسلام أن يقيم بين الدول المسلمة صداقات تقليدية تفيدها في إلغاء العلاقات الثقافية والتجارية مع بعضها وتمهيداً أساساً متيناً للتعاون ضد الاخطار المشتركة ، وهم ينهوننا دائماً الى الحذر من الاجنبي الذي يقف وراء بعض الحكومات الاسلامية ويريدون أن يقوم التعاون على أساس العدل والاحتفاظ بالاستقلال ورد الاجزاء السلبية ..

الفصل الثالث

مقومات القومية العربية

لا تقوم القومية على الخيال ولا تبنى في الفراغ ، وإنما هي حقيقة اجتماعية لها اسبابها التي تساعد على نشوئها وتغذي ديمومتها ، وتستمر القوميات على مر الأزمنة لأن مقوماتها قوية ونابعة من طبيعة النفس الانسانية ، ومقومات القومية عديدة ولكنها ليست متكافئة الاثر ، فقد تكون الارض عاملاً رئيسياً في نشوء احدى القوميات ، وقد تكون اللغة هي العامل الرئيسي في تدعيم قومية أخرى ولربما ساعد الدين امة على الوحدة وأدى لها أجل الخدمات في هذا الميدان ، وقد تؤدي الخلافات الدينية الى تمزيق الامم ، وسندرس في هذا البحث اهم مقومات القومية ونرى أثر كل منها على قوميتنا العربية ونعرض للمناقشات الدائرة حول كل عامل .

اولا - العنصر أو الجنس:

اهتم الباحثون القوميون خصوصاً في القرن التاسع عشر بالعنصر ، أي بالاصل الدموي للشعب ، واعتبر عدد وفير منهم بأن الأمة اسرة كبيرة تنتسب الى أصل واحد ، ويأتي تفاهم أفرادها وتشابههم النفسي من وحدة اصلهم الفيزيولوجي ، ويذكر هؤلاء الباحثون ان ابناء الامة الواحدة

يتميزون عن سواهم ، فهم قد يتشاجرون ويحتصمون ولكنهم يشعرون مع ذلك بانهم قريبون الى بعضهم ويكرهون تدخل الغريب في شؤونهم ويضحى الواحد منهم في سبيل المصلحة المشتركة ، بل يرمي مصالحه الخاصة وراء ظهره ليندفع في سبيل اعلاء شأن امته وتحسين سمعتها وتدعيم قوتها وهذه التضحية من الفرد لا تنشق الا من كونه متنسباً عرقياً الى امته التي ليست الا اسرة كبيرة ضمت عدداً ضخماً من الاعضاء ، وهم يرون ان الوراثة وان لم تكتشف كل قوانينها بعد تدل على ان المولود يحمل الصفات الجوهرية لآبائه واجداده وتلازمه هذه الصفات طول حياته فتبقيه متنسباً الى امته ، وقد يكون الانسان المانياً بالدم من غير ان يحس بألمانيته ، الا ان طباعه تبقى المانية وسلوكه يظل المانياً لأن انسجته تنغذى بالدم الالماني ، وقد اندفع بعض انصار هذه النظرية فصنّفوا الناس الى عروق وميزوا بين عروق سامية واخرى منحلّة ، بين قائدة ومقودة ، وقاسوا جماجم الناس ووزعوا خصائص العقبرية على بعضها دون البعض الآخر ، وبما ان هذه الأفكار نشأت في اوربا التي تنسب عادة الى العرق الآري فقد اكد اكثر الباحثين سمو هذا العرق واختصاصه بقيادة العالم وحطوا من شأن الساميين والحاميين ، وضمن العرق الآري نشأ مفكرون يتعصبون لهذا الفرع منه او ذاك ، فرأى كثير من القوميين الالمان ان عنصرهم الجرمانى اصفى العروق الآرية بل هو مثل الآريين الأوائل ودعوا الشعب الالماني الى السيادة على العالم لأن الطبيعة وحتمية التاريخ والقوانين الاجتماعية تطالبه بذلك ، ومانيا يجب ان تكون فوق الجميع ، ولا تستطيع ان تتفصل من مسؤوليتها تلك فقد ارادها الله لتجلس على عرش العالم ، وحين يوجد مفكرون عرقيون

غير المان مثل لاجوج وتشمبرلن فقد كانت نظرياتهم تلاقى احسن الصدى في المانيا ، وقد استفاد هتلر وفيلسوفه روزنبرغ من هذه النظريات فصفنا الناس ونفخا في الشعب الالماني روح الاستعلاء والاندفاع نحو حكم البشر اجمعين .

أما اليوم فيزهد اغلب المفكرين القوميين في العرق والعنصر والجنس يجدون ان الدم الصافي مفقود على وجه الارض والامة التي تنتسب الى أصل واحد مستحيلة الوجود كالغول والمنقاء والخل الوفي ، وحتى المانيا التي ازدهرت فيها الدعوات العنصرية ليست ذات نسب واحد وانما يرجع أصل سكانها الى عشرات من الاجناس ، وحين ينتقلون الى سائر الامم يرون في كل منها عددا عديداً من الاصول المختلفة ، وفرنسا ينحدر ابناءؤها من خمسين اصلاً أو أكثر ، ولا تقل عنها في ذلك انكلترا وايطاليا وأمم البلقان ، ثم ينهنا اعداء العرق الى أن الانتساب الدموي لا يخلق الامزجة والمادات والتقاليد وانما تخلقها اللغة والبيئة الاجتماعية والترسية والحياة المشتركة ، وما احتفاظ الانكليزي بطبيعته اذا اتمد عن وطنه الا نتيجة لاستمرار اثر العوامل الاجتماعية فيه ، ويحمل معارضوا العنصرية على فكرة العنصر المتفوق وبرونها اسطورة رهيبة تجعل البشرية في حروب مستمرة وتبرر العدوان والتسلط على الشعوب الاخرى ولا يرون لها أي مند من علم أو تجربة ، فهي قد بنيت على حماسة جاوزت حدها .

ويقف جماعة من دعاة القومية موقفاً وسطاً من مسألة العرق فهم يمتدحون بأن الناس جميعاً قد امتزجت دماؤهم خلال عمر البشرية الطويل ولكنهم لا ينسون ان اعتقاد الامة ولو وهماً بانتسابها الى اصل واحد يزيد من تماسكها ، ويمتد أواصر التعاون بين أفرادها ويجعلهم يعاملون بعضهم

كأبناء العائلة الواحدة ويمنعهم من الخروج على إرادتها والابتعاد عنها ، إذ تصبح القومية المبنية على الاصل المشترك قدراً لا بد منه لا يستطيع الفرد التخلص من عقالة مهما ابتعد عن وطنه كما لا يستطيع ان يتصل من انتسابه الى ابيه مهما اختلف معه أو عاش بعيداً عنه ، وهم يرون الى جانب ذلك ان الامم وان انتسب ابناؤها الى اصول مختلفة الا انها تبقى خاضعة في صفاتها الغالبة لأحد العناصر التي مرت عليها خلال تاريخها ، ففرنسا رغم تعدد اصولها تغلب عليها وراثته الاصل الغالي والماني مع اختلاف عناصرها يسودها العنصر البروسي الجرمني ، وأمة العرب مهما اختلفت اصولها الجنسية يفلب عليها طابع الانتساب الى المهاجرين الساميين من الجزيرة العربية وبشكل خاص أولئك الذين انتشروا مع الفتح الاسلامي ، وهم يضيفون الى ذلك ان الاستهارة بقضية العرق وعدم الاهتمام به يعرض الامة لقبول المهاجرين من ابناء المجتمعات الاخرى ، وتضطار الامة الى قبولهم ما دامت لا تقيم وزناً الى اصول المواطنين الدموية ، وبعد حين من الزمن مستجد هذه الامة نفسها مزقاً واشلاءً وستضيع وحدتها وتماسكها وينقسم وطنها الى مجموعات قومية متباعدة متنافرة ، وقد انتهت بعض الحكومات الى هذا الخطر ، فبعد ان كانت الولايات المتحدة (١) تسمح بهجرة ابناء الشعوب جميعاً اليها عادت فسنت تشريعاً في أواخر القرن التاسع عشر ، يجعل اغلبية المهاجرين من الانكلو ساكسون ويحسد من هجرة الشعوب الاخرى ويقيدها ضمن نسب معينة ، لكي لا تجد الولايات المتحدة نفسها في براثن التمزق الجنسي ، ولكي تحتفظ بأكثرية متماسكة .

ويقول المؤرخ الانكليزي توينبي في كتاب « الحضارة في الميزان » :
« العرق والبيئة هما المفتاحان اللذان اعتبرهما مؤرخو القرن التاسع عشر

(١) اندريه سيغريد - الولايات المتحدة اليوم .

صالحين لتعليل التفاوت بين الحضارات ، ولكنها لم يستطيعا ، بعد التجربة ان يفتحا الباب المغلق باحكام . واذا اخذنا نظرية العرق مثلاً فأى برهان لدينا يدلنا على الاختلاف العرقي الفيزيائي بين مختلف اعضاء الجنس البشري له علاقة بالتفاوت الروحي الذي يقدمه لنا التاريخ . واذا قبلنا مبدأ وجود هذه العلامة ، على سبيل الفرض ، فكيف نستطيع تعليل رؤيتنا لممثلين مختلف الاعراق تقريباً بين آباء حضارة واحدة أو عدة حضارات .

ان العرق الاسود لوحده لم يأت حتى الآن بمشاركة كبيرة في ابداع الحضارات ، ولكن المدة الوجيزة التي تشكلت خلالها الحضارة الانسانية لا يسمح في اعتبار ذلك برهاناً نهائياً على عدم وحدة هذا العرق على الابداع ، وقد يعود هذا التقصير الى فقدان الظرف الملائم أو انعدام الحافر .

ونحن ممن يمتقدون بأن الاصل الدموي لا اهمية له في تكوين الامم اليوم ، فقد ضاع هذا الاصل بالنسبة الى جميع الشعوب واصبحت الامور الاجتماعية والثقافية أهم من الوراثة الجسمية ولكننا نرى مع ذلك أن الامة العربية تعتبر اصفي من غيرها نسبياً من حيث الأصل ، فأكثرية سكان الوطن العربي ينحدرون في الحقيقة من اجداد ولدوا في الجزيرة العربية ، وحين نقارن عدد اصولنا المنصرية بمدد الاصول المنصرية لفرنسا والمانيا نلاحظ اننا أقرب الى الصفاء من هاتين الامتين ، ومن طبيعة الحياة البدوية التي عاشها اجدادنا كثرتنا ان نحافظ على النقاوة الجنسية الى حد كبير ، كما ان الجزيرة العربية وخاصة المناطق الداخلية منها كانت منفصلة اكثر من سواها خلال عصور تاريخية مديدة مما ساعد

على استمرار تقائها العنصري ، وقد أوردنا هذه الفكرة لاتبنياً للعنصرية والعرقية وانما رداً على المحاولات الاستعمارية التي تستهدف التفرقة بين ابناء الامة العربية اعتماداً منها على ادعائها بأن سكان وطننا مختلفو الاصول ، ومن المستغرب حقاً ان يلجأ المستعمرون الاوروبيون الى هذه الحجة لتمزيق امتنا مع انهم يدركون ان اهمهم لا تنسب الى أصل واحد .

ونحن ممن يرون ايضاً الا يصبح وطننا ملجأً للايتام وموئلاً لشذاذ الآفاق يهاجر اليه الاجانب ويستوطنون فيه حين يريدون ، ففجىء الاجانب الى الوطن يشكل حقاً ازمة خطيرة ويضعف من تماسك الامة وينثيئ فيها القواقع المنعزلة (١) ودعوتنا هذه لا تتمد على العرق ولا تقوم على الادعاء بأن الاجانب ما داموا ينحدرون عن اصول غريبة عنا فهم سيقون اغراباً في بلادنا ومرتبطين بأهمهم الاصلية ، بل تقوم على أساس اجتماعي فحواء ان الاجنبي قد اكتسب ذوق بلاده الاصلية ولغتها ورضع حبا وهو لن يتخلى عن عاداته واعتزازه بأتمته الاولى حين يهاجر الى بلادنا وخصوصاً اذا وجد الى جانبه عدداً كافياً من الاجانب امثاله ، وان قدرة الامم على تمثل المهاجرين اليها محدودة ومتى زاد عدد الوافدين الى بقاعها عن امكانياتها تهلمت واضاعت تماسكها ، ونحن اليوم نجتاز مرحلة دقيقة تتطلب استنفاد شتى الوسائل لتقوية اواصرنا القومية واستبعاد كل ما من شأنه ان يضعف بنياننا القومي ولو الى حين ، ومن اوضح الامثلة على الاثر السيء الذي يخلفه وفود الغرباء الى وطننا ما تمناه امتنا اليوم على يد الصهيونيين والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر .

ثانياً - الدين :

ان اثر الدين على القومية بين أخذ ورد ، والباحثون القوميون

(١) راجع عوامل الوحدة البشرية الذي سبق ذكره .

مختلفون حول اهميته في نشوء الامم ، والتريخ نفسه يقدم لنا امثلة متضاربة حول قيمة الدين الايجابية والسلبية في بروز القوميات ووصولها الى حقوقها ، فقد لعب العامل الديني دوراً كبيراً في الوعي القومي لدى البلغاريين بل ان قسماً من جهادهم انصب على استبعاد اللغة اليونانية من الطقوس الكنسية في بلغاريا ، وكان رجال الدين البلغاريون من حملة لواء القومية ضد الاتراك المختلفين عنهم دينياً وضد أي نفوذ اجنبي ، كما كان للدين أثره على اليونانيين ، فشعورهم بتمايزهم الديني عن العثمانيين شجعهم على طلب الاستقلال ، وقد عملت الوثيرة والبروتستانتية عموماً على اظهار تميز الالمان عن جيرانهم ، كما أن الكشلكة اصبحت من طبيعة فرنسا ودخلت في ذوقها وتقاليدها وعاداتها ، وساعد الاستقلال الديني المبكر لانكسار البابوية على تدعيم قوميتها وقيامها بذاتها والتفافها حول اهدافها المشتركة ، والانجيليكانية اليوم تعتبر من العلامات المميزة للانكليز .

وفي المقابل نجد ان الدين ساعد على انشاء الامبراطوريات التي تضم الواحدة منها عدة قوميات ، كالامبراطورية العربية الاسلامية والامبراطورية الجرمانية المقدسة التي لم تستطع القوميات الاوروبية التخلص منها الا بعد تضحيات حمة وكفاح مرير ، وقد عمل الاتفاق الديني بين العرب والاتراك على تأخر استقلال العرب عن الامبراطورية العثمانية ، فهم والحق يقال اخر قومية انفصلت عن جسم هذه الامبراطورية ، اذ لم تنسلخ الولايات العربية عن الحكم العثماني الا بعد الحرب العالمية الاولى على حين استقل اليونان منذ اوائل القرن التاسع عشر وتبعهم الرومانيون والبلغاريون ، وليس من المعقول ان تتأخر الحركة الاستقلالية العربية لوهرت في هزيمة العرب او استكانة منهم وانما ابقاهم تحت التاج العثماني خوفاً من تمزق المسلمين ، وقد لعب بعض السلاطين العثمانيين كسيد الحميد

الثاني دوراً مهماً في الاحتفاظ بالولايات العربية تحت اسم الدين ، كما أن اعطاء الامور الدينية اهمية سياسية جعل الامة الواحدة تختصم فيما بينها ويريق ابناءؤها دماء بعضهم كما حدث في فرنسا اثناء معارك الاصلاح الديني ومذبحة سان بارتلمي ليست بعيدة عن اذهان الفرنسيين ، وكثيراً ما تلجأ الدول الاستعمارية الى الاستفادة من التمسب الديني وتستفز المشاعر الدينية حتى تتجاوز حدودها مما يثت التفرقة بين المواطنين وقد تقع الخلافات الدموية بينهم كما حدث عام ١٨٦٠ في لبنان وسورية ...

ويعتقد بعض الباحثين ان الاساس الروحي للقومية هو الدين وبدونه تضعف القومية وحدتها وتتباعد نفوس ابناءها ، وينشغلون بمصالحهم الضيقة ، وقد ألح وايزمن على أن تكون فلسطين لا البرازيل ولا تنجانيا وطناً قومياً لليهود لأنه كما يروي في مذكراته يريد للصهيونيين قومية روحية قائمة على الاعتزاز بالديانة الاسرائيلية وأما كنها المقدسة .

ويرى مفكرون كثيرون ان الدين ليس عنصراً أساسياً في تكوين القومية ، وهم يرجعون ما لاحظناه من مساعدته اليونان والبلغار والامان على تدعيم قومياتهم لا الى الدين نفسه بل الى بقظة هذه الشعوب ومحاولاتها ان تستقل في شؤونها من سائر النواحي ، وأصل كفاح البلغار حول التراتيل الكنسية ليس كفاحاً دينياً ، فالدين لا يفرق بين صلوات تتلي بهذه اللغة أو تلك وإنما كان كفاحهم لغوياً ناتجاً عن تقديرهم لثقافتهم القومية ، فأحبوا ان يستمعوا الى لغتهم في الكنيسة كما يستمعون اليها في البيت والشارع وجاهدوا ايضاً ليقراها ابناءهم في الكتب المدرسية ومنتفهومهم في الجرائد والمجلات وسائر المطبوعات .

ولو أن القومية ترتبط بالدين جوهرياً فلماذا تستقل البرتغال الكاثوليكية عن اسبانيا الكاثوليكية ، ولماذا لا تنضم ايطاليا الى النمسا أو النمسا الى ايطاليا ما دامتا كاثوليكيتين ، هذا اذا نظرنا الى المذاهب ضمن الدين الواحد ، أما اذا اعتبرنا الديانات الكبرى كالمسيحية والاسلام فجدير بأوروبا وأمريكا أن تتحدوا لانهما مسيحيتان وجدير بروسيا أن تدخل في دولة واحدة مع المانيا وفرنسا فالجميع مسيحيون ولماذا لا تصبح عندئذ للعرب والأتراك والفرس والافغان والباكستانيين والاندونيسيين قومية واحدة ، ان عهد الجماعات الدينية القائمة على أساس رابطة الدين المشترك كان عهد الامبراطوريات لا عهد القوميات ولم يستطع التجمع الديني للعرب والفرس والترك ... ان يذهب هذه القوميات وينشئ منها قومية واحدة بل ظلت كل منها متميزة عن الاخرى رغم ارتباطها بالدين الواحد منذ العصور الاسلامية الاولى ، ولو ان الجماعات القومية تنبثق عن الدين لما جاهد الاوروبيون لتتخلص من الامبراطوريات الواسعة التي كانت تحكمهم تحت لواء الديانة المسيحية ولما قدموا في سبيل ذلك الضحايا وتعرضوا لفضب رجال الاكليروس .

وحين يريد المفكرون القوميون من العرب ان يكونوا صريحيين لا يستطيعون ان ينكروا ان حركة القومية العربية استهدفت الاستقلال عن الدولة الدينية العثمانية ، ويضعون في اعتبارهم ان الاحلح على عنصر الدين في القومية يعني بالنسبة الى العرب اقامة القومية العربية على الدين الاسلامي مما يسهل على اصحاب الاغراض السيئة ان يصوروا المسيحيين في الوطن العربي كمواطنين من الدرجة الثانية ، ويسعى البعض الى حل هذه المشكلة أما عن طريق ابقاء الدين عنصراً أساسياً في تكوين القومية والاعتراف الى جانبه بقيمة بعض العناصر الاخرى كاللغة والتاريخ والارادة

المشتركة والمصالح ، فمن لم ينطبق عليه شرط الدين انطبق عليه شرط اللغة والتاريخ والمصلحة والارادة المشتركة ، ويحل البعض الآخر هذه المشكلة بأن يجملوا الدين في منأى عن القومية ويتركوا له ميدانه الخاص ويقومون القومية العربية على المقومات الاخرى وحدها ، مع انهم لا ينكرون ما قدمه الدين الاسلامي للعرب من خدمات ويفتخرون بالاجاد المشتركة للعروبة والاسلام ويمتقدون ان فهم الاسلام شرط ضروري لفهم التاريخ العربي .

ثالثاً - الارض :

عانت الادمغة القومية بلاء شديداً من قضية الارض ، فنذ أن طرحت مسألة القوميات على بساط البحث تقسم المفكرون بين عدة مذاهب حول أهمية الارض بالنسبة الى تكون القومية وقد اعلنت المدرسة الجغرافية الالمانية التي يتزعمها راتزل ان الارض هي التي تشكل الأمة وتتحكم بمسقبلها ، وكما قسم بعض مواطنيه العروق و صنفوها الى ممتازة ومنحطة كذلك اعتقد هو بأن الوطن اما أن يؤهل الامة للسيادة والقيادة واما أن يقيها ضعيفة وبابعة لسواها ، وقد أعطى مونتسكيو من قبله أهمية كبير، للبيئة في تكون الناس وظهور طباعهم ونحل معاشهم وسبقه الى ذلك ابن خلدون بمدة قرون .

والذين يعطون للارض اهمية كبيرة لهم اداتهم فهم يذكروننا ان الارض القومية تسمى الوطن والوطن شيء عزيز ، هو محط الآمال ومثار العواطف ، اليه يكون حنين المغتربين وفيه يتنزل الشعراء وعن حدوده يدافع الجنود ولحميته تبذل الارواح والاموال ، وهم يرون ان البيئة تؤثر على امزجة الناس فأبناء المناطق الحارة ميلون الى الدعة والحول والتسلية

وسكان المناطق الباردة اميل الى الجدية والنشاط والابتكار ، وتربة الارض ومياهها تنعكس على اقتصاد سكانها فتخلق منهم رعاة للانعام أو زراعاً للمحاصيل البعلية أو فلاحين يعتمدون على الري . ومعادن الوطن اما ان تشجع الصناعة الثقيلة أو تنشطها وتساعد على قيام معامل معينة في كل بقعة ، وموقع الارض القومية له أثر واضح فثمة اراضٍ تؤهل قاطنيها ليكونوا وسطاء بين الامم لوقوعها على الممرات القارية ، وثمة اراضٍ أخرى تساعد على الانعزال والانطواء على الذات كالجزر والبقاع الداخلية في الفارات ، وقد يكون الوطن منبعاً بما يحيط به من جبال أو بحار أو أنهار غزيرة ، وقد يكون سهل المأخذ اذا كان بلا حواجز طبيعية ترد عنه الفارات ، وهم يستشهدون بأمثلة تاريخية فيذكرون أن فرنسا ساعدتها أرضها الواحدة ذات الحدود الواضحة على استقرار قوميتها وكذلك انكلترا التي استفادت قوميتها من وحدة جزيرتها ، وهم يرون أن القومية التي لا تعرف لها أرضاً محددة المعالم تبقى معلقة في الهواء .

وفي مقابل هؤلاء نجد عدداً غيراً من المفكرين القوميين لا يمتطون للارض كل هذه الاهمية ، ففي رأيهم ان القوميات التي تتمتع بأرض واضحة المعالم قليلة ، أما أغلب القوميات فاراضها متداخلة مع جيرانها ولا تفصلها عنها إلا الحدود الرسمية التي اقتضتها الظروف التاريخية واللغوية والارادة المشتركة . فحدود اليونان ليست واضحة ، وكذلك سائر القوميات البلقانية ، ولا فرق بين جنوبي الولايات المتحدة وشمالى المكسيك من حيث البيئة ولا تنفصل هاتان الدولتان عن بعضها بحدود طبيعية كما أن كندا لا تتمتع بمثل هذه الحدود مع الولايات المتحدة وأغلب دول أمريكا الجنوبية ينطبق عليها هذا الواقع ، واسبانيا والبرتغال امتان في أرض واحدة ، أما اختلاف البيئة فهو موجود ضمن الوطن الواحد ولم نعد حتى

الآن على وطن قومي يقع على درجة طول واحدة أو عرض واحدة أو يتكون من سهول بلا جبال ولا وديان ففي كل وطن توجد مناطق أكثر حرارة وارتفاعاً من سواها ، وفي كل وطن توجد بقاع تكثر فيها المعادن وبقاع أخرى لا يحتوي جوفها على أي معدن ، وفي كل وطن توجد تربة تصلح لنوع من الزراعة وتربة تصلح لنوع آخر ، ولم تعد قضية الحدود الطبيعية ذات اثر بالغ في الحماية ، فالوسائل الحديثة للحرب تستطيع تجاوز التضاريس وتخطي العقبات في أغلب الاحيان والدفاع عن الاوطان أصبح مرهوناً بتقدم ابنائها وارتفاع روحهم المعنوية وحسن تسليحهم ، كما أن الوسائل الحديثة للمواصلات تسمح اليوم لأبناء القومية الواحدة بلقاء بعضهم والاكتثار من التعاون والتفاعل ولو وقفت في وجههم بعض الانهار أو الصحارى أو الجبال ، فقد شق البشر الطرق ورفعوا الجسور وفتحوا الانفاق وركبوا متن الفضاء .

ونحن العرب مطمئنون الى قوميتنا مهما كانت نتائج المناقشات الدائرة حول أهمية الارض لأن أرضنا واحدة جغرافياً ووطننا واضح الحدود ترتفع في شماله وشرقه جبال طوروس وزاغروس ويفصله البحر والخليج العربيان عن الاوطان المجاورة من الجنوب وبقية القسم الشرقي ويفصله البحر الابيض المتوسط عن اوروبا ويمتد في غربه المحيط الاطلسي ، بينما يفصله الصحراء الكبرى عن بقية القارة الافريقية في الجنوب ، واذا كنا لا نمتلك حدوداً طبيعية واضحة من جهة السودان فليس هذا بالامر الجلل لأن هذا القسم غير الواضح الحدود لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من حدود وطننا المترامية الاطراف والتميزة تميزاً واضحاً عن المناطق المجاورة ، وقلما نجد أمة تتمتع بمثل حدودنا الواضحة ، ونحن على كل حال أميل الى تقدير العنصر البشري في قضية القومية وتفضيله على الارض والبيئة الجغرافية ،

ثما يصطنعه أبناء القومية الواحدة من لغة وما يحملونه من تراث تاريخي أم
لدينا من أثر الارض عليهم وقد يخرج الانسان من ارضه ويجلي عنها ويبقى
محتفظاً بطابعه القومي.

رابعاً - نظم الحكم :

ساعدت العائلة المالكة الفرنسية (آل بوروبون) على توحيد فرنسا
وعملت على اظهار خصائصها القومية ، واجتهدت في قيادة الفرنسيين الى
الاستقلال ، ولا ينكر الالمان فضل عائلة الموهنزرن التي كانت تحكم
بروسيا في القرن التاسع عشر وبذل ملوكها واتباعها اكبر الجهود للوصول
الى الوحدة الالمانية ، وكان ملوك بيدمونت اثر فعال في انقاذ ايطاليا من
التجزئة والاحتلال النمساوي ، وقد دعت هذه الوقائع واشباهها الى اعتقاد
بعض الباحثين ان الحكومات تستطيع ان تظهر القومية أو تقضي عليها ،
وهم لا يجدون مانعاً من القول بأن فرنسا لو لم تحكمها عائلة واحدة نشيطة
خلال زمن طويل لتجزئت وضاعت بين الامم المجاورة أو ضمرت أو
انقسمت الى عدة أوطان ، وقد غالى بعضهم فرأى أن القومية لا تستغني
عن عائلة مالكة تحيط نفسها بهالة من القدسية وتشجع الشعراء والمفكرين
القوميين ويتابع أبنائها ما بدأه أبؤهم ، ويضيف بعضهم أثر الشخصيات
الفذة الى جانب العائلات المالكة فيرى ان فرنسا هي هبة جان دارك ، تلك
الريفية المحاربة التي أوصلت وطنها الى طرد الانكليز ويذكرون الايادي
البيضاء للآرتزي وغاريبالدي على القومية الايطالية وفضل بشارك على الامة الالمانية
وصلاح الدين الايوبي على الامة العربية .

ولكن المفكرين المعاصرين يعتقدون ان القومية حقيقة اعمق من الحكومات
والعائلات المالكة والرجال المظالم .

فالقومية تسبق الحكومة وتبقى بعدها وهي متى تيقظت سمعت الى اهدافها وهي التي تنتج الحكام الذين يقودونها نحو الوصول الى غاياتها ، ولم تبتدع الحكومات القوميات ولم تسع الى خدمتها بمحض الصدفة أو بسبب من الطموح الشخصي بل ان الامة هي التي تدفع حكامها الى العمل في سبيلها وتوصل الى مسامعهم آلامها وآمالها وتحضهم على العمل من أجلها وتطيح بهم عندما يخونون أمانها أو يقصرون في سعيهم ، والفرد مهما كان عبقرياً ابن مرحلته وظرفه ، فالذي جعل بسمارك يهتم بالوحدة الالمانية هو وجود القومية الالمانية كحقيقة واقعة واتجاهها نحو وحدتها ولو نشأ بسمارك في عهد الامبراطوريات لم يكن في وسعه الا ان يعمل من أجل إقامة اميراطورية تضرب بالقوميات عرض الحائط ، وقد مرت على سائر القوميات حكومات لم تكن تامة الايمان بقومية رعاياها ، او متخاذلة عن تحقيق أهدافها ، فلماذا لم تمت القوميات نتيجة لذلك ؟ ولماذا تابعت سيرها واستفادت من سائر الظروف حتى وصلت الى مبتغائها ؟

وإذا كانت طبيعة القرون الخوالي تسمح للناس ان ينضوا تحت لواء عائلة مالكة يمجدهنها ويقدمونها ، ويقبلون ان يكون حاكمهم الاعلى من بين ابنائها فقط ، فان الوعي الانساني في الوقت الحاضر اصبح ينظر الى العائلات المالكة كشيء عتيق مخالف للعقل والمنطق السياسي ، ولم تعد الشعوب تهتم كثيراً بجفلات القصور الملكية ، أو تقبل تفرد عائلة واحدة بالحكم أو تصدق ما ينسب الى ابناء الملوك من عبقرية وعظمة وجلال ، واذا استفادت بعض القوميات من ملوكها فان قوميات أخرى اضر بها الملوك ، فأتاتورك لم يستطع ان يسير بتركيها نحو التقدم الا بعد ان انقضى السلطنة العثمانية ، والعائلات المالكة العربية وقفت حجرة عثرة في طريق وحدة العرب وتعاونت في كثير من الاحيان مع الاجنبي

لحماية عروش التجزئة أو عزلت اقطاراً كاملة عن مجرى الحياة العربية للاحتفاظ بسلاطنتها .

ونحن بمن يعتقدون ان القومية لا تبنيها الحكومات وانما هي حقيقة جوهرية ليست الحكومة الا تفرعاً سطحياً عنها ، ولا ننكر مع ذلك ان الامة التي تحظى بحكام مخلصين واعين مؤمنين بقوميتهم وعزتها واستقلالها ووحدتها تكون سعيدة الحظ حقاً ، اذ تقود الحكومة الشعب حينئذ نحو تحقيق الاهداف القومية بدلاً من أن تنأمر عليها وتحتصر الزمن وتساعد على الوصول بسرعة الى الاماني المرتجاة .

خامساً - اللغة :

منذ ان ظهرت الحركات القومية وضعت اللغة بين العوامل الاساسية لتكون الامم وحتى الدول التي اعتمدت على عناصر قومية متعددة اعترفت بأهمية اللغة كانكلترا وايطاليا واما المانيا فقد مجت هذا العامل ورأت في تقديس لغتها واطهار خصائصها والعناية بها بعثاً للقومية الالمانية ، وقد رافق استقلال فرنسا السياسي وشموورها بقوميتها ظهور لغتها المستقلة عن اللاتينية ، وتسمى الولايات المتحدة جاهدة الى ايجاد لغة مشتركة بين ابنائها لانها دولة قومية ناشئة ادرك مساهمتها الا مستقبل لها بغير اللغة الواحدة .

ومن الادلة على اهمية اللغة ان المستعمرين متى احتلوا بلداً حاولوا نشر لغتهم وطمس لغته ، وتررعوا بشق الوسائل لجملة ينصرف عن الكتابة والحديث بلغته القومية ولربما ضعفت الأمة وتجزأت بلادها واضاعت عظمتها ونسيت اجادها وانحلت اخلاقها فتبقى اللغة وحدها حية بين ركام تراثها القومي تحاول ان تعيد اليها الازدهار والنشاط مرة أخرى .

وأول ما تبدأ النهضة القومية باللغة فأمام البلقان اهتمت بلغاتها عند بداية تحركها القومي ، والمانيا شجعت الشعر والكتابة الالمانيين عندما اتجهت الى وحدتها وتحورها وكذلك ايطاليا ، ويلعب الشعراء والخطباء في ذلك دوراً بالغ الاهمية ، فلحركة القومية الايطالية شعراؤها وتعتبر خطب فيخته نواة حية للوثبة القومية الالمانية ، وأول ما استفاد العرب المحدثون فكروا في لغتهم ، فسبق النشاط اللغوي سائر أنواع النشاط القومي ، فشرت الكتب القديمة واحيا الكتاب والشعراء الاساليب العربية المريقة ونظمت القصائد ودبجت المقالات في بيان محاسن اللغة العربية واهليتها للتلاؤم مع التقدم العلمي الحديث وروعة تعبيراتها وحسن نغمتها .

واسباب اهمية اللغة عديدة فهي وسيلة التفاهم بين المتعاصرين من ابناء الامة وهي الجسر الذي يصل الاحفاد بالاجداد إذ يطلع عن طريقها كل جيل على ما خلفته الاجياك السابقة له من ابناء امته ، ومنها ان اللغة ثوب الافكار بل ان التفكير ولو كان داخلياً يتم مع الاستعانة بالكلمات وبذلك ينطبع عقل كل انسان بطابع فكري خاص آت من لغته ، ومنها ان اللغة تصاغ بها الاغاني والاهازيج والشعر والنثر الفني الذي يوجب به الناس فيكتسبون ذوقاً واحداً أو متقارباً بتأثير لغتهم ، ولا تكاد الممارك القومية تنفصل عن الممارك اللغوية فحين هب العرب يدافعون عن قوميتهم ضد اتهامات الشعوبيين اتجهوا أول ما اتجهوا الى ابراز عبقرية اللغة العربية ، وكذلك الحال في اكثر الامم ، واللغة هي مستودع الثقافة القومية عموماً وهي بالتالي حاملة روح القومية وطابعها وشخصيتها ، وقد اعتنى العلماء اللغويون بتبيان الانسجام التام بين شخصية الشعب ولغته فأظهروا دلالة اللغة الالمانية على واقعية الالمان وميلهم الى

النظام الشديد ودلالة اللغة الانكليزية على صبر الانكليز ودأبهم ومثابرتهم ودلالة اللغة السلوفانية على ذفوية السلافين وحيويتهم وقلة تنظيمهم ...

وقد حاول بعض المفكرين وخصوصاً من الفرنسيين الا يضعوا اللغة في طبيعة العوامل المكونة للقومية ، وهم في ذلك متأثرون بوضع فرنسا الخالص التي تعتبر الانزاسيين قسماً من شعبها مع ان اللغة السائدة بينهم هي اللغة الالمانية ، ولكن مسألة الانزاس والورين مسألة دولية ولم يث في أمر هاتين المقاطعتين حتى اليوم حسب خصائصها القومية وانما تضمهما القوة تارة الى فرنسا وطوراً الى المانيا .

ونحن العرب حفظت لنا لغتنا وساهم القرآن الكريم الى جانب المساجد والاديرة وتمسك الشعب العربي بخصائصه في حفظها ، ومن حسن طالع امتنا أن لغتها بقيت في جوهرها واكثر تفاصيلها كما كانت منذ أيام قريش مما سهل على العربي العادي الاتصال بترائه الشعري والفكري ويمكن لوحدة الامة العربية خلال التاريخ ، واللغة العربية وسيلة التفاهم للغالبية الساحقة من سكان الوطن العربي إذ تبلغ نسبة من يستعملونها في حياتهم اليومية من سكان هذا الوطن ٩٣٪ على أقل تقدير ولا ننسى ان الباقيين لا يعتبر اكثرهم من أبناء هذا الوطن فهم اما ان يكونوا يهوداً أو فرنسيين أو ايطاليين أو يونانيين ...

وأما القلة القليلة من مواطني بلادنا الشرقيين والتي تستعمل في حديثها لغات غير عربية فهي ضئيلة العدد اولاً وتقدر لغة العروبة ثانياً ، بل ان اكثر ابناءها الجدد تعلموا اللغة العربية واصبحت جزءاً من حياتهم ولو أننا قارنا وحدتنا اللغوية ونحن ما نزال في مطلع وثبتنا القومية الحديثة بالوحدة اللغوية

لبقية الامم وحتى التي اكتمل نضجها . وصلت الى غاياتها لوجـدنا اننا اكثر تماسكاً منها ، ولرأينا أن وحدتنا اللغوية تفوقها بكثير .

سادساً - التاريخ :

التاريخ هو ذاكرة الامة كما يقول المصري ، والشخصية لا تقوم إلا بذاكرة تربط بين ماضيها وحاضرها وتسبك ما مر بها من احداث في بوتقة واحدة ، ولا توجد أمة على وجه الارض تستهتر بالتاريخ القومي أو تقلد من شأنه إلا اذا كان اولو الامر فيها مجانبين لطريق الصواب ، وتهم الامم كلها بتعليم تاريخها في المدارس وعن طريق شتى أنواع النشر والاذاعة ، ويشكل القسم التاريخي فرعاً كبيراً مما يكتبه القصاص والروائيون ، وتحاول الامم ان تستفيد من المسرح والسينما لاطهار عظمة تاريخها .

عن طريق التاريخ تتوحد نفوس المواطنين لأنه يقدم لهم مفاخر مشتركة ويشير عواطفهم حول حوادث واحدة ، وان أمة يفتخر أبناؤها جميعاً باليرموك والقادسية وقصر الحمراء ومناظرات العلماء في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ... لهي أمة واحدة متماسكة ، وما دمنا نعتبر القرابة بين أفراد الامة قرابة اجتماعية لا دموية فلا مندوحة لنا من اعتبار التاريخ هو الاصل المشترك الذي ينتسب أبناء القومية الواحدة اليه ، ليس الفرنسيون ابناء جان دارك دموياً ولكنهم يعتبرون انفسهم من سلالة المعارك التي خاضها ابناء وطنهم مع جان دارك ، ولا يوجد من العرب من يرجع نسبه المرقي صراحة الى جيش عقبة بن نافع الذي حرر شمالي أفريقيا ، ولكن العرب جميعاً ورثة أجداد ذلك الجيش وخلفاؤه التاريخيون ، ومنذ الطفولة الاولى يكتبسب الانسان قوميته عن طريق ما يسمعه عن بلاده

من أحداث وما أنجيت من أبطال وما قدمت من شهداء ويحس بأنه ليس بعيداً عن أسلافه القوميين ولو انفصل عنهم بألاف السنين بل يشعر بقربه منهم ، وبأنه يعيش بينهم وعن طريق التاريخ تدرك الامة امكانياتها وتتصور عظم طاقتها فتتشجع على المضي في الطريق الصاعد الى عـزتها وازدهارها مها كانت ضعيفة متخلفة وحجتها التي لا تفارقها هي انها انتجت في الماضي ولذلك تستطيع الانتاج الآن وفي المستقبل .

وحيث تكون الامة بلا تاريخ خاص كالولايات المتحدة الامريكية فانها تبذل جهودها لتتلافى هذا النقص بأن تعتبر أبناءها ورثة أمجاد بلادهم الاصلية وباللحاح على الحوادث التاريخية القليلة خلال عمرها القصير نسبياً ومن أجل ذلك غالت الولايات المتحدة في تمجيد أبطال ثورتها الاستقلالية كواشنطن وجفرسن وعظمت شأن لنكولن وعدد آخر من عظمائها قد تعتبرهم بقية الامم عادين .

والآثار المكتوبة والمنقوشة والمنحوتة والمبنية أثر كبير في حفظ التاريخ القومي وفي اشعار المواطنين بمظمة امتهم وتسمي القوميات الى ابراز آثارها وعرضها بظواهر الابهة والجلال وتسهيل رؤية المواطنين لها .

وللتاريخ أثر فعال في اغناء تجربة الامة ، فمن ضياع الوقت أن يبدأ كل جيل من نقطة الصفر ولا يستفيد من تجارب أسلافه ومن المفيد ان تدرس الامة نكساتها وهزائمها الى جانب دراسة انتصاراتها حتى تتبين الاخطاء فلا تقع فيها من جديد او تحذر الحـكام من الوقوع فيها وحتى تعرف اسباب النصر ومفاتيح طاقتها الخاصة فتأشيمها . وقد جرت العادة على أن يعلم الطفل الصغير أحسن معالم تاريخ أمته حتى ينشأ على الاعتزاز بها ومع تقدم وعيه يتوسع في التدقيق التاريخي ويعلم مظاهر الضعف والقوة في ماضي امته .

ويخشى بعض المفكرين أن يؤدي تعظيم التاريخ القومي الى الجمود وحب المحافظة على القديم الذي مضى أوانه ولكن تلافي هذا الخدور سهل على الواعين المخلصين فما عليهم إلا ان يربطوا الحوادث الماضية بزمانها ومرحلتها ويلفتوا النظر الى ان الامة نبع ثر يقدم في كل جيل محصولاً جديداً متلائماً مع المستوى العالمي الذي وصل اليه العصر .

والتاريخ يلفت النظر الى بعض آلام الامة وبالتالي يوجهها الى قسم من آمالها ، فهو الذي يدل المواطنين على اعدائهم ومقتصي خيراتهم ومحتلي أراضيهم ويدفعهم بالتالي الى استرجاع الحقوق القومية ووضعها في طليعة الآمال التي يتجهون الى تحقيقها .

ويخشى البعض أن تستغل هذه الناحية فبنشأ أبناء القومية على كراهية بعض الامم الاخرى ويفرقون في الحقد عليها وقد يندفع المواطنون بتأثير العاطفة القوية التي تخلقها فيهم الاحقاد التاريخية فيتكبرون على بقية الامم ويحسبون انفسهم متفوقين عليها ويبررون لأنفسهم العدوان واحتلال بلاد الآخرين ، أما عن كراهية الغاصبين والمحتلين فلا يأملن مستعمر أن يحتل بلداً وينال محبة أهله في نفس الوقت ، ولا بد من غليان الدماء في العروق غيضاً من المعتدي حتى يهب الشعب لردعه ولكن العناية يجب ألا تكون الحقد الاعمي فليس هدف القوميات الواعية ان تبطش بالآخرين وان تتمتع بايلامهم بل غايةها استرداد حقوقها ، وأما التكبر على الامم الاخرى بتأثير الاسراف في تمجيد القومية وتاريخها فلا تلجأ اليه إلا بعض الطبقات الحاكمة في الامم الاوروبية والتي ترى من صالحها أن تدفع جماهير شعبها للانشغال بالاستيلاء على أرض الآخرين لئلا تحاسبهم هذه الجماهير وتطالبهم بحقوقها .

وقد ظهر هذا التعصب لا في المانيا النازية وايطاليا الفاشية وحسب بل في كل دولة مارست الاستعمار ولو لم تملن عن تعصبها صراحة ولا يوجد إلا هذا التعليل لادعاء الانكليز احقيتهم في حكم امبراطورية استعمارية شاسعة تضم شعوباً غريبة عنهم ، وكذاك بقية المستعمرين .

ومحن العرب لنا تاريخنا الغني والذي يعطينا نماذج حية توحد مفاخرنا وتحثنا على العمل في سائر الميادين السياسية منها والعسكرية والعلمية والادبية والفنية ، فلنا حضارتنا التي ازدهرت قبل الميلاد بألاف السنين وبمده حتى اليوم ولنا ابطالنا المديدون وشهداؤنا الوفيريون ، وحصيلتنا التاريخية غنية بالتجارب التي نستطيع الاستفادة منها ، فقد جربنا خلال تاريخنا الطويل أنظمة شتى للحكم فعرفنا البيعة والانتخاب والملكية الوراثية والحكم العسكري والديني ... وجربنا وجوهاً شتى للقوانين والانظمة والعلوم والفنون وتحت كل هذه التجارب المتنوعة كانت تكمن قاعدة عربية واحدة متينة تطبع احداث تاريخنا بطابعها وتمهينا صبغة خاصة .

واذا خشي البعض أن يؤدي تمجيد التاريخ القومي الى العدوان فيجب ان يوجه هذا الخوف الى الاوروبيين ، الى الامم الاستعمارية لا اليها فنحن اليوم في وضع لا يمكننا من الاعتداء على الآخرين ولو اردنا ذلك ، اننا لم نصل الى ابسط مطالبنا الطبيعية كأمة واحدة من وحدة وتمحر ، ناهيك عن أننا لا نرغب في العدوان واستغلال الآخرين بعد أن عانينا من الظلم ففتناه فأصبحنا نقدر آلام المظلومين .

سادساً - المصالح والآمال والآلام :

تساعد المصالح المشتركة على تكتل مجموعة من البشر في قومية

واحدة ، وللاقتصاد المتكامل أثر فعال في هذا الميدان فاذا كانت طبيعة البلاد لا تسمح بقيام اقتصاد مستقل في بعض المناطق واذا شعر أبناء كل بقعة بأنهم محتاجون الى البقاع الاخرى بشراء محاصيلها وبيعها محاصيلهم ساعد ذلك على تجمعهم وتكوينهم قومية واحدة ، وكذلك تؤثر الآلام المشتركة فتقرب بين من يعانون ألما واحداً فحين تعاني الجزائر وفلسطين وعمان من الاستعمار كما لا تزال تعاني منه بقية الاقطار العربية بشكل مباشر أو غير مباشر يندفع أبناء البلاد العربية الى التعاون مع بعضهم لأخذ ثاراتهم واجلاء المعتدين عنهم ، أما الآمال فهي بنت الآلام الى حد كبير وأول ما يرغب فيه الانسان وما يرحوه هو أن يزيل ما يؤلمه وما يضايقه ، والذين يعانون العذاب المشترك يتجهون نحو آمال مشتركة ويتقاربون ويتمازجون بتأثير ذلك ، والآمال ايضاً تبني على المصالح إذ يلاحظ السكان أنهم يصلون الى الرخاء والقوة اذا غمت علاقتهم فيسعون الى انمائها ويرجون زيادة التعاون فيما بينهم .

ويعتقد كثير من المفكرين ان المصالح نتيجة للقومية وليست سبباً لها ، فالقومية الالمانية هي التي تجعل سكان هذه المقاطعة الالمانية أو تلك يشعرون بالمصلحة المشتركة بينهم وبين بقية المقاطعات ، ولولا القومية لاتجهت بعض المدن البرتغالية في مصالحها نحو امبانيا وبعض المدن الاسبانية نحو البرتغال ، فالانسان يبدأ بادراك الشخصية القومية المشتركة ويبني عليها بعد ذلك المصالح ، وكذلك يرون ان الآمال والآلام هي من نتاج القومية ولولا القومية الواحدة لما شعر العرب بالألم الممض لما يعانيه شعبهم في الجزائر ولا كتفوا بالمطف على الثورة الجزائرية من بعيد كما يفعلون حين يمتطفون على كوبا أو زنج افريقيا الجنوبية أو الكونغو .

والقومية هي التي تجعل كل عربي يحس بجرح عميق نتيجة لقضية

فلسطين ويتألم لها أكثر من ألمه لما يجري من مظالم لدى الشعوب الأخرى، ويرون ان الآمال هي بنت التاريخ المشترك وآلامه ومفاخره أي هي أيضاً نتيجة لا سبب للقومية .

والعرب بحكم وطنهم الواحد واقتصادهم المتكامل (١) مقدر لهم بأن تكون مصالحهم واحدة ، كما أن دماءهم تنزف من الجروح المشتركة التي أصابهم خلال تاريخهم ، وكل ألم يصيب بقعة عربية يعتبره العرب فوراً ألماً مشتركاً بينهم جميعاً ، وآلامهم الكبرى واحدة ، فهم يميلون لوحدة وطنهم وتحزره ورفع مستواه ، وهم اليوم ناثرون ثورة واحدة على الاحتلال والتجزئة والنفوذ الاجنبي والتخلف والظلم ، ويتطلعون نحو مستقبل زاهر لهم جميعاً ، ان العرب مصيرهم واحد ومتى احتل قطر عربي هددت بقية الاقطار بالاحتلال ومتى تحرر قطر عربي انطلقت صيحة التحرر في الاقطار الأخرى .

ثامناً - الارادة المشتركة :

لاحظنا خلال دراسة المقومات السابقة أن عاملاً واحداً منها لا يستطيع وحده ان ينشئ القومية ، كما بينت لنا الامثلة التي أوردناها أن الامم نختلف في تقديرها لمقومات القومية ، فمنها أمة تمتد على اللغة والتاريخ ومنها أمة تقوم على الارض والدين وثمة قوميات تقوم على المصالح ووحدة الآلام والآمال مع الاستعانة بالتاريخ وبعض المقومات الأخرى ، والمهم ان القوميات موجودة وان اختلفت العوامل السابقة في تأثيرها على نشوئها ، والذي يدفع بالقومية الى الامام هو ارادة الحياة

(١) راجع بحثنا في الاوضاع الاقتصادية .

المشتركة أو ارادة الحياة القومية ، فالارادة المشتركة هي محصلة مقومات الامة وهي الثمرة التي توصل اليها العوامل في تفاعلها وتمازجها ، والارادة المشتركة إما ان تكون عفوية تظهر في أنس أبناء القومية بعضهم وميلهم الى التعاون وايشارهم انشاء العلاقات الاجتماعية فيما بينهم والشعور الضمني بتميزهم عن الاجانب ، واما ان تظهر بشكل واضح .نظـم اي تتخذ صورة الوعي القومي الذي هو شعور واضح المعالم بوحدة ابناء الامة ومطالبيها وبمحت عن الوسائل المؤدية الى نيل آمالها .

والارادة المشتركة تذلل الصعاب وتزيل العراقيل ، وتسمح للقومية بأن تتدعم عملياً مهما طالت المناقشات النظرية حولها ، فعلى حين كان الايطاليون ما يزالون مختلفين على مقومات قوميتهم وما العامل الذي يجب ان يضعوه في أعلى القائمة سارت القومية الايطالية في طريقها ولسان حالها يقول : القومية وجود ولا يهم الوجود ان يختلف الناس على اسبابه .

وفي الوقت الذي اشتد النقاش بين المفكرين الالمان حول افضلية العرق أو اللغة أو التاريخ ظلت القومية الالمانية راسخة وبقيت حقيقة معترفاً بها وتايمت طريقها نحو اهدافها . واذا انتظمت الارادة المشتركة واتضحت وانقلبت الى وعي قومي دفعت بالأمة اشواطاً بعيدة الى الامام وانقضت من برائن الحيره والتردد والبطء في العمل ، فحين يشتد الوعي القومي لا يدع الامور للزمن وحده ، وانما يدفعه دفواً ويختصره بالحاحه على فكرة القومية وتمجيدها وبيان اهدافها ، والوعي القومي هو الذي يثير حماسة الناس ليقوموا بالثورات أو يخوضوا الحروب ضد المعتدين وهو الذي يدفع بالمؤرخين الى اظهار معالم التاريخ القومي واجماده وعرض تجاربه وهو الذي يحرك الشعراء للتغني بلوطنهم واعمهم وبعث ذوقها وسليقتها وهو الذي ينبه الى الاخطار المحدقة بالأمة ويمكن الشعب من وضع

مقاييس واضحة لمحاسبة الحكام ، وفترات الوعي القومي فترات ذهبية
ينشط فيها العالم ليكتشف ويخترع فيغني تراث وطنه ويرفع سمعته بين الامم وينشط
فيها السياسي ليسجل لقوميته خدمات تكافىء مع حماسها وينشط فيها المفكر
ليتمم مشكلات امته والانسانية جمعاء ويقدم لها الحلول ، الطالب يندفع بتأثير
الوعي القومي والعامل والفلاح وكل ذي كفاءة ومهنة ، فأيام الوعي القومي أيام
عمل وكفاح ونضال لا يبالي فيها الفرد بنفسه بمقدار ما يهتم بشؤون امته واتقاذها
واعلاء شأنها ، انها ايام تفجير الطاقة القومية وسيرها كالسيل الجارف يجرف
الامراض والاقذار والعراقيل في طريقه ، وتظل الامم عادة متمشية على مهلها
متردة في اعمالها الى أن ينبثق وعيها القومي فتحزم امرها وتنطلق بسرعة عاصفة
نحو تحقيق آمالها .

Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page.

الفصل الرابع

أهداف القومية العربية

ان تجمع الناس بتأثير الروابط القومية يخلق أهدافاً مشتركة فيما بينهم يسعون الى تحقيقها جميعاً ، وهذه الاهداف قد تتغير من عصر الى عصر وقد تختلف من مرحلة تاريخية الى أخرى ولكنها تبقى في جوهرها نابعة من الحاجات الملحة للقومية ويتمثلها الشعب على انها مطالبه الاولى التي تستحق ان يبذل كل مرتخص وغال في سبيلها .

ولا زيد ان نستعرض تطور الاهداف القومية عند جميع الشعوب بل لن نستطيع ان نتابع هذا التطور عند الامة العربية نفسها نظراً لصيق صفحات هذا الكتاب ، وانما سنكتفي بالحديث عن أهداف القومية العربية اليوم أي في هذه المرحلة التاريخية بالذات وأهم هذه الاهداف هي :

اولاً - التحرور :

ونقصد به التخلص من استعمار الاجنبي ونفوده والنجاة من شراكه التي ينصبها للشعوب ليستهل خيراتها ويمتص دماءها ، ولا يوجد قطر عربي واحد لم يمان من الاستعمار حتى اليمن فقد عانت من

من الاستعمار العثماني واذا كانت جيوش الاستعمار الاوروبي لم تستطع
افتحامها فقد فرض المستعمرون عليها نوعاً من الحصار السياسي والاجتماعي
والاقتصادي وهم في كل يوم يسببون لها بلاء جديداً ، كما انهم اقتطعوا
بعض اطرافها ، وان الاستعمار الذي عرفناه على أنواع منه الاستعمار
الاستيطاني أو الاستعمار البحت وهو أن يبعث المستعمرون بعدد من
الاجانب لكي بعض الاقطار ومن أوضح الامثلة على الاستعمار الاستيطاني
ما جرى لنا في فلسطين اذ شجعت وحثت هجرة الصهاينة اليها على نطاق
واسع وما جرى ايضاً في الجزائر حين منحت الحكومة الفرنسية امتيازات
للفرنسيين وسائر الاوروبيين الذين يقطنون الجزائر فشجعت هجرتهم اليها
وساعدتهم على اقتطاع اخصب الاراضي واكتناز اضعف الثروات .

كما اننا عرفنا الاستعمار الذي يحكم البلد ولا يرسل له من يسكنونه
وحكم البلد من قبل الاستعمار إما ان يكون مباشراً حين تعين الحكومة
الاستعمارية حاكم الدولة من ابناء المستعمرين وهو الذي يمثلها ويديرها كما
يشاء ، وهذا النوع من الاستعمار موجود في مستعمرة عدن العربية حتى
اليوم ، وتبذل بريطانيا جهدها لكي تقذف الى عدن بمن يستوطنها من
غير العرب لتضييع عروبها وتسليخها نهائياً عن جسم الوطن العربي ،
وربما حكم الاستعمار البلد عن طريق حكومات ملكية أو جمهورية يكون
اعضاؤها من ابناء القطر المحكوم ذاته ويضع الى جانبهم مندوباً سامياً أو
مقيماً عاماً يماونه جهاز من المستشارين الاستعماريين فيهيمن هذا المندوب
وجهازه على أهم مرافق الدولة ويوجهون السياسة العسكرية والاقتصادية
والثقافية في القطر لمصلحة الاستعمار ، وقد عرفت سورية ولبنان أيام
الاتداب الفرنسي هذا النوع من الحكم الاستعماري وعرفته الاردن والعراق

في ايام الانتداب البريطاني ، كما رزحت تحت وطأته مصر زمن الحماية الانكليزية وظل الفرنسيون يحكمون تونس والمغرب العربي على هذا الاسلوب حتى عهد قريب ولا تزال الكويت والبحرين وقطر والساحل المعاهد تدار عن هذا الطريق ، وفي اغلب الاحيان يضع المستعمر قسماً من جيشه الى جانب المندوب السامي أو المقيم العام ليدعمه في ضغطه على الشعب ويساعده في قمع الحركات التحررية .

وثمة نوع آخر من الادارة الاستعمارية للاقطار العربية وهذا النوع يعطي القطر استقلالاً رسمياً غير أنه يبقيه اسماً أو يبذل جهده ليظل في هذا المستوى فيعلن رحيل المندوبين الساميين من ناحية ولكنه يجعل للسفارات الاستعمارية أهمية كبرى ويبقى قسماً من جيشه في قواعد عسكرية بحجة الاحلاف والدفاع عن أحد المعسكرات الدولية ويظل الضباط الاجانب مهيمنين على الجيش المحلي ، وقد عرف الاردن هذا النوع من الادارة الاستعمارية بعد نيته الاستقلال الظاهري اذ ظل غلوب وخلفاؤه من الضباط الانكليز مهيمنين على الشؤون العسكرية الاردنية وبقيت السفارة البريطانية ذات سلطان واسع في حكم الاردن ، كما عرفه العراق بعد أن ظفر بالاستقلال الرسمي عام ١٩٣٠ اذ بقيت القوات البريطانية متمركزة في قواعد عسكرية حساسة وكانت تتدخل صراحة عندما تقضي السياسة الاستعمارية بذلك كما فعلت خلال ثورة عام ١٩٤٢ ، كما ان حلف بغداد حل المعاهدة الاستعمارية السابقة له وابقى للبريطانيين قواعدهم العسكرية وحفظ لهم نفوذهم السياسي والاقتصادي في العراق ، كما مرت مصر بهذا الدور بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، قد بقيت القوات الانكليزية متمركزة في قواعد عسكرية رئيسية على ارض مصر وبقيت السفارة البريطانية مشاركة في شؤون الحكم والتوجيه وكانت تسقط وزارة

وترفع أخرى حسب ما تقتضيه المصلحة الاستعمارية ، ولا تزال بعض
الاقطار العربية تخضع لهذا النوع من التحكم الاستعماري كتونس والمغرب
العربي اللتين اصبحتا دولتين مستقلتين مع بقاء القوات الفرنسية في بعض
القواعد على ارضها ، ومتى وجدت القوات الاجنبية اصبح للاستعمار نفوذ كبير
على السياسة في الدولة .

ويوجد نوع اخير من التحكم الاستعماري في الاقطار العربية
مقنع وخفي ولكنه ذو اصابع طويلة يستطيع ان يجر كها فيحرك القطر
التابع له ، وهذا النوع يعطي للقطر استقلاله ويسحب منه الجيوش الاجنبية
وتسير الامور وكان الشعب العربي في ذلك القطر يحكم نفسه بنفسه
ولكن الحقيقة العميقة تدل على غير ذلك ، فقد يكون الاستعمار مؤمناً
لمصلحه عن طريق شركاته الاستثمارية الضخمة التي تتدخل باسم حماية
ارباحها وامتيازاتها فتوجه سياسة البلد ، وبما أنها مركز اجني تصبح
نقطة استقطاب للعملاء ووسيلة لشراء الضائير وصرف الاموال للتخلص
من الحركات القومية الشعبية ، وكل انسان يعلم أن شركة الارامكو
لا تترجع على الارض السعودية بهدوء وفضيلة فلا سك أنها تحت
السير دائماً لتضمن المصالح الاستعمارية الامريكية ، وتاريخ شركة
النفط الانكليزية العراقية محشو بالمؤامرات والتدخل في شؤون العراق
الداخلية ، واذا كان القطر العراقي قد تخلص من حلف بغداد
واخرجت منه القوات البريطانية فما يزال للانكليز فيه محط قدم عن
طريق الشركات البترولية الاجنبية ، وقد ظل استقلال مصر مقلقاً بعد
خروج القوات البريطانية ، واسباب قلقته بقاء شركة قناة السويس
الاستعمارية التي اطاح بها الشعب العربي منقذاً مصر من مؤامراتها ، وقد يمارس

الاستعمار هذا النوع من النفوذ ولو لم توجد له شركة كبيرة تمثله صراحة على أرض القطر ، فلديه وسائل اخرى منها ان يربط مصالح البلاد الاقتصادية به ، فقد جرت العادة ان تبقى البلاد المتحررة حديثاً من الحكم الاستعماري المباشر متاجرة مع مستعمرها السابق ، اذ تصبح هذه التجارة معه تقليداً ويساعد الاستعمار على بقاء هذا التقليد بدعايته الواسعة وتتمين علاقته ببعض رجال الاقتصاد وتشجيعهم على اقتسام الغنائم معه وحين يتصارع نفوذان استعماريان على القطر الواحد يسمى كل منهما الى اجتذاب عدد من الاقتصاديين الى جانبه ، وان ربط اقتصاد القطر بمجلة الدول الاستعمارية خطير جداً اذ تستطيع هذه الدول ان تبنيه عندئذٍ بضائماً بالاسعار التي تريدها وتشتري منه المواد الخام بأبخس الاثمان وحين يخرج على ارادتها ويشق عصا طاعتها ، تحصاره اقتصادياً أي لا تبايعه ولا تشاربه فيقع في البلبلة لأنه يحتاج الى مدة من الزمن ريثما يستطيع ان يتحول بتجارته نحو دول أخرى ، خاصة اذا كان نقده مرتبطاً بالكتلة النقدية التي تنتسب اليها تلك الدولة الاستعمارية ، وان اغلب الدول العربية المستقلة والتي لا توجد قوات اجنبية على اراضيها يؤمن الاستعمار فيها مصالحه عن هذا السبيل .

واذا اعتبر القطر العربي نفسه متحرراً تماماً من الاستعمار وسلك في سياسته واقتصاده وثقافته مسلكاً نابماً من ضمير الشعب العربي واصر على ذلك حاك الاستعمار عليه المؤامرات الداخلية اولاً وحرك انصاره الموجودين- فيه وبذل لهم الاموال ليعوض عن قتلهم العديدة بكثرتهم المالية ، فان لم تفلح المؤامرة في ضرب الاتجاه التحرري حوصر القطر اقتصادياً وحركت ضده احدي الدول الاجنبية المجاورة اللاحقة للاستعمار لتحشد قواتها على حدوده وتحرش به ، وقد يوعز الى حكومة عربية

مجارة سائرة في ركاب الاستعمار ان تتحرش به ايضاً فان لم تفلح كل هذه المحاولات لا يجد الاستعمار رادعاً يمنعه من ارتكاب العدوان السافر على ذلك القطر .

نلاحظ مما ذكرناه أننا حتى اليوم نعاني من النفوذ الاستعماري علينا واذا كنا قد استطعنا زحزحة الاستعمار عن بعض المواقع فنحن لم نطرده من وطننا بعد ، وان نمو قوتنا الشعبية هي التي اجبرت الاستعمار على نبذ الوسائل السافرة في حكمنا واتباع الوسائل الخفية المكنمة ، ولكن الاستعمار يظل استعماراً سواء آثر السفور أو الحجاب وعلينا ان ننتبه الى أن كثيراً من الولايات التي تصيننا ونحسبها وقعت بمحض الصدفة او نتيجة لسوء التدبير ليست هي في الحقيقة الا من صنع الاستعمار وتنظيمه .

وان أم وسيلتين تساعداننا على التحرر ها الثورة والحياد .

آ - الثورة :

لثورة معنيين يرتبطان ببعضها البعض - اولهما الثورة ضد الاستعمار أو بمعنى آخر الثورة من أجل التحرر الخارجي وقايتها الثورة الرامية الى التغيير الداخلي وبمعنى آخر الثورة على الجمود من أجل التقدم .

أما من أجل التحرر الخارجي فيخطيء من يظن ان الاستعمار يطرد بالمفاوضات ويتقيد بالمعاهدات ومهما جرى في القطر المستعمر من انتخابات فالاستعمار قادر على تزويرها وحين تفلت الاكثية من يده وتطالبه البرلمانات بالخروج يستهزئ بها ويحلها ، ولو ان الاستعمار يحترم آراء الناس لما أقدم على استعمارهم .

ويروج المستعمرون للفكرة القائلة بأن المفاوضات هي سبيل الخلاص من حكم الاجنبي ويستشهدون على ذلك بما يعرفه الجميع من أن معاهدة الاستقلال المصرية تمت عقب مفاوضات ، وجلاء قواتهم عن مصر سبقته مفاوضات وكذلك نالت تونس والمغرب العربي والعراق والاردن استقلالهما نتيجة للمباحثات .

غير ان هذه الامثلة ترد على المستعمرين ، فالفاوضات التي جلا على أثرها الانكليز عن مصر سبقتها حركات شعبية دامية اضطرت الانكليز الى قبول التفاوض وهم يشعرون الا بقاء لهم على أرض مصر العربية بعد ان انهكت قواهم حملات الفدائيين ، وقبل ان تجري مفاوضات الاستقلال في تونس والمغرب العربي والعراق والاردن هب الشعب العربي فأثبت قوته وما زالت ذكريات جيش التحرير التونسي والمغربي ماثلة في الاذهان ، وقد عرف العراق ثورات عديدة كما أن الشعب العربي في الاردن قام بحركات دامية قبل المفاوضات ، واذا نالت سورية ولبنان استقلالهما وجلت الجيوش الاجنبية عنها بقرار من مجلس الامن ، فان هذين البلدين عرفتا قبل ذلك ثورات دامية ، فالفاوضات نتيجة للثورة وليست سبباً في الاستقلال بل سبب الاستقلال تلك الثورات الدامية التي كانت وما تزال تشعر المستعمرين باقتراب نهايتهم وتجيهم على قبول بعض مطالب الشعب ، بل لا نذيع سراً اذا أكدنا ان المفاوضات تنقص الثمار التي يمكن ان يحصل عليها الشعب عن طريق ثورته ، إذ برع الاستعماريون في أساليب اللف والدوران واضاعة الوقت وصياغة النصوص الغامضة التي يفسرونها حسب هواهم ، فعلى حين يكون الشعب في عنفوانه وذرورة حماسه لا يرضى عن الاستقلال التام بديلاً تأتي المفاوضات فيحاول المستعمرون ان يقفوا على نفوذهم عن طريقها ويضمنون مصالحهم بنصوصها ، والمثل الواضح عندنا اليوم لاهمية

الثورة على الاجنبي هو الجزائر ، فقد ظلت فرنسا متهادية في غيرها أيام كان الزعماء الجزائريون يطالبون بالاستقلال عن طريق التفاهم والاحاديث البرابانية ، ولكنها حنت هامتها بعد ان دمرتها الثورة الجزائرية تقريباً واستنفذت طاقتها العسكرية والمالية وكادت توقعها في الحرب الاهلية ، ومأساة فلسطين تقدم لنا اكبر دليل على خطأ الاعتماد على المباحثات مع المستعمرين والوثوق بوعودهم ، فاليهود في فلسطين كانوا قلة بعد الحرب العالمية الاولى وتستطيع الثورة الشعبية المستمرة ان تقذف بهم الى البحر رغم مناصرة البريطانيين والغربيين عموماً لهم ، بل لقد مرت على الصهيونيين في فلسطين أيام سوداء راودهم فيها شبح العجز عن اغتصاب هذا القطر العربي بتأثير الايدي العربية الثورية ولكن ما تكاد الثورات العربية في فلسطين تقترب من تحقيق غايتها حتى يلجأ الاستعمار الى اقناع حكام الاقطار العربية بمناشدة الثوار ان يوقفوا حركتهم ويمد هؤلاء الحكام بحل المشكلة بالتفاهم والتفاوض ، ويصدق الحكام الاستعمار أو يتظاهرون بتصديقه ويطلبون من المجاهدين الاخلاص الى السكينة وتأتي المباحثات وتطبع الكتب البيضاء والسوداء وتبذل الوعود وتسير الامور لمصلحة الصهيونيين ، وفي آخر عراك حول فلسطين كانت الجيوش العربية على ضعفها وقلة تدريبها أقوى من القوات الصهيونية فتقدمت في الميدان واخذت تحرر المدينة تلو المدينة وهددت الصهيونيين تهديداً جدياً فطلع الاستعمار بنفمة الهدنة الاولى وكان له بين حكام العرب انصار تفاهم معهم ملغماً ، فدعوا الشعب العربي الى ايقاف الحرب وجمدت الجيوش العربية في امكنتها وبدأت مفاوضات بهلوانية مزيفة لم يكن الغرض منها إلا اتاحة الوقت الكافي للصهيونيين كي يتموا تسليحهم ويستوردوا الجنود المدربين من اقطار اوروبا ، ولما عادت الحرب من جديد رجحت كفتهم لأن الدول الاستعمارية قطعت الاسلحة عن الجيوش العربية بينما بذلت لهم السلاح والمال والخبرة بسخاء ، وهكذا انتهى فصل دام من مأساة فلسطين لغير مصلحة العرب وكان للاعتماد على المفاوضات

والمباحثات دور فعال فيه .

ومصيبتنا في لواء الاسكندرون السليب آتية الى حد كبير عن الاعتماد على المفاوضات ، ففي ذلك اللواء هب الشعب العربي بثورة كاسحة امتازت بالاخلاص والوعي والتضحية ولكن الحكام قهوا أظفارها وهشموا أسلحتها بقبولهم التفاوض مع المستعمرين وهم عليهم بأن المستعمرين يريدون اعطاء اللواء لتركيا وجرت المباحثات وتدخلت عصبة الامم هنا كما تدخلت هيئة الامم المتحدة في فلسطين بمد ذلك وكانت النتيجة واحدة وهي سلب العرب قسماً من أرضهم وتهجيرهم وتقوية عدوهم عليهم .

الثورة قوية والاستعمار قائم على القوة فلا تردعه إلا القوة والثورة حاسمة لا ترضى بالحلول الوسط وهي على حق في ذلك فثي بقي بين الاستعمار وبين أحد الاقطار خيط واه من النفوذ والاعتراف بمصلحة المستعمرين استطاع الاستعمار أن يقوي نفسه من جديد في ذلك القطر وان يعيد سلطانه الى سابق عهده .

أما الثورة من أجل التغيير الداخلي فلا تعني مجرد انقلاب عنيف تقوم به عناصر عسكرية ترمي الى تغيير في اشخاص الحاكمين ونوع الحكومات بل هي حركة شاملة وجاهيرية لها فلسفتها وأهدافها البينة ، ترمي الى تغيير جذري في فلسفة الحكم وطرق العيش واساليب الحياة ، فاذا اقتضت على مجرد تغيير الاشخاص وعلى الاهتمام بالنواحي السياسية فحسب كانت انقلاباً وليست ثورة .

وحين لا يجدي الاصلاح الجزئي في بلد من البلدان ولا تؤمن وسائل الحكم الثبته فيه تحقيق اهداف المجموع ، نجد أنه لا بد من

الثورة . الا ان هذا لا يعني بشكل من الاشكال تحطيم كافة الاسس التي يقوم عليها المجتمع ، لأن الثورة لا تعني الفوضى بل هي ليست منها في شيء ولكنها ايضاً لا تقبل الجمود ، لأن الجمود الذي يصيب الثورات غالباً ما يؤدي بالاهداف الكبرى التي قامت من أجلها الثورة وقد يحرفها الى تسلط الفرد أو الجماعة أو يقولها في قالب جامد محدد يقضي عليها .

والثورة حادث لا بد منه في كثير من الاحايين لتغيير الاوضاع الفاسدة في المجتمع ، الا ان استمرارها واعني هنا الثورية ضرورة حتمية لبلوغ الثورة غاياتها وضمانه لاستمرار الثورة ، علماً بأنه يجب علينا ان نميز بين مفهوم الثورة الذي يتضمن معنى التغيير السريع في الاوضاع الاجتماعية وبين التطور الذي هو سنة المجتمعات فيما يتعلق بالتبديل البطيء لكل مؤسساتها .

وبما ان مجتمعنا العربي قد اصيب بالجمود خلال اربعة قرون طويلة رزح فيها تحت نير الاستعمار العثماني الذي جمده الفكر وقضى على الحرية ونشر الظلم والظنيان وكذلك الاستعمار الغربي الذي ادى الى تمزيق الوطن العربي الى دويلات لذلك كان لا بد لهذا المجتمع من قبول مبدأ الثورة لكونه ضرورة اساسية للحاق بركب المجتمع الانساني المتطور ومن هنا كان الاخذ بمبدأ الثورة امر حتمي تقتضيه طبيعة الظروف والاوضاع .

ولاستمرار الثورة لا بد من وجود ظلائع ثورية متجددة مفتوحة على الاهداف ساعية لتحقيقها ، مؤمنة بالنقد الذاتي في سبيل الاصلاح ، غير راضية عن أي وضع ولو سمي ثورياً لا يُبلغ تحقيق الاهداف بصورة كاملة وصحيحة ، علماً انه ليس هناك ابدأ من ثبات للاهداف ، لأن اهداف مجتمع من المجتمعات انما هي اهداف مرحلية تحتاج الى التغيير عند بلوغها

وهذا ما تعنيه كلمة الثورية أو الاستمرار بالثورة من أجل الاصلاح والا كان معنى ذلك الجمود والتراجع وقضاء الثورة على نفسها بنفسها .

ب - الحياد :

في العالم اليوم معسكران كبيران تتزعم كلاهما منها دول عظمى وهما المعسكر الغربي الذي تقف في طليعته الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، والمعسكر الشرقي الذي يتصدره الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية^(١)، ويضم المعسكر الغربي دول حلف الاطلسي وحلف جنوبي وشرقي آسيا وحلف المعاهدة المركزية (حلف بغداد سابقاً) وتخضع لنفوذه أكثر دول امريكا اللاتينية وسائر الدول الخاضعة لنفوذ الغربيين الكبار ، ويضم المعسكر الشرقي دول اوربا الشرقية التي يضمها حلف وارسو وكوريا وفيتنام الشماليين ، أما دول حلف البلقان فالمفروض أن تكون ضمن المعسكر الغربي ولكن تركيا واليونان من بين دول هذا الحلف ظلت غربية بينما اعتبرت يوغسلافيا نفسها محايدة .

وتعتبر الدولة منضمة الى أحد المعسكرين اذا دخلت في حلف تابع له أو سارت في سياستها الدولية وفق آرائه واعتبرت نفسها مرتبطة به وآمنت بأن المعسكر الآخر خطر عليها وعدو لها .

وقد لاحظ بعض المفكرين بعد الحرب العالمية الثانية تكون هذين المعسكرين وادركوا انها لا يباليان بشيء كما يباليان بمصالحهما الخاصة ، ونظروا الى المعسكر الغربي فوجدوه مؤلفاً من دول استعمارية بل هي اعرق الناس في استعباد الشعوب وادركوا ان هذه الدول الاستعمارية الكبرى ستستخدم المعسكر الغربي لكبح حركات الشعوب التحررية ولن

(١) لقد قسمنا العالم الى معسكرين كبيرين متطاحين دون ان ننقل الخلاف الواقع بين فرنسا والولايات المتحدة وكذلك الخلاف القائدي بين الاتحاد السوفياتي والصين .

تكون الاحلاف الغربية الاستودعاً للاسلحة كتلك الاسلحة استخدمتها فرنسا في الجزائر كما ارادت وانكلترا في عُمان وروديسيا ، كما ان الاحلاف الغربية اعطت للمستعمرين قوة عسكرية وسياسية ومالية كبرى استخدمتها في عرقلة تقدم الشعوب المتطلعة الى حريتها ، وثبتت اقدام المستعمرين في الدول التابعة لها ، كالعراق مثلاً ايام حلف بغداد وتركيا ويران وباكستان اليوم ، وليس من المعقول ان تنفق الولايات المتحدة وفرنسا وانكلترا الاموال على المعسكر الغربي لوجه الله ومن غير ان تستهدف تأمين مصالحها الاستعمارية ، وقد حاول هذا المعسكر ان يفرر بالشعوب فيخضعها له باسم مكافحة الشيوعية وانذر الناس اذا لم يصبحوا غربيين بشر مستطير هو الخطر الاحمر مع ان الغرب يجارب الحركات التحررية تحت اسم مكافحة الشيوعية ، وهل كان الشعب العربي في الجزائر شيوعياً حتى استنفرت عليه قوات حلف الاطلسي ؟ وهل شعب عُمان شيوعي أيضاً ؟ وهل كنا شيوعيين حين ارتكب الغريون قواد حلف الاطلسي عدوانهم على مصر اثر تأميم قناة السويس ؟ وقد سهل على الغربيين ان يتهموا الحركات الوطنية بالشيوعية ليتخذوا من هذه التهمة ذريعة للبطش بالشعب كما حدث في الكونغو وكوبا حتى كادوا يرفعون اسهم الشيوعية في أعين الناس واوشكوا ان يقرنوا اسمها بقضايا الحرية الكبرى فأفادوها بدلاً من ان يضروها ، واذا اتينا فناقشنا حصيلة الاحلاف وما تستفيد منها الدول الصغرى او الناشئة وجدنا ان الحلف يوجه اقتصاد الدولة وسياسيتها لمصلحة الاقطاب الغربيين ويقدم لها بعض المساعدات المالية ولكنه يأخذ باليسار اضعاف ما يعطيه باليمين وهذه تركيا استنفذت مواردها لانشاء جيش يستخدمه الغريون عند الطاب وما زالت اقتصادياتها تتعثر وتقدها في انخفاض مستمر وهذه ايران ظلت على تأخرها ولم يقدم لها الحلف الذي انتسبت اليه الا مزيداً من النفوذ الاستعماري ومزيداً من التخلف والبقاء

على الانظمة البالية في الحكم والاقتصاد ، وهي اليوم سوق مفتوح للبضائع عاجزة
عن التقدم وبستخدمها الاستعمار في سبيل مصالحه .

وأما المعسكر الشرقي فيستفيد من صراع الشعوب مع الغربيين
ليظهر بمظاهر المدافع عن الحرية والاستقلال ولكنه في الحقيقة يضع مصالح
دولته الكبيرتين فوق كل اعتبار ، ويوجه الشيوعيين المنبئين في سائر انحاء
العالم لخدمة اغراضه وآرائه ، وعلى الرغم من حل الكومنفرم ، فان
الاحزاب الشيوعية وخاصة في الدول الضعيفة ما زالت مرتبطة بالاتحاد
السوفياتي عملياً ، وكثيراً ما انشغل الشيوعيون بتمجيد الاتحاد السوفياتي
اكثر من انشغالهم بتمجيد امتهم ورفعة شأنها ، وكثيراً ما يتعاون هذا
المعسكر مع عدوه المعسكر الغربي ضد اماني الشعوب ، فقد اتفق المعسكران
على الاعتراف بدولة الصهيونيين في فلسطين ، كما أن اثر المعسكر الشرقي لا يقل
عن اثر المعسكر الغربي في بقاء المانيا مقسمة حتى اليوم وكذلك كوريا ، وحين
تخرج احدى الدول التابعة له على طاعته يقسو عليها كما يقسو الغربيون على
الشعوب النائرة ضدهم ، وليست أيام المجر بعيدة ولا نناقش هنا الاسباب التي
أدت الى ثورة المجر ودور الغربيين في حوادثها بل نتم بلفت النظر الى أن
السوفيت استعملوا وسائل عنيفة لايقاف الثورة وادخلوا جيوشهم وهي اجنبية
بالنسبة الى المجر الى داخل البلاد المجرية وساعدوا على قمع الثورة فيها ، وحين آثرت
يوغسلافيا ان تتحرر من قيود المعسكر الشرقي صب عليها هذا المعسكر جام
غضبه وكاد أن يطيح بها .

ورأى المفكرون الاحرار الا مصلحة بلادهم في التزام احد
المعسكرين بل من الافضل ان يلتزموا مصلحة بلادهم ويسيروا بها وفق
نهج مستقل ويساهموا في خدمة المصلحة الانسانية المشتركة ودعم الحركات

التحررية في العالم اجمع ، وقد يتفقون في احد المواقف مع المعسكر الغربي ، وقد يتفقون في مواقف أخرى مع المعسكر الشرقي ، وقد لا يتفقون مع المعسكرين جميعاً في موقف ثالث وبذلك نشأت نظرية الحياد الايجابي التي تميز نفسها عن الحياد السلبي المعروف عن سويسرا ، فالحياد السلبي يعني ابتعاد الدولة عن الخوض في المشكلات العالمية وتخفيف مساهمتها في الشؤون الدولية الى ادنى حد ممكن لكي لا تتعرض لغضب حكومة من الحكومات ، أما الحياد الايجابي فقوامه سياسة مستقلة تنبع من صميم الشعب وتسامح في الشؤون الدولية لخدمة المثل العليا ولدعم اماني الشعوب وتقول كلمة الحق ولو اغضبت احد المعسكرين أو اغاظت الدول الكبرى بأجمعها ، وقد انتشرت فكرة الحياد الايجابي وعقدت لها المؤتمرات واصبحت الدول الحيادةية أو غير المنحازة كما تسمى احياناً قوة دولية كبرى .

والحياد الايجابي في بلادنا هو الفكرة السائدة الا ان له خصوصاً ، منهم من يريد ان تنضم البلاد العربية الى المعسكر الغربي ومنهم من يؤثر لها المعسكر الشرقي ، ومناهضوا الحياد عموماً يرون الا فائدة منه وخير الامة ان تحدد موقفها صراحة بين القوتين الدوليتين المتصارعتين لأن نصر احدي هاتين القوتين سيؤدي الى ظفر الأمة بما تريد .

ويرى انصار الانحياز الى الغرب ان بلادنا واقعة في المنطقة العربية يفصلها عن المعسكر الشرقي حاجز كبير مؤلف من ايران وتركيا من ناحية والهند من ناحية ثانية ، ونحن في متناول يد الغربيين كلما ارادوا فالبحر الابيض المتوسط ملعب لاساطيلهم وارضا ممر لتجارتهم وخير لنا ان نشعرهم بانضمامنا اليهم فيغدو ظفرنا بمطالينا منهم اسهل اذ يطعنون الى عدائنا الشيوعية والمعسكر الشرقي ، ويقول انصار هذا الرأي اننا

إذا لم نكن شيوعيين فنحن أقرب الى الغربيين في نظمنا ، فالغريبيون يقدرون اديانهم وقومياتهم ، ونحن نقدر الدين وننطلق من القومية على حين ان الشيوعيين ينطلقون من صراع الطبقات فاذا صدقنا عن آراء الشيوعيين لا بد لنا من أن نكون قريبين من الغرب فلماذا لا نتحالف معه ، وقد يتحمس بعض انصار هذا الرأي فيرون في ابتعادنا عن الغربيين جريمة نكراء لأن العالم أخذ يدافع عن المثل العليا ضد الشيوعية الهدامة ، وجدير بنا ان نساهم جدياً في هذا الكفاح ، ثم يدغدون الاماني العريضة فيعلنون ان الغربيين يتجهون من تلقاء أنفسهم الى ترك الاستعمار وببذة وتلقي الافكار الحرة في بلادهم اشياءاً متزايدين في كل يوم وان هي الا سنوات حتى تنتهي مطامع الامتعماريين وتدحرهم شعوبهم ذاتها فننال مطالبنا ، ويتخوف انصار الانحياز الغربي من الحساد فيعتبرونه جسراً مؤدياً لانحياز جديد مع المعسكر الشرقي .

وهناك فئة تنادي بالانحياز الى المعسكر الشرقي ، وتقول هذه الفئة بأن ثاراتنا كلها لن نأخذها الا من المعسكر الغربي فهو الذي استعمر بلادنا وهو الذي نخوض المارك الدموية ضده في عمان والجنوب العربي الى اليوم وهو الذي اتى باليهود وحمام وناصرهم ولم يزل يناصرهم حتى الآن وهو الذي يمارس في هذه الايام نفوذه وضغطه علينا ، اذا ذكرنا الجيوش المحتلة لبلادنا فهي جيوش غربية واذا ذكرنا الشركات الاستعمارية وجدناها شركات غربية واذا فحصنا وثائق المؤامرات الفيناها مؤامرات غربية ، فالغرب هو عدونا الذي كلفتنا امثنا بمناصته لتحصل على حريتها ووحدتها والمعسكر الشرقي عدو الغرب فيجب ان نلتقي معه لأننا عدوان لطرف واحد ، ولم يسجل المعسكر الشرقي الى اليوم أي عدوان علينا وهو لا يحتمل قطعة من أرضنا واذا كان قد اعترف بدولة

الصهيونيين في فلسطين فهو على الاقل لم يساعدها كما ساعدها الغرب ، بل ان هذا المسكر فاصرنا في كثير من قضايانا ونحن لم نقدم اية شكوى ضده ، بل شكوانا من الغربيين وخدمهم ، وقد ايدنا حينما استطاع فناصر استقلال سورية ولبنان حين عرض قضيتهم على مجلس الامن واحرج الغربيين حتى رضوا بذلك ووقف الى جانبنا يوم قطع عنا الغربيون السلاح فباعنا اياه ، وحين حاصر الغربيون بعض الاقطار العربية اقتصادياً مديده اليها وحين اعتدى الغربيون على مصر عام ١٩٥٦ وقف الى جانب العرب وكان لموقفه اثر حاسم ، وقد اعترف رأساً بحكومة الجزائر المؤقتة حين اعلانها ، مع ان الدول الغربية الكبرى بل والصغرى لم تعترف بها ، فلماذا لا نلتزم طريقه في السياسة الخارجية ، ولا خوف علينا من الشيوعية اذا حافظنا على استقلالنا وعرفنا كيف نبعد نفوذه عن امورنا الداخلية ، وكما ان للغربيين انصاراً يتصورون النظام الامثل في بلادنا على شكل غربي فلالشرقيين انصارهم الذين يرون ان خير نظام لنا هو النظام السائد في المسكر الشرقي وبقية الانظمة المخالفة له ليست الا رجعية رأسمالية ، وما دمنا نطمح الى التشبه به فلماذا لا نتعاون معه .

ويرى انصار المسكر الشرقي ان الحياد الايجابي ان هو الا تبعية للغرب بشكل مقنع ومن يراجع اسماء الدول التي اشتركت في مؤتمر عدم الانحياز المنعقد في يوغسلافيا خلال صيف عام ١٩٦١ يجد من بينها عدداً لا بأس به يميل الى الغرب في سياسته الفعلية ، فقد شهدته مثلاً الحكومة التونسية وهي معروفة بالتزامها الرصيف الغربي ، ويوغل الشرقيون في اتهام المحايدن حتى لا يبرثون واحداً منهم من التبعية للغرب بل يرونهم رصيداً غريباً متستراً يظهر اثره عند الحاجة .

ونحن نرى ان الحياد الايجابي هو السبيل الملائم لنا في السياسة

الدولية وبه نستطيع ان نطرد النفوذ الاجنبي من غير أن نأتي بنفوذ اجنبي جديد ، وقد عانينا من وعود الآخرين ما كفانا ، فحين انتصر الحلفاء الغربيون في الحرب العالمية الاولى لم يجدوا وسيلة لمكافحةنا على مساعدتهم والالتزام بهم الا اقتسام بلادنا واستعمارها ، وقد استغلونا خلال الحرب العالمية الثانية ولم يعطونا بعض حقوقنا الا بعد ثورات داميات ، والحيادي في المعترك الدولي متحرر يستطيع ان يناصر الحق اني وجده ويهاجم الباطل حينما ثقفه ، ومتى اشتركت دول ضعيفة ناشئة مع دول كبرى في اي التزام سارت الامور لمصلحة الدول الكبرى ، ونحن أقرب الى تلك الامم الافريقية والاسيوية التي تعاني مما نعانيه وتشكو نفس شكوانا فنستطيع ان نمد يدنا اليها وتعاون معها متخلصين من نفوذ مصالح الكبار وخاصة ان آماننا لا يفهمها كلاً من العسكريين القويين فالأمة هي التي تفهم نفسها وانها تجرم في حق ذاتها حين تسلم زمامها الى ايد اجنبية عنها بشكل مباشر أو غير مباشر ، على اننا نرغب في الحياد الحقيقي الصادق لا الحياد الذي يضر وراءه انحيازاً ونعترف ان بعض الدول التي تدعي الحياد ليست في الحقيقة الا تابعة لأحد العسكريين ومنفذة لمخططه .

ثانياً - الوحدة :

الوحدة اساسية بالنسبة للقوميات واصبح التفكير القومي لا يؤمن بأن الأمة نالت ما تريد او وصلت الى ابسط حقوقها الا اذا توحدت في دولة حرة ، وقد كان الوطن العربي موحداً خلال العهد الاموي والفترة الاولى من العهد العباسي كما انه عاد الى الوحدة تقريباً في الامبراطورية العثمانية التي انضوت تحت لوائها سائر الاقطار العربية عدا المغرب العربي واليمن في بعض الاحيان ومن الطريف ما يروي التاريخ من أن الجزائريين

بمجرد أن سمعوا بدخول سورية ومصر في الامبراطورية العثمانية اعلنوا انضمامهم اليها ايضاً وكذلك ارسل شريف مكة مفاتيح الحرمين للسلطان العثماني مما يدل على شعور العرب بوحدة مصيرهم وان كان الزمن الذي جرت فيه هذه الحادثة لا يمنع من دخول القوميات في الامبراطوريات ، وقد بدأت تجزئة الوطن العربي الجديد في القرن التاسع عشر حينما عزلت انكلترا مستعمرة عدن والحميات على الخليج وفي الجنوب العربيين ثم احتلت مصر واقتطعت فرنسا الجزائر وتونس وازافت اليها المغرب العربي في القرن العشرين كما أن ايطاليا بدأت بغزو ليبيا قبل الحرب العالمية الاولى ولم يبذل العثمانيون جهداً للدفاع عنها كما لم يبذلوا في الحقيقة اي جهد للدفاع عن مصر والجزائر بل تأمروا مع الانكليز والفرنسيين الغزاة ضد الشعب العربي المدافع عن حريته وهم معروفون بتخليهم عن العرب على كل حال ، فقد امتنعوا عن مساعدة عرب الاندلس حين استنجدوا بهم يوم ان كانت جيوش الترك تقرع أبواب فينا ، وبعد الحرب العالمية الاولى زادت التجزئة فنشأت دولة في سورية وأخرى في لبنان تحت الانتداب الفرنسي وظهرت حكومة فلسطين ودولة الاردن ودولة العراق تحت النفوذ الانكليزي وبعد معارك عديدة اصبحت الحجاز ونجد والمسير والاحساء دولة جديدة يحكمها السعوديون .

ويكاد أمل الوحدة يحتل اكبر حيزٍ من اهتمام الشعب العربي اليوم ، فهو يتألم حين يرى نفسه ممزقاً بين دول عديدة مصطنعة ويشمر بأن اسباب القوة والتقدم لا تكتمل له الا اذا توحد رسمياً الى جانب توحده الطبيعي ، والحق ان التجزئة حرمت العرب من الظهور كقوة دولية حتى اليوم واضاعت طاقتهم ولو أن القوى العريضة انصهرت في دولة واحدة لأصبح اقتصادها متيناً تنصب فيه كل مواردها وتتسق

ولأزدهرت زراعتها وصناعتها وتجارتها ولامتلك جيشاً هائلاً تخيف به المستعمرين وترجع على يده فلسطين وبقية الاجزاء السلبية ، ان القوى العربية تعبت بها التجزئة وتشتتها وتمنعها من التركيز وتضييعها في دوامات التفاهات والسفاسف .

والناس على مذاهب في أمر الوحدة العربية طريقاً واسلوباً ، بعضهم لا يرى مانعاً من أن تقوم الوحدة ولتحت النفوذ الاجنبي وتمثل مشاريع سورية الكبرى والهلال الحبيب هذا الاتجاه ، وانصار هذه الفكرة يؤكدون ان العرب اذا كانوا تحت نير الاستعمار وهم متحدون خير لهم من أن يكونوا تحت نيره وهم مجزؤون فالاتحاد هو الذي يمطي القوة ويساعد على طرد المستعمرين وقد يندفع اتباع هذا الاتجاه فلا يرون مانعاً من ان تنضم دولة مستقلة كسورية الى دولة أقل استقلالاً كالعراق أيام اتاج الهاشمي وحببتهم ان ما تهيئه الوحدة من سبل القوة والخير اثن من استقلال رسمي تعبت به المؤامرات الاستعمارية في كل يوم ، وقد كانت الحكومة الملكية في مصر تنادي بضم السودان اليها رغم وجودها تحت النفوذ الانكليزي .

ويبدو ان اتصار هذه الفكرة في تناقص مستمر فالناس لا يرضون بأن توضع الاقطار العربية المتحررة تحت نير الاستعمار مرة أخرى باسم الوحدة وهم مقتنعون بأن الوحدة اذا كان من ورائها أي نفوذ استعماري فستتجه الى خدمة المصالح الاستعمارية وحين يشعر المستعمرون بأنها توشك على الافلات منهم والتحرر من قبضتهم فانهم يلجأون الى حلها بمؤامراتهم ويعود العرب من جديد الى نقطة البدء ، ولأمر ما نرى المستعمرين يملكون عن مشاريع الوحدة تحت نفوذهم وعن طريق اتباعهم ، فولا تأ كدهم من

هيمنتهم على هذه الاتحادات وقدرتهم على فصلها متى أرادوا لما شجموها .
وبعض العرب يرون ان الوحدة اذا لم يكن وراءها نفوذ استعماري صريح
لا مانع من ان تقوم على اي يد ولا فرق عندهم بين أن يتزعمها ملك
سعودي او هاشمي او رئيس للجمهورية عسكري أو مدني ، فإلهم في نظرهم
هي الوحدة وما دمنا عرباً مع بعضنا فلنقبل من اجل وحدتنا بعض نظم
الحكم التي نرفضها نظرياً ثم نحاول ضمن الوحدة ان نصحح الاخطاء ونغير
الاساسيات فنكون بذلك متمشين مع السنن الطبيعية التي جرت عليها الامم
السابقة ، ففرنسا اتحدت ثم غيرت نظامها الملكي الى نظام جمهوري والمانيا
اتحدت ثم اخذت تجرب انظمة للحكم كما تشاء ، وكذلك انكلترا اتحدت
ثم اصبحت جمهورية ثم عادت ملكية ، وفي نظر هؤلاء أن هذه الايام ليست ايام
الخلاف على الشرائع والاساسيات وانما ايام الوحدة والعمل من أجلها وبعد الوحدة
نستطيع ان ندعو الى ما نريد .

وآخرون يرون ان الوحدة اذا لم تقم على انظمة تقدمية تلائم
العصر الحديث والوعي الذي وصلت اليه الجماهير العربية فانها ستكون عرضة
للخلافات والفتن وقد تلجأ الطبقة الرجعية والمائلة للمالكة الى التعاون
مع الاستعمار مرة أخرى حين تجد الشعب في الدولة الموحدة موشك على
تصفيتها وتغيير نظام الحكم في دولته ، وليس من المعقول أن نضحى
بتقدم وصلت اليه بعض الاقطار وغدا كسباً للعرب جميعهم باسم الوحدة
فان هذا يجعل كل تقدمنا هباء ويلقي الى العدم بكل تلك الجهودات
والتضحيات التي بذاتها الاقطار المختلفة للوصول الى الديموقراطية والمعادلة
الاجتماعية والتفكير العلمي ، ثم يضيفون الى ذلك ان الرجعيين والمائلات
المالكة لا يرغبون في الوحدة ، فلماذا نضيع وقتنا في نقاش امرهم
وتصديق اشاعتهم ، فهم يحشون على مصالحهم اذا تجمعت قوة الشعب العربي

تحت أي حكم كان ، ومتى اعلنوا عن مشروع وحدوي فهم اما ان يقصدوا به دغدغة آمال الشعب ومماطلته واما ان يكون وراءهم نفوذ اجنبي يريد ان تتحد تحت لوائه ومن أجل مصلحته ليفصلنا متى اراد ما دامت السيطرة بيده ورؤوس الدولة تحت تصرفه .

وثمة خلافات بين القائلين بالتدرج نحو الوحدة من غير طفرة ، وبين المنادين بالوحدة التامة المباشرة ، أما انصار التدرج فيلاحظون ان الاقطار العربية قد اكتسبت خلال تطورها الجزأ بعض الصفات الجزئية الخاصة بكل منها ولم يعد في الامكان ان تتوحد هذه الاقطار مباشرة لأن مصالح قطرية عديدة قد نشأت واعتاد ابناء كل قطر على التعاون مع بعضهم اكثر من التعاون مع الاقطار العربية الباقية ويخشى اذا انقلب العرب من التجزئة الواسعة رأساً الى الوحدة الصارمة أن تنور بين صفوفهم النزعات الاقليمية وتقوى المصالح القطرية بدلاً من أن تضعف ويسود الحذر بين ابناء كل اقليم تجاه ابناء الاقاليم الاخرى ، وقد يصبح الشعب مرتعاً للاشاعات والمباغيات فيصدق السوريون ان العراقيين يكسبون على حسابهم ويصدق العراقيون ان المصريين يعملون لمصلحتهم الضيقة وحسب وبدلاً من ان تسود المحبة ويعم الوفاق تنتشر البغضاء ويصبح الجو مرتعاً خصباً للمؤامرات ، ولذلك يصر اصحاب هذا الرأي على ان نسير نحو الوحدة خطوة فخطوة ويعتبرون الجامعة العربية أول مرحلة في طريق الوحدة ، فهذه الجامعة ابقت لكل دولة استقلالها وكيانها الخاص وجعلت قراراتها غير ملزمة الا للدولة التي توافق عليها ، كما ان لجنتها العسكرية والاقتصادية والثقافية ادت الى معاهدة التضامن العسكري والى مشاريع الوحدة الثقافية والاقتصادية ، ويقترحون ان تتجه الى الوحدة من تطوير الجامعة العربية فتتقدم مثلاً خطوة الى الامام بأن نجعل قراراتها ملزمة

لسائر الدول العربية من غير أن تمس استقلالها ثم ننشئ جيشاً عربياً مشتركاً يقف الى جانب الجيوش القطرية الخاصة ويمكن أن تعقد معاهدة وحدة جمركية ثم اقتصادية بين دول الجامعة العربية كما نستطيع عن طريق الجامعة ان نصل الى الوحدة الثقافية ، ومتى ترابط العرب عسكرياً واقتصادياً وثقافياً امكن التقدم خطوة اخرى فينشأ اتحاد طوعي بين الدول العربية يشترك فيه العرب على قدم المساواة في بحث مسائل السياسة الخارجية والاقتصادية والعسكرية العامة ثم يتطور هذا الارتباط فتتخلى كل دولة عن كيائها الخاص لتندمج الاقطار العربية في دولة اتحادية واحدة تحكم كل مقاطعة منها ذاتها وتدير شؤونها الداخلية كما تريد ، وهكذا نتقدم الى الوحدة بهدوء ووعي ولا تقع في النكسات .

ويستخف انصار الوحدة النامة المباشرة بهذه الآراء والبراهين ويؤكدون أننا لو سرنا على الطريق التدريجي لما وصلنا الى الوحدة أبداً أو لكي لا نكون متسفين قد نصل اليها بعد مئات السنين ، وهذه الجامعة العربية لم تستطع رغم ان عمرها لم يعد بالقصير ان تتقدم نحو الوحدة تقدماً جدياً ، فالاقتصاد العربي ما زال مجزئاً كنظم الدراسة العربية والمؤسسات الثقافية العربية وقد فشلت تجمعات الجيوش العربية أثناء معركة فلسطين لأن حكام كل قطر كانوا يتصرفون بحيشهم كما يريدون ، وأما ما تم بين بعض الاقطار العربية من معاهدات ثقافية واقتصادية واتفاقات عسكرية جدية فلم يقم باشراف الجامعة العربية وانما تم عن طريق اللقاء المباشر بين بعض الاقطار ، وهم يعتقدون ان الطريق التدريجي يعتمد على الحكومات ، والقطر قد تكون فيه اليوم حكومة صالحة وقد تمسك بزمامه بعد حين حكومة فاسدة فتبقى قضية الوحدة العربية بين مد وجزر ولا تكاد تتقدم الى الأمام خطوة حتى ترجع الى الوراء خطوات ،

وخير سبيل للوحدة العربية ان يهب الشعب العربي هبة الرجل الواحد فيضغط على الحكومات لتعلن انضمامها في دولة واحدة ثم يبرر التطور على أساس الوحدة لأن كل سنة تمضي علينا ونحن مجزؤون تمد في عمر التجزئة سنوات، فالتطور القائم على التجزئة يساعد على بقاء التجزئة ويدعمها .

وقد يذهب بعض أنصار هذا الرأي الى أن خير سبيل للوحدة العربية هو أن تتبنى قضيتها دولة عربية تمتلك قـدراً لا بأس به من الامكانيات البشرية والاقتصادية فتستقطب لها انصاراً في كل قطر كما فعلت بروسيا ويديمونت أثناء الوحدة الالمانية والاطالية، وقد تزحف هذه الدولة تارة عن طريق المعاهدات وطوراً عن طريق الاستفتاءات مرة بالتحالف مع الحكومات وآناً بالاتفاق مع الشعب مباشرة ولو لم ترض الحكومات وحين تستدعي الظروف استخدام القوة العسكرية ويلائم الجو الدولي لذلك فلا مانع من أن تستخدمها هذه الدولة الطليعة في سبيل هدف العرب الأسمى ، وقد سمعنا بعض المهتمين بالامور القومية يرشحون سورية لقيادة العرب نحو الوحدة وبعضهم الآخر يرشحون العراق ويزكونها لقيادة وفئة ثالثة ترشح مصر على اعتبارها أكثر الدول العربية سكاناً وامكانيات وآخرون يعقدون الآمال على الثورة الجزائرية ويرجون أن تكمل طريقها بعد ان حررت الجزائر لتوحيد العرب أجمعين ...

وتتوسط فئة بين الداعين الى الوحدة المباشرة وبين الداعين الى الوحدة التدريجية فترى ان يقدم العرب بسرعة على اعلان دولة اتحادية لا مركزية ترمي التجزئة ظهرياً لأنها قضت على دول العديدة ، وتساهل مصالح كل قطر وميزاته الفرعية بأن تترك لابنائهم حكم انفسهم فيما يتعلق بالامور الداخلية لأن الوطن العربي الواسع لا يلائمه اسلوب الدولة المركزية

بل يستدعي حكم كل منطقة بشكل لا مركزي ، وهم يرون ان هذا العصر عصر الشعوب ويجب ان يتحرك الشعب فتظهر في كل قطر منظمات تدعو الى الوحدة العربية بالحاح وتلتقي هذه المنظمات الشعبية فتؤلف قوة ذات وزن تستطيع أن تمارس الضغط على الحكومات لكي تتجه جدياً الى الوحدة وهم لا يفرقون بين قطر وقطر ولا يرون من الضروري ان يتزعم أحد الاقاليم العربية دون غيره حركة الوحدة بل يجب ان يلتقي القوميون العرب على اختلاف اقطارهم ، وتقاس الهيئات والافراد بمقدار الاخلاص والانتاج والبذل دون النظر الى الاقطار لانها شيء مصطنع ، وربما فكر بعضهم في العمل للوحدة العربية على اسلوب التكتلات الفرعية التي تذيب بعض الاقطار وتخفف من عدد الدول في سبيل الوصول الى الدولة الواحدة وهم لذلك يؤيدون قيام أي اتحاد بين قطرين عربيين اذا كان متخلصاً من النفوذ الاجنبي ، وقد تخطط بعض الرؤوس مستقبل العرب فتقول باتحاد بين سورية ولبنان والعراق والاردن ، واتحاد ثان بين دول الجزيرة العربية واتحاد ثالث بين الدول العربية الافريقية ثم تتقارب هذه الاتحادات الثلاث وتعاون في سبيل الوصول الى الوحدة العربية الشاملة .

ولعل القارئ يلاحظ كثرة التيارات التي تتجاذب العرب حول قضية وحدتهم وليس هذا بمجيب فان الاستعمار يخشى الوحدة العربية ويرتجف من قيام دولة عربية كبرى تتوسط القارات ، فهو يسعى دائماً الى تشكيك العرب في وحدتهم عن طريق بلبلة افكارهم حولها وطرح المشاريع الملائمة له وضرب المشاريع القائمة على الاخلاص للقضية العربية . ونحن نعتقد ان الوحدة يجب ان تقوم بين عرب متحررين من الاستعمار والا مانع من قيام الوحدات المتحررة بين أي قطرين عربيين أو أكثر ، وان أول خطوة جديّة في سبيل الوحدة حسب اعتقادنا هو ظهور منظمات

شمعية ثورية تمتد في سائر الاقطار العربية لا تعمل الا على أساس الوطن العربي ولا تفكر إلا انطلاقاً من مصلحة الامة العربية ، تعتبر المصالح القطرية جزءاً من المصلحة القومية العامة وحسب ، أي لا تضيع في زحمة المصالح الاقليمية الضيقة ، ومتى سمعنا ان الجمعيات والاحزاب والشركات أصبحت تعمل وتفرع كلاً منها في الوطن العربي كله ولا تقتصر على اقليم بالذات ، متى سمعنا بذلك فلنتفاءل بالخير فان ساعة الوحدة تكون قد دقت .

وختاماً لما تقدم وعلى الرغم من الجدل الدائر حول شكل الوحدة ، وشعور العرب أنهم أمة واحدة ، وأنهم أصحاب حق في ان تضمهم دولة ، الا أن الشعور الاقليمي الذي كان سبباً في نكسة الانفصال بين القطرين السوري والمصري هذا الشعور الذي يشجعه الاستعمار وما يزال يفعل ، ما يزال يقف في وجه اية وحدة كانت ، تماماً كما تقف بوجهها القوي الاستعمارية السفارة والمصالح الفردية والعرشية والطبقية .

ويمكننا ان نجزم وبكل اسف ، ان ما يتطلبه العرب في كافة اقطارهم هو اكبر بكثير مما يحصلون عليه ، وان الجهود المبذولة في مسيل وحدة أممهم هي أقل بكثير من الامكانيات المتوفرة كما أن الشوط المقطوع في مسيل الوحدة حتى الآن هو شوط تافه وقصير .

ولقد اثار هذا الوضع دهش كثير من المفكرين الاجانب ناهيك بالمفكرين العرب الذين يتحرقون لتحقيق وحدة أممهم ، واليك رأي المؤرخ الانكليزي توينبي في وضع العرب الحالي من الوحدة الذي يقول :

على النقيض من الاتجاه القائم اليوم في اوروبانحو الوحدة ، فان

عرب افريقيا واسيا يكونون ظاهرة شاذة بالنسبة لهذا الاتجاه العام ،
إذ زاهم مندفعين بتأثير الضغط الخارجي نحو الاقليمية بدلاً من الاندفاع نحو
الوحدة ، خاصة بعد أن بلغوا الاستقلال ...

ان تاريخ هذا التفسخ القائم اليوم في البلاد العربية الاسيوية بدأ بعد
إنهاء الحكم العثماني عام ١٩١٨ ، فالحدود القائمة اليوم بين العراق وسوريا ولبنان
والاردن لم تقمها الشعوب العربية نفسها ، بل اقامتها بريطانيا وفرنسا
بصورة مصطنعة لتصبح متفكة ومصالحها هي ، لا تلبية لحاجات سكان
المنطقة العرب .

ولكن الغريب ان تقوم الشعوب العربية (١) نفسها اليوم وبعد ان
استردت استقلالها بالتمسك بهذه الحدود التي خطط لها الاجانب المحتلين
بعد عام ١٩١٨ .

لقد كان من البديهي ان يتوقع الانسان من العرب بعد نيلهم
استقلالهم ان يلغوا هذه الحدود ، ويميدوا الوحدة التي كانوا يتمتعون بها
أثناء الحكم العثماني ، لذا فانه مما يثير الدهشة ان هذه الوحدة لم تتم
فحسب بل على العكس فقد نمت ضمن هذه الحدود المصطنعة مصالح محلية
مكتسبة اصبحت على درجة من القوة بحيث انها ابقت العالم العربي في اسيا
متفسخاً في الوقت الذي كان باستطاعته لو شاء ان يتحد والعالم العربي
في افريقيا .

ومما يدهشني انا كمرقب اجنبي نحو وعي اقليمي انفصالي في بحر
فترة قصيرة من الزمن وفي اطار حدود لم يخططها العرب انفسهم بل فرضت
عليهم فرضاً .»

(١) نحن لا نوافق السيد تويني على رأيه لان الذي يتمسك بالاستقلال الفطري هم
الحكام ذوي المصالح لا الشعب العربي الذي يعرف ان مصلحته تكمن في وحدته وحسب .

ثالثاً - الاشتراكية أو النظام الاجتماعي للعادل (١) :

القومية الواعية لا تعبد الدولة ولا تستهر بالفرد وتحتقره وإنما تعتبر مجادها في سبيل انبائها كما يعتبرون هم انفسهم فداء لها ، والحركات القومية السليمة التي برئت من تشويه الطامعين والمستعمرين ترى انها طريق لرفع مستوى الافراد وتهيئة الجو الصالح وإيصالهم الى مستوى انساني لائق سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، فالقومية اليوم كما تطلب الوحدة والتحرر تنادي أيضاً باحترام الافراد وتحسين أحوالهم والعمل على رفع مستواهم ، وهي ترى ان الذين يتمتعون عن مساعدة مواطنيهم ضد الفقر والجبل والمرض ليسوا قوميين ولو أنهم مخلصون لقوميتهم لما قست قلوبهم ولما تمسكوا بمصالحهم الضيقة وعضوا النظر عن آلام مواطنيهم .

والقومية العربية متجهة الى اعزاز أبنائها وانقاذهم من براثن التخلف ولا تحتمل ان ترى المنتسبين اليها حفاة جيعاً اميين اذلاء ، بل تريد لهم

(١) يذكر الاستاذ عبدالرحمن البراز في كتابه اجاث في القومية العربية طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، ص ١٧٢ ، ان « الاشتراكية خاصية من خصائص قوميتنا ... بل : ان الاشتراكية هي القومية العربية حين ينظر الى القومية من ناحيتها الاجتماعية » . ونحن لا نقره على ذلك لان القومية في رأينا ذات معنيين مرتبطين ببعضهما اولهما يدل عليها كوجود وثانيهما كمحتوى ، وقد اختلف هذا المحتوى حسب المكان والزمان وما زال كذلك ، وبالتالي فلا يمكن اقران الوجود بنظام اقتصادي معين قد يكون اليوم شيئاً ليتبدل الى سواه غداً بينما يبقى الوجود وجوداً للامة مهما اختلفت النظم الاقتصادية الاخذة بها . والعودة الى التاريخ توضح ان اليقظات القومية في العالم لم ترتبط بالضرورة بنظام اقتصادي معين ولو أن محتوى القومية العربية في هذه المرحلة بالذات هو محتوى اشتراكي غايته العدالة الاجتماعية .

المجتمع الزاهر السعيد الذي يروي حاجتهم الاساسية الى الغذاء والعلم والكرامة والصحة الجسمية والعقلية .

ولن نناقش هنا الآراء التي تنكر على القومية هذا المضمون (١) الاجتماعي فقد أصبحت من آثار العصور البائدة وإنما سنبعث النظريات التي تنطلق أو تزعم أنها تنطلق من مصلحة الانسان العربي وتتصور النظام الأمثل له .

آ - ففما يتعلق بالاقتصاد ينقسم العرب اليوم الى اتجاهين كبيرين تدور المجادلات بينهما حول حق الملكية الفردية ، فأولهما يرى بقاء الثروات الكبيرة بيد الافراد ونستطيع ان نسميه بالاتجاه اليميني وثانيهما يرى ان المالك الاول للثروة في المجتمع هو الشعب والدولة التي تمثله ونستطيع ان نسميه بالاتجاه اليساري .

فأما اصحاب الاتجاه اليميني (٢) فيعتقدون بأن الافراد اذا سمح لهم بالوصول الى الثروة التي يريدونها يقدمون على العمل والانتاج ويجتهدون من أجل

(١) من هؤلاء الذين ينكرون على القومية ان يكون لها مضمون اجتماعي واقتصادي اللواء أ- ح محمد فوزي والاستاذ محمود حافظ في كتابيهما دراسات في القومية العربية (الطبعة الثانية) إذ ينظران الى القومية فقط ضمن اطار سياسي ضيق ، غايته « وضع الحدود الخارجية للوحدة السياسية وتقف عند بناء سور او اطار واحد يضم جميع ابناء الامة في هذه الوحدة » ويقولان « ان الاشتراكية ليست دعامة حتمية للقومية » ... وهذا ولا شك مفهوم ضيق للقومية ساد في القرنين الثامن عشر وأول التاسع عشر .

(٢) ونعني بهم اصحاب المبادئ الفردية او المؤمنين بما يسمى بالمبادأة الفردية ، (كالفيزوقراطيين) أو الطبيعيين في الاقتصاد ، ودعاة التجارة الحرة ، ودعاة مبادئ التسبب الذين يعتمدون شعار ، Laissez faire ، Laissez passer

تضخيم ثروتهم وخلال اجتهادهم يستفيد المجتمع كله ، فصاحب العمل يقدم أكبر خدمة للمجتمع حين يوسع معمله فيزيد من ثروته وفي نفس الوقت يشغل عدداً أكبر من العمال ويضاعف الانتاج القومي ، ومن أعطي حرية العمل وتجميع المال يستطيع ان يقلب الارض التي يملكها أو يستأجرها الى مزرعة حديثة تدر عليه الارباح الطائلة وتسهم في رفع مستوى الفلاحين وتزيد أجورهم وتقدم للمواطنين وللتصدير كميات ضخمة من المنتجات النباتية والحيوانية ، وهم يرون أيضاً أن بلادنا لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع الثقيل التي تسمح بتغيير الاقتصاد تغييراً جذرياً من غير ان يتعرض المجتمع للهزات والمتاعب ، ويذكروننا بأن ابناء بلادنا قد اعتاد احدهم ان يخدم مصالحه الخاصة ولم يصل الى درجة من الوعي تساعدنا على ادارة المؤسسات والعمال التي تمتلكها الدولة بحماس وتفان كأنها ملك لكل واحد منا ، فنقل ملكية الثروات الى الشعب والدولة معناه اضعافها في نظرهم ، ويضيفون الى ذلك ان نهضتنا الاقتصادية اعتمدت حتى اليوم على المبادرة الفردية ، فالافراد هم الذين انشأوا العمال وادخلوا الصناعة الحديثة الى بلادنا وراحوا يستغنون بها عن الحرف اليدوية ، فتأميم الاقتصاد يعني قتل مواهب الافراد واطفاء المعيتهم واشعارهم بأن وطنهم كافأهم على جهودهم بجزاء سنار .

واتباع هذا الرأي قد يختلفون فيما بينهم فمنهم من يغالي في تطرفه اليميني حتى يوافق على بقاء الاقطاع أو الملكية الواسعة للارض وبعضهم يرى ان الارض يجب ان تكون موزعة بين ملاكين صغار أي يسمح بالقضاء على الاقطاع بشرط المحافظة على ملكية الثروة الصناعية والنقدية ويفصل بين موضوع الارض والصناعة ، وبعضهم لا يمانع في أن تأخذ الدولة من الاغنياء الضرائب التصاعدية وآخرون يرون في هذه الضرائب اضعافاً لرأس المال القومي وعرقلة للنهضة الاقتصادية العربية ويؤكدون ان

اصحاب رؤوس الاموال أقدر من الحكومة على التصرف بأموالهم ومن الخير لنا ان نشعرهم بالاطمئنان وان نترك الاموال بين ايديهم ، فيكثرون من المشاريع والشركات ويزيدون في الدخل القومي مما ينعكس اثره عفويًا على العمال والفلاحين ، وهم يؤكدون أن المعامل اذا ازدادت ارتفعت اجور العمال لكثرة الطلب عليهم وتحسنت أحوالهم وأمنت حياتهم ويرون استحالة وجود تأمينات اجتماعية جدية اذا لم تزدهر الثروات بين ايدي الرأسماليين ، ومن الملاحظ ان اليمينيين وان اختلفوا بين بعضهم في أيام السعة الا انهم يعودون الى الاتفاق عندما تهدد مصالحهم المشتركة فيوحدون صفوفهم ضد اليساريين .

وأما فئة اليساريين فترى ان الثروة ملك للشعب كله ساهم في انتاجها جميع المواطنين على حد سواء فالعمل لا يعمل فيه الرأسمالي وحده وانما يبذل العمال الجهود الدائبة لازدهاره وصنع منتجاته والارض لا يفلحها المالك الكبير وانما يتحمل الفلاحون عبء حراستها وبذرها وحصادها ثم يقاسمهم المالك في غلتها ، وكل رأسمال انما هو نتيجة للعمل ومتى تضخم رأس المال في يد أحد الأفراد كان معنى ذلك انه يستفيد من عمل الآخرين ولو اقتصر الانسان على كده وعمله الخاصين لما جمع ثروة وانما يستطيع جمع الثروة من يشغل عنده عمالاً عديدين فيدفع لهم قسماً من الربح كأجور ويبقى لنفسه قسماً آخر من الربح يكدمه كثروة خاصة به ، فالذي يقيم مصنعاً يشتغل فيه مائة عامل ينتج له مصنعه في اليوم مثلاً بضاعة تقدر بخمسة الاف ليرة ، لنفرض ان ثلاثة منها يجب ان تحسب بدل انها الآلات وقيمة المواد الخام ، أما ما يتبقى فهو الفائز يدفع اجوراً للعمال المائة الفاً على الاكثر فتبقى له الف ربحاً صافياً ومعنى ذلك في رأي اليساريين أنه لا يعطي العمال كل ما يستحقونه وانما هو يربح على حسابهم ، وربحه فاحش فهو فرد واحد

يحصل ما يعادل اجورهم جميعاً ، ويعتقد اليساريون ان الرأسمالي يضيف ارباحاً الى ارباح فيزيد من رأس ماله على حساب جهود العمال ، ومن العدل ان تذهب هذه الارباح الى العمال انفسهم أو الى الدولة التي تمثلهم بدلاً من ان يحتكرها فرد أو عدد محدود من الافراد ، ومن رأي اليساريين ان نهضتنا الاقتصادية تحتاج الى تركيز في الجهود وتخطيط دقيق لا يمكن توفرها مع بقاء النظام الرأسمالي ، فقد لا ينفذ اصحاب الثروات الخطط العلمي الذي وضعته الدولة وانما يؤثرون الربح العاجل وقد تتضارب الجهود الاقتصادية على يدهم وربما تدخلوا في وضع البرامج التخطيطية فحولوها لمصالحهم الضيقة واذا اردنا الاسراع في بناء الاقتصادي واختصار الزمن فعلينا ان نضع رأس المال الاكبر في يد واحدة هي يد الدولة التي تستطيع حينئذ ان توجهه الى المشاريع الجديدة الملحة الفعالة بدلاً من ان يضيع على وسائل الترف والحاجات الشخصية الكيالية ، ويعتقد اليساريون أن مستوى العمال والفلاحين لن يرتفع طالما بقي النظام الرأسمالي في بلادنا ، فستعمد الرأسمالية دائماً الى التقليل من شأن التأمينات الاجتماعية وتخفيض وارداتها والقاء اكثر عبئها على العمال لا على أصحاب الثروات ، كما ان الضرائب التصاعدية لن تفيدهم كثيراً في نظرهم لان الاثرياء يستطيعون بألف وسيلة ووسيلة ان يتصلوا منها ، ومن آرائهم ان الرأسمالية في البلاد الاستعمارية قد تستطيع لضخامة ارباحها السماح برفع مستوى العمال ولا تمنع في الضرائب التصاعدية اذا شعرت ان الجو الشعبي يتطلب ذلك ، ولكن الرأسمالية في بلادنا ستبقى ضئيلة المال على الشعب لانها لا تستعمر بلاداً أخرى ولا تمتص خيراتها ولن تستطيع ذلك في المستقبل فخير حل لبلادنا عدالة وتقديمها هو الاشتراكية ولا مانع من تشجيع الافراد بالكافآت لكي يندفعوا الى

العمل في المجتمع الاشتراكي .

ثم يختلف اليساريون بين بعضهم ، فمنهم من يرى البدء بالارض وتوزيعها على الفلاحين او تملكها للدولة التي تؤجرها للفلاحين وابقاء المعامل فترة من الزمن في يد الرأسماليين ربما يتم وعي الشعب ويربى تربية اشتراكية ، ومنهم من يعتقد بالتدرج فيدعو الى تأميم جزئي يتبعه تأميم كلي ومنهم من يدعو الى التأميم الكلي دفعة واحدة (١) .

ويختلف اليساريون أيضاً حول طريق تحقيق اهدافهم ، فقسم منهم برلماني يؤمن بأن الانتخابات والمجالس النيابية المنبثقة عنها هي الكلفة بتطوير المجتمع ، والشعب يقرر في الممارك الانتخابية الانضمام الى الرأسماليين أو الاشتراكيين ومتى شعر الشعب بضرورة الاشتراكية فانه سينتخب اكثرية منهم تسير به نحو اهدافها ، ومنهم الثوريون الذين يجدون في الانتخابات والمجالس النيابية مضية للوقت ويرون ان البرلمانات قد تسن بعض القوانين الاصلاحية ولكنها لا تستطيع قلب النظام الاجتماعي رأساً على عقب فلا بد في نظرهم من الثورة ، وبعد الثورة يمكن ان تجري الانتخابات .

ويختلف اليساريون أيضاً بين شيوعيين يؤمنون بافكار ماركس ولينين ويتبعون الطريق التي سارت عليها دول المعسكر الشرقي وبين

(١) يقول الاستاذ ميشيل عفلق « في كتاب دراسات في الاشتراكية العربية عام ١٩٦٠ » « ان الاشتراكية تعني تأميم المرافق العامة والصناعات الحيوية الكبرى ... وتوزيع عادل للارض واشراف الدولة أو وضع يدها على التجارتين الخارجية والداخلية » .

اشتراكيين قوميين^(١) ينادون بالعمل على وضع اسس اشتراكية عربية ملائمة لشعبنا وتتبع من حاجاته من غير ان تقيد بالمدىح الماركسي او سواه (٢) ،

(١) ومن هؤلاء الدكتور الياس فرح إذ يذكر في كتاب « دراسات في الاشتراكية العربية - عام ١٩٦٠ » (ص ٢٠٣) « انه لمن الخطأ ان ننظر الى الاشتراكية العربية من خلال الاشتراكية الاوروبية ... » ثم يعدد الفروق بين الاشتراكيين ونحن مع اقرارنا بضرورة ما يقول الا اننا نريد ان نؤكد بأننا نؤمن بأن اشتراكينا هي اشتراكية انسانية لا تقبل الفصل بين الانسان وبيئته وتاريخه وتحترم الفرد وتعمل لمصلحه المجموع ، ومع ذلك فان المبادئ الاساسية التي يمكن استلهاها لوضع اسس اشتراكية عربية هي الاخذ بنظرية طبقت واقعياً ، ووضع الحدود الجديدة لها على اساس التطبيق الفعلي في الارض العربية .

(٢) ومن هؤلاء الاستاذ عبدالرحمن البزاز في كتابه « بحاث في القومية العربية » يقول في الصفحة / ١٧٦ / « واشتراكيين لا تعني الاشتراكية العالمية او الشيوعية بمفردها ولا تعني الاشتراكية الديموقراطية التي تؤمن بالماركسية كفكرة وتختلف عنها بالوسيلة ولا تعني مذهب تدخل الدولة او اشتراكية الدولة ، او الاشتراكية النقيية او التعاونية .. الخ » ثم يقول ونحن حين نرى الاشتراكية الديموقراطية سليمة في جوهرها ، لا نلتزم حرفياً بالمدى الذي يقرره حزب العمال البريطاني (وهو حزب اشتراكي) في تفسيره للاشتراكية الديموقراطية ، كما لا نقيد حرفياً بتفسيرات « الفبائيين Fabianism » ... اننا دون شك ، سنتفجع من هذه المذاهب كل انتفاع وسنستعين بالاشتراكية النقيية واشتراكية الدولة والاشتراكية القومية والاشتراكية الدينية والاشتراكية التعاونية ، بل سنتفجع بأراء كثير من الاشتراكيين (الطوبائيين) ... دوماً التزام المذهب واحد على وجه الحصر ودوماً جود على نظرية واحدة على وجه التخصيص » انتهى ...

ونحن لا نقر الاستاذ على رأيه ابدأ لان الاشتراكية في رأينا مهما تنوعت صفاتها واختلفت اتجاهاتها لها حدود واحدة واضحة تفرقها عن النظام الرأسمالي، وان دعاة الاشتراكية التلقينية Eclectic مهما حاولوا فان النظام الذي ينجم عن محاولاتهم لن يكون خيراً من بعض النظم التي اثبتت التجربة والواقع عدم صلاحها ، وبرزت احزاباً تدعي الاشتراكية وهي ليست باشتراكية ، كحزب اعمال البريطاني ... والحزب الاشتراكي الفرنسي بينيهما الامبرالية ..

وهذه المحاولات هي في جاتها محاولات لترقيع النظام الرأسمالي الذي اخذ ينهار بسبب تناقضاته المعروفة وليست محاولات لايجاد اشتراكية قومية .

ولن يساعدنا هذا الكتاب على التوسع في بقية خلافات اليساريين ، ومن حسن حظ اليمينيين العرب ان الخلافات بين اليساريين كثيرة وقد لا يتفقون ولو اندروا بالخطر المشترك .

وبين اليمين واليسار العربيين يقف اصحاب الحلول الوسط ينادون بالمحافظة على الملكية الفردية مع اقامة اقتصاد موجه تشرف عليه الدولة ويسعون الى المطالبة بالاكثر من الخدمات العامة للشعب كالمدراس والمستشفيات ومؤسسات التأمينات الاجتماعية ويهدفون الى اصلاح نظام الضرائب لكي يتحمل الاغنياء العبء الاكبر من نفقات الدولة ولا يرهق الفقراء ، وقد يوافقون على تحديد الاسعار وتأمين الدولة لبعض الحاجات الضرورية اذا عجز الرأسماليون عن تأمينها أو تلاعبوا بها ، واماس فكرتهم انهم يريدون رفع مستوى الشعب من غير ان يضيعوا وقتهم في مناقشة المذاهب ، وبتمهم اليساريون بأنهم من انصار الرأسمالية المتطورة نوعاً ما كما يتهمهم اليمينيون المتطرفون بأنهم اشتراكيون مقنعون .

ب - أما فيما يتعلق بالحرية ، فهناك مفاهيم عديدة حول معنى الحرية ، لأن كل أمة أو فئة من الناس تنظر اليها من زاوية خاصة بها .

فقد فهمتها الشعوب المستعبدة بأنها التخلص من ربقة الاستعمار ، وهذا في رأينا تحرر وليس حرية ، وما التحرر الا بعض اوليات الحرية ومستلزماتها .

كما فهمها البعض بأنها صنو للديموقراطية، الا أن تصريف الشعب لاموره وحكم نفسه بنفسه ليس الا مظهراً من مظاهر الحرية ، هذا اذا كان اسهام الشعب في تصريفه لاموره اسهاماً كاملاً وحقيقياً .

ويشترك مع الغرب بالاخذ بهذا المفهوم دعاة الكتلة الشرقية ، ولعل هذا الرأي الخاطيء هو الذي يفسر لنا جنوح الكتلتين الى الاستهانة بحرية الافراد والمجتمعات والشعوب الاخرى ، ويؤكدون ان لا حرية هناك للفرد الا حرية تنشق عن حرية الجماعة .

ويفسر آخرون الحرية بأنها تحرر من ربة الاقطاع والرأسمالية وهم في هذا يكافحون نوعاً معيناً من العبودية ولكنهم لا يحققون في الواقع المعنى الكامل للحرية ، لان التحرر الاقتصادي هو من مستلزمات الحرية وحسب .

بينما يعتقد آخرون بأنها التحرر الكامل من كل القيود والاعراف ، ومثل هذا لا يمكن تسميته بالحرية لئله من حريات الآخرين وهو اقرب الى الفوضى منه الى اية تسمية اخرى .

وآخرون قدسوا الحرية الى حد منح الافراد كل الحقوق واعتبروا المواطن غاية مثلى لا يخضع اولا يجوز ان يخضع لاي قيد من القيود ، الا انهم في انحيازهم الى الفرد وتقديسهم له يهملون المجتمع ويتجاهلون واجبات الفرد نحوه .

وفي رأينا أن للحرية معنيين مرتبطين ببعضها — اولهما الحرية المتعلقة بالفرد كفرد ، والحرية المتعلقة بالمجتمعات والمؤسسات التي هم الفرد ، أي أن هناك مظهران متكاملان للحرية لا يكتمل احدهما ولا يكون حقيقياً دون الآخر .

والحرية الفردية قد تكون سياسية او اجتماعية ، وهي على هذا تتميز لا في محتواها فحسب بل بشكلها التعبيري — عن الحرية في الجماعات التي تحكم نفسها ذاتياً ، وعلى هذا فلا يمكن للحرية الاجتماعية أن

تكون ابدأً بديلاً منطقياً وصحيحاً عن الحرية الفردية ، كما انه لا يمكن للحرية الفردية ان تكون بديلاً عن الحرية الاجتماعية (١) .

والحرية الى هذا لا تعني الفوضى ابدأً (٢) كما أن الفرد قد لا يكون بالضرورة حراً حتى في مجتمعات قد تملك نظاماً كاملاً من التجمعات « الحرة » التي تحكم نفسها ذاتياً ، إذ أن هذه التجمعات قد تعرقل حريته بحيث لا تترك له مجالاً للخيار في التعبير عن ذاته .

وبعبارة أخرى ، ان ما يدعى بالمؤسسات « الحرة » قد لا تحمل في طبيعتها الحرية الفردية بالضرورة وكذلك فان « الانفلات » الشخصي لا يؤمن الحرية الشخصية الحقيقية بل قد يكون في اكثر الاحيان سبباً في الاضرار بها .

والحرية في رأينا مهما تنوعت مظاهرها لن يكون لها معنى اذا لم يكن المقصود منها حرية الفرد « الانسان » ولا نقصد بهذا ان « يترك الانسان وشأنه » ، لان هذا المعنى للحرية يعتبر تجريداً لا وجود له ، وعلى هذا فالحرية لا تكون حرية اذا لم تنسب الى المجتمع الذي تتمثل فيه

(١) لجأنا الى تعبير الحرية الاجتماعية تجاوزاً وتمشياً مع الخطأ الدارج مع ايماننا المطلق بأن الحرية لا تتجزأ ، لذلك لا يجوز استخدام تعابير الحرية السياسية والاقتصادية او الاجتماعية حتى ولا الفردية والجماعية .

(٢) يؤكد البعض وجهة النظر الغربية بقولهم « الديمقراطية وقرينتها الحرية ليست مطلقة الى الحد الذي يؤدي بالمجتمع كله ولا بد وان تكون مقيدة بالصالح العام وسلامة المجتمع » وهذا القول جميل فعلاً ولكن هل لنا بأن نتساءل من ذا الذي سيضع الحدود ومن هو الذي سيحدد المدى الذي تقتضيه سلامة المجتمع ؟

لان المجتمع الحر لا بد وان يقدر الحرية في كل مكان ، وان يخلق المواطنين الاحرار ، وان يكون مع الحرية - دون شروط - فيستكر العبودية اني كانت والاستعمار مهما كان شكله ولونه والضغط والاكرام واذلال الذات الانسانية .

والحرية الشخصية تكون عادة بسيطة وخارجية ، بينما تكون الحرية الاجتماعية مزدوجة ، خارجية وداخلية .

والحرية الداخلية للتجمعات تتكون من طابعها الديمقراطي الذي منبجته بعد قليل ، ومن طابعها التمثيلي الحق في اشكال الحكم والادارة ، أما حريتها الخارجية فتكون من تحررها من التدخل الخارجي الذي يمنها من أداء وظائفها .

أما الحرية الشخصية فهي ببساطة ، حرية الفرد في التعبير - دون تدخل خارجي - عن شخصيته ، عما يجب أو يكره ، ما يرغب وما لا يرغب ، عن آماله ومخاوفه ، عن حسه بالصواب والخطأ ، عن الجمال والقبح وما الى ذلك ...

ولكن مما لا شك فيه أن المساواة الاقتصادية قد اضحت شعاراً اليوم لرواد الحرية ، لانه لا يمكن قطعاً إيجاد ضمانات للحرية الفردية اذا لم يتحرر الفرد من مساوىء الطبقة والاستغلال . . . فتحرر الملايين من ربة الرأسمالية والاقطاع معناه ولا شك تحرير ارادتهم ، هذه الارادة التي تنبثق عنها حريتهم الشخصية .

وان افضل الضمانات للحرية الشخصية هي - كما يقول البعض - وجود

الديموقراطية اليقظة (١) التي تسمح في كل اشكال التجمعات بالنقد البناء ، هذا النقد الذي يضعف ولا شك احتمال بروز الطغيان من جهة ، كذلك يضعف من امكانية سحق الحرية الشخصية تحت شعار التنظيم الاجتماعي من جهة أخرى. الا ان الكثيرين من الناس يخافون ان تضع الحرية الشخصية في الاطر الديمقراطية الزائفة .

والديموقراطية تعني لدى العديدين من الناس تمثيل الانسان غيره أو عدداً من الآخرين . . . الا انه يجب أن نقر سلفاً بأنه ما من انسان يستطيع ان يمثل انساناً آخر ، كما انه لا يمكن اعتبار اية ارادة انسانية كبديل أو ممثلة للارادات الاخرى .

ان الديمقراطية الصحيحة تكون ابدأ محدودة ووظائفية لا عامة وشاملة ، ومنبعها هو الفرد (٢) الذي يعتبر مركز الوعي والتعقل و ارادة تلك قوة تحديد المصير الذاتي . . . فكيف يمكن لانسان ما ان يكون نفسه

(١) عبدالرحمن البزاز - اجنات في القومية العربية ص ١٧١ يقول « ان الديمقراطية التي ندعو لها ليست شكلاً من الاشكال أو مظهرراً من المظاهر ، انما هي ، بالدرجة الاولى فكرة وفلسفة حياة ، انها الايمان بالامة كسكل، دون محاولة تأليه شخص أو فئة صغيرة . . . ثم انها تقدير ورعاية لارادة الامة الصادقة .

(٢) ج.د.هـ. كول في كتابه - النظرية الاجتماعية ص ٧٤ وما يليها .

ويخالف الاستاذ عبدالرحمن البزاز هذا الرأي إذ يذكر في الصفحة ١٧٠ من كتابه اجنات في القومية العربية - « ان الديمقراطية العربية اليوم تجد معيها التز . . . في مبدأي الشورى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . ويؤيد كلامه بتعداد الناس الذين قالوا بمثل هذا الرأي .

ويكون في الوقت ذاته عدداً من الآخرين؟ ولو استطاع انسانا ما ذلك لاعتبر من صانعي العجائب ، لذلك كان من الخطر ان يبنى نظام اجتماعي على عجيبة فرضية .

وطبيعي ان نذكر هنا ان تحرير الفرد اقتصاديا وميسلة اسامية لتحرير ارادته ولجعله يمتلك قوة تحديد المصير الذاتي ، ولهذا فان الديمقراطية في اعلامها وأحسن اشكالها ليست الا جزءاً طفيفاً مما تعنيه الحرية ، وهي ليست ابدأ صنواً لها .

ان الديمقراطية تعني اكثر من الموافقة السلبية للشعب على حكومته، انها تعني المواطنة الايجابية الواعية ، كما انها تعني اتاحة الفرصة للجميع في المشاركة الفعالية ، لا على صعيد الدولة فحسب ، بل وخلال كل التجمعات التي تهم المواطن شخصياً بحكم ظروف .

وان جميع اشكال الديمقراطية تفقد مضمونها اذا لم تكن المشاركة الجماهيرية فيها مشاركة فعلية في شؤون الحكم ، هذه المشاركة التي يجب ان تكون غاية للذين يدرون دفة التنظيم الاجتماعي ، ولا يعني هذا مجال من الاحوال ان يتسع عدد الناخبين غير الواعين ، بل ان معناه ان تزداد الفرص أمام الناس ليعبروا عن انفسهم بالشكل الذي يرغبون ، والا كان معنى الديمقراطية التي ندعو اليها اطاراً خارجياً بغير صورة ولنقل الحق ، ان بروز الشكل واختفاء المضمون هو مظهر الديمقراطية السائدة في كل مكان حتى اليوم .

ونحن إذ عرضنا الخطوط العامة في معنى الحرية واحدها مظاهرها الديمقراطية لا بد لنا من ان نتبين آراء الناس في وطننا حول هذا الموضوع .

فمن الناس من يؤمن في بلادنا بضرورة اعطاء الحرية لسائر الافراد
كما يعبروا عن آرائهم وينتقدوا الحكومات ويدلوا بدلوم في الشؤون العامة
وينتخبوا المجالس النيابية التي يريدون ، واعتقادهم قائم على أن الفرد العربي
عانى كثيراً من كبت حريته حتى كادت تنطفئ مواهبه وتضيع اصالته ،
ومن الخير ان نشجعه على الانطلاق والاستفادة من تجاربه ولا مانع من
ان يتعثر ويخطئ فان الشعوب لا تستفيد الا من اخطائها وان اية حكومة
تريد ان تقيد الحريات ليست خيراً من الناس الذين تقيد حريتهم ، فلماذا تعطي
نفسها هذا الحق ؟

ومن الناس من يرى ان الحرية الواسعة لا تلائم شعبنا ، والنظم
البرلمانية اوجدتها اوربا وقد تتفق مع مزاجها وربما نسجمنها في المستقبل
مع الانظمة الديمقراطية ، أما اليوم ونظراً لضمور الوعي في بلادنا
ولا انتشار الجهل فيها فقد تؤدي الحرية الواسعة الى الفتن ، وقد ينساق الشعب
وراء الدعايات والاشاعات فيتخبط ويتخبط من لا يعملون جيداً من
من أجل مصلحته ، ولذلك فخير نظام في نظرهم هو النظام القائم على
الحزم ، وقد يصل بعضهم الى تمجيد الديكتاتورية ويدعمون نظرية
المستبد العادل أو الفرد ذي الصلاحيات الواسعة والذي يتمتع بصفات
تؤهله للحكم والقيادة ، وقد يريد البعض ديكتاتورية فئة من الناس لا
فرد واحد ، ثم يختلفون حول هذه الفئة فمنهم من يريد حزباً يمينياً أو
يسارياً ومنهم من يريد حزباً من العسكريين ومنهم من يريد حزباً من المثقفين .

وبين اولئك وهؤلاء يتأرجح انصار الحل الوسط او الديمقراطية
الموجهة، الذين يريدون اعطاء الحرية في الكلام والصحافة والعمل السياسي للناس
ولكن تحت اشراف الحكومة ، وحين تجري انتخابات فلا بد من توجيه الشعب

الذي لم يع مصطلحه بعد ، ولا بدأ من ابعاد اعداء الشعب في نظرهم عن كل معركة انتخابية ثم يسمحون للسلطة التنفيذية بأن يكون لها بعض الصلاحيات الواسعة مع بقاء السلطة التشريعية التي ينتخبها الشعب الموجه ، وكسائر انصار الحول الوسط يتهم اتباع الديمقراطية الموجهة من قبل انصار الديكتاتورية بأنهم ممدون للفوضى وضياح المصلحة العليا لوطن ، كما انهم يهتمون من قبل انصار الحرية الواسعة بأنهم يمدون للديكتاتورية .

وفي رأينا أن النظام الذي يمكن ان يحقق ضمانة الحريتين الفردية والجماعية الناجمة عن مجموع حريات الافراد ؛ لن يكون شبيهاً بالنظام الديموقراطي البرلماني الذي اخذت به دول عدة ، بل انما هو شكل من اشكال الحكم المحلي الذي يجعل الممثلين الشخصيين للناخبين على مقربة من ناخبهم حيث تناقش المشاكل التي قد تنجم عبر تمثيلهم لهم ، مما يؤدي الى تحقيق ديموقراطية على مستوى فعال .

وان الاخذ بمثل هذا النظام المقترح ، عدا عن انه سيحقق الحرية المرغوبة من كل المواطنين ، فانه سيؤدي بلا شك الى تقدم اجتماعي ، عن طريق ممارسة الحرية ، ويساعد على تحقيق ذاتية الافراد في بوتقة ديموقراطية حقيقية .

رابعاً - الانسانية :

لم يقتصر العرب على خدمة مصالحهم فحسب منذ وجدوا فقد اشتهر هذا الشعب بميله القوي الى المساهمة في شؤون الانسانية كلها ودعم الحق كما يتصوره انى وجده .

والانجاة الانساني الذي ينطلق على اساس القومية العربية لا يعني

اذابتها في دولة عالمية أو اعتبارها مرحلة في طريق تحقيق هذه الدولة ،
فالفكرون الذين يعتبرون القومية قاعدتهم ينظرون اليها كحقيقة اجتماعية
جوهرية متبقى موجودة الى الابد لأن تكوين النفس الانسانية تجعل
الافراد يتعاونون كمجموعات ينسجم أعضاؤها فيما بينهم (١) وهم يعتقدون
ان الاتجاه الانساني للقومية معناه دعمها للحركات التحررية في العالم
ومساعدتها للمظلومين في كل صقع واتجاهها الى بناء الحضارة البشرية
المشتركة على قدم المساواة مع بقية القوميات ، وتكون القومية انسانية اذا
ابتعدت عن التعصب فلم تضخم انانيتها ولم تنظر الى مصالحها وكأنها هي
المصالح الوحيدة في العالم بل هي تحترم حقوق الآخرين وحدودهم وتعاملهم
على أساس المساواة ولا تحاول ان تمتص خيراتهم أو تستغل جهودهم من أجل
الاكثار من ثروتها أو زيادة سلطانها .

القومية الانسانية معادية للاستعمار فهي تحاربه اذا وجد على
ارضها (٢) ، وتطرده من وطنها ، وهي أيضاً تحاربه كلما استطاعت وحيثما
حل لأن الاستعمار عدو الشعوب وقائد مواهبها ومذل انسانيها وهي
تنأى بنفسها عن أن تستعمر غيرها لان المستعمر لا يسيء الى المستعمرين
فحسب وإنما يسيء الى نفسه أيضاً إذ يضيع فضائله الاخلاقية وينقلب
الى بهيمة منحطة بدلاً من أن يكون انساناً سوياً ، لننظر الى المستعمرين
من أبناء الدول الاوروبية انهم في سبيل المحافظة على استعمارهم يريقون
الدماء ويدمرون البيوت ويجرقون المزارع ويتآمرون ويكذبون وينهبون
أموال الناس ، وأية فضيلة للانسان تبقى بعد ان يمارس كل هذه الرذائل ،

(١) راجع بحثنا في فكرة القومية ومدلولها

(٢) القومية والانسانية - الدكتور عبدالله عبدالدايم .

ان علمه لن يفيد به بل سيصبح أشبه بالجرم المتمرن المستفيد في جرائمه من نتائج العلم ونظرياته.

وإذا كانت القومية العربية مضطهدة في هذه الايام ولم تصل بمدى الى حقوقها الكاملة فهذا لا يمنعها من أن تسهم في الركب الانساني اليوم ، لانها اعتادت على هذا الاسهام وأثارت قروناً عديدة من التاريخ الانساني وهي اذا تابعت العمل في سبيل الانسانية رسخت في نفوس أبنائها محبة الخير للجميع ونشأوا عليها مما يجعل مساعدة اخوانهم البشر من صلب تقاليدهم وعاداتهم ، وقد نسمع دعوات تنادي بأن العرب عليهم ان ينشغلوا بأنفسهم فقط وان الوقت الذي يستطيعون فيه المشاركة في الامور العالمية لم يحن بمدى ، وترى هذه الدعوات ان الاقدام على العمل الدولي ومناصرة هذا الشعب أو ذلك سيهدر طاقاتنا ويبعثر جهودنا ويضيع كثيراً من الوقت الذي يجب أن نصرفه كله من أجل الوصول الى أهدافنا ، ويرى أنصار هذه الدعوات ان الاشتراك في ميدان المعارك الدولية سوف يكسبنا عداوات نحن في غنى عنها الآن وسيؤخر تحقيق مطالبنا وربما هوجمنا فلم يساعدنا أحد ممن تقدم في سبيلهم التضحيات فالفضل لنا أن نترك البشر على الاقل في هذه الايام يتفوقون ويخلفون كما يشاؤون ويتعاونون ويتصالحون كما يريدون ويعتدى بعضهم على بعض أو يتفاهمون ربمًا نصل الى تمام وحدتنا وتحررنا وحينئذ نستطيع أن نتقدم الى معترك الحياة الدولية ونحن واثقون من أنفسنا معتمدون على قاعدة متينة من القوة المتحررة التماسكة ، وقد لا يجد أنصار هذه الدعوات مانعاً من أن نساوم على حرية الآخرين وحقوقهم اذا أدت هذه المساومة الى نيلنا بعض مطالبينا ، فالهم هو أن نستفيد ، وقد يعدل بعضهم فيكتفون بدعوتنا الى البقاء بعيد عن المشكلات الدولية المعقدة

واغلب المفكرين القوميين يعارضون هذه الدعوات ويؤمنون بضرورة نصر الحق والعدالة في العالم كله منذ الآن ، لان الدول الاستعمارية متفقة فيما بينها على الشعوب وما لم تناصر هذه الشعوب بعضها فان الاستعمار يستطيع أن يفترسها واحداً بعد الآخر ولا نعتقد اننا نستطيع الوصول الى تمام حريتنا طالما بقي الاستعمار قوياً في العالم إذ أنه يستفيد من استغلاله لخيرات البلاد المستعمرة ويقدر عن طريق القوة المتجمعة بين يديه أن يضرب الحركات التحررية في بلادنا ، ويجب أن نقر بأن استقلال سورية ولبنان لم يضعف الاستعمار في الوطن العربي وحده بل أضعفه في سائر أنحاء العالم ، وكان لاستقلال الهند أثر كبير في تقوية الاتجاه التحرري لدى سائر الأمم ويعتبر انتصارنا على المعتدين في معركة السويس انتصاراً على الاستعمار في كل بقاع الارض ، إذ وهنت من بعده عزيمة انكلترا وفرنسا كثيراً وتراخت ولو الى أمد محدود قبضتها على بقية الشعوب وكان من اثره الاسراع في تحرير الجزائر .

ولقد أكد انتصار الثورة الجزائرية نهاية الاستعمار الفرنسي ، كما ان ثورة كوبا كان لها دور كبير في تاريخ التحرر الانساني ، فالشعوب يجب ان تتعاون والضعفاء اولى بالتعاون من سواهم لانهم بحاجة الى مزيد من السواعد المتكاثفة حتى يتابعوا طريقهم ويحصلوا على حقوقهم ، واذا نسيت بعض الحكومات مساهمتنا في دعم شعوبها فان الشعوب لا تنسى وكلما قدمنا لامة من الامم معونة دخلنا في تاريخ تلك الامة كاصدقاء محبين الى ابنائها وكأنصار لحرية الانسان .

وكما ان واجبتنا الانساني يطالبنا بمساعدة الآخرين فان تعاوننا معهم

يفيد مصالحنا ايضاً ، وقد افادنا مؤتمر باندونغ والمؤتمرات التي تلتها
فدعمتنا كثير من دوله ايام العدوان الثلاثي على مصر .

ويجب ان ننبه الى ان هذا التعاون قائم بين قوميات لن تذوب
في بعضها وانما تبقى كل واحدة مخصصة بميزاتها متمتعة باستقلالها ويخطيء
الذين يضيعون الشخصية العربية في شخصية افريقية أو اسيوية أو شرقية ،
ان الشخصية العربية قائمة بذاتها وتمتد يدها لبقية الشخصيات القومية في القارتين
الافريقية والاسيوية خصوصاً وفي سائر انحاء العالم للتعاون من اجل بناء مسلم عالمي
مبني على الحرية والمساواة .



ثبت بأهم المراجع

- | | |
|-----------------------------------|--|
| انور العقاد - سهيل عثمان حلب ١٩٦١ | الطاقة العربية |
| زكي الارسوزي | بعث الامة العربية ورسالتها الى العالم |
| القاهرة ١٩٤٨ | زعماء الاصلاح في العصر الحديث |
| جورج انطونيوس - مترجم - | يقظة العرب |
| ارنولد توينبي | مختصر دراسة التاريخ |
| = = | المحصرة في الميزان |
| الدكتور عبدالعزيز الدوري | الجذور التاريخية للشعبوية |
| الدكتور عبدالله عبدالدائم | القومية والانسانية |
| الدكتور عبدالله عبدالدائم | التربية القومية |
| الدكتور محمد مجذوب | القومية العربية امام تصارع الاضداد |
| الاستاذ ميشيل عفلق ورفاقه | دراسات في الاشتراكية العربية |
| الدكتور محمد طلعت عيسى | الاشتراكية العربية والاشتراكيات العالمية |
| الدكتور منيف الرزاز | الحرية |
| ساطع الحصري | دفاع عن القومية |
| ساطع الحصري | ماهي القومية؟ |
| ساطع الحصري ١٩٤٤ | آراء واحاديث في الوطنية والقومية |
| ساطع الحصري | محاضرات في نشوء الفكرة القومية |

- الحولية الثقافية
حول الوحدة الثقافية العربية
الولايات المتحدة اليوم
الماركسية والمسألة القومية
المسألة اللينينية والقومية
ملافة العصر
ابحاث في القومية العربية
الكامل في التاريخ
مذاكرات وايمان
هذا العالم العربي
في علم السكان
مطالعات في المجتمع الريفي
المجتمع الريفي
احوال السكان في العالم العربي
سكان المجتمع العربي
معالم الحياة العربية الجديدة
المجتمع ومشكلاته وخدمة البيئة
شمس العرب تسطع على الغرب
الامارات السبع على الساحل الاخضر
مقدمة ابن خلدون
المطول في تاريخ العرب
البيئة والمجتمع
العلائق الاجتماعية في الشرق الاوسط
مشكلة السكان في العالم (من مالطوس الى ماوتسي تونغ) الفريد سوفي
- ساطع الحصري السنة الثالثة ١٩٥٣
ساطع الحصري
اندريه سفغريد
ستالين
ستالين
طبع استامبول لمؤلف مجهول
عبدالرحمن البزاز
الجزء الاول ابن الاثير
حايم وايمان
نبيه امين فارس
الدكتور عبدالكريم اليافي
مغربل وعقاد - جامعة حلب ١٩٦٤
الدكتور امام سليم - القاهرة
الدكتور عزة النص
الدكتور احمد الخشاب
الدكتور منيف رزاز
جوزيف كبهور فاقه
زغفريد هونكه - مترجم / ١٩٦٤
زين الدين السقاف
ابن خلدون
فيليب حتي
الدكتور محمد السيد غلاب
ستيوارد دود ١٩٤١

ج. د. هـ. كول
جاك بولان
هارت شورن - نيويورك ١٩٥٩

النظرية الاجتماعية
وجهاً لوجه مع القومية العربية
وضع التنمية الاقتصادية

Geopolitique de la fin - José di Castro
Le Grand Espoir xx Siècle Jean Forastier .

محتويات الكتاب

الصفحة

	تمهيد
	الباب الاول : مقدمة عامة
١	
٣	اولاً - معنى المجتمع العربي وماهيته
٥	ثانياً - عناصر المجتمع العربي
٧	ثالثاً - خصائص المجتمع العربي
١٣	الباب الثاني : عوامل الوحدة في الوطن العربي
١٥	تمهيد : التعريف بالوطن العربي
١٩	الفصل الاول : عوامل الوحدة الطبيعية في الوطن العربي
٢٠	اولاً - التكوين الجيولوجي
٢٣	ثانياً - السطح والتضاريس
٢٧	ثالثاً - المناخ
٣٠	رابعاً - المياه والنبات والحيوان
٣٣	خامساً - انماط الحياة والنحل في الوطن العربي
٤٠	الفصل الثاني : عوامل الوحدة البشرية في الوطن العربي
٤٠	اولاً - اصل السكان
٤٨	ثانياً - ديموغرافية الوطن العربي

٤٨	اهمية وفوائد الدراسة السكانية ومصادر البيانات
٥٢	توزيع السكان في الوطن العربي
٥٨	زيادة السكان والعوامل المؤثرة في ذلك
٦٤	حركة السكان في الوطن العربي : المواليد والوفيات والهجرة
٧٤	تركيب السكان في الوطن العربي
٨٣	الباب الثالث : المجتمع العربي المعاصر
٨٥	الفصل الاول : الاسرة العربية ومشكلاتها
٨٩	اولاً - انواع الاسرة العربية
١٠٠	ثانياً - مشاكل الاسرة العربية
١١٧	ثالثاً - الطبقات في المجتمع العربي
١٢١	الفصل الثاني : الاوضاع الثقافية
١٢١	١ - وحدة الاساس الثقافي العربي
١٢٥	٢ - الوضع الادبي في المجتمع العربي المعاصر
١٤٤	٣ - الوضع العائلي في المجتمع العربي المعاصر
١٥١	٤ - الوضع التعليمي في المجتمع العربي المعاصر
١٥٢	أ - مسألة الاستيعاب
١٦٠	ب - مسألة مستوى المعاهد التعليمية
١٦٥	ج - مسألة التعليم الرسمي والخاص
	د - مسألة محو الامية
١٧٦	هـ - مسألة التنوع والوحدة
١٨٥	الفصل الثالث : الاوضاع الصحية في الوطن العربي

١٨٧	اولاً - الاوضاع الصحية والامراض المتفشية
١٩١	ثانياً - اسباب المشكلة الصحية في الوطن العربي
١٩٧	ثالثاً - خطة الاصلاح الصحي في الوطن العربي
٢٠٣	الفصل الرابع : الاوضاع السياسية
٢٠٩	اولاً - وجود النفوذ الاستعماري
٢١٦	ثانياً - التجزئة
٢٢٣	ثالثاً - اختلاف نظم الحكم
٢٢٤	رابعاً - ضعف الدول العربية
٢٢٥	خامساً - عدم الاستقرار السياسي
٢٣٧	سادساً - يقظة الشعب العربي السياسية
٢٤٠	الفصل الخامس : الاوضاع الاقتصادية
٢٥٩	١ - تخلف الاقتصاد العربي
٢٧٢	٢ - تجزئة الاقتصاد العربي
٢٧٣	٣ - التنمية الاقتصادية العربية
٢٧٨	اولاً - الحلول الديموغرافية للتخلف
٢٩٩	ثانياً - الحلول الاقتصادية والوحدة الاقتصادية
٣٠٦	ثالثاً - الحلول السياسية للتخلف
٣٠٦	تحديد الملكية الزراعية
٣١٣	تحديد الملكية الصناعية
٣١٥	الباب الرابع : القومية العربية
٣٢٠	تمهيد : النظريات الكبرى في فهم القومية : نظرية العرق
٣٢٤	نظرية الارادة - ٣١٨ - اللغة
	النظرية الماركسية

٣٢٧	الفصل الاول : فكرة القومية ومدلولها
٣٣٧	الفصل الثاني : الاصول التاريخية للقومية العربية
٣٥٥	الفصل الثالث : مقومات القومية العربية
	١ - العنصر او الجنس
	٢ - الدين
	٣ - الارض
	٤ - نظم الحكم
	٥ - اللغة
	٦ - التاريخ
	٧ - المصالح والآمال والآلام
	٨ - الارادة المشتركة
٣٨١	الفصل الرابع : اهداف القومية العربية
٣٨١	اولاً - التحرر - الثورة والحياد -
٣٩٧	ثانياً - الوحدة
٤٠٧	ثالثاً - الاشتراكية أو النظام الاجتماعي العادل
	- الاشتراكية والحرية والديموقراطية -
٤٢١	رابعاً - الانسانية

تنبيه : وقعت سهواً بعض الاخطاء المطبعية فارجو المعذرة

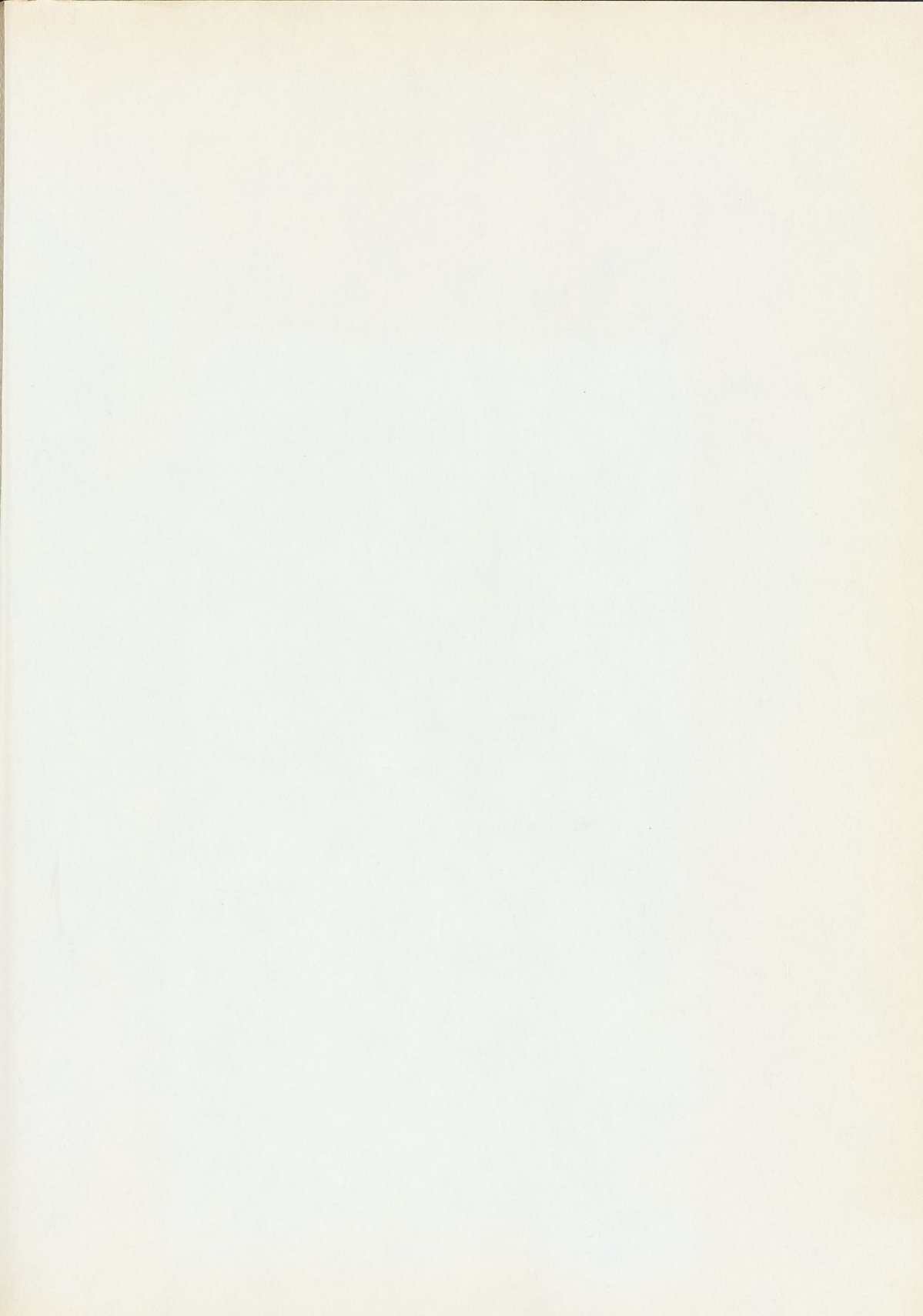
129

73

5NY 2

N 103

6350



INTERNATIONAL AFFAIRS

HN
766
.A66

FEB 7 1973

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU57867909

HN766 .A66

H adh a al-wa tan al